

مكتبة الدراسات الأدبية

٦٩

الدكتور شوقي ضيف

الشعرُ والغناءُ في المدينة ومكة لعصري بنى أمية

الطبعة الثالثة

منقحة



دار المعارف بمصر

الشعر والغناء في المدينة ومكة
لعصري بن أمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

من يقرأ في الشعر العربي وينظر في نصوصه ونماذجه الكثيرة يجد صورتين متقابلتين منذ العصر الجاهلي : صورة تقليدية تعتمد على رسوم وتقاليد كثيرة ، وصورة أغان خالصة تعتمد على العزف والضرب على الآلات الموسيقية .

وتتخالف الصورتان في كثير من الجوانب ، فالصورة الأولى صورة معقدة ، ولعل خير ما يمثلها مطولات الشعر العربي في المديح والهجاء وما يتصل بهما ، حيث نجد الشعراء يبالغون في صنع نماذجهم مبالغة أفضت بزهر في الجاهلية إلى أن يصنع المطولة من مطولاته في حَوْل كامل ، كما يقول الرواة ، ومن أجل ذلك كانت تسمى مطولاته باسم الحوليات .

وقد اتخذت هذه المطولات على مر العصور صورة موروثية ، إذ نجد الشعراء يبدأون فيها بوصف الأطلال وبكاء الدُّمْن ، ثم ينتقلون إلى وصف رحلاتهم في الصحراء وحينئذ يصفون إبلهم التي كانوا يجدون فيها جمالاً ، حين يُريحون وحين يَسرحون ، ونراهم في أثناء ذلك يصفون مشاهد الصحراء وحيوانها . وما يزالون في هذه المقدمات حتى يخرجوا إلى الموضوع الذي ألفوا من أجله مطولاتهم ، من مديح أو هجاء أو غيرهما . وقد حافظ العرب دائماً على هذه الصورة في شعرهم التقليدي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث .

وكان يقابل هذه الصورة من الشعر العربي صورة أخرى لم تكن مطولات ، وإنما كانت في أكثرها مقطوعات ، ولم تكن تدور حول المديح والهجاء ، وإنما كانت تدور غالباً حول الغزل ووقائعه ، ولم تكن تقال لتُنشد ، وإنما كانت تقال لتُغنى وتُصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية . ولعل خير اسم يمكن أن نطلقه على هذه الصورة هو اسم شعر الغناء أو الأغاني .

وهاتان الصورتان للشعر العربي استمرتتا تتقابلان في عصوره المختلفة ، وكانت صورة الأغاني أكثر من أختها التقليدية قابلية للتطور والتحول ، بحكم اتصالها بالغناء والموسيقى ولغة الناس الشعبية ، مما أحدث أخيراً في الأندلس الموشحات والأزجال على نحو ما هو معروف . وقبل هذه الأزجال والموشحات كانت تحدث تطورات واسعة في الأغاني لا منذ العصر العباسي بل منذ العصر الأموي ، إذ نهض الحجاز بالغناء نهضة كبيرة أثرت تأثيراً شديداً في الأغاني هناك . وهو تأثير امتد إلى كل شيء فيها ، امتد إلى لغتها ، إذ نرى الشعراء يتخذونها غالباً من لغة الناس المألوفة لأنهم يريدون أن يكونوا قريبين منهم ، وامتد إلى موسيقاها ، إذ نرى الشعراء يكثرون فيها من الزخافات والعلل ، حتى يلائموا بين شعرهم وتقصيرات المغنين والمغنيات وتمديداتهم . وأيضاً فإنهم أخذوا يجرّثون ويعدلّون في صورة أوزانهم ، حتى تحمل كل ما يريد المغنون من أصوات وغناء . وقد نظرتُ فإذا المدينة ومكة تتنافسان تنافساً شديداً في إحداث هذه الصورة والتطور بها تحت تأثير الغناء .

وقد أخذت أتتبع فن الغناء الذي كان له فضل التطور بأغاني الشعر حينئذ ، فإذا المدينة هي التي برزت فيه ، وإذا هي التي وضعت نظرية الغناء العربي التي نقرأ مصطلحاتها في كتاب الأغاني ، حينئذ رأيت أن أؤخر الحديث عن مكة وما كان بها من نشاط في الغناء والأغاني حتى أتعرف على المدينة وعلى ما كان بها من هذا النشاط .

وإني لأعترف بأن نصوصاً كثيرة صادفتني وفسرت لي كل ما كنت أنشده في هذه الدراسة . والله أسأل أن يلهمني السداد والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

الكتاب الأول
في المدينة

الفصل الأول

المدينة

١

موقع المدينة

تقع المدينة في إقليم الحجاز الذي يمتد بين أيلة (العقبة) واليمن ، ويفصل بين مباسط تهامة ومشارف نجد . ويتميز الحجاز بكثرة ما يتخلله من جبال ومرتفعات ، ووديان ومنخفضات . ومن يرجع إلى مخطط المدينة يجد في شمالها جبل أحد وجبل ثور ، وفي جنوبها جبل عير ، بينما يحفها من الشرق والغرب مرتفعان ، يتألفان من حجارة سود نخرة ، وهما حرثا واقم والوبرة .

وداخل هذا السياج من الجبال والحرثا تقوم المدينة اليوم ، فهي في منخفض ، تكتنفه مرتفعات تعلو بعضها بعضاً . وفي هذا المنخفض تكثر الوديان ، وتكثر الآبار والعيون ، لوفرة ما يهطل فيه من أمطار في أثناء الشتاء والربيع . وأهم الوديان هناك بطحان ورانواء ومهزور ومذنب في الجنوب بين المدينة وعير ، وقناة في الشمال بين المدينة وأحد ، والعقيق في الغرب وراء حرّة الوبرة . وتكتظ هذه الوديان بالعيون من الآبار ، وأشهرها عين الأزرق وبئر أريس في وادي رانواء وبئر عروة وبئر رومة في وادي العقيق^(١).

وتنبت حول هذه العيون والآبار جئات النخيل والأشجار ، فتملأ البصر بهجة ورواء بهذه المشاهد الأنيقة وسط بحار الرمل التي تموج بها صحراء العرب . ومن ثم كانت المدينة تبدو داخل الجزيرة العربية كأنها واحة بديعة ، أو قل إنها ابتسامة الطبيعة تبدو على محيا عابس هو محيا الصحراء الهامدة .

وجعلت هذه المياه والخضرة ، أو قل هذه العيون والجئات ، جو المدينة

(١) انظر في وديان المدينة وآبارها وعيونها كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي (طبع مطبعة المؤيد) ١١٩/٢ وما بعدها وكذلك ١٨٦/٢ وما بعدها .
وانظر فتوح البلدان للبلاذري (طبع ليدن) ص ١٤ وما بعدها .

(١) انظر في وديان المدينة وآبارها وعيونها كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي (طبع مطبعة المؤيد) ١١٩/٢ وما بعدها وكذلك ١٨٦/٢ وما بعدها .

محتملاً ، فهي على الرغم من وقوعها على خط العرض ٢٥ وهو الخط نفسه الذي يمر بمدينة الأقصر ، طيبة مصر الفرعونية ، تمتاز بجو ملطّف ، وهو جو يزخر بظلال النخيل والأشجار . وربما كان من أهم أسباب اعتدال جوها أنها تعلو سطح البحر بنحو ستمائة متر ، مما يجعل جوها مقبولا وخاصة في فصلي الشتاء والربيع ، إذ تسقط الأمطار . أما في فصل الصيف فإن الحرارة تشتد اشتداداً قد يعرّض المدينة لنمو بعض الحميات ، وقد مرض بها جماعة من المهاجرين في أول هجرتهم إليها ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق (١)

وأجمل بقاع المدينة وادي العقيق ، وكان منتزه أهل المدينة في العصور الإسلامية ، وخاصة حين تنزل الأمطار والسيول ، وتتجمع فيه على شكل بركة كبيرة (٢) . واشتهر العقيق بجَمَآواته الثلاث : جَمَآء تضارع ، وجَمَآء أم خالد ، وجَمَآء عاقل . والجَمَآء مرتفع صخري بارز ، تسيل منه مياه الأمطار في منظر بهيج . وفي شمالي العقيق نجد العرصة الكبرى والعرصة الصغرى ، وهما من أفضل بقاعه ، وأكرم أصقاعه (٣)

وكلمة المدينة في العربية معناها البلدة ، واختصت يثرب بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، ولذلك تضاف إليه ، فيقال مدينة الرسول . ويميز اللغويون في النسبة بينها وبين المدن الأخرى ، فيقال في النسبة إليها « مدني » وإلى غيرها « مديني » . وسُميت أسماء مختلفة حتى قيل إن لها عشرة أسماء (٤) وأوصل السهمودي أسماءها إلى نحو تسعين اسماً (٥) . وربما جاءت كثرة هذه الأسماء من أسماء مواضع فيها كانت تنزل العشائر في الجاهلية . واسمها الذي عُرفت به واشتهرت في العصر الجاهلي يثرب ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم (٦) ، وفي السيرة النبوية في أشعار حسان (٧) بن ثابت وكعب (٨) بن مالك .

-
- (١) سيرة ابن هشام (طبع الحلبي) ٢٣٨/٢ . ليدن (ص ٢٣)
 (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢/٣ . وفي
 الأجزاء التسعة الأولى تراجع دائماً طبعة دار الكتب
 وفي الأجزاء الأخرى تراجع طبعة بولاق .
 (٣) انظر كلمة ، عرصة في معجم البلدان لياقوت .
 (٤) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (طبع
 (٥) وفاة الوفا. للسهمودي ٧/١ وما بعدها .
 (٦) انظر سورة الأحزاب : الآية ١٣ .
 (٧) ابن هشام ٢٨١/٣
 (٨) ابن هشام ١٥١/٣

والمدينة - كما رأينا - بلد زروع ونخيل ، ومن هنا كان سكانها من أهل المدر لا من أهل الوبر ، فهم لا يعتمدون في حياتهم مثل البدو على رعى الأغنام ، وإنما يعتمدون على زرع الأرض ، وهم لا يتخذون بيوتهم من الأصواف والأوبار ، وإنما يتخذونها من الآطام والحصون التي أقاموها على المرتفعات لتحميهم من هجمات البدو وغزواتهم . ولم تكن المدينة في الجاهلية تحاط بسور ، وقصة حفر الخندق حولها حين تجمعت قريش لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة .

٢

المدينة في العصر الجاهلي

تاريخ المدينة في العصر الجاهلي يحوطه كثير من الغموض ، وهو في أكثره يعتمد على الأسطورة ، وخاصة ما تعمق منه في القدم . وتذكر المصادر العربية أن أول من سكنها العمالة ، وكانوا أهل عز وبغى شديد ، وهم أول من اتخذ فيها النخيل والزروع^(١) ، وقد عليهم اليهود في القرن الأول للميلاد أو بعده بقليل على أثر اضطهاد الرومان لهم ، وكانوا قبائل أهمها بنو قريظة وبنو النضير وبنو بهدل وبنو قينقاع^(٢) ، ويخاطبهم القرآن الكريم في مواطن متفرقة باسم بني إسرائيل . وظلوا على دين آبائهم ، وكانوا يعيشون على الزرع والحراث^(٣) ، واحترفت طائفة منهم صناعة الأسلحة ، كما احترفت بعض نسايتهم نسج الأقمشة^(٤) . ونزح إلى المدينة من اليمن في القرن الخامس للميلاد بعد سيل العرم قبائل الأوس والخزرج^(٥) ، وغلبوا اليهود عليها ، يعينهم أبو جيلة ملك الغساسنة^(٦) ، وقيل أبو كرب تبع بن حسان ملك اليمن^(٧) ، وبذلك أصبحوا - وظلوا - سادة المدينة . وكانوا مثل

(١) أغاني (طبع بولاق) ٩٦/١٩ والسهمودي (٣) السهمودي ١١٣/١ وما بعدها .

(٤) البلاذري ص ٦٠ .

١١٠/١

(٢) ساق أبو الفرج الأصبهاني ثبناً بأسماء القبائل (٥) Nicholson, AL it. Hist. of the Arabs, p. 16.

اليهودية في المدينة . انظر الأغاني ٩٥/١٩ وطبعة دار (٦) أغاني ٦٩/١٩ .

(٧) أغاني ١١٩/١٣ وما بعدها .

الكتب ١١٦/٣ .

العرب من حولهم - لا يأمنون مكر اليهود ويعدونهم عدوًّا لهم .

وعين السهمودي الأماكن التي نزلت فيها قبائل الأوس والخزرج ، أما الخزرج وخاصة بنى النجار فكانوا ينزلون داخل المدينة وانتشرت جماعات منهم في الشرق والشمال الشرق منها ، وأما الأوس فكانوا ينزلون في الجنوب والجنوب الشرق من المدينة ^(١) . وكانوا جميعاً وثنيين يعبدون اللات ومناة . ولسنا نعرف بعد ذلك شيئاً واضحاً عن عبادتهم ، ونجد بعض شعرائهم يذكرون الله في شعرهم ^(٢) . ويبدو أن النصرانية كانت معروفة في يثرب ، ففي السيرة أن شخصاً يسمى عبد عمرو بن صيفي خرج على النبي صلى الله عليه وسلم وحارب في صفوف قريش ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ^(٣) .

ويظهر أن عدوى الحرب بين القبائل العربية المتبديّة في نجد انتقلت إلى المدينة في أواخر العصر الجاهلي ، ولكن لا بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية ، وإنما بين الأوس والخزرج أنفسهما ، ويبدو أن اليهود لما شعروا بأنهم لا قبل لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين أشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما وكانوا يمدونهما بالأسلحة التي يستخدمانها في حروبهما إذ كانوا يحترفون صنع الأسلحة كما مرّ بنا .

وهكذا دارت رحى الحرب في المدينة لأواخر العصر الجاهلي بين الأوس والخزرج ، وأخذت هذه الرحى تعركهم بثقلها عرْكَاً عنيفاً ، بحيث يظن الإنسان أنه لم يعد من الممكن أن يعمّ السلم في المدينة ، فدائماً حرب ، ودائماً رماح مُشرعة وسيوف مسلولة ودماء مسفوحة .

وعلى هذا النحو كان الأوس والخزرج أواخر العصر الجاهلي لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة حتى يغمسوها في دماء حرب جديدة ، وكأنهم تعاهدوا على الموت وأن تلتهمهم نيران الحروب التهاماً .

(١) السهمودي ١٣٤/١ وما بعدها . الخطيم انظر المصدر نفسه ٢٣/٣ .

(٢) كما في شعر أبي قيس بن الأسلت . انظر (٣) ابن هشام ٢٣٤/٢ .

الأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٣ وشعر قيس بن

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

رأينا أهل المدينة من الأوس والخزرج في العصر الجاهلي غارقين في الدماء ، كما رأيناهم غارقين في ظلمات الوثنية ، غير أنهم لم يلبثوا أن غسلوا أنفسهم من كل ذلك بأضواء الدين الجديد ، دين الإسلام الذي استلَّ أحقادهم وسخائمهم ، وجعلهم بنعمة الله إخواناً .

وقد حمل إليهم مشاعل هذا الدين الجديد أول الأمر نفر منهم لقيهم الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا^(١) . وفي العام القابل أتاه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى^(٢) . وبعث النبي مع هذا الوفد مُصْعَب بن عُمَيْر يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين^(٣) . وسرعان ما أخذت أضواء الإسلام تنتشر من دار إلى دار ، بين الأوس والخزرج ، حتى إذا استدار العام وفد على الرسول سبعون رجلاً وامرأتان ، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى^(٤) . وجعل منهم النبي اثني عشر نقيباً كفلاء عليهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس^(٥) .

وكانت هذه البيعة صريحة في أن الرسول سيترك دار الأرقم محل دعوته في مكة ، ويتخذ من المدينة كلها داراً لدعوته بين ظهرائي الأنصار ، فقد وجدهم أكثر قبولاً لرسالته .

وأخذت يثرب تستعد لاستقبال الرسول وأصحابه من المسلمين ، وقد رأى أن يهاجر أصحابه ، فأمرهم بالهجرة ، فهاجروا أولاً ، ولم تمض بضعة أشهر حتى كانوا قد هاجروا إليها جميعاً ، إلا من استبقاهم الرسول معه ، وأخيراً خرج من داره مهاجراً ، ومعه أبو بكر الصديق ، ودليلهما عبد الله ابن أُرَيْقِط . ودقت البشائر في

(٤) ابن هشام ٨٤/٢ وكذلك ٩٧/٢ . وانظر

اليقوي ٣٨/٢ .

(٥) ابن هشام ٨٥/٢ .

(١) ابن هشام ٧٠/٢ .

(٢) ابن هشام ٧٥/٢ .

(٣) ابن هشام ٧٦/٢ .

المدينة بهجرته ، فكانوا يتسمعون أخبار رحلته ، ويخرجون لاستقباله ، حتى وافقهم طلعتة السنية ، وأقبل رجال الأوس والخزرج يتزاحمون حول راحلته بالمناكب ، فكل يود لو ينزل في داره ، واختار الرسول دار أبي أيوب الأنصاري ، فأقام عنده ، حتى بنى له داراً ، وبنى بجوار الدار مسجداً^(١) .

وكان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم في يثرب أن آخى بين المسلمين^(٢) ، فكل يتخذ له أخاً في الله ، وبذلك آخى بين المهاجرين والأنصار من جهة ، كما آخى بين الأوس والخزرج من جهة أخرى . وكأنه أراد أن يزيل كل ما كان بين الفئتين من إحن في الجاهلية ، حتى تم وحدة المسلمين ، وتباسك عُرَاهم فلا يتخاذلوا بعدها أبداً .

ولم يكنف الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد أراد ليثرب أن يعمها السلام . فعقد بينه وبين اليهود معاهدة جاء فيها : « أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم فلا يبغي بعضهم على بعض » كما جاء فيها « أن بين الفئتين من اليهود والمسلمين النصر على من دهم يثرب »^(٣) .

وكان ذلك كفيلاً أن يعيش الرسول والمسلمون من حوله في يثرب آمنين مطمئنين ، ولكن اليهود أخذوا يشنون حرباً شعواء من الأسئلة والجدل في أمر الرسول وصحة رسالته ، فكان يستقبلهم باللين ، وأوغلوا في حربهم^(٤) ، ولم يقف هذه الحرب إسلام جماعة منهم^(٥) ، فإن الكثرة وقفت معارضة ، بل وقفت معادية تحاد الله ورسوله .

ولما انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم على قريش في بدر في أثناء السنة الثانية للهجرة ، أخذ بنو قينقاع يتحرشون بالمسلمين ، فجمعهم النبي بالسوق التي تنسب إليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فبادروا إليه قائلين : « لا يغرثك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب ، فأصبحت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس »

(٤) ابن هشام ١٦٠/٢ وما بعدها

(٥) ابن هشام ١٦٣/٢ وكذلك ١٧٤/٢

(١) ابن هشام ١٤١/٢

(٢) ابن هشام ١٥٠/٢

(٣) ابن هشام ١٤٧/٢

وأعلنوا حربهم للرسول، فحاصروهم وظل هذا الحصار ، حتى رضوا أن يجللوا عن المدينة، فخرجوا إلى أذرعَات بالشام^(١) .

ولما كانت موقعة أحد حاول النبي أن يستعين بيني النصير في ذبة بعض القتلى ، فاثمروا به أن يقتلوه^(٢) ، حينئذ لم يجد مناصاً من إعلانه الحرب عليهم وحاصروهم ، ولما رأوا أن لا قوة لهم على حربه ، طلبوا الصلح ، فصالحهم على أن يخرجوا من المدينة « ولم ما حملت الإبل من خُرثى متاعهم ، لا يخرجون معهم بذهب ولا فضة ولا سلاح » ، فتحملوا^(٣) سنة أربع من الهجرة^(٤) ، وعلى رأسهم حبي ابن أخطب « وتزلوا في خير وأذرعَات .

ولما كانت وقعة الخندق المعروفة أرسل بنو قريظة إلى قريش ومن معها من العرب المحاصرين للمدينة أنهم سينقضون عهد موادعتهم للرسول والمسلمين وينضمون إليهم وكادت أن تقع الكارثة بدخول هذه الجيوش المحاصرة ليثرب من ديارهم ، فلما أنقذ الله يثرب توجه الرسول إليهم مع المهاجرين والأنصار ، فأذنهم بحرب جزاء وفاقاً لنكثهم أيمانهم . واشتبك الطرفان ، وأسرع بنو قريظة إلى حصونهم ، فحاصروهم رسول الله ، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وارتضوا ما يحكم به فحكم أن يقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبي الذراري والنساء^(٥) .

ولما استدار العام ذهب النبي إلى مكة للحج ، وصدته قريش وهادن أهلها^(٦) . ثم عاد إلى المدينة يستجمل متابعة أعداء الإسلام من اليهود في خير وغيرها من حصونهم شمالى المدينة . وفي هذه السنة السادسة بعث برسله إلى عظماء الملوك في عصره يدعوهم إلى الإسلام^(٧) ولا ريب في أنه كان مدفوعاً في ذلك برسالته وأنها عامة ، إذ أرسل إلى الناس كافة ، يقول جل شأنه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ويقول عز وجل : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) .

(٥) ابن هشام ٢٥١/٣ .

(١) ابن هشام ٥٠/٣ وما بعدها .

(٦) ابن هشام ٣٢١/٣ واليعقوبى ٥٤/٢ .

(٢) ابن هشام ١٩٩/٣ .

(٧) ابن هشام ٢٥٤/٤ واليعقوبى ٨٣/٢ .

(٣) اليعقوبى ٥٠/٢ .

(٤) ابن هشام ١٩٩/٣ .

وفي العام القابل ، وهو العام السابع للهجرة ، تابع النبي اليهود في خيبر فحاربهم وحاصرهم وألقوا إليه عن يديهم صاغرون على أن يعطوه نصف ثمر بلادهم^(١) مقابل عملهم بها . وكذلك صنع يهود فدك^(٢) ، ويهود تيماء ، ووادي القرى^(٣) . وأتم الله نعمته على نبيه ففتح مكة في العام الثامن للهجرة^(٤) ، ثم تركها إلى وقعة حنين والطائف . وكان لهذه الانتصارات أثر عظيم في استعلاء الإسلام نهائياً على الوثنية ، فإن العرب لما سمعوا بها أخذوا يدخلون في دين الله أفواجا . ولم يأت العام التاسع للهجرة ، حتى كانت المدينة تكتظ بوفود القبائل التي جاءت تعلن الإسلام^(٥) وتمت المعجزة الكبرى فقد انضوت القبائل العربية كلها ، لأول مرة في تاريخها ، تحت لواء واحد هو لواء الإسلام . وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتمم رسالته ، وأن ينفخ بها في آذان الأمم الأجنبية ، فأرسل جيشاً لغزو الروم ، وكانت وقعة مؤتة^(٦) .

ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، دون أن يترك وصية بمن يلي شؤون المسلمين ، ولم يكن العرب يعرفون النظام الملكي وما يقوم عليه من وراثته ، كذلك لم يكونوا يعرفون ما اعتنقته الشيعة فيما بعد من أن أسرة الرسول لها حق مقدس ، ومن هنا كان اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وقد أرادوا أن يكون لهم الأمر بعد الرسول أو يكونوا شركاء فيه ، وذهب إليهم المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر وعمر ، وأقنعوهم بأن العرب لا تخضع إلا لشخص من قريش ، وبويع أبو بكر بالخلافة^(٧) لرسول الله والقيام على ما شرع من الدين ، وكان لعمر الفضل الأول في مبايعته .

واضطلع أبو بكر بالخلافة ، وكان رجلاً مألُفاً لقومه محبباً سهلاً^(٨) ، وطالما كان الرسول يشيد بذكره . وأنفق بعد إسلامه أكثر ماله في شراء الموالى الذين كانت تعذبهم قريش^(٩) . ولما ولي الخلافة صعد المنبر ، فجلس دون مجلس رسول الله

(١) ابن هشام ٣/٣٥٢ وانظر البلاذري ص ٢٣ . (٦) المصدر السابق ٤/١٥ .

(٢) ابن هشام ٣/٣٦٨ وانظر البلاذري ٢٩ . (٧) انظر الطبري في سنة ١١ هـ . واليعقوبي ٢/١٣٧ .

(٣) البلاذري ص ٣٣ وما بعدها . (٨) ابن هشام ١/٢٦٧ .

(٤) ابن هشام ٤/٣١ . (٩) ابن هشام ١/٣٣٩ وما بعدها .

(٥) ابن هشام ٤/٢٠٥ وما بعدها .

بمِرْقَاة ، ثم حمد الله ، وأثنى عليه وقال : « إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن استقمتم فاتبعوني » وإن زغت فقوموني . . . » وأثنى على الأنصار خيراً^(١).

وبدا فأمر أسامة بن زيد أن ينفذ في جيشه الذي أعده النبي صلى الله عليه وسلم للإغارة به على الشام وشيَّعه قائلاً : « لا آمرك بشئ إلا بما أمرك به النبي وأمض حيث ولأك » ومكث أسامة في هذه الغزوة ستين يوماً^(٢).

وتبنأت جماعة في مطلع خلافة أبي بكر وعلى رأسها مسيلمة الكذاب^(٣)، وارتد كثير من العرب عن الإسلام ، وامتنع كثيرون عن دفع الزكاة^(٤). وهنا نرى أبا بكر يقوم بعمل جليل فقد عبأ الجيوش لإنقاذ الإسلام ، وأرسلها في طلب مسيلمة وغيره ممن ارتدوا أو منعوا الزكاة . وما زالت هذه الجيوش تعمل « حتى أذعنّت بلاد العرب للإسلام ثانية^(٥) . ولما استحرّ القتل في هذه الحروب بالصحابة وبمن معهم من القراء أشار عمر على أبي بكر أن يجمع القرآن في مصحف خشية ضياعه ، وكان مفرقاً في اللّخاف وغيرها ، فجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بإتقان حفظه وأمرهم بجمعه في مصحف واحد ، وفي مقدمتهم زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وصدعوا بأمره .

ولم يكتف أبو بكر بجمع العرب على كلمة الإسلام ، فقد أراد أن يجمع الناس عليها متأثراً بما قدمناه من تعاليم الدين الإسلامي التي تذهب إلى أن النبي أرسل إلى الناس كافة ، فأرسل الجيوش إلى الشام وفارس تفتح فيها . وقد استمرت موجة الفتح من بعده في ارتفاعها واشتدادها .

ولم يلبث أبو بكر أن لبّي نداء ربه في السنة الثالثة من خلافته ، فذهب راضياً مرضياً ، وأوصى بالخلافة من بعده لعمر ، وهو المثل الأعلى للخليفة عند المسلمين في خلقه ودينه وسياسته ، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين^(٦) ، ولما ولي الأمر صعد

Nicholson A Lit. Hist. of the Arabs. p. 183.

(١) اليعقوبي ١٤١/٢ .

(٤) اليعقوبي ١٤٤/٢ .

(٢) اليعقوبي ١٤٢/٢ .

(٥) البلاذري ص ٩٤ وما بعدها .

(٣) بظن مرجوليوت أن مسيلمة كان يتأثر ببعض

(٦) التاج للجاحظ طبعة أحمد زكي ص ٨٨ .

تعاليم المسيحية . انظر في ذلك :

المنبر فجلس دون مجلس أبي بكر بمرقاة ، وخطب الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي ، وذكر أبا بكر وفضله ، وترحم عليه ، ثم قال : « ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أورد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم » (١) . وكان أول عمل بدأ به في خلافته أن ردَّ سبائا أهل الردة إلى عشائهم ، وقال : إني كرهت أن يصير السبي سنة على العرب (٢) واستمر على سياسة أبي بكر في إمداد الجيوش وفتح البلدان ، بحيث لم يمر أكثر من اثنتي عشرة سنة من خلافته وخلافة أبي بكر حتى كانت الإمبراطورية الفارسية قد أصبحت ولاية تابعة للمدينة . وكذلك أصبحت سوريا ومصر .

ومن المحقق أن عمر لم يُكره أتباع زرادشت في فارس . ولا أتباع عيسى في مصر والشام على الإسلام ، ومع ذلك فقد دخله كثير منهم حراً مختاراً . وظل قوم على دينهم نظير دفع الجزية . ومن المحقق أنها لم تكن عقاباً لمن امتنعوا عن الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى ، إنما كانت نوعاً من الضرائب يدفع لحمايتهم . فقد جاء في نصوص بعض المعاهدات التي عقدها خالد بن الوليد في العراق : « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » (٣) .

وأظهر عمر تسامحاً منقطع النظير مع هؤلاء الذين ضُربت عليهم الجزية . وبينما كان يأخذ أهل الديانات الأخرى بالتسامح ، كان يأخذ عُماله بالشدّة . وكما كان شديداً على عُماله كان شديداً على نفسه (٤) .

وقُتل عمر سنة ٢٣ هـ ، قتلته يد أجنبية آتمة هي يد أبي لؤلؤة فيروز المجوسى ، مولى المغيرة بن شعبة ، وكان قائماً يصلى (٥) . وجعل عمر الأمر من بعده شورى لستة نفر من أصحاب رسول الله هم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فانتخبوا عثمان ، وبايعوه بالخلافة ، وبايعه الناس ، وكان طاعناً في السن ، فأسلم أموره إلى بعض ذويه من بنى أمية . وكان ذلك سبباً للثورة

(٤) انظر الطبرى : القسم الاول ص ٢٧٤١ .

(٥) البلاذرى ص ٣٤ .

(١) اليعقوبى ١٥٧/٢ .

(٢) اليعقوبى ١٥٨/٢ .

(٣) الطبرى : طبع أوروبا : القسم الأول ص ٢٠٥٠ .

عليه ، سنة (١) ٣٥ للهجرة . وبويع على بالخلافة ، بايعه أهل المدينة (٢) . وسارع فعزل ولاية عثمان ، وكان من بينهم معاوية في الشام ، فلم يستجب لهذا العزل . بل رفع راية العصيان عليه ، وطالبه بئار عثمان . إذ كان مثله من بيت بني أمية . وذهب على إلى العراق لِيُعِدَّ جيشاً يحارب به معاوية ، وذهب إليه معاوية على رأس جيش من الشام ، ولم تلبث الأمور أن تطورت ، فقتل على سنة ٤٠ هـ ، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ ، وبذلك عادت الخلافة إلى بيت بني أمية ثانية ، واستمرت فيه نحو قرن من الزمان .

٤

في العصر الأموي

لعل أهم ظاهرة تميز المدينة في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ) أنها فقدت زعامتها السياسية ، التي تمتعت بها طوال حكم الخلفاء الراشدين ، فقد كانت عاصمة للإمبراطورية الإسلامية ، تتبعها الولايات وتصرف شئونها ، أما في هذا العصر فقد أصبحت تابعة لدمشق العاصمة ، وأصبح الولاة يختارون لها فيها ، بعد أن كانت هي التي تختارهم لها ، وتقيمهم عليها وعلى غيرها من بلدان العالم الإسلامي ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد أخذت تدفع إلى دمشق خراجها مما كان يسمى الصّوافي من الحنطة والتمر (٣) .

وقد ولى عليها معاوية (٤١ - ٦٠ هـ) مروان (٤) بن الحكم كاتب عثمان ابن عفان ومشيروه ، ثم أقاله ، ولى عليها سعيد بن العاص ، ثم عزله ولى مروان ثانية . ويستطيع من ينظر في مختتم السنين في الطبرى أن يجد أسماء الولاة الذين

(١) الطبرى القسم الأول ص ١٩٨٠ وما بعدها . (٢) يعقوبى ٢/٢٩٧ .

(٣) يعقوبى ٢/٢٠٦ . (٤) الطبرى : القسم الثانى ص ١٦ .

توالوا عليها طوال العصر الأموي ، وأكثرهم من بيت بني أمية ، ولم يُؤكَّ عليها من الأنصار سوى ابن حزم في عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

وكانت المدينة طوال العصر الأموي تقف موقف المعارضة من بني أمية . ومن المعروف أنه لما استولى بنو أمية على الخلافة قامت معارضة واسعة ضدهم ، إذ كانوا من سلالة أشراف مكة في الجاهلية ، ولم يكن لهم سابقة في الإسلام ، بل على العكس من ذلك كانوا يناهضون النبي في أول دعوته إلا قليلاً منهم ، ولم يسلم أكثرهم إلا بعد فتح مكة ، فكان كثير من المسلمين يرون أنهم غاصبون للخلافة^(١) . وانتشرت هذه الفكرة في إقليمين كبيرين ، هما إقليم العراق والحجاز ، أما العراق فقد كان فيه الخوارج وكان فيه الشيعة ، وكان فيه أيضاً الموالى . يقول اليعقوبي : « في عصر معاوية خرجت عصابة من الموالى أميرهم أبو علي من أهل الكوفة ، وهو مولى لبني الحارث بن كعب ، وكانت أول خروجه خرجت فيها الموالى^(٢) » وحاربهم المغيرة بن شعبة وانتصر عليهم أحد قواده .

وهذه الطوائف الثلاث كان مركزها العراق وكان يقابلها في الحجاز طوائف أخرى من قريش والأنصار ، وكانت المدينة مركز هذه الطوائف ، فقد كان بها بيت الزبير بن العوام ، ومنه خرج عبد الله ابنه ، ودعا لنفسه بالخلافة ، ودوَّخ جيوش بني أمية ورجلهم حيناً ، وكان بها بيت علي بن أبي طالب ، فإن الحسن بعد بيعته لمعاوية ذهب إلى المدينة^(٣) ، وكذلك صنع أخوه الحسين^(٤) ، ولم يلبث الحسين بعد وفاة معاوية أن خرج على يزيد ، وذهب إلى مكة ثم العراق حيث قُتل ، وبعد مقتله أرسل يزيد أهله إلى المدينة^(٥) ، فكان أولاده وأولاد أخيه الحسن يعيشون فيها ، وكذلك كان يعيش فيها ابن الحنفية^(٦) وغيره من بني هاشم الذين كانوا يرون جميعاً أنهم أحق بالخلافة من بني أمية .

وليست هاتان الأسرتان ، أسرتا الزبيريين والهاشميين ، هما وحدهما اللتان كانتا

(١) اليعقوبي ٢٧٦/٢ .
 (٢) المصدر نفسه ٢٦٢/٢ .
 (٣) الطبري : القسم الثاني ص ٦ .
 (٤) المصدر نفسه : القسم الثاني ص ٩ .
 (٥) المصدر نفسه : القسم الثاني ص ٢٨٣ .
 (٦) الأخبار الطوال للدينوري طبع ليدن ص ٣٠٨ .

تشعران باغتصاب بنى أمية للخلافة ، فقد كان يشعر شعورها أسرة المخزوميين .
إذ كان كثير منها زبيرى الهوى^(١) . وأكبر الظن أن كثيراً من الأسر الأخرى كأسرة
أبى بكر وعمر بن الخطاب كانت مغاضبة للأُمويين أيضاً .

كان إذن كثير من القرشيين الذين يعيشون فى المدينة مغاضبين لبنى أمية ،
وكان يذهب هذا المذهب نفسه جماعة الأنصار ، ولغاضبتهم تاريخ قديم ،
فإن الأنصار خذلوا عثمان^(٢) ، وبايعوا علياً بعد قتله مباشرة^(٣) . ولما ذهب إلى
العراق ذهب معه كثير منهم وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصارى^(٤) . وقد شهد صفين
مع على من أهل بدر سبعة وثمانون رجلاً ، منهم سبعون من الأنصار ، وشهدا معه
من بايع تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان ، تسعمائة^(٥) .

ولما دار الزمان دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعتبر أهل المدينة
قتلة عثمان وأعداءه^(٦) ، ويقال إنه أرسل إليهم بُسر بن أرطاة ، فأقام عندهم شهراً ،
يستعرضهم ، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله^(٧) .

لم تكن المدينة ولم يكن الأنصار من هوى معاوية ، وقد أغمدوا سيوفهم
بعد قتل على وانتقال الخلافة إلى معاوية ، ولكن يظهر أنهم لم يغمدوا ألسنتهم ،
فقد هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت معاوية حين استلحق زياداً هجاء
قبيحاً^(٨) ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم فى المدينة فتهاجبا
وتفاحشا^(٩) . ولم يستطع ابن الحكم أن ينتصر منه على ما يظهر . وهنا نجد يزيد
ابن معاوية يرسل إلى كعب بن جُعيل كى يهجو له الأنصار ، فقال له : أرادى
أنت إلى الإِشراك بعد الإيمان ؟ لا أهجو قوماً نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولكن أدلك على غلام منا نصرانى ، فدله على الأخطل ، فأرسل إليه ، فهجا
الأنصار وعبد الرحمن بن حسان بقصيدة طويلة قال فيها :

-
- | | |
|---|--|
| (١) أغاني طبع دار الكتب ٣/٣١٦ . | (٦) الطبرى : القسم الثانى ص ٩٢ . |
| (٢) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٨٤ وما بعدها | (٧) الطبرى : القسم الثانى ص ٢٢ ، وانظر |
| (٣) اليعقوبى ٢/٢٠٦ . | المسعودى ٥/٤٦ واليعقوبى ٢/٢٦٥ . |
| (٤) المسعودى ٤/٣١٠ . | (٨) ابن عبد ربه ٣/٢٩٨ . |
| (٥) المسعودى ٤/٢٩٥ . | (٩) أغاني (طبع بولاق) ١٣/١٥٠ . |

ذهبت قريش بالمكارم كلَّها واللؤم تحت عمائم الأنصار^(١)

وبينا نرى يزيد يصنع ذلك إذا بنا نجد معاوية يرسل إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة أن يجلد أخاه عبد الرحمن كما يجلد عبد الرحمن بن حسان مائة سوط ، حتى تنطفئ هذه النار التي يؤججها في المدينة . ولجئ مروان أمر معاوية فضرب ابن حسان مائة ، وضرب أخاه خمسين ، وبعث إلى ابن حسان بحلّة ، وسأله أن يعفو عن الخمسين الأخرى ، فرضى عبد الرحمن بن حسان وقال ، وشاع قوله في المدينة : ضربني حدّ الحر وضربه حدّ العبد^(٢) .

كانت المدينة موالية لمعاوية إذن عن قهر وموجدة ، فلما توفي معاوية وانتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد أخذت تتحين الفرص للخروج عليه ، وحدث أن أرسل إليها بعثان بن محمد بن أبي سفيان ، وهو فقي غرّ لم تحنكه التجارب . حينئذ نجد المدينة تنتهر الفرصة فتثور على يزيد ، وتخرج عامله عثمان هو وبني أمية جميعاً من المدينة إلى الشام ، وتتبعهم ترميمهم بالحجارة^(٣) . وقد رجعت فبايعت عبد الله ابن حنظلة الغسيل^(٤) . ولما علم يزيد أرسل إليها مسلم بن عقبة في خمسة آلاف ، فأوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة^(٥) ، وقد قُتل فيها خلق كثير^(٦) ، ودخل مسلم المدينة وأباحها جيشه ثلاثة أيام^(٧) ، فنهبت الأموال وهتكت الحرمات ، وفي أثناء ذلك أخذت البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد له^(٨) . وبعث مسلم برؤوس أهل المدينة إلى سيده ، فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزُبَيْر يوم أحد^(٩) :

- (١) انظر ابن عبد ربه ١٤٠/٣ ، والأغاني ١٢٢/١٤ حيث يرجع أبو الفرج المسألة إلى سبب شخصي !
(٢) أغاني ١٢٣/١٤ وما بعدها .
(٣) انظر يعقوبى ٢٩٧/٢ وأغاني طبع دار الكتب ٢٣/١ .
(٤) الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٣ وابن سعد ٤٧/٥ .
(٥) انظر فى وقعة الحرة الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٥ وما بعدها .
(٦) انظر كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت إذ يذكر أنه قتل من الأنصار ١٧٠٠ ومن المهاجرين ١٣٠٠ غير من قتل من الموالى وكانوا خمسة آلاف .
(٧) الطبرى : القسم الثانى ص ٤١٨ .
(٨) يعقوبى ٢٩٨/٢ .
(٩) ابن عبد ربه ٣١١/٢ وانظر ابن سلام ص ٨٩ وابن هشام ١٤٣/٣ .

ليت أشياخي بيدٍ شهدوا جَزَعَ الخُزْرج من وقع الأسل^(١)
لأهلوا واستهلوا فرحاً ولقالوا ليزيد لا قُتل

ولم يلبث يزيد أن توفي ، فدخلت المدينة في طاعة ابن الزبير ، واستمرت موالية له حتى قُتل ، فاضطرت راعمة أن تُذعن للأمويين من بيت مروان بن الحكم . وقد زارها عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ ، فأغلظ لأهلها في القول ، وقام خطبائه فصنعوا مثل صتيه^(٢) . ورماها بهشام بن إسماعيل المخزومي سنة ٨٢ هـ ، فأساء السيرة ، وجار في الأحكام ، وتحامل على آل رسول الله^(٣) ، وتعرض لسعيد ابن المسيب فقيه المدينة ، وكان يُبغض خلفاء بني أمية . فصره ستين سوطة ظلماً وعدواناً ، وطاف به^(٤)

وحج الوليد سنة ٩١ هـ ، فمر بالمدينة ، لينظر إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما أصلح منه ، ولقيه أشرافها لقاء حسناً ، وقسم فيهم عطاءه ، ومع ذلك خطبهم فتوعدهم قائلاً لهم : إنكم أهل الخلاف والمعصية ، فقام إليه قوم فكلّموه ، فقال ما تجهل ما تقولون ، ولكن في النفوس ما فيها^(٥) . وقد ولّى عليها أول الأمر عمر بن عبد العزيز ثم عزله ، وولى عثمان بن حيان المري ، وكانت فيه شدة ، فطلب إليه أن يفرق من فيها من أهل الأهواء^(٦) .

ونرى من كل ما سبق أن المدينة كانت موطناً من مواطن معارضة الأمويين ، وقد قسوا على أهلها كثيراً في معاملتهم قارة بتوجيه الجيوش إليهم . وقارة بإقامة ولاية يبطشون بهم . واستمرت المدينة مغاضبة لهم طوال خلافتهم ، لا تنسى خصومتهم ، وما أذاقوها من سوء العذاب .

(١) الأسل : الرماح

(٢) ابن عبد ربه ٣٣٩/٢ .

(٣) اليقوتى ٣٤٠/٢ .

(٤) اليقوتى ٣٢٧/٢ .

(٥) الطبرى : القسم الثانى ص ١١٦٩ .

(٦) الطبرى : القسم الثانى ص ١٢٦٠ .

ثراء وحضارة

رأينا المدينة في عصر الخلفاء الراشدين تصبح عاصمة الإمبراطورية الإسلامية فقد اجتاحت العرب بلاد الفرس كما اجتاحت بلاد الشام ومصر ، وقد أخذت الأموال تسيل إلى المدينة منذ ولي الأمر أبو بكر حتى من داخل الجزيرة نفسها « فقد كان أول مال قسمه أبو بكر في الناس ما وَجَّه به العلاء الحَضْرَمِي من فتح بعض نواحي البحرين ، وقد فرقه في الناس جميعاً أحراراً وعبيداً ديناراً لكل إنسان^(١) . وأخذت أموال النَّبِيِّ تنال على المدينة بعد ذلك من فارس والشام ، فكان أبو بكر يقسم بين الناس بالسوية ولا يفضل أحداً على أحد^(٢) .

ولما جاء عمر جاءته كنوز الأرض مما كان يفتحها العرب ، فكان يوزع هذه الكنوز على المسلمين . روى الرواة أن أبا هريرة وفد عليه من البحرين في أول خلافته فقال له : ما جئت به ؟ قال جئت بخمسمائة ألف ، قال : هل تدري ما تقول ؟ قال : مائة ألف ومائة ألف وعدَّ خمساً ، فخطب عمر في الناس : إنه قدم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعدّه لكم عدّاً ، وإن شئتم أن نكيّله لكم كيلاً^(٣) . وبلاد البحرين ليست أهم بلاد الإمبراطورية الإسلامية حينئذ ، وما جاء منها لا يعدل شيئاً مما أخذه المسلمون في حروبهم من بلاد فارس ، وما أفاء الله عليهم من الغنائم في الشام ومصر . وقد رُوِيَ أن الأسلاب قُسمت بعد موقعة القادسية التي قُتل فيها رستم فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً ، وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة^(٤) . ويقال إن خراج سواد الكوفة وحدها من بلاد العراق بلغ في خلافة عمر ثمانين ألف ألف درهم في أحد الأعوام ، وفي العام الذي يليه بلغ عشرين ومائة ألف ألف درهم ، وكان صاحب الكوفة يحمل إلى المدينة من هذا الخراج نحو عشرين

(٣) البلاذري ص ٤٥٣ .

(٤) اليعقوبي ١٦٥/٢ .

(١) اليعقوبي ١٥١/٢ .

(٢) اليعقوبي ١٥٤/٢ .

أوثلاثين ألف ألف^(١) ويقول ابن الطقطقي : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالى ، وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت ، وأن الحمل من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تابعت فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع ، وكيف يضبط ذلك » وكان بالمدينة بعض مرازية الفرس ، فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين ! إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً ، جميعُ دَخلهم وخرجهم مضبوط فيه . لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب ، لا يتطرق عليها خلل . فتنبه عمر وقال : صفه لي ، فوصفه المرزبان ، ففطن عمر لذلك ، ودَوَّن الدواوين . وفرض العطاء . فجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقررأ ، وفرض لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ولسراريه وأقاربه^(٢) . وقد بدأ عمر في الديوان بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وبقية بنى هاشم ، ثم الأقرب فالأقرب إلى النبي ، وفرض للناس بحسب السابقة في الإسلام ، ففرض لأهل بدر خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديدية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديدية إلى أن أُلْقَ أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، في ذلك من شهد الفتح وقاتل . . . ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة . . . وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً . . . وأعطى نساء النبي عشرة آلاف عشرة آلاف . . . وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة ، ونساء من بعدهم إلى الحديدية في أربعمائة أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك إلى القادسية في ثلثمائة ثلثمائة ، ونساء أهل القادسية في مائتين مائتين ، ثم سَوَّى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء في مائة مائة^(٣) .

وإنما سقنا ذلك لندل على مدى ما كان يصيبه أهل المدينة من أموال في عصر الخلفاء الراشدين . وهذا غير ما كان يجلبه الذين اشتركوا منهم في الحرب والفتوح . واستمرت موجة هذه الفتوح والحروب في ارتفاعها طوال حكم عمر ،

(٣) الطبرى : القسم الأول ص ٢٤١٢ وما بعدها .

(١) البقوى ١٧٤/٢ .

(٢) الفخرى (طبع أوروبا) ص ١٠١ .

حتى إذا كان عصر عثمان أخذت تتوقف ، ومع ذلك فالبلاد يرى أن عبد الله ابن سعد بن أبي سرح صالح بطريق إفريقية بعد فتحها في عهد عثمان على ثلثمائة قنطار من الذهب . وقدر ذلك بعض المؤرخين بملوين ونصف من الدنانير^(١) . ويقال إن عثمان أمر لمروان بن الحكم بخمس هذا المال^(٢) .

ولم تدخل هذه الأموال في المدينة وحدها منفصلة عن كل ما كان يتصل بها في البلاد الأجنبية ، بل لقد دخلت ومعها الرقيق الذي كان يُسبى في الحروب من رجال ونساء . وأول رقيق دخل المدينة كان في عهد عمر ، إذ أرسل إليه معاوية بأربعة آلاف من سبي قيسارية^(٣) ، ودخل المدينة بعد ذلك رقيق آخر كثير . وما من ريب في أن هذا الرقيق كان يفهم من الحضارة ألواناً لا يفهمها أهل المدينة القدماء . وقد كان منه فرس وشاميون وأفريقيون فأخذوا يؤثرون في حياة أهل المدينة تأثيراً عميقاً وهو تأثير بدأ طفيفاً أول الأمر ، وخاصة في عصر عمر . إذ كان يدعو إلى الارتباط بالحياة القديمة وعدم الانفصال عنها^(٤) .

ونحن لا نترك عهد عمر إلى عهد عثمان حتى نحس أن أهل المدينة تغيروا تغيراً كثيراً عما كنا نعهدهم عليه من تقشف . ويكنى في تصوير ذلك ما تركه كبار الصحابة من ثروات ، فقد روى الرواة - إن صح ما يروونه - أن طلحة بن عبيد الله خلف ثلثمائة بهار من ذهب وفضة ، والبهار مزود من جلد عجل^(٥) ، ويقول المسعودي - إن صح ما يقول - : إن الزبير خلف خمسين ألف دينار ، بينما خلف زيد بن ثابت مائة ألف دينار ، ومات يعلى بن منية عن خمسمائة ألف دينار ، وديون وعقارات قيمتها ثلثمائة ألف دينار ، وبلغ الربع في تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار . أما عثمان فقد خلف خمسين ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وعقارات قيمتها مائة ألف دينار . وقد عقب المسعودي بعد ذكره لهذه التراكات بقوله : وهذا باب يتسع ذكره . ويكثر وصفه ، فيما تملك من الأموال في أيام عثمان ، ولم يكن مثل

الوزراء والكتاب للجيشياري طبعة الحلبي ص ١٩
وكذلك الطبري : القسم الأول ص ٢٧٤٧ .
(٥) ابن عبدربه ٢٧٩/٢ .

(١) البلاذري ص ٢٢٧ .

(٢) اليعقوبي ١٩١/٢ .

(٣) البلاذري ص ١٤٢ .

(٤) المقد الفريد لابن عبد ربه ١٨/١ وانظر

ذلك في عصر عمر بن الخطاب . . . وحين عمر فأنفق في ذهابه وبجيشه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبد الله : قد أسرفنا (١) ! . وهذا إن صح إنما هو نمو طبيعي للأموال التي انتهالت على المدينة في عصر عمر ، وما جناه قواد الحرب من غنائم في أثناء الفتوحات .

على كل حال اتسع ثراء المدينة منذ عثمان ، واتسعت معه الرفاهية ، وأخذت تظهر الرفاهية ، ولم تكن معروفة في عصر عمر كما يلاحظ ذلك السعودي . وكان من مظاهر هذه الرفاهية الواضحة اتخاذ القصور وبناءها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج ، وبدأ ذلك - فيما يقال - عثمان الخليفة نفسه (٢) ، وتبعه أعيان أهل المدينة من مثل سعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، والمقداد ، وعبد الرحمن ابن عوف . أما سعد فيقال إنه ابنتى له داراً بالعقيق ، رفع سمكها ، ووسّع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات ، وأما طلحة فيقال أيضاً إنه ابنتى له داراً بالجص والآجر والساج ، وأما المقداد فكانت داره بالموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل على أعلاها شرفات ، وصيّرها بمحصة الظاهر والباطن ، وكذلك بنى عبد الرحمن بن عوف له داراً كبيرة (٣) .

ونحن لا ننسى في العصر الأموي حتى نجد أولاد الصحابة يخلقونهم على هذا الثراء وهذه الأموال والقصور ، وقد دَوَّن عمر ديوان العطاء وأصبح لكل شخص في المدينة عطاء مميّز به . وانتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ومع ذلك ظلت المدينة لا تحرّم من فيء الفتوح ، فقد روى عن الوليد بن عبد الملك الذي قُتحت في عهده الأندلس ، كما قُتحت شطر كبير من الهند ، أنه زار المدينة ، وقسم فيها رقيقاً كثيراً بين الناس ، كما قسم آنية من الذهب والفضة وأيضاً فإنه قسم أموالاً (٤) ؛ ومعروف أن معاوية وضع نصب عينيه استرضاء خصومه بالمال ، فكان يكثر من عطاياه على كل من يفسد عليه من المدينة . وتبع معاوية غيره من خلفاء بني أمية في هذا التقليد ، فكانوا يجيزون من يفد عليهم جوائز سنية ، يريدون بذلك أن

(١) انظر مروج الذهب ٢٥٣/٤ وما بعدها . وانظر الطبري : القسم الأول ص ٢٨٦٠ حيث

يذكر أن بناء الدور في هذا العهد بلغ سلعاً . نفس المصدر ٢٥٣/٤ .

(٢) مروج الذهب للسعودي ٢٥٤/٤ وما بعدها (٤) الطبري : القسم الثاني ص ١٢٣٣ .

يصطنعونهم لأنفسهم ، وأن يتقوا موجدتهم وغضبهم . وكان بيت بنى هاشم على رأس البيوت التي تُستقبل استقبالا كريماً في دمشق ، فكان معاوية إذا وفد عليه أحد منهم وصله بالجوائز^(١) ، ويروى أن الحسن وفد عليه فأجازه بمائة ألف^(٢) ، وقبل ذلك حين صالحه جعل له ما في بيت ماله وخراج دارا مجرد ، فأخذ ما في بيت ماله في الكوفة ، وكان فيه خمسة آلاف ألف^(٣).

وذهب معاوية ، وجاء يزيد ، فاستن سنة أبيه في اصطناع الناس بالمال ، وقد أعطى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أربعة آلاف ألف^(٤) ، وبعث إليه عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامله على المدينة وفداً منها ، فأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، وأعطى كلا منهم مائة ألف درهم^(٥) ، وفد عليه عبد الله بن حنظلة زعيم الأنصار في المدينة ومعه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وما حملهم عليه^(٦).

ولما تبعت المدينة عبد الله بن الزبير كان شحيحاً ، ولكن أخاه مصعباً كان جواداً كريماً ، فلما ولاه أخوه على العراق كان يصل أهل المدينة ، وقد أعطى عاصم بن عمر ستة عشر ألف دينار ، وأعطى عبد الله بن جعفر ضعف ذلك^(٧) . ويروى أنه أهدي صديقاً له في المدينة وهو عبد الله بن أبي فروة كنزاً وجده عامله في خراسان ، وهو نخلة كانت لكسرى مصنوعة من الذهب عثا كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر وأخضر ، وقد قومها المقومون لمصعب بألف دينار ! فكان ابن أبي فروة أيسر أهل المدينة^(٨) .

ولما استقامت الخلافة لبنى مروان أخذوا يقطعون ألسنة الناس وعلى رأسهم أهل المدينة بالمال ، وكان خلفاؤهم يذهبون أحياناً إليها ويقسمون فيها قسماً كثيرة على نحو ما صنع الوليد كما مر آنفاً ، وقد زارها سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ فقسم فيها أموالاً وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة^(٩) .

(٦) المصدر نفسه : القسم الثاني ص ٤٢٢ .

(٧) الوزراء والكتاب للجيشياري ص ٤٦ .

(٨) الجيشياري ص ٤٤ .

(٩) يعقوبى ٣٥٨/٢ .

(١) الفخرى ص ١٢٧ .

(٢) ابن عبدربه ١٤٥/١ .

(٣) الطبرى : القسم الثاني ص ٤ .

(٤) ابن عبدربه ١٤٥/١ .

(٥) الطبرى : القسم الثاني ص ٤٠٢ .

ومهما يكن فإن كثيرين من أهل المدينة اتسع بهم الثراء في العصر الأموي اتساعاً شديداً ، إما بفضل ما جاءت به الفتوح آباءهم قديماً ، ونَمُوهُ حديثاً ، وإما بفضل ما كان يُصَبُّ في حجورهم من خزائن دمشق ، وقد كان ديوان العطاء مدداً مستمراً لا ينفد ، ولم يُرو أنه انقطع عنهم ما يأتيهم منه ، إلا سنة واحدة في عصر هشام بن عبد الملك . فإنه منعهم عطاءهم حين خرج عليه زيد بن علي ، ولكنه لم يلبث أن توفى فأعاده عليهم الوليد بن يزيد (١) .

كان أهل المدينة في يسار ونعمة طوال هذا العصر الأموي ، بل كان كثير منهم ثرياً واسع الثراء ، وكان يقترن بهذا الثراء ضروب واسعة من الحضارة لم تعرفها المدينة قبل هذا العصر . وفرق بين حضارة سكان المدينة في هذا العصر ، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أن يسموهم بالتابعين ، وسكانها في عصر الخلفاء الراشدين ، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أيضاً أن يسموهم بالصحابة . وحقاً أن الصحابة اطلعوا على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم ، ولكن اقتباسهم كان محدوداً جداً ، وخاصة قبل عصر عثمان . وبدأ هذا الاقتباس يتسع في عصر عثمان ، فبنى بعض الصحابة الدور والقصور ، ولكنه كان على كل حال اقتباساً في حدود ضيقة . أما في هذا العصر الأموي فقد نشأ جيل آخر لم تكن له صلة بالجاهلية ولا بالحياة القديمة إلا ما يروى من أخبارها ، أما صلته كلها بالحضارة الأجنبية التي دخلت كل شيء في حياته ، وهو جيل التابعين ، وكان خليطاً من العرب والموالي (٢) ، وهم جماعة من الأجانب الذين سبوا في الفتوح هم وأبناؤهم ، وكانوا كثيرين في المدينة منذ كانت الفتوح في عهد أبي بكر وعمر ، وقد ترك الزبير بن العوام وحده منهم ألف عبد وأمة (٣) ، وكان غيره من الصحابة تكتظ بيوتهم بهم .

وكان هؤلاء الموالي يشتركون في حياة المدينة ، سلمها وحررها ، ففي وقعة الحرة قُتل منهم خمسة آلاف ، وفي السلم كانوا ينهضون بإعداد الحياة لهؤلاء الأنصار والمهاجرين ، إذ كانوا يقومون على خدمتهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب

للموالي .

(١) أغاني طبع دار الكتب ٢٢/٧ .

(٢) انظر ابن سعد : الجزء الخامس حيث يترجم (٣) المسعودي ٢٥٤/٤ .

أولاً للتابعين من قريش والأنصار في المدينة ثم يترجم

فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حُكي أنه قُدِّم لهم المرقق ، فكانوا يحسبونه رِقَاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى ، فاستعملوه في عَجِينِهِمْ ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقوِّمة عليه أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرُتَّى . . فأتوا من ذلك وراء الغاية» (١).

وقد حجز ابن الخطاب أهل المدينة دون هذه الحضارة التي جلبوها من الخارج (٢)، إذ كان يكره للعرب من سكان المدينة وغيرهم أن يأخذوا بأسباب الحضارة الأجنبية ، وأن ينعموا بملذاتها في المطعم والمشرب والسكن ، ولكن لا يذهب عمر ، حتى نجدهم يقبلون على هذه الحضارة وما تستتبعه من رفاهية ، وقد بدءوا ذلك منذ عثمان ، فاتخذوا الدور والقصور على ما مر في غير هذا الموضع ، وكلما تقدم بهم الزمن ازدادوا في الاخذ من هذه الحضارة والرفاهية .

ونحن لا نكاد نمضي في العصر الأموي حتى نجد أهل المدينة يضربون في الحضارة الأجنبية بحظ بل بحظوظ ، فعرفوا كثرة الألوان في الأطعمة (٣) ، وأكلوا في أواني الذهب والفضة (٤).

وكما عرف أهل المدينة التمتع في المطعم عرفوا التمتع في اللبس فاتخذوا الخَزَّ والديباج والإِسْتَبْرَق . ومن طريف ما يُروى عن السيدة عائشة أنها سئلت عن ثوبها في زمن الرسول ، فقالت : أما والله ما كان خَزّاً ولا قَزّاً ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كناناً . . . إنما كان سداه من شعر ، ولُحِّمته من أوبار الإبل (٥) .

تغيرت ثياب نساء المدينة فكن يلبسن الديباج والحريز (٦) ، والقطن والكتان ،

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع بولاق) ص ١٤٤ . بمصر ١٦٢/١ .
 (٢) انظر ابن عبد ربه ٧/١ وشرح نهج البلاغة لابن (٤) ابن عبد ربه ١١١/١ وانظر ابن سعد ١٢٦/٤ .
 (٥) ابن عبد ربه ٣٩٤/١ .
 (٦) ابن سعد ٣٥٢/٨ .
 (٣) المستطرف للأبشي طبع المطبعة العثمانية
 (٤) أبي الحديد طبع القاهرة ١٠١/٣ .

وكن يلبس الثياب المعصفرة ، والثياب الرقيقة الشفافة . ولم يقف الأمر في ذلك عند النساء فقد أخذ الرجال يلبسون المصّرّجات والممصّرات والملوّّات (١) ، ويروى أن أول من لبس الطيلسان في المدينة جُبَيْر بن مطعم (٢) ، وكان فتية بني مروان يرفلون في القوهي والوشى كأنهم الدنانير الهرقلية (٣) ، واشتهر عبد الله بن جعفر بلبس الخز (٤) . وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء علفي بألقي درهم (٥) ، وكان عمر بن عبد العزيز ، وهو وال على المدينة ، يلبس الثوب بأربعمائة ، فيقول : ما أخشنه وأغلظه (٦) .

وكانوا يتخذون الطيب ويكثرون منه ، ومما يدل على مدى اتخاذهم له ما يروى عن هارون بن صالح عن أبيه أنه قال : « كنا نعطى الغسّال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابنا في إثر ثياب عمر بن عبد العزيز من كثرة الطيب فيها يعني المسك (٧) » . وكان ذلك في ولايته على المدينة وقبل أن يتزهد ، وعمر إنما كان يجارى شباب المدينة في طيبه ومسكه .

وعلى نحو ما بالغ أهل المدينة لعصر بني أمية في ملابسهم وطيبهم بالغوا في حلّهم وجواهرهم فكان النساء يتحلين باللؤلؤ والياقوت (٨) ، واشتهرت السيدة عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص بزينة من قلائد الذهب (٩) ، كما اشتهرت السيدة سَكِينة بنت الحسين بأنها كانت تثقل ابتها بالحلى والآلئ (١٠) . وقلد الرجال النساء ، فكانوا يتخذون مثلهن الحلى والجواهر (١١) .

ولا شك أن هذا كله إنما تمّ تحت تأثير الحضارة الجديدة التي دخلت المدينة ، والتي أخذ أهلها يفرقون فيها إلى آذانهم ، فهم يرصّعون حياتهم ويحيلونها حلية وزينة خالصة .

-
- (١) أغاني طبع دار الكتب ١٣/٦ وانظر طبعة بولاق ٢٠٤/١٨ .
 (٢) ابن سعد ٢٤٦/٥ .
 (٣) أغاني طبع دار الكتب ٢٦٢/٩ .
 (٤) أغاني ٢٧٣/٨ .
 (٥) ابن سعد ٣٤٣/٨ .
 (٦) أغاني طبع بولاق ١٦٨/١٤ .
 (٧) أغاني طبع دار الكتب ٢٧٨/٨ .
 (٨) المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ٢٧٤ .
 (٩) أغاني طبع دار الكتب ٣١٠/١ .
 (١٠) أغاني طبع بولاق ٧٦/١١ .
 (١١) أغاني ٨٩/١٧ .

ترف

تحضر أهل المدينة كما رأينا ، وأدى بهم هذا التحضر إلى ترف واسع في العصر الأموي . وماذا ينقصهم ليكونوا مترفين ؟ إن المال تحت أيديهم ، وهم يصيبون منه ما يريدون . وهم يتنعمون به ما شاءوا من ألوان النعيم . ونحن لا نستطيع الآن أن ندرك إدراكاً دقيقاً ما كان عليه القوم من ترف ، لأن النصوص التي تمثل ذلك في الأغاني والطبرى وغيرها قليلة . وإن أملت بشخص تركت أشخاصاً ، وإن أملت بيت تركت بيتاً . وما من ريب في أن بيوت بني هاشم وبني أمية والزبيريين والمخزوميين دخلها الترف ، فبين أيديها المال الكثير الذي يهيئ لها كل ما تريد . ولعل مما يصور ذلك ما يروى عن حمزة بن عبد الله ابن الزبير من أن ابن قيس الرقيات وقد فاعطاه أربعة آلاف دينار^(١) ، واقترض منه ابن قطن مولى معبد ألف دينار ثم جاء يردّها إليه فأبى أن يأخذها^(٢) ، وكان معبد منقطعاً إليه يغنيه فيما يمدحه به الشعراء^(٣) . وأمثال حمزة من الأثرياء المترفين في المدينة كثير ، ولعل خير من يمثلهم في هذا العصر عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب . وكان جواداً سمحاً ، فكان يعطي الشعراء عطايا كثيرة . ويقول صاحب الأغاني إن أهل المدينة كان يقترض بعضهم من بعض إلى أن يأتي عطاؤه^(٤) . ويقول الرواة إن الحجاج تزوج ابنته فأ مهرها تسعين ألف دينار^(٥) ، أي نحو خمسين ألف جنيه ، وهو صداق لا تستطيع بنات الأثرياء ثراء واسعاً أن تشرّب أعناقهن إليه في هذا العصر .

وكان عبد الله على ما يظهر مترفاً في حياته ، حدّث صاحب الأغاني أن عبد الملك بن مروان منع ابن قيس الرقيات عطاءه من بيت المال ، وطلبه ليقنتله ،

(٤) أغاني طبع بولاق ٦٩/١١ .

(٥) ابن عبدربه ٢٩٢/٣ .

(١) أغاني طبع دار الكتب ٩٣/٥ .

(٢) المصدر نفسه ٣٦٤/٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٠٣/٥ .

فاستجار بعبد الله بن جعفر ، وقصده فألفاه نائماً ، ولما كان صديقاً لسائب خاثر (المغنى مولى ابن جعفر) ، وطلب الإذن على ابن جعفر فتعذر ، جاء سائب خاثر ليستأذن له عليه ، قال سائب : فجئت من قبل رجل عبد الله بن جعفر فنبحت نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، فرآنى ، فقال : مالك ويحك ؟ ! فقلت : ابن قيس الرقيات بالباب ، فقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل إليه ، فرحب ابن جعفر به ، وقربه ، فعرفه ابن قيس خبره ، فدعا بظبية (جراب) فيها دنانير وقال : عدّ له منها ، فجعلت أعدّ وأترنم ، وأحسن صوتى بجهدى ، حتى عددت ثلثمائة دينار فسكت ، فقال لى عبد الله مالك ويلك سكت ؟ ! ما هذا وقت قطع الصوت الحسن ، فجعلت أعدّ ، حتى نفذ ما كان فى الظبية ، وفيها ثمانمائة دينار ، فدفعته إليه ^(١) .

أرأيت إلى هذه الحادثة الطريفة ؟ إنها تصور لنا ترف العصر ، فهذا ابن قيس الرقيات لا يستطيع أن يدخل بيت ابن جعفر إلا بعد استئذان ، وهو يستأذن عليه فيتعذر لقاءه له ، فيأتى مولى له يألفه ، كى يدخله عليه . ويقبل سائب خاثر فيجد ابن جعفر نائماً ، فيصطنع معه أسلوباً يدل على ما كان به من ترف . إن ابن قيس الرقيات بالباب ، وسائب خاثر يخشى أن يعلم به والى المدينة ، فيأخذه إلى عبد الملك ، كى يقضى فيه ما هو قاض ، ليس أمامه إلا أن يوقظ ابن جعفر ولكن كيف يوقظه ؟ لقد أناه من قبل رجله فنبح نباح الجرو الصغير ، فانتبه ابن جعفر ولم يفتح عينيه ، وركله برجله ، فأناه من قبل رأسه ، ونبح نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، حينئذ حدثه بخبر ابن قيس .

وما أرتاب فى أننا لو سمعنا هذا الخبر فى عصرنا يحكى عن شخص مترف لعجبنا عجباً شديداً ولذهبنا نتخيل صوراً كثيرة عن ترفه . وأجار عبد الله بن جعفر صاحبه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يهدئ من روعه بالذهب يلقيه فى حجره بتلك الصورة من عدّ سائب خاثر وغناؤه على عده . وأكبر الظن أن ابن جعفر لم يكن بدعاً فى عصره ، بل كان يستنّ بترف قومه .

(١) أغانى طبع دار الكتب ٨١/٥ .

وكما كان الرجال مترفين كانت النساء مترفات ، ولعل ترفهن كان أوسع من ترف الرجال بعامل ما في طبع المرأة من ميل إلى التأنق والزينة . وخير من يمثل نساء المدينة المترفات في هذا العصر سيدتان من أنبل السيدات ، هما : السيدة عائشة بنت طلحة ثم السيدة سُكينة بنت الحسين .

وكانت السيدة عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم توفّي ، فترجها مصعب بن الزبير ، وأمهرها ألف ألف درهم^(١) ، وتوفّي عنها ، فترجها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، ومات عنها ولم تتزوج بعده^(٢) ، وكانت إذا حجت ذهبت ومعها ستون بغلاً عليها الهوداج والرحائل ، فتعرض لها عروة بن الزبير فقال : عائش يا ذات البغال الستين أكلّ عام هكذا تحجّين

فأرسلت إليه نعم يا عريّة^(٣) ؛ ويروى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك في الحج فقال لها : « ارفعي حوائجك واستظهري ، فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ، ففعلت ، فجاءت بهيئة جهّدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها ، وفرّق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سنّها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلثائة راحلة ، عليها القباب والهوداج ، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى^(٤) .

وإذا كانت بنت الخليفة يزيد حفيدة معاوية لا تبلغ مبلغ عائشة بنت طلحة في زينتها وهيئتها ، فماذا كانت هذه الهيئة والزينة ؟ إننا لو سمعنا في هذا العصر أن أميرة تحج على هذا النحو لبّ المصورون من آفاق العالم يأخذون صورها ويذيعونها على الصحف . وقد قالوا إن مصعباً أهداها ثمانى حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، فلما دخل عليها ليقدم هديته وجدها نائمة ، فأيقظها ، فلما رأت الهدية لم تُعَنَ بها . وقالت : كان النوم أحبّ إليّ^(٥) . وقد رُوي أنها لما تأيّمت كانت

(٤) أغاني ٦٠/١٠ .

(٥) المصدر نفسه ٥٧/١٠ .

(١) أغاني طبع بولاق ٥٨/١٠ .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٨٠/٢ .

(٣) أغاني ٦٠/١٠ .

تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مال لها بالطائف عظيم وقصر لها ، فتنتزه وتجلس فيه بالعشيات ، فتناضل بين الرماة ، ثم يفد عليها الشعراء فتجيزهم^(١) . وكانت تشركها في كثير من جوانب هذه الصورة المترفة السيدة سكينة بنت الحسين ، كانت قد تزوجت عبد الله بن الحسن بن علي ، وهو أول أزواجها^(٢) ، ولما قتل مع أبيها تزوجت بعده مصعب بن الزبير ، فأ مهرها ألف ألف درهم^(٣) ولما قتل تزوجت عبد الله بن عثمان الخزامي ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم الأصمغ بن عبد العزيز بن مروان^(٤) .

ويقول صاحب الأغاني : « كانت السيدة سكينة عفيفة برزة من النساء تجالس الأجلة من قریش ، ويجمع إليها الشعراء^(٥) » . ويقول أيضاً : « إنها كانت أحسن الناس شعراً ، وكانت تُصَفِّفُ جُمَّها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه ، حتى عُرف ذلك ، وكانت تلك الجملة تسمى السُّكَيْنِيَّة ، وكان عمر بن عبد العزيز - في ولايته على المدينة - إذا وجد رجلاً يصفِّفُ جُمَّته السكينية جلده وحلقه^(٦) » .

وكان للسيدة سكينة ذوق جيد في الشعر ، فكانت تنقد الشعراء وتفاضل بينهم^(٧) وكان أشعب مضحك أهل المدينة يختلف إليها كثيراً لإضحاحها وجلب السرور إليها^(٨) .

ومن خير ما يصور ترفها ما يروى عنها من أنها حجت ، ورمت الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فرمت بجأتها !^(٩) . ويروى أنها استبدلت ما لها بالزوراء بقصر في العقيق يسمى البريدى ، فلما سال العقيق خرجت ومعها جواربها تمشي حتى جاءت السيل ، فجلست على جرفه ، ومالت برجلها في السيل ، ثم قالت : والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء^(٩) . ويروى الرواة أنها توفيت فلم تدفن في اليوم نفسه فاشترى لها عوداً من الطيب بأربعمائة

(٥) أغاني ١٦٥/١٤ .

(١) أغاني ٦١/١٠ .

(٦) أغاني ١٦٥/١٤ .

(٢) أغاني ١٦٨/١٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٦٨/١٤ والمعارف لابن قتيبة (٧) أغاني ١٧٣/١٤ .

(٨) أغاني ١٦٨/١٤ .

ص ١٢٠ .

(٤) انظر في أزواجها الأغاني ١٦٨/١٤ وما بعدها . (٩ ، ٩) أغاني ١٧٢/١٤ .

دينار ظل مشتعلًا بجوارها طوال الليل^(١) حتى يعقب الجو من حولها بالأريج العطر .
وأكبر الظن أن ما يروى عن السيدة سكينة إنما هو رمز لترف البيثة ، فقد
كانت المدينة ، رجالها ونساؤها في العصر الأموي ، غارقة في ألوان الترف وأصباغ
النعيم .

٧

بعض فنون اللهو

وهذه الحياة المترفة لأهل المدينة في العصر الأموي اقترن بها فراغ واسع ،
إذ كانت الدولة منصرفة عنهم ، فقلما استخدمتهم في شئونها ، لما عرفت فيهم من
معارضتهم لها . وهذا الفراغ ، أو قل هذا التعطل كان لا بد لهم أن يملئوه ، وقد
ملأته كثرتهم بفنون من اللهو المختلفة ، وكان الغناء على رأس هذه الفنون ، فإن
أهل المدينة شغفوا به في هذا العصر شغفاً شديداً ، وقد نماه لهم مواليتهم الذين كانت
تكتظ بهم بيوتهم ، وسرعان ما نجد في المدينة دوراً خاصة بالغناء يقصد إليها الناس
لسماعه . ولم يكن الغناء كل ملاهيمهم ، فقد هوا بطيران الحمام وبالرمي على
الجلاهقات ، وهى قوس البندق^(٢) ، كما هوا بالنرد^(٣) والشطرنج^(٤) .

وطبيعى أن تشيع بعض فنون اللهو في المدينة بعامل ما كان هناك من
فراغ وثناء وتحضر وترف . وشاع حينئذ هو من نوع آخر ، وهو نوع لا يشيع
إلا بعد أن تنحضر الأمة أو المدينة من المدن ، وتترف ، فيوجد من أبنائها من يتخذون
أناساً يضحكونهم ويملثون جوهم بالسرور . وكان أشعب مضحك المدينة في هذا
العصر ، وقد بدأ حياته في بيت السيدة عائشة بنت عثمان ، ويقال إنها دفعته إلى
البزازين فمكث عندهم حولا ، فسألته بعد الحول عما تعلمه ، فقال لها : تعلمت
نصف العمل وبقي نصفه ، قالت : وما تعلمت ؟ فقال : تعلمت النَّشْرُوبِي الطي^(٥) .

(٣) أغاني طبع بولاق ١٠٢/١٧ .

(١) أغاني ١٧٨/١٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي (طبع المطبعة الميمنية) (٤) أغاني طبع دار الكتب ٥٢/٤ .

(٥) أغاني ٨٥/١٧ .

وكان يعجب بأشعب أشراف المدينة وشريفاتها فكان يجلس إليهم جميعاً ،
ويقيم عندهم في دورهم أياماً ، وله مع السيدة سُكَيْنَةُ نوادر كثيرة . يُروى أنها
غضبت منه يوماً فحلفت ليحلقن لحيته ودعت بالحجّام فقالت له : احلق
لحيته . فقال له الحجّام : انفخ شديقك حتى أتمكن منك ، فقال له : أأمرتك
أن تحلق لحيتي أو تعلمني الزمر (١) . وكان زوج السيدة سكينة زيد بن عمرو
ابن عثمان بخيلاً ، فكان إذا وضع الأكل وأقبل عليه بعض الناس رفعه ، وقال
على بالترياق والماء الحار ، وتصادف أن صنع ذلك أياماً متتالية ، وانصرف
الضيوف يوماً ، فأحضر الأكل ، وكان دجاجاً ، فقال : يا أشعب هل إلى إسخان
هذا الدجاج سبيل ؟ فقال له : أخبرني عن دجاجك هذا هل هو من آل فرعون ؟
فهو يعرض على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا (٢) .

وبما يروى من فكاهاته أن امرأة قالت له : هب لي خاتمك أذكرك به ،
قال : اذكريني أن منعتك إياه فهو أحب إلي (٣) . ويروى أيضاً أن امرأة كان يتودد
إليها ويدخل منزلها سألته أن يهديها شيئاً ففرّ فرعاً ومكث شهرين لا يقرب منزلها ،
ثم جاءها ذات يوم ، فأرسلت إليه قدحاً ملأه ماء ، وقالت : اشرب هذا من
الفرع ، فقال : اشربه أنت من الطمع (٤) .

وهكذا كان أهل المدينة يتناقلون فكاهات أشعب ، كما كانوا يتناقلون
فكاهات مضحك آخر يسمى الناضري (٥) . ولا شك أنهما كانا يشيعان في المدينة
جواً مرحاً ، كله الضحك والهزل . وكان كثير من أهل المدينة أنفسهم ومن أشرافها يصنع
صنيعهما لا من إضحاك الناس ، ولكن من العناية بالفكاهة ، وماذا نريد إلى قوم
فارغين حجورهم مملوءة بالمال ، وكل ما يطلبونه مهياً لهم . روى صاحب الأغاني أن
الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كان يعبت بأشعب أشد عبث ، وربما أراه في
عبثه أنه قد ثمل وأنه يعربد عليه ، ثم يخرج إليه بسيف مسلول ، ويريه أنه يريد قتله ،
فيجري بينهما في ذلك كل مستمع (٦) . ولم يكن الحسن وحده الذي يذهب

(٤) أغاني ٩١/١٧ .

(٥) أغاني ٩٤/١٧ .

(٦) أغاني ١٠٤/١٧ .

(١) أغاني ١٠١/١٧ .

(٢) المصدر نفسه ١٧٢/١٤ .

(٣) أغاني ٩١/١٧ .

هذا المذهب من الهزل ، فقد كان أبان بن عثمان والى المدينة لعبد الملك من أهزل الناس وأعيبهم ، وبلغ من عبثه أنه كان ينجىء بالليل ، وهو وال على المدينة ، إلى منزل رجل فى أعلى المدينة له لقب يغضب منه ، فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم ، وأبان يضحك^(١). وكل ذلك من آثار التحضر الذى تحضرته المدينة وما داخل حياتها من ترف .

الفصل الثاني

الغناء في المدينة

١

الغناء في المدينة قديم

عُرف العرب قديماً بمحبتهم للغناء ، وهناك نصوص كثيرة متفرقة في كتب التاريخ والأدب تشهد بأنهم كانوا يغنون من المهد إلى اللحد ، إذ كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء (١) ، كما كانوا يكون موتاهم بالنواح (٢) ، وهو ضرب حزين من الغناء . وقد اشتهروا بحدائهم للإبل في مسيرهم وترحالهم ، كما اشتهروا بأغانيهم في الحروب وأشعارهم الحماسية (٣) ويظهر أنهم كانوا يستخدمون الغناء في عباداتهم ففي القرآن الكريم : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) والمكاء الصغير والتصديّة التصفيق . ويقول ابن عبد ربه : « إنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى وثؤمة الجندل واليمامة » (٤) . ومعنى ذلك أن المدينة كانت إحدى مواطن الغناء المهمة في العصر الجاهلي . ومن هنا لا يكون غريباً أن نسمع بعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً استقبله أهلها من الأنصار استقبالاً حافلاً ، وقد ألف نساؤهم في أثناء ذلك ما يشبه الجوقات إذ كن يغنين جماعات بالدف والألحان (٥) :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَابِ الْوَدَاعِ

(٣) الطبري : القسم الأول ص ١١١٦ .

(١) المسعودي ٩٥/٨ .

(٢) أغاني ٨٩/١٩ ونواح الخنساء على أخيها .

(٤) ابن عبد ربه ٢٤١/٣ .

(٥) إحياء العلوم للغزالي طبع بولاق ٢٥٤/٢ .

وأخيها وعمها ، انظر أغاني ٢٢٠/٤ .

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ

وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة كانوا يتغنون ببعض الرجز في أثناء حفرةم للخذق في وقعة الخندق المعروفة (١).

وهذه النصوص تؤكد أن الغناء كان شائعاً في المدينة ، وأن نساء العرب كن يشتركن فيه على نحو ما صنع نساء الأنصار في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم. ونجد بجانب هذه النصوص نصوصاً أخرى تدل على أن القيان عُرفن في المدينة في أثناء العصر الجاهلي. ومعروف أن القيان كن أجانب ، وأنهن استُخدمن في الغناء حيثنذ في مدن الجزيرة العربية ، وفي بعض القبائل (٢). ويرى ليال أنهن كن من الفرس أو من اليونان من سوريا ، ويقول إنهن كنَّ يغنين بالعربية ، وربما كنَّ يغنين بلهجة أجنبية ، ويذهب فون كريم إلى رأى أبعد من ذلك ، فيقول انهن كن يغنين بلسانهن اليوناني أو الفارسي لا باللسان العربي (٣). وليس بين أيدينا ما يؤيد قول ليال من أنهن كن يغنين بلهجة أجنبية ، فضلاً عما يقوله فون كريم من أنهن كن يغنين بلسانهن الأجنبي . بل على العكس تؤكد جميع النصوص التي رُويت في الأغاني وغيره أنهن كن يغنين باللسان العربي ، ففي أخبار النابغة أن أهل المدينة أمروا إحدى القيان أن تغنيه بشعر له ، كان فيه إقواء ، فعرف موضع خطئه ولم يعد إليه (٤). وطبيعي أن تكون هذه القينة قد تعلمت العربية وأحسنت لهجتها حتى استطاع النابغة أن يفتن إلى موضع خطئه . وفي أخبار عمرو بن الإطنابة الخزرجي أنه دعا بشرا به وقيانه فتغنن له بقوله :

عَلَّلَانِي وَعَلَّلَا صَاحِبِيَا وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمَرْوَقِ رِيَا

(١) طبقات ابن سعد ، الجزء الثاني ، القسم (٣) انظر

الأول ص ٥٠ .
Farmer, A History of Arabian Music
(London 1929) p. 12.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الطبعة

(٤) أغاني طبع بولاق ١٦٤/٩ .

الثامنة ص ٤٦ .

إِنْ فِينَا الْقِيَانُ يَعْرِفَنَّ بِاللَّدِّ فْ لَفْتِيَانِنَا وَعِيشًا رَخِيًّا^(١)
ويقال إنه كان في المدينة دار للبغاء اتخذها عبد الله بن أبيّ وجلب إليها
ستاً من الإماء ، وفيهن وفيه نزل قوله تعالى : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)^(٢)
وأكبر الظن أنهم كن يغنين ، ويحترفن الغناء .

وينبغي أن نعرف أنه لم تكن هناك قواعد مرسومة للغناء في العصر الجاهلي ،
فهؤلاء المغنون من قيان وغير قيان لم يكونوا يتبعون نظاماً خاصاً في غنائهم ، بل كان
كلُّ يغني حسب شعوره وعواطفه وما يريد من تأثير في سامعيه ، إذ كان العرب
لا يزالون أميل إلى الفطرة في حياتهم وفنونهم .

ونحن نرى من كل ما سبق أن الغناء كان شائعاً في المدينة منذ العصر
الجاهلي ، وأغلب الظن أنه كانت هناك دور خاصة به ، فقد كان القوم يشغفون
بالغناء ، وكان يوجد في حياتهم العامة ، كما كان يوجد في حياتهم الخاصة .

٢

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ظل الغناء بالمدينة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ولم تكن
تسرف فيه ، إلا أنها على كل حال كانت تأخذ منه بنصيب ، وهناك أحاديث
كثيرة تؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء ، بل على العكس
كان يبيحه ، فقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما بعث الله نبياً
إلا حسن الصوت » وقال أيضاً : « لله أشدُّ أذنًا (استماعاً) للرجل الحسن الصوت
بالقرآن يجهر به من صاحب القينة لقبيته » وقال في معرض المدح لداود عليه السلام :
« إنه كان حسن الصوت في النياحة وفي تلاوة الزبور^(٣) » . وبما أثر عنه أيضاً أنه
قال : « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ » ، واستمع إلى أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ١٢١/١١ . النورانية ٣٣

(٢) انظر تفسير الزمخشري (الكشاف) في سورة (٣) التزالي ٢٤٩/٢ .

فأعجب به ، وقال : لقد « ألقى مزمراً من مزامير آل داود » (١) .

لم يكره النبي أن يؤدى أبو موسى الأشعري وغيره القرآن بتطريب في أصواتهم . وهو كذلك لم يكره هذا التطريب في الأذان ، ولكن في صورة بسيطة بحيث لا يخرج إلى التلحين الموسيقى وما يقترن به من معازف ، فإن النبي كان يكره أن يتصل القرآن بمظهر من مظاهر الوثنية ، ومن هنا فصلوا بين الترنم بالشعر فسموه غناء ، والترنم بالقرآن فسموه تغييراً (٢) .

على أنه ليس معنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الغناء بالشعر ، فقد روى أنه سأل السيدة عائشة في زواج بعض الأنصار : « هل أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ قالت نعم ، قال فبعثتم معها من يغني ؟ قالت لا ، قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ؟ » (٣) . وروى أيضاً أنه دخل بيت الربيع بنت معوذ بن عفراء قاتل أبي جهل يوم بدر وعندها جوار يغنين فسمع إحداهن تغني بما معناه : « وفيما نبي يعلم ما في غد » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعي هذا وقولي ما كنت تقولين » (٤) وروى ابن عبد ربه أنه مرَّ بجارية وهي تغني :

هل عليَّ ويحكمُ إن لهوتُ من حَرَج

فقال صلى الله عليه وسلم : لا حرج إن شاء الله (٥) . وهناك حديثان يرويان عن السيدة عائشة ، وهما يدلان على عدم كراهية النبي للغناء ، أما الحديث الأول ففيه أن أبا بكر دخل عليها في أيام منى ، وعندها جارتان تدفقان ، وتضربان ، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد (٦) . وأما الحديث الثاني فتروى فيه السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها جارتان تغنيان بغناء بُعث ، فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، فدخل أبو بكر ، فانتهرهما وقال : مزمар الشيطان عند رسول الله ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الغزالي ٢٧٤/٢ .

(٤) الغزالي ٢٧٧/٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٦ .

(٥) ابن عبد ربه ٢٣١/٣ .

(٣) ابن عبد ربه ٢٣١/٣ .

(٦) غزالي ٢٥٤/٢ .

وسلم ، وقال : دعهما^(١).

وهذه كلها أحاديث تؤيد أن الرسول لم يكن يحرم الغناء ، أما ما رُوى من أنه أمر بقتل قَيْتَيْن يوم فتح مكة ، وهما قَيْتتا ابن خَطْل ، فإن ذلك يرجع إلى أنهما كانتا تغنيان بهجاء وهجاء الإسلام ، وقد قُرَّت إحداهما ، وقُتِلَت الأخرى^(٢) . لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما إذن لأنهما مغنيتان ، وإنما أمر بقتلهما لأنهما كانتا تغنيان بشعر فيه هجاء له وللإسلام . ولعل مما يدل على عدم نهيهِ عن الغناء ، وأنه لم يكن يحرمه ، أننا نجد الأعشى حينما يفسد عليه ليمدحه يرصده رجال قريش حتى إذا مرَّ بهم تعرَّضوا له قائلين أين أردت يا أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم لأسلم ، فقالوا إنه يهاك عن خلل ، ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ، ولك موافق ، فلما سألم عن هذه الخلال ، ما هن ؟ قال أبو سفيان بن حرب ، الزنا والقمار والربا والخمر^(٣) ، ولم يذكر الغناء بين هذه الخلال ، ولو كان النبي حرمه لذكره حتى يردَّ الأعشى ، إذ كان مغنياً يغني شعره على الصَّنَج ولذلك سُمِّي صَنَاجَةَ العرب^(٤).

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء ، ولا كان يدعو إلى نبذهِ . أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فإنما جاء متأخراً ومتأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمر وابن مسعود^(٥) . وهكذا أخذ الناس مع مر الزمن يختلفون في الغناء وفي إباحته وتحريمه ويقول ابن عبد ربه : « اختلف الناس في الغناء فأجازة عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق »^(٦) . وأخذ رأى أهل العراق يسود في العصور المتأخرة وخاصة عند المتشددین ، وقد عقد الغزالي فصلاً طويلاً في الإحياء دَلَّل فيه من وجوه كثيرة على إباحته ، وأنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس^(٧).

(٥) غزالي ٢٦٣/٢ وانظر ابن عبد ربه ٢٣١/٣

حيث نجد سعد بن أبي وقاص يتغنى وهو محرم .

(٦) ابن عبد ربه ٢٣٠/٣ .

(٧) غزالي ٢٤٨/٢ .

(١) غزالي ٢٥٥/٢ .

(٢) ابن هشام ٥٢/٤ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ١٢٥/٩ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ١٠٩/٩ وانظر .

على كل حال لم يكن الغناء محرماً في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا تركنا عصره إلى عصر أبي بكر وعمر وجدنا المدينة مشغولة بالحروب والفتوح . وقد تم لها الغلب على الإمبراطورية الفارسية وعلى كثير من أطراف الإمبراطورية الرومانية . ولا نكاد نسمع في عصر أبي بكر شيئاً عن الغناء والمغنين سوى ما ذكره الطبري والبلاذري من أن المهاجر لما أخضع اليمن قطع أيدي الثبجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودية ، ونزع أسنانهما ، حتى لا تغنيا ، ولم يصنع ذلك لأنهما كانتا تغنيان فقط ، وإنما لأنهما كانتا تغنيان أغاني ، فيها هجاء للمسلمين وذم للإسلام^(١).

ومر بنا في حديثي عائشة أن أبا بكر كان ينكر الغناء عندها ، ويظهر أنه كان يكرهه ، وكذلك كان يكرهه عمر . وربما كان ذلك أحد الأسباب التي جعلت الغناء لا يشيع في عصرهما . روى ابن الفقيه أن عمر خرج يوماً فإذا جوار يضربن بالدف ، ويغنين ، ويقولن :

تَغْنَيْنَ تَغْنَيْنَ فَلَهُنَّ وَخُلِقْنَ

فجعل عمر يضرب رؤوسهن بالدرة ويقول : كذبتن ، كذبتن ، فأخزى الله شيطاناً رمى هذا إليكن^(٢) . على أن عمر ربما لم يضربهن للغناء من حيث هو ، وإنما ضربهن لدعوتهن إلى الله وقولهن « للهو خلقتن » . وقد روى أنه استمع إلى ابنه عاصم وآخر ، وهما يغنيان غناء النصب ، فقال : أعيدا عليّ ، فأعادا عليه ، فقال لهما : أنتما كحماري العبادي قيل له : أي حماريك شر ؟ قال ذائم ذا^(٣).

ومهما يكن فإن عمر كان متشدداً كسلفه ، فلم يتسع الغناء في عصره ولا في عصر أبي بكر ، إنما أخذ يتسع ، في عصر عثمان ، فقد اكتظت المدينة بجماهير الأسرى التي أخذت تتعرب ، كما اكتظت بالكنوز والأموال العظيمة . ولم تظهر نتائج ذلك في عصر عمر ، وإنما ظهرت في عصر عثمان ، إذ هدأت الفتوح ،

(١) الطبري : القسم الأول ص ٢٠١٤ والبلاذري (٢) ابن الفقيه ص ٤٣ .

(٣) ابن عبدبريه ٢٣١/٣ .

ص ١٠٢ .

وأخذ العرب يستجمون منها ، وحاولوا أن يهيشوا لأنفسهم شيئاً من الحضارة التي رأوها في البلاد الأجنبية .

تحولت معيشة العرب إذن ، فقد أصبحت المعيشة الفخمة مألوقة لا في العراق وسوريا ، بل أيضاً في المدينة نفسها ، إذ أخذت تتحضر بألوان الحضارة التي رآها العرب في الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية ، فقد جاءوا بها إليها ، كما جاء بها الأسرى من فرس ومصريين وشآمين .

وقد بنى أشراف المدينة القصور على ما قدمنا ، وأخذت هذه القصور ، منذ عثمان ، تكتظ بالمغنين الذين جلبهم أهل المدينة من قریش والأنصار إليها ، فكل شخص كان يأتي لنفسه بمغن أو مغنية ، وأحياناً يأتي بجوقة من المغنين أو المغنيات . روى صاحب الأغاني أن عبد الله بن عامر وإلى عثمان على البصرة اشترى إماء صَنَاجَاتٍ وأتى بهن إلى المدينة فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن وأخذوا عنهن^(١) .

ومن عُرِفَ بالغناء من الأجانب في عصر عثمان طُويس المغني^(٢) وهو أول من غنّى بالعربية في المدينة من الموالى وألقى الخُثْثَ بها^(٣) . ومن مغنى هذا العصر فَيْدٌ ، وهو مولى لسعد بن أبى وقاص^(٤) .

وهكذا أخذت المدينة تستعد - بفضل هؤلاء الموالى الأجانب - لأن تصبح أهم مركز للغناء في العصر الأموي . وتوقفت هذه الحركة قليلاً في عصر على ابن أبى طالب لانشغال أهل المدينة بالحروب بينه وبين معاوية ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت ، فأقبلت المدينة على الغناء ، تسترد منه ما فاتها ، وحاولت حينئذ أن تتفوق فيه تفوقاً واضحاً .

(٣) أغاني ٢٧/٣ .

(٤) ابن عبدربه ٢٤٥/٣ .

(١) أغاني ٣٢١/٨ .

(٢) ابن عبدربه ٢٤١/٣ .

المدينة أهم مراكز الغناء في العصر الأموي

من المعروف أن الحجاز عُني بالغناء في العصر الأموي عناية بالغة فقد طلبه أشرافه واهتموا به اهتماماً شديداً ، حتى أصبح إقليمهم أشهر الأقاليم العربية به . وفي الأغاني نصوص كثيرة تدل على أن أهل العراق لم يكونوا يعجبون بالغناء^(١) ، مع أن أحد وعاظهم ، وهو الحسن البصري ، أثّر أنه قال : نعم العون الغناء على طاعة الله ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسي صديقه^(٢) . أما الشام فإنها أيضاً لم تُعنَ بالغناء في أوائل هذا العصر ، إذ كان معاوية لا يعجب به على ما يظهر . وقد اضطر عبد الله بن جعفر أن يقدم له مغنياً على أنه شاعر^(٣) . وأول من اتخذ الغناء وآوى المغنين من بني أمية يزيد بن معاوية ، فقد طلبهم من المدينة ، وذهب إليه سائب خاثر^(٤) مولى عبد الله بن جعفر .

لم تُعنَ الشام بالغناء في أول الأمر ، واستمرت العراق لا تُعنى به طوال هذا العصر إلا قليلاً . وأما الحجاز فقد غرقت فيه إلى أذنيها ، وكانت المدينة أسبق مدن الحجاز إلى العناية بالغناء ، فقد رأينا أنها أخذت تعنى به منذ عصر عثمان ، إذ ظهر طويس وفند وغيرهما . أما ما يزعمه المسعودي من أن الغناء لم يُم في المدينة ومثلها مكة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية^(٥) فغير صحيح ، لأن النصوص التي تحت أيدينا تنكره بالنسبة للمدينة على الأقل .

ونحن لا نسمع عن مغن أجني في مكة في أثناء عصر الخلفاء الراشدين ، ولعل في هذا ما يؤكد أن المدينة سبقت إلى العناية بالغناء ، وهذا طبيعي ،

(١) انظر الأغاني ٧١/١ كذلك ٣٣٩/٦ . مشهوراً قبل أبي كامل الغزيلي مغنى الوليد بن يزيد

(٢) ابن عبد ربه ٢٣٢/٣ ولم يعرف للعراق مغن ابن عبد الملك ، انظر أغاني طبع دار الكتب ٩١/٧ .

مشهور في هذا العصر سوى حنين ، انظر الأغاني (٤) أغاني ٣٢٤/٨ .

(٥) المسعودي ١٥٧/٥ . ٣٤١/٢ وما بعدها .

(٣) أغاني ٣٢٣/٨ ، ولا نعرف للشام مغنياً

لأنها هي التي سبقت إلى الثراء من الفتوح ، وهي أيضاً التي سبقت إلى اتخاذ الرقيق ، وكانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ، فأسرعت إليها هذه الموجة من موجات الترف .

ومع ذلك فإن مكة لم تلبث أن عُثيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه ، فظهر عندها ابن مسجح^(١) وتلاميذه . ولكن ينبغي أن نعرف أن المدينة ظلت هي المركز الأول في الحجاز للغناء والمغنين وتخريجهم . ولعل مما يدل على ذلك دلالة واضحة أن نجد خلفاء دمشق يطلبون مغنيين غالباً من المدينة ، بل إننا نجد مكة نفسها تطلب مغنيين من المدينة^(٢).

ومن المؤكد أن المدينة امتازت في الغناء هذا الامتياز بسبب كثرة الموالى فيها منذ عصر الخلفاء الراشدين ، وساعد على ذلك أن أشرافها ونبلاءها كانوا يطلبونه . بل نرى منهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين ، على نحو ما هو معروف عن عبد الله بن جعفر سيد بني هاشم ، فقد كان الناس يؤمون داره لسماع مَنْ بها من المغنيات والمغنين^(٣).

ويُحِيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وكان يُعجَبُ بالغناء ، حتى ليقول صاحب الأغاني إن الغناء في المدينة لا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم^(٤). واستمرت المدينة مشهورة بذلك حتى العصر العباسي إذ نرى أبا يوسف يقول لبعض أهلها : « ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني ! ما منكم شريف ولا دني يتحاشى عنها^(٥) » . ويروى أبو الفرج أن العقيق كان إذا سال ، وأخذ المغنون يلقون فيه أغانيهم ، لم تبق في المدينة مخبأة ، ولا شابة ، ولا شاب ، ولا كهل ، إلا خرج يُنصره^(٦).

وأخذ المغنون يؤلفون طبقة مميزة في العصر ، ولا نعرف أكانت لهم نقابة أولاً ،

-
- (١) انظر الأغاني ٢٧٦/٣ وما بعدها . ٣٢٥/٨ .
 (٢) وابن سريج أهم مغنيها بعد ابن مسجح أصله من المدينة . انظر ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ حيث يجعله تلميذاً لطويس وانظر الأغاني ٢٤٩/١ وكذلك ٢٥١/١ .
 (٣) المسعودي ٣٨٥/٥ .
 (٤) أغاني ٢٢٤/٨ .
 (٥) ابن عبد ربه ٢٣٣/٣ .
 (٦) المصدر السابق ٢٤٥/٣ .
 مكة تطلب بعض المغنيات من المدينة . انظر الأغاني

لكن على كل حال كانت لهم جماعة مميّزة بسبب رقي فهم ، لا بسبب احتقار العرب لصنعتهم ، فإننا نجد كثيراً من العرب يطلبون الغناء، وبرع فيه في أثناء هذا العصر مغن عربي معروف هو مالك بن أبي السَّمْح الطائي . وحدث حسين ابن دَحْمَان الأشقر - إن صحَّ حديثه - قال : « كنت بالمدينة ، فخلا لي الطريق وسط النهار فجعلت أتغني :

ما بالُ أهلكِ ياربُ خُزراً كأنهم غضابُ^(١)

قال : فإذا خَوْخَةٌ قد قُتحت ، وإذا وجه قد بدا ، تتبعه لحية حمراء ، فقال : يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ، ثم اندفع يغنيه ، فظننت أن طويساً قد نُشربعينه ، فقلت له : أصلحك الله من أين لك هذا الغناء ؟ فقال : نشأت ، وأنا غلام حدث ، أتبع المغنين وأخذ عنهم فقالت لي أمي : يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء ، واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء . . فقلت له : فأعد جعلت فداءك فقال : لا ، ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ، وإذا هو مالك بن أنس ، ولم أعلم^(٢) .

ولعل فيما تقدم ما يدل على أن العرب كانوا يقدرّون الغناء في هذا العصر ، وأخذ يظهر فيه بوضوح عنصر الرجال من الموالى الأجانب ، ولم يكن هذا العنصر معروفاً في العصر الجاهلي ، إنما كان المعروف عنصر القيان ، أما في هذا العصر فكان القيان ، وكان بجانبهم الرجال من الموالى . وقد تميزوا أول الأمر بأنهم كانوا من المخنثين^(٣) ، وهي جماعة من الرجال كانت تذهب مذهب النساء ، فتلبس ملابسها ، وتقلدها في عاداتها . وأول محترف للموسيقى والغناء في المدينة كان من هذه الجماعة ، وهو طُويس^(٤) .

على أن موجة الغناء لم تلبث أن اتسعت ، فشملت جماعات أخرى من

(١) خزرا : ينظرون بلحظ العين كناية عن (٣) المصدر نفسه ٢٧٣/٤ .

الغضب . (٤) أغاني ٢٧/٣ .

(٢) أغاني ٢٢٢/٤ .

الموالى غير المخنثين ، كما شملت جماعات من العرب أنفسهم ، بحيث نرى عمر ابن عبد العزيز ، وهو وال على المدينة ، يصنع مجموعة من الأصوات يسجلها له صاحب الأغاني^(١). وهكذا مع مضي الزمن أصبح الغناء في المدينة عملاً شريفاً بحيث نجد كثيراً من العرب والموالى الممتازين يقبلون عليه ، فكان مالك ابن أبي السَّمْح الطائي « كما مرَّ بنا ، يحترف الغناء ، وكان البرَّدان ، وهو موثق كان يتولى السوق في المدينة ويحكم بين الناس ، يحترف الغناء كذلك ، وكان معدلاً مقبول الشهادة^(٢). وكان دَحْمَان صالحاً كثير الصلاة ، وهو من مغنى المدينة ، ويُروى أنه شهد ، عند عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي وهو بلى القضاء ، لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة ، فأجازها وعدَّله ، فقال له العراقي : إنه دَحْمَان ! قال : أعرفه ، ولو لم أعرفه سألت عنه ، قال : إنه يغنى ويعلم الجوارى الغناء ! قال : غفر الله لنا ولك ، وأينا لا يتغنى^(٣).

وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس - إن صح الخبر السابق - يعرف الغناء ، وكذلك كان قاضي المدينة ابن حنطب ووالى المدينة عمر بن عبد العزيز . ويظن الإنسان أنه لم يبق في المدينة أحد إلا وكان يتغنى ، فإن لم يتغنَّ كان يستمع إلى الغناء ، ويعجب به .

اندفع الموالى وغير الموالى في المدينة من رجال ونساء يتغنون ، واشتهر من الرجال كثيرون . وقد عقد لهم صاحب الأغاني فصلاً طويلاً في كتابه ، واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم وأصواتهم ، وعلى رأسهم طُوَيْس وسائب خاثر والدلال ومُعَبَّد وابن عائشة ومالك ابن أبي السَّمْح الطائي ويونس الكاتب ودَحْمَان وعطَّرد ، وغيرهم كثير .

أما النساء فكان على رأسهن عَزَّة الميلاء . وكان لها دار يقصدها أهل المدينة لسماع الغناء . وبلى عَزَّة جميلة ، وكان لها الدار الكبرى للغناء في المدينة . ويروى

(٣) المصدر نفسه ٢١/٦ .

(١) أغاني ٢٥٠/٩ .

(٢) أغاني ٢٧٧/٨ .

صاحب الأغاني أنها خرجت تحج ، ويصف موكب حجّها . ويدل وصفه دلالة واضحة على مدى ما بلغته المدينة في هذا العصر من ازدهار فن الغناء بها ، فقد خرجت جميلة في مهرجان كبير يضم مجموعة من شعراء المدينة على رأسها الأحوص ، كما يضم مجموعة من المغنيات ، أما المغنون فكان على رأسهم هيثم والدلال وطويس وبرد الفؤاد ونومة الضحى ، وفند ، ورحمة ، وهبة الله ، ومعبد ، ومالك ، وابن عائشة ، ونافع بن طنبورة ، وبديع الملبح ، ونافع الخير ، وأما المغنيات فكان على رأسهن الفريهة ، وعزة الميلاء ، وحباة ، وسلامة ، وخليدة ، وعقيلة ، والشماسية ، وفرعة ، وثبلة ، ولذة العيش ، وسعيدة ، والزرقاء . وكان في ركبها لأهل المدينة من القيان زهاء خمسين قينة . ولما دنا هذا الركب من مكة استقبله مغنوها وعلى رأسهم ابن مسجع وابن سريج والغريض وابن مخرز ، كما استقبله شعراؤها ، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة .

ويتهم أبو الفرج هذا الخبر^(١)، ومع ذلك فهو يرويه عن يونس الكاتب وهو أول من ألف في الغناء ، وكان أحد شهود هذا المهرجان ، فلا مفر إذن من قبوله . ولا ريب في أنه يصور مبلغ ما وصلت إليه المدينة من أهمية هذا العصر في فن الغناء ، فإن أصحابه يعدّون فيها بالعشرات رجالاً ونساءً . وكان هؤلاء المغنون والمغنيات يغنون الناس في المدينة بدون ستارة تفصل بينهم ، فصاحب الأغاني يروى أن جميلة غنت أمام عبد الله بن جعفر وجماعة كانوا معه بدون ستارة ؛ إذ ظهرت أمامهم هي وجواريلها^(٢) ، وكذلك يروى أن عزة الميلاء غنت في بيت سكينه بنت الحسين بدون ستارة^(٣) . ويظهر أن الستارة كانت توضع إذا اجتمع الرجال والنساء للسمع ، ففي أخبار عائشة بنت طلحة أنها أقامت حفلاً دعت فيه نبيلات قريش ونبلاءها ، وغنت في هذا الحفل عزة الميلاء ، وكانت هناك ستارة تفصلها هي والنساء عن الرجال^(٤) . وواضح أن الستارة اتخذت هنا من أجل النساء ، لا من أجل عزة .

(٣) أغاني طبع بولاق ١٣٢/١٥ ومابعدها .

(٤) المصدر نفسه ٥٧/١٠ .

(١) أغاني ٢٠٨/٨ .

(٢) أغاني ١٩٧/٨ .

الغناء يصبح فنا له مصطلحاته وتقاليده

وهذه الجماعات الكثيرة التي احترفت الغناء لم تلبث أن حولته إلى فن له مصطلحاته وتقاليده . وكان أول من حاول السير في هذه الطريق طُويس شيخ المغنين في المدينة ، فقد قال صاحب الأغاني : إنه أول من غنى الغناء المتقن ، وقال أيضاً : إنه أول من صنع الهَزَج والرَّمَل في الإسلام^(١) . ولا ريب في أن هذا الغناء المتقن الجديد كان يخالف الغناء العربي القديم ، الذي كان يعتمد في أغلب الأمر على عروض الشعر وذوق المغنى ، وقلما ذهب فيه المغنون إلى التلحين والتوقيع توقيعاً يقوم على مصطلحات خاصة . ويقول ابن الكلبي إن غناء العرب قديماً كان على ثلاثة أوجه : النَّصَب والسَّناد والهَزَج ، فأما النَّصَب فهو أغاني الركبان والقينات ، وأما السَّناد فهو أنغام ثقيلة ، وأما الهَزَج فهو غناء خفيف^(٢) .

وواضح في كلام ابن الكلبي أنه يريد بالسَّناد والهَزَج الغناء الإسلامي الحديث ، أو كما يسميه صاحب الأغاني الغناء المتقن ، فالسناد هو الغناء الثقيل ، والهَزَج ضرب من الغناء الخفيف . ورأينا أبا الفرج ينسب الهَزَج إلى طويس ، وقد نسب الغناء الثقيل إلى سائب خاثر ، فقال إنه أول من غنى بالعربية الغناء الثقيل^(٣) ، وروى بجانب ذلك أن عزة الميلاء أول من غنَّت من النساء الغناء الموقع^(٤) ، وهو يقصد هذا الغناء الجديد الذي يسميه تارة المتقن وتارة الموقع .

وأخذ هذا الغناء الموقع يتنوع إلى ستة ضروب تجدها منتشرة في أخبار مغنى المدينة لهذا العصر ، وهي : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، ورَّمَل ، وخفيف الرَّمَل . وهى ضروب ترجع إلى نوع الثقبات ، فقد تكون ثقيلة ،

(٣) أغاني ٣٢٢/٨ .

(٤) أغاني ١٣/١٦ .

(١) أغاني ٢١٩/٤ .

(٢) السعوى ٩٣/٨ .

والثقيلة على ألوان ، وقد تكون خفيفة ، والخفيفة على ألوان أيضاً . وقد ميزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع ، فقالوا ثقیل أول بالوسطى ، وخفيف ثقیل بالسَّبَّابة ، وخفيف رَكل بالبَصَر ، أو يقولون رمل بالسَّبَّابة في مجرى البَصَر ونحو ذلك مما نقرؤه في الأغاني منسوباً إلى معنى العصر^(١).

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن هذه المصطلحات التي تمت لفن الغناء وأصبح بها فناً قائماً له رسومه إنما تكونت تحت أيدي الموالى ، فهل معنى ذلك أن الغناء العربي تحوّل هذا التحول تحت تأثير نظريات جديدة أتته من الخارج ؟ هناك نصوص كثيرة في الأغاني تثبت صلة واضحة بين هذا الغناء العربي وبين الغناء الأجنبي ، فأبو الفرج يذكر - كما مرّ بنا - أنه كان هناك إماء صَنَاجَات أحضرهن عبد الله بن عامر وإلى البصرة في عصر عثمان ، وكان لهن يوم في الأسبوع يغنين فيه الناس^(٢) ، وربما تأثر بهن طويس ، وربما تأثر بمغنين من الفرس لم يذكرهم أبو الفرج . على أنه ذكر مغنياً فارسياً ، يسمى نشيطاً ، اشتراه عبد الله^(٣) بن جعفر ، وكان يغنى في المدينة الغناء الفارسي ، ويقول إن سائب خاثر أخذ عنه غناؤه الفارسي ، كما أخذ هو عن سائب خاثر الغناء العربي^(٤) . وفي ترجمة عزة يقول أبو الفرج إن نشيطاً وسائب خاثر قدما المدينة ، فغنيا أغاني بالفارسية ، وأخذت عزة عنهما أنغاماً ، وألّفت عليها الحاناً^(٥) .

واحتذى مغنو مكة حدّو مغنى المدينة في التأثر بالغناء الفارسي ، فأبو الفرج يروى أن ابن مسنّج أقدم المغنين هناك استمع إلى الفرس يغنون ، وهم يبنون المسجد الحرام في خلافة ابن الزبير ، فنقل غناءهم من الفارسية إلى العربية^(٦) . ويقول إن عود ابن سُرَيْج كان على صنعة عيدان الفرس ، وإنه أول من ضرب بالعود

-
- (١) في مسالك الأَبصار نص طريف نزلت فيه
ألقاب الأنغام والأصوات التي في كتاب الأغاني
على ألقاب المحدثين في عصر صاحب الكتاب وأنغامهم ٣٨/١ .
من أصبهان وزنكلا وراهوى وحسين . انظر المسالك ،
نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية ، الجزء الأول
من المجلد السادس الورقة ٢ .
(٢) أغاني ٣٢١/٨ .
(٣) المصدر نفسه والصفحة وانظر المصدر نفسه
(٤) أغاني ٣٢١/٨ .
(٥) أغاني ١٣/١٦ .
(٦) أغاني ٢٧٧/٣ .

الفارسي في مكة على الغناء العربي^(١) . ويروى أبو الفرج أيضاً أن ابن محرز شخّصَ إلى فارس ، فتعلم ألحان الفرس ، وكذلك شخص إلى الشام فتعلم ألحان الروم، وألّف بين ذلك ، ونقله إلى الغناء العربي^(٢) .

وإذن فهناك صلة مؤكدة بين الغناء العربي الذي شاع في المدينة بل في الحجاز كله ، وبين الغناء الأجنبي الفارسي والرومي . على أنه ينبغي ألا نبالغ في هذه الصلة ، فترعم أن العرب نقلوا نظريتهم الغنائية في هذا العصر من لدن الأجانب . حقاً هم تأثروا بهم ، ولكنهم لم يذوبوا في غناء غيرهم ، ولعل من طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أن المغنين مع أنهم كانوا من الأجانب لم يولدوا في بلادهم ، وإنما وُلدوا في بلاد العرب ، أو على الأقل نشأوا فيها ، ما عدا مغنياً واحداً هو نشيط الفارسي .

وأيضاً فإن هؤلاء المغنين الأجانب ، الذين تردد أسمائهم في الأغاني والذين تمت تحت أيديهم وألستهم نظرية الغناء العربية الجديدة ، كانوا يبدعون دائماً بالغناء العربي ، ثم يتعلمون الغناء الأجنبي بعد ذلك كما تعلم ابن محرز في بلاد الفرس والشام . ومصطلحات الغناء نفسها في هذا العصر التي تردد في كتاب الأغاني كلها من الألفاظ العربية . وإن في هذا كله ما يشير إلى أن التأثير الأجنبي لم يكن واسعاً . وأيضاً فإن الآلات الموسيقية التي تردد مع المغنين الأمويين أكثرها قديم من مثل الصنّج والمزهر والقضيب والدفّ والطبل والمزمار وحتى العود والطنبور يظن أنهما عُرفا في العصر الجاهلي .

والحق أنه ينبغي ألا نبالغ في التأثير الأجنبي ، وما أثر به الغناء الرومي والفارسي في الغناء العربي في أثناء العصر الأموي ، فإن ذلك لم يتجاوز ، في الأعم الأغلب ، بعض ألحان رومية وفارسية انتقلت إلى الغناء العربي . ونحن لا نجد للروم مغنياً في الحجاز في أثناء هذا العصر ! وربما كان التأثير الفارسي أهم ، وقد نقل العرب بعض ألحان من غناء عمّالهم الذين استُخدموا في بناء الكعبة وبناء بعض القصور^(٣) ، وكان منهم نشيط الفارسي المغني المشهور . ومع ذلك فإننا

(٣) أغاني ٢٨١/٣ .

(١) أغاني ٢٥٠/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣٧٨/١ .

لا نستطيع أن نقول إن العرب استعاروا نظريتهم في الغناء من الفرس . أما ما يزعمه ابن خُرْداذبه من أن العرب نقلوا الإيقاع منهم^(١) ، فليس عليه دليل ، خاصة إذا عرفنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن في الشعر ، فإن هذه النظرية إنما انتقلت إليهم من العرب على نحو ما هو معروف في تاريخ اللغة الفارسية الحديثة . وربما كان من أوضح الأدلة على ما نزعمه أن الحيرة ، وهي أقرب إلى بلاد الفرس من المدينة ومكة ، لا نجد لها تأخذ شيئاً واضحاً من الغناء الفارسي ! وكان المعقول أن تكون أسرع إلى التأثر بالغناء الفارسي ، ومع ذلك فإننا لا نجد فيها هذا العصر سوى النَّصَب الذي عُرف عن العرب منذ العصر الجاهلي ، ولذلك لم يدون شيء من غناء أهلها لسقوطه ، وأنه ليس من أغاني الفحول^(٢) .

ولعل في هذا كله ما يدل على أن العرب لم ينقلوا من الفرس ولا من الروم نظريتهم الغنائية ، إنما نقلوا بعض الألحان وبعض الأنغام وبعض الأدوات الموسيقية وخاصة في العصر العباسي ، وقد عرض المسعودي لهذه الآلات في كتابه مروج الذهب بالتفصيل^(٣) .

ومن يقرأ أخبار جميلة في الأغاني يلاحظ أن الغناء تمَّ له في بيتها كل ما يتصوره الإنسان من رقى ، إذ كانت تغنى بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيذان والأوتار ، حتى لتبلغ الجوقة أحياناً خمسين شخصاً ، وكانت تضرب في أثناء غنائها ، وتضرب الجوقة على ضربها^(٤) . وكما عرف بيت جميلة الغناء المصحوب بجوقة كبيرة ، عرف كذلك الغناء المصحوب بالرقص . روى أبو الفرج أنها جلست يوماً ولبست بُرْناً طويلاً ، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك . . . ثم قامت ، ورقصت وضربت بالعود ، وعلى رأسها البرنس الطويل ، وعلى عاتقها بُرْدَة يمانية ، وعلى القوم أمثالها ، وقام ابن سُرَيْج يرقص ومعبّد والغريص وابن عائشة ومالك ، وفي يد كل منهم عود ، يضرب به على ضرب جميلة ورقصها ، فغنت وغنى القوم على غنائها ، ثم دعت بثياب مصبغة ، ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا ثم ضربت

(٣) المسعودي ٩٠/٨ وما بعدها .

(٤) أغاني ٢١٨/٨ .

(١) المسعودي ٩٠/٨ .

(٢) أغاني ٣٥٢/٢ .

بالعود وتمشّت ، وتمشى القوم خلفها « وغنّت وغنوا بغنائها بصوت واحد (١) .
والحق أن المدينة لم تكد تبقى للعصور التالية شيئاً جديداً تضيفه إلى نظريتها
الغنائية ، فإن الغناء بلغ فيها في أثناء هذا العصر الأموي كل ما كان يحلم به
العربي . ولعلنا بعد ذلك لا نعجب حين نسمع عن تأثر الناس بغناء مغنيها تأثراً
يفوق الوصف ، إذ كان بعضهم يخرّ مغشياً عليه (٢) ، وكان بعضهم يصفق ويرقص (٣) .
وقد سمع ابن أبي ربيعة صوتاً من جميلة فبلغ به سحر الصوت أن شق جيب قميصه
إلى أسفله فصار قباءً ، وهو لا يدري (٤) وغير ابن أبي ربيعة كان إذا سمع جميلة
يجد شيئاً يضغط قلبه ويحرقه فلا يملك عينه (٥) . ويروى أن مولى حبابه إحدى
تلميذات جميلة بعد أن باعها إلى يزيد بن عبد الملك سمعها عنده وكان بجواره
شمعة فعرض لحيته لها ، فاحترقت من شدة الطرب ، وهو لا يدري (٦) ومن غريب
ما يروى أن قاضي المدينة محمد بن عمران التيمي استمع يوماً إلى جارية عنده «
تغنى ، فوثب إلى نعلّه ، فعلقها في أذنه من شدة الطرب ، وجباً على ركبته ، وأخذ
بطرف أذنه والنعل فيها ، وجعل يقول : اهدوني أنا بدنة ، اهدوني أنا بدنة (٧) .
وفي هذا ما يفسر قوله بعض العباد والنسك هؤلاء المغنين والمغنيات ، فقد حذقوا
فهم حذقاً شديداً ، وقصة عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي الذي كان يلقب
بالقس لعبادته وفنته بسلامة حتى سميت سلامة القس ، شائعة معروفة (٨) . ويروى
صاحب الأغاني أنه كان بالمدينة ناسك من أهل العلم والفقه ، وكان يغشى مجلس
عبد الله بن جعفر ، فسمع جارية مغنية لبعض النخاسين تغني (بانت سعاد وأمسى
حبلاًها انقطعا) فاستهتر بها ، وهام ، وترك ما كان عليه . . وبلغ عبد الله بن جعفر
خبره ، فبعث إلى النخاس ، فاعترض الجارية ، وسمع غناءها بهذا الصوت ،
وقال ممن أخذته ؟ قالت : من عزة الميلاء ، فابتاعها بأربعين ألف درهم ، ثم بعث
إلى الرجل ، فسأله عن خبره فأعلمه إياه وصدقه عنه ، فقال له : أتحب أن تسمع

(٥) المصدر نفسه ٢٠٩/٨ وكذلك ٢٣٥/٨ .

(٦) أغاني ٣١٦/١ .

(٧) المصدر نفسه ٣٣٨/٦ .

(٨) المصدر نفسه ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(١) أغاني ٢٢٧/٨ .

(٢) ابن عبد ربه ٢٥٧/٣ .

(٣) أغاني ٢٧٧/٤ .

(٤) المصدر نفسه ٢٠٦/٨ .

هذا الصوت ممن أخذته عنه تلك الجارية ، قال نعم ، فدعا بَعْرَةَ ، وقال لها : غَنِّه إياه ، فغنته ، فصُعق الرجل وخرَّ مغشياً عليه . . . » وأهدى عبد الله بن جعفر الجارية إليه^(١) .

وهذا السحر إنما بلغته مغنيات المدينة بفضل إحسانهن للغناء حتى يقال إن دَحْمَانَ اشترى جارية بمائتي دينار وعلمها الغناء فباعها بعشرة آلاف دينار^(٢) . واشترى يزيد بن عبد الملك سَلَّامة بعشرين ألف دينار^(٣) ، واشترى حبابة بأربعة آلاف دينار^(٤) . ومن يرجع إلى أخبار المغنين في كتاب الأغاني يجد خلفاء الأمويين منذ الوليد بن عبد الملك يستقبلونهم استقبالاً ، لعله يتفوق على استقبالهم للشعراء ، إذ كانوا يخيِّزونهم جوائز جزيلة . ومما يُروى في هذا الجانب أن يزيد عبد الملك وفد عليه مَعْبَد ومالك بن أبي السمح وابن عائشة ، فأمر لكل منهم بألف دينار^(٥) . وقد توسع الوليد بن يزيد في جوائز المغنين ، فيقال إنه أعطى مَعْبداً اثني عشر ألف دينار^(٦) ، واستقدم جميع مغني الحجاز ، وأجازهم جوائز كثيرة^(٧) . وهكذا كانت الدولة تعترف بالغناء وأصحابه .

ولا ريب في أن هذا التقدير كله إنما يرجع إلى ما أحرزه المغنون والمغنيات في هذا العصر من مهارة وتفوق في فن الغناء . وتَوَجَّ هذه النهضة يونس الكاتب تلميذ مَعْبَد بكتاب في الأغاني التي كانت متداولة في عصره ، وهو أول من دَوَّن الغناء ، ويقول أبو الفرج : كتابه في الأغاني ونَسَبها إلى من غَنَّى فيها هو الأصل الذي يُعْمَلُ عليه ويرجع إليه^(٨) . وهكذا أُتيح لهذه الحركة أن يسجلها أحد أصحابها في عصرها . ومن هنا كانت أخبار المغنين في هذا العصر الأموي وما غنوا فيه ، كل ذلك لا سبيل إلى تهمة ، إلا إذا قامت قرائن واضحة ، وسنعرض في إيجاز لأشهر مغني العصر في المدينة ومغنياته .

-
- | | |
|-------------------------|------------------------|
| (١) أغاني ١٩/١٦ . | (٥) أغاني ١٠٩/٥ . |
| (٢) أغاني ٢٥/٦ . | (٦) المصدر نفسه ٥٥/١ . |
| (٣) المصدر نفسه ٣٤٣/٨ . | (٧) أغاني ١١١/٥ . |
| (٤) أغاني ١٥٦/١٣ . | (٨) أغاني ٣٩٨/٤ . |

أشهر المغنين

كان المغنون في هذا العصر بالمدينة كثيرين كثرة مفرطة ، وقد ترجم صاحب الأغاني لكثيرين منهم ، ولكننا سنكتفي بالحديث عن مشهورهم ، لأننا نعتقد أنهم أثروا في الشعر العربي أثاراً كبيراً . ولعل أشهر المغنين حينئذ طُوَيْس وسائب خاثر ومَعْبُد وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن أبي السَّمْح الطائي .

طُوَيْس

من موالى بني مخزوم ، وطُوَيْس لقبه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، وكنيته أبو عبد المنعم . وكان طويلاً أحول ويقول ابن بدرون : إنه اشتهر في عصر عثمان^(١) ، وكان لا يضرب بالعود ، وإنما ينقر بالدَّفِّ^(٢) ، وكان يضحك كل ثكلى حرّى . ويقول أبو الفرج إن أول غناء غناه ، وهزج به :

قد برأني الحبُّ حتى كدتُ من وجْدَى أذوبُ^(٣)

وهو أول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الإيقاع^(٤) ، وهو ما يسميه أبو الفرج الغناء المتقن ، وهو أيضاً أول من صنع الهزج والرَّمَل في الإسلام^(٥) . ولما طلب مروان بن عبد الملك المخنثين وقال : من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير فرأى السُّوَيْدَاء ، وهى على ليلتين من المدينة في طريق الشام ، فلم يزل بها عمره حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك^(٦) . ويذكر ابن عبد ربه من تلاميذه في المدينة الدلال ونومة الضحى ، وفي مكة ابن سُرَيْج^(٧) .

-
- (١) انظر شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون (٤) المصدر نفسه ٢٩/٣ .
 (٢) طبع ليدن) ص ٦٤ .
 (٣) المصدر نفسه ٢١٩/٤ .
 (٤) أغاني ٢٧/٣ .
 (٥) أغاني ٢٩/٣ .
 (٦) المصدر نفسه ٢٨/٣ .
 (٧) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ .

سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب بن يسار ، وهو مولى فارسي أصله من قَيْء كسرى ، واشترى عبد الملك بن جعفر ولاءه من مواليه ، وأعتقه ، وكان يلزمه بعد عتقه لا يفارقه^(١) . ويقال إنه آلى ألا يغني أحداً سوى ابن جعفر مولاه إلا أن يكون خليفة أو وليَّ عهد ، أو ابن خليفة^(٢) .

ولما جاء نشيط المغني الفارسي المدينة ، وأعجب به عبد الله بن جعفر ، جاره ، ونقل ألحانه إلى الغناء العربي ، ليرضى مولاه . ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطاً بعد ذلك ، فأخذ عن سائب خاثر الغناء العربي ، وأخذ عنه سائب الغناء الفارسي^(٣) .

وإذا كان طُويس اشتهر بالألحان الخفيفة من الهزج والرمل ، فإن سائب خاثر اشتهر بالغناء الثقيل ، فكان أول من غنّى به في العربية . وهكذا وضع هذان المغنيان طُويس وسائب خاثر أسسَ فن الغناء في عصرهما بنوعيه من النقرات الخفيفة والثقيلة . وقد قُتل سائب في موقعة الحرّة . ونجد بين تلاميذه مَعْبَدًا^(٤) وجميلة^(٥) ، وعزّة^(٦) الميلاء .

معبد

هو معبد بن وهب مولى ابن قَطَن ، أعتقه ، وكان أبوه عبداً حبشياً^(٧) ، وكان يشتغل في أول حياته بالتجارة ، وربما رعى الغنم لمواليه ، ومع ذلك كان يختلف إلى نشيط الفارسي وسائب خاثر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت^(٨) . ويقال إنه قدم مكة في شبابه فوجد أحد نبلائها ، ويسمى ابن صفوان ، قد سبق بين المغنين جائزة ، فغناه صوتاً فأعطاه الجائزة^(٩) .

(٦) أغاني ١٣/١٦ .

(١) أغاني ٣٢١/٨ .

(٧) أغاني ٣٦/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣٢٢/٨ .

(٨) أغاني ٣٩/١ .

(٣) أغاني ٣٢١/٨ وانظر طبعة بولاق ١٣/١٦ .

(٩) المصدر نفسه ٤٠/١ .

(٤) المصدر نفسه ٣٢٢/٨ .

(٥) أغاني ١٧٧/٨ .

ويظهر أن صناعة الغناء في المدينة انتهت عند معبد إلى كل ما كان ينتظر لها من حسن وإبداع حتى ليقول إسحق الموصلي : « هو فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء^(١) ». ويقولون إنه لم يكن ، فيمن غنى ، أحد أعلم بالغناء منه ، وفيه يقول الشاعر :

أجاد طويس^٢ والسريجي^٣ بعده وما قصبات^٤ السبق إلا لمعبد

وأثر عنه أنه قال : « والله لقد صنعت أحياناً لا يقدر شعبان ممتلئ ولا سقاء يحمل قرينه على الترنم بها ، ولقد صنعت أحياناً لا يقدر المتكى أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً^٥ ولا القاعد حتى يقوم^(٦) ». وسمع به يزيد بن عبد الملك فاستقدمه ، كما استقدم ابن سريج مغني مكة ، ورؤي أنه قال لمعبد : « إن الذي أجده في غنائك لا أجده في غناء ابن سريج ، أجده في غنائك متانة ، وفي غنائك انحنائاً وليناً^(٧) ». وهذا صحيح ، لأن ابن سريج تلميذ طويس ، وهو كان يغني الغناء الخفيف : الهزج والرملي . أما معبد فتلميذ سائب خاثر ، وهو كان يغني الغناء الثقيل . ولما تولى الوليد بن يزيد بعث في طلبه واستقبله استقبلاً حافلاً حين وفد عليه^(٨) .

وترك معبد مجموعة كبيرة من الأصوات الملحنة رواها أبو الفرج ، ومن أهمها وأجملها خمسة تعرف بألقابها ، وهي الدوامة ، سماه بذلك معبد لكثرة ما فيه من الترجيع ، ثم المنمّم ، ثم معقّصات القرون ، سماه بذلك لأنه يحرك خصل الشعر ، ثم المتبخر ، ثم مقطع الأنفاس^(٩) . وبجانب هذه الأصوات الخمسة نجد له سبعة أصوات أخرى مشهورة وكانت تسمى مدن معبد أو حصون معبد ، وذلك أنه سمع رجلاً يقول : إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك لم يوصل إليها قط ، فقال : والله لقد صنعت سبعة ألحان كل لحن منها أشد من فتح تلك الحصون ، فسئل عنها فذكرها ، ورواها أبو الفرج كلها^(١٠) .

(٤) أغاني ٥٢/١ وما بعدها .

(١) أغاني ٣٨/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣٩/١ . والمستوفز : المتحضر للقيام .

(٥) أغاني طبع دار الكتب ١٠٥/٩ .

(٦) المصدر نفسه ١٣٧/٩ .

(٣) المصدر نفسه ٦٨/١ .

وكان معبد في عصره إمام المغنين في المدينة غير منازع ، واختلف إليه كثيرون يتلقون عنه صنعته مثل حكم الوادي^(١) وابن عائشة^(٢)، ومالك^(٣) بن أبي السمع الطائي ، ويونس^(٤) الكاتب ودحمان^(٥) وجبابة^(٦) وسلامة^(٧) القس . وقد توفي في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده^(٨) ، ونديته تلميذته سلامة^(٩).

ابن عائشة

هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يكن يُعرف له أب فكان ينسب إلى أمه ، وكانت أمه مولاة لكثير بن الصلت الكندي ، وقيل إنها مولاة لآل المطلب ابن أبي وداعة السهمي ، ورُوي عنه أنه قال إن أمه كانت ماشطة^(١٠) .

وكان ابن عائشة من أحسن الناس حلوقاً ، ضربه يوماً رجل فذهب إليه ابن أبي عتيق فضربه ، ثم خلّاه ، وأقبل على من حضر ، وقال : هذا أراد أن يكسر مزامير داود^(١١) . وقال إسحاق الموصلي عنه : « ابن عائشة أحسن الناس ابتداءً وتوسطاً وقطعاً بعد معبد^(١٢) » . وقال يونس الكاتب : « كان ابن عائشة يضرب بالعود ، ولم يكن مجيداً في الضرب ، وكان غناؤه أحسن من ضربه ، فكان لا يكاد يمس العود إلا أن تجتمع جماعة من الضُّراب ، فيضربون عليه ، ويضرب هو ويغني ، فناهيك به حسناً^(١٣) » . وقد طلبه يزيد بن عبد الملك فغناه صوتاً فطرب حتى ألحد في طربه ، وقال فيما قاله لساقيه : اسقنا بالسقاء الرابعة^(١٤) ، وطلبه ابنه الوليد فغناه الصوت نفسه ، فقال له : أحسنت والله يا أميري . . . ثم نزع ثيابه فألقاها عليه ، وبقي مجرداً إلى أن أتوه بمثلها ، ووهب له ألف دينار ، وحمله على بغلة ، وقال : اركبها

(٨) المصدر نفسه ٣٦/١ .

(١) أغاني ٤٥/١ .

(٩) أغاني ٣٧/١ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٣/٢ .

(١٠) المصدر نفسه ٢٠٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه ١٠١/٥ وما بعدها .

(١١) أغاني ٢٠٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه ٣٩٨/٤ .

(١٢) المصدر والصفحة نفسها .

(٥) أغاني ٢٢/٦ .

(١٣) المصدر نفسه ٢٠٥/٢ .

(٦) أغاني ١٥٤/١٣ .

(١٤) المسعودي ٩/٦ .

(٧) أغاني ٣٣٤/٨ .

بأبي أنت وانصرف ، فقد تركنني على مثل المقلبي من حرارة غنائك^(١) . و يروى أنه غنى أهل المدينة يوماً في العقيق فارتفعت أصواتهم : أحسنت أحسنت ! وانصرفوا حوله يزقونه إلى المدينة^(٢) . ويقال إنه غنى بموسم الحج فحبس الناس عن المسير ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكان أمير الموسم هشام بن عبد الملك فأتوه به ، فكلمه ، فوجده تياهاً ، فقال : ارفق بتيهك ، فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياهاً ، فضحك منه وخلى سبيله^(٣) . وقد توفي ابن عائشة في خلافة الوليد بن يزيد ، ويقال إنه توفي مقتولاً^(٤) .

يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كُرد بن شهر يار من ولد هُرْمَز ، وهو من موالى عمرو ابن الزبير ، وكان أبوه فقيهاً فأسلمه في ديوان المدينة فكان من كتّابه^(٥) ، ومن أجل ذلك سمى يونس الكاتب « ولم يكن في أصحاب معبد أحذق ولا أقوم بما أخذ عنه منه^(٦) » . وإذا كان معبد قد اشتهر بحصونه أو مدنه السبع ، فإن يونس اشتهر أيضاً بزيينياته السبع ، وهي كلها من شعر ابن رُهَيْمَة في زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقد رواها أبو الفرج كلها في أغانيه^(٧) . وطلبه الوليد بن يزيد فذهب إليه ، وغنّاه ، وأعجب بغنائه وأجازه بثلاثة آلاف دينار^(٨) .

وأهمية يونس لا تأتي من أنه كان مغنياً فحسب ، بل تأتي من أنه سجل لأول مرة الأغاني ونسبها إلى أصحابها ، فكان كتابه فيها الأصل الذي يعول عليه فيما بعد^(٩) ، واعتمد عليه إسحق الموصلي وابن المهدى في كتابيهما عن المغنين والغناء ، وكذلك اعتمد عليه أبو الفرج نفسه فهو كثير الرواية في أغانيه عنه . ويظهر أنه لم يؤلف

(٦) المصدر نفسه ٣٩٨/٤ .

(١) أغاني ٢٢٦/٢ وانظر المسعودي ٨/٦ .

(٧) أغاني ٤٠٢/٤ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٠٦/٢ وانظر ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

(٨) أغاني ٤٠٠/٤ .

(٣) أغاني ٢٠٨/٢ .

(٩) المصدر نفسه ٣٩٨/٤ .

(٤) انظر وفاته في الأغاني ٢٣٥/٢ وما بعدها .

(٥) أغاني طبع دار الكتب ٣٩٨/٤ .

في الأغاني والمغنين كتاباً واحداً فحسب ، فصاحب الفهرست يذكر له ثلاثة كتب : كتاب مجرّد يونس ، وكتاب القيان ، وكتاب النغم^(١) . وقد أخذ الغناء عن يونس سيّاط ، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي^(٢) . وفي الفهرست أن إبراهيم تتلمذ ليونس مباشرة^(٣) ، وفي ذلك ما يدل على أنه عاش إلى أوائل العصر العباسي .

مالك الطائي

هو مالك بن أبي السّمح الطائي ، فهو مغن عربي أصيل . كان أبوه من طيئ ، وكانت أمه ، ويقال أم أبيه ، من بني مخزوم ، فهو طائي الأب قرشي الأم أو الجدة^(٤) . وكان أبوه منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر ، فلما حضرته الوفاة أوصى به إليه فنشأ في داره بين المغنين والمغنيات ، الذين كان يرعاهم ابن جعفر ، ويظهر أنه لم يكن يكتفى بمن يسمع من المغنين في دار ابن جعفر ، فقد لزم بيت جميلة^(٥) يستمع إلى من عندها من المغنيات والمغنين ، وكذلك لزم باب حمزة بن الزبير ، وكان معبد منقطعاً إلى حمزة يغنيه في كل يوم ، فحمل عنه أصواته وغناؤه^(٦) . ولم يلبث أن أخذ ينفرد بطريقة خاصة به ، وعرف ذلك حمزة ، فقرّبه منه وأمر معبداً أن يطارحه^(٧) وبذلك ذاع صيته في المدينة وخارج المدينة .

وكان مالك يحوّر في ألحان معبد ، يزيد فيها وينقص ، فيُظهر من الإتقان والجودة ما يروع به سامعيه ، قال إسحق الموصلي : « كان مالك إذا غنى ألحان معبد الطوال خَفَّفَهَا وحذف بعض نغمها وقال : أطاله معبد ومطَّطه ، وحذفته أنا وحسنته »^(٨) ، وقال أبو الفرج إنه غنّى حمزة يوماً صوته لمعبد بعد أن زاد فيه ونقص منه ، فألقى عليه حلّة كانت عليه قيمتها مائتا دينار^(٩) . ولما طارت شهرة مالك استقدمه إليه يزيد بن عبد الملك^(١٠) . وكذلك الوليد

(١) الفهرست لابن التديم طبعة القاهرة ص ٢٠٧ . (٦) أغاني ١٠٢/٥ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٥٢/٦ . (٧) أغاني ١٠٤/٥ .

(٣) الفهرست ص ٢٠٧ . (٨) أغاني ١١٢/٥ .

(٤) أغاني ١٠٥/٥ . (٩) أغاني ١٠١/٥ .

(٥) المصدر والصفحة نفسها . (١٠) أغاني ١٠٩/٥ .

ابنه ، وكان يعجب به ، وقد استمر عنده حتى قُتل ^(١) . وعُمّر مالك حتى أدرك دولة بني العباس وقدم على سليمان بن علي بالبصرة فمّت إليه بخوولته في قریش وانقطاعه إلى ابن جعفر ، فوصله وأجزل جائزته ^(٢) . وعاد من فوره إلى المدينة ، ولا نسمع شيئاً عنه بعد هذه الحادثة ، ويظهر أنه لم يعمر طويلاً بعدها .

عطرّد

مولي الأنصار « وكان جميل الوجه حسن الغناء طيب الصوت جيد الصنعة حسن الرأي والمروءة فقيهاً قارئاً للقرآن ، وكان يغني مرتجلاً » ^(٣) وقد أدرك الدولة العباسية وانقطع إلى سليمان بن علي ، وعاش إلى عصر المهدي ، وربما لحق عصر هرون الرشيد ^(٤) . وقد استقدمه الوليد بن يزيد من المدينة ، ويروى أنه لما سمع منه أحد أصواته شقَّ حُلَّةً وشيَّ كانت عليه ورمى بنفسه في بركة خمر ، فما زال بها حتى أخرج كالمت سكرًا ، فلما أفاق قال له : كأتى بك الآن قد أتيت المدينة فقمّت لي في مجلسها ومحفّلها وقعدت وقلت : دعاني أمير المؤمنين ، فدخلت إليه ، فاقترح عليّ فغنيته وأطربته ، فشق ثيابه وفعل ، والله لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرى فبلغني لأضربن عنقك » ثم أعطاه ألف دينار ، فأخذها وانصرف إلى المدينة ^(٥) .

وكانت في عطرّد دعاية فإن والياً لبني العباس شدّد في المغنين وأصحاب الملاهي ، وحبسهم ، وحُبس عطرّد معهم ، فشفع له بعض أهل المدينة ، وقالوا : إنه من أهل المروءة والنعمة والدين ، فأطلقه الوالي ، وخرج ، وسرعان ما عاد إليه ، حين رأى المغنين يُعرضون عليه ، وسأله أعلى الغناء حبست هؤلاء ؟ قال نعم ، قال فلا تظلمهم فوالله ما أحسنوا منه شيئاً قط ، فضحك وخلي سبيلهم ^(٦) فانصرفوا يضحكون من عطرّد وفكاهته .

ويبدو من روايات الأغاني لأصواته أنه كان يُغني دائماً بالغناء الثقيل

(١) أغاني ١١١/٥ وما بعدها وكذلك ٧٩/٦ . (٤) أغاني ٣٠٦/٣ وراجع ٣٠٣/٣ .

(٢) أغاني ١٠٢/٥ . (٥) أغاني ٣٠٧/٣ وما بعدها .

(٣) أغاني ٣٠٣/٣ . (٦) أغاني ٣٠٧/٣ .

فهو من هذه الناحية تلميذ مخلص لفن أستاذه معبد الذي كان يُعنى بالأنغام الثقيلة^(١) .

وهؤلاء هم أشهر المغنين في المدينة في أثناء العصر الأموي ، ووراءهم كثيرون جداً كانوا متفوقين في غنائهم تفوقاً واسعاً . وقد عقد صاحب الأغاني لبعضهم تراجم ألّم فيها بأخبارهم ، وترددت أسماء كثير منهم في أثناء حديثنا عن الغناء . ومن لم نذكره سعد بن هارون^(٢) ، ومنهم يزيد حوراء وقد لحق عصر المهدي^(٣) ، ومنهم البيّدق الأنصاري وقد طرب يزيد بغنائها وأجزل له العطاء^(٤) ، ومنهم أبو سعيد مولى فائد وكان فاضلاً مقبول الشهادة معدلاً وعُمر إلى خلافة الرشيد ولقيه إبراهيم الموصلي وابنه إسحق وذو وهما^(٥) ، وغير أولئك كثير .

وينبغي أن نعرف أن هذه الطبقة الأخيرة من مغني المدينة هي التي نقلت الغناء إلى العراق ، أو قل هي التي نُقِلَ عنها الغناء إلى العراق أوائل العصر العباسي ، فإن كثيراً من أهل المدينة لم يذهب إلى العراق وكان يذهب إليهم المغنون للأخذ عنهم . وأول من اهتم بالغناء من الخلفاء العباسيين المهدي على ما هو معروف^(٦) . ونحن لا نصل إليه حتى نجدّه يستقدم المغنين من الحجاز^(٧) . ومن يقرأ في كتاب الأغاني يجد أكثر أسانيده تنتهي إلى مغني الحجاز ومغني المدينة بنوع خاص ، مما يدل على أن المدينة أثّر مغنوها وغنائهم في العصر العباسي تأثيراً واسعاً جداً .

٦

أشهر المغنيات

رأينا المدينة مكتظة بالمغنين ، وليس معنى ذلك أن المغنيات كن قليلات ، فقد كن كثيرات أيضاً ، ولعل أشهرهن حينئذ عزة الميلاء ، وجميلة وسلامة القسّ وسلامة الزرقاء .

- | | |
|--|-----------------------------|
| (١) أغاني ٣/٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ وكذلك أغاني (٤) أغاني (طبع بولاق) ١٦٣/١٣ . | (٢) أغاني ١٨٥/٨ ، ٢٠١ . |
| (٣) أغاني (طبع دار الكتب) ٣٣٠/٤ . | (٤) البيان والتبيين ٣/٣٧٠ . |
| (٥) أغاني ١/٥٦ . | (٦) أغاني ٦/١٧٤ . |
| (٦) أغاني ٣/٢٥١ . | |

عَزَّةُ الْمَيْلَاءِ

مولاة للأنصار ، وهى أقدم مغنيات المدينة ، وكانت تغنى أولا أغاني القيان من القدائم مثل سيرين وزرنب وخولة والرباب وسلمى ورائقة ، وكانت أستاذتها ، فهى التى خرجتها . ولما قدم نشيط المدينة أخذت عنه ، وكذلك أخذت عن سائب خاثر ، فكانت أقدم من غنى الغناء الموقع بالحجاز من الجوارى^(١) .

وكانت عزة من أجمل النساء ، يقول طوئس هى سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع^(٢) . وكان لها دار اتخذتها تغنى فيها الناس^(٣) . وقد سمعها حسان ابن ثابت وأعجب بها^(٤) ، ويقال إنها فتنت رجال المدينة ونساءها فتنة شديدة^(٥) ، ومن شغف بها ابن أبى عتيق^(٦) ، وقد قصدها هو ، وعبد الله بن جعفر ، وعمر بن أبى ربيعة يوماً فغنتهم ، وغنت عمر فى شئ من شعره ، فشق ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة ، ضُيعَ معها من شدة الطرب^(٧) .

وجمعت عَزَّةُ بين الغناء القديم والحديث فكانت تضرب بالمزاهر والمعازف القديمة ، كما كانت تضرب بسائر الآلات الحديثة^(٨) . ويذكر صاحب الأغاني بين تلامذتها ابن سريج وابن محرز^(٩) فى مكة والبردان^(١٠) فى المدينة . وعاشت حتى لحقت جميلة وغنت فى دارها^(١١) .

جميلة

مولاة بنى بَهْرَ من بنى سُلَيمَ وكان لها زوج من موالى بنى الحارث بن الخزرج ، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها ، فقبل إنها مولاة الأنصار^(١٢) . وهى أصل

-
- (١) أغاني (طبع بولاق) ١٣/١٦ وانظر أغاني (٧) المصدر نفسه ١٤/١٦ .
 (٨) المصدر نفسه ١٤/١٦ وانظر أغاني ٢١٢/٤ .
 (٩) أغاني ١٤/١٦ وانظر أغاني ٣٧٨/١ .
 (١٠) أغاني ٢٧٧/٨ .
 (١١) أغاني ١٤/١٦ .
 (١٢) المصدر نفسه ١٤/١٦ وما بعدها .
 (٥) المصدر نفسه ١٩/١٦ وما بعدها وانظر ٥٥/١٠ . (١٢) أغاني ١٦٨/٨ .
 (٦) المصدر نفسه ١٩/١٦ وانظر ٣٨/١١ .

من أصول الغناء في المدينة ، وقد سُئِلْتُ أُنِّي لك هذا الغناء ، فأجابت : « كان أبو جعفر سائب خاثر لنا جاراً وكنت أَسْمعه يَغْنَى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائي . . وسمعت مولياً يوماً وأنا أغني سراً ، ففهمني ، ودخلني عليّ ، وقلن : قد علمنا فما تكتمينا ، فأقسم عليّ ، فرفعت صوتي وغنيتن ، فحينئذ ظهر أمرى ، وشاع ذكرى ، فقصدني الناس وجلست للتعليم ، فكان الجوارى يتكاوشنني (يتزاحمن حولي) فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئاً . ولقد كسبت لموالي ما لم يخطر لهن ببال ، وأهل ذلك كانوا وكنت »^(١) .

واتحدت جميلة لنفسها في المدينة داراً كبيرة ، وكانت هذه الدار تمتلئ بالمغنين والجوارى ، وتقام فيها حفلات باذخة للغناء ، وكان يشترك في هذه الحفلات بعض المغنين من مكة أحياناً مثل ابن مسجح وابن سريج والغريص وابن مُحَرَز^(٢) . وكذلك كان يشترك فيها المغنون من المدينة من مثل مَعْبُد ومالك بن أبي السَّمْح الطائي وابن عائشة ونافع بن طُنْبُورَة وغيرهم كثير^(٣) . وكما كانت تكتظ دار جميلة بالمغنين كانت تكتظ كذلك بالمغنيات من مثل سَلَامَة القس وسلامة الزرقاء وحَبَابَة وخُلَيْدَة ورُبَيْحَة وعُقَيْلَة العقيقية وفَرَعَة وبُلْبُلَة ولذة العيش^(٤) .

وبلغ الغناء في دار جميلة كل ما كان ينتظره من رقي وازدهار إذ عُرف الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة^(٥) ، كما عُرف الغناء المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة^(٦) . وكثيراً ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير يضم مشاهير المغنين والمغنيات ، لا في المدينة فقط ، بل في مكة أيضاً^(٧) . وكأن جميلة أبت أن تترك بعدها للمغنين ما يحدثونه ، ولعله

(١) أغاني ١٨٧/٨ . (٥) أغاني ٢١٨/٨ وكذلك ٢٢٧/٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٨٨/٨ وما بعدها . (٦) المصدر نفسه ٢٢٦/٨ .

(٣) أغاني ١٨٨/٨ وما بعدها . (٧) انظر المصدر نفسه ١٨٨/٨ وكذلك ٢١١/٨ -

(٤) المصدر نفسه ١٨٦/٨ ، وانظر ٢٠٩/٨ حيث ٢١٢ .

تجد ثبناً بأسماء من كان عندها من المغنيات والمغنين .

من أجل ذلك كان معبد يقول أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين^(١) . وعاشت حتى عصر يزيد^(٢) بن عبد الملك .

سَلَامَةُ الْقَسِّ

مولدة من مولدات المدينة أخذت الغناء عن جميلة ومعبد وابن عائشة^(٣) ، وإنما سميت سَلَامَةُ الْقَسِّ لأن أحد قراء أهل مكة وكان يسمى عبد الرحمن ابن أبي عَمَّار الجُشْمِيُّ ، ويلقب بالقَسِّ لعبادته سمعها ، فشَغِفَ بها وشهر ، وفيها وفي أختها رِيًّا يقول ابن قيس الرُّقِيَّاتُ :

لقد فتنتُ رِيًّا وسَلَامَةُ الْقَسِّا فلم تتركاً للَقَسِّ عقلاً ولا نَفْساً
فَتَاتَانِ أَمَّا مِنْهَا فَشَبِيهُةٌ الـ هَلَالِ وَأُخْرَى مِنْهَا تَشْبَهُ الشَّمْسَا^(٤)

وكانت سلامة جميلة ، وطارت شهرتها ، فطلبها يزيد بن عبد الملك واشترها من مولايها بعشرين ألف دينار . ويقال إن أهل المدينة جاءوا يشيعونها حين أرادت الخروج ، فملأوا رَحْبَةَ القصر ووراء ذلك ، فوقفت بينهم ، ومعها العود ، فغنتهم :

فارقوني وقد علمتُ يقيناً ما لمن ذاق مِيتَةً من إِيَابِ

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت والناس وراءها ينتحبون ويبكون^(٥) واستمرت عند يزيد حتى توفي فرثته بشعر من تأليفها وناحت به عليه^(٦) . ويروى أبو الفرج أن الوليد بن يزيد طلب إليها أن تغنيه شعرها في أبيه فغنته ، وهي تتنغص من ذلك وتدمع عيناها^(٧) ، وعاشت بعد الوليد^(٨) ، ولكن يظهر أنها لم تعمّر طويلاً .

(٦) أغاني طبع دار الكتب ٣٣٣/٨ وكذلك

٣٤٦/٨ .

(٧) المصدر نفسه ٣٤٨/٨ .

(٨) المصدر نفسه ٣٣٤/٨ .

(١) أغاني ١٨٦/٨ .

(٢) أغاني ٦٧/٩ .

(٣) المصدر نفسه ٣٣٤/٨ .

(٤) أغاني ٣٣٧/٨ .

(٥) أغاني ٣٤٣/٨ .

سلامة الزرقاء

تلميذة جميلة^(١) ، وكان يقال إنه لم يُرَ في النساء بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء^(٢) ، ويظهر أنها كانت بارعة الحسن ، قَصَّتْ أول حياتها في دار جميلة^(٣) ، حيث كانت تعلّم بعض الجوارى الغناء^(٤) . واشتراها ابن رامين أكبر تاجر للقيان في الكوفة ، ففتنت هناك كثيراً من الشبان والشعراء ، وعلى رأسهم محمد بن الأشعث وفيها يقول :

أَمْسَى لِسَلَامَةِ الزَّرْقَاءِ فِي كِبْدِي صَدْعٌ مَقِيمٌ طَوَالَ الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ^(٥)
 واشترى ابن رامين من مغنيات المدينة أيضاً رُبَيْحَةَ وسعدة ، وكان أهل الكوفة يغشون منزله يستمعون إليهما . وحجج ابن رامين وأخذ جواريه معه فقال إسماعيل ابن عَمَّار الأَسْدَى واصفاً كيف علتْ حيثُذ الحشرات نفوس أهل الكوفة وأفتدتهم :

أَيُّهُ حَالٌ يَا بَنِ رَامِينَ	حَالُ الْمُحِبِّينَ الْمَسَاكِينِ
تَرَكْتَهُمْ مَوْتَى وَلَمْ يَتَلَفَوْا	قَدْ جَرَّعُوا مِنْكَ الْأَمْرِينَ
وَسَرَّتْ فِي رَكْبٍ عَلَى طِيَّةٍ	رَكِبَ تَهَامٍ وَيَمَانِينَ
يَا رَاعِيَ الدَّوْدَ لَقَدْ رُعَّتَهُمْ	وَيْلَكَ مِنْ رُوعِ الْمُحِبِّينَ ^(٦)
فَرَّقَتْ جَمْعاً لَا يُرَى مِثْلَهُمْ	بَيْنَ دُرُوبِ الرُّومِ وَالصَّبِينِ ^(٧)

وعادت الزرقاء إلى الكوفة مع صواحبها ، وعادت معها الفتنة والإغراء ، فكان يذهب إلى دار ابن رامين كثير من نبلاء القوم ، وعلى رأسهم مَعْنُ بن زائدة ، ورواح بن حاتم ، وابن المقفع . ويقال إنهم استمعوا إليها وإلى سعدة يوماً ثم خرجوا فأرسل معن إليها بدرة وكذلك روح ، ولم يكن مع ابن المقفع مال فأرسل إليها بصكّ ضيعة له^(٨) . ويقال إن أحد الصيارفة سمعها ، فأدخل يده في ثوبه ،

(١) أغاني ٢٠٨/٨ وكذلك ٢٣٠/٨ .

(٥) أغاني ١٣٥/١٠ .

(٢) أغاني ١٧٥/١٨ .

(٦) الذود : الطائفة الصغيرة من الإبل

(٣) أغاني ٢٣٠/٨ .

(٧) انظر أغاني ١٢٧/١٣ .

(٤) المصدر نفسه ٢٥٥/٣ .

(٨) انظر أغاني ١٣٢/١٣ .

وأخرج لؤلؤتين قيمتهما أربعون ألف درهم وأعطاهما لها^(١) . وأخيراً اشتراها جعفر بن سليمان وإلى المدينة بثمانين ألف درهم^(٢) .

وأظن أننا لسنا في حاجة هنا إلى أن نعيد ما قلناه في خاتمة حديثنا عن المغنين من أن المدينة كان لها أكبر الفضل في الحركة الغنائية التي ظهرت في العراق في أثناء العصر العباسي . وهذه سلامة الزرقاء ، وصاحبها رُبَيْحَة وسعدة يذهبن إلى الكوفة ، وقد أخذن معهن فن الغناء الذي كان قد استوى له في المدينة كل ما يمكن من رقى وازدهار . ولا ريب في أن هناك أخريات ذهبن إلى العراق وأثرن فيه مع هؤلاء الجوارى واستطعن هن وتلميذاتهن كما استطاع معهن مَنْ ذهب إلى العراق من المغنين وتلاميذهم هناك أن ينهضوا بالغناء هذا النهوض الذي يقصّه صاحب الأغاني عن إبراهيم الموصلي ، وابنه إسحق ، وإسماعيل بن جامع ، وفُلَيْح بن أبي العوراء ، وزُلْزُل ، وعُلُويّة من المغنين ، وفريدة ، وبَذَل ، وذات الخال ، ومتمم ، وعَرِيب ، ودنانير ، من المغنيات .

والحق أن المدينة هي التي هيأت لنمو الغناء عند العرب هذا النمو الذي جعله يتحول من صناعة بسيطة إلى صناعة معقدة لها تقاليدها ورسومها ، وهي صناعة بلغت مبلغاً عظيماً من السحر والفتنة على أيدي وألسنة كثير ممن برعوا في الغناء براعة هائلة .

(١) انظر أغاني ١٣٢/١٣ .

(٢) المصدر نفسه ١٣١/١٣ وانظر ١٣٦/١٠ .

الفصل الثالث

الشعر والأغاني في المدينة

١

الشعر في المدينة

من يرجع إلى المدينة منذ العصر الجاهلي يجد الشعر فيها كثيراً أكثره مفرطة . روى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال : « قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا »^(١). ولعل مما يؤكد كثرة الشعر والشعراء في المدينة حينئذ أن نجد ابن سلام يتحدث في طبقاته عن شعراء القرى العربية مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، فيقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة ، ويذكر أن شعراءها الفحول في الجاهلية خمسة ، ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، فأما شعراء الخزرج ، فهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَوَاحَة ، وأما شاعرا الأوس فهما قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت^(٢) وقد عقد لهم أبو الفرج - عدا عبد الله ابن رَوَاحَة - فصولاً طويلة في كتابه الأغاني^(٣) .

كان الشعر إذن أهم فنون الأدب في المرحلة الجاهلية بالمدينة ، واستمر له شيء غير قليل من أهميته في ابتداء المرحلة الثانية التي مرت بها ، مرحلة الرسول والخلفاء الراشدين ، فإن قريشا أخذت تهجو رسول الله وأصحابه بعد هجرتهم منها إلى المدينة ، فرأى أن يستعين عليها بشعراء الأنصار . روى أبو الفرج في أغانيه

(٣) انظر أغاني ١/٣ وكذلك ١٣٤/٤ وانظر

أغاني ٢٦/١٥ وأيضاً ١٦٠/١٥ .

(١) ابن عبد ربه ١٢٣/٣ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٢ .

أنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبير وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمر بن العاص ، فقال النبي للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلامتهم أن ينصروه بالسنتهم » ، فتصدى لهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رَواحة^(١) . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قوهم : بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله ابن رَواحة يعيرهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رَواحة^(٢) . واستمع النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إلى حسان وهو ينشد بعض أشعاره في هجاء قريش فقال : « لهذا عليهم أشد من وقع النبل »^(٣) .

واستمرت هذه النبال تصوب من المدينة إلى مكة طوال حربها مع النبي ، حتى إذا فتحت مكة وقفت هذه الحرب اللسانية وأخذ المسلمون وشعراؤهم يهدءون ، بل لقد هجر بعض الشعراء نظم الشعر ، هجره حسان بن ثابت ، أو كاد ، وهجره كعب بن مالك وهجره غيرهما . وهذا طبيعي لأن وقود الشعر العربي في المرحلة الجاهلية كما قدمنا الثأر ، والإسلام ينهى عن الثأر ، وأيضاً فإنه ينهى عن الثلب والهجاء ، ويدعو المسلمين إلى أن يكونوا إخوة متحابين . ومعنى ذلك أن دواعي الشعر أخذت تضعف ، وساعد على هذا الضعف أن العرب شغلوا بعد وفاة النبي بالفتوح وتمصير الأمصار ، وصرفهم ذلك عن الشعر إلا طائفة قليلة أخذت تقول الشعر كما كانت تقوله في الجاهلية ، وكان على رأس هذه الطائفة الحطيئة .

وقصة الحطيئة مع الزبيرقان ، واستعداؤه عليه عمر لما كان من هجائه إياه مشهورة ، فقد حبسه عمر ، واستعطفه الحطيئة بشعر ، ذكر فيه أفراده بذي مرخ ، فعطف عليه عمر وأطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق ألا يعود إلى الهجاء ، ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بعتاء^(٤) . وفي الأغاني أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي بالميت

(٣) المصدر نفسه ١٤٣/٤ .

(٤) أغاني ١٨٩/٢ .

(١) أغاني ١٣٧/٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٣٨/٤ .

وتجديد الضغائن^(١)، ويقال إنه انتهر حسان بن ثابت إذ سمعه ينشد بعض هذا الشعر^(٢).

وكما كره عمر للشعراء أن يتعرضوا للمسلمين وأعراضهم بالهجاء ، كذلك كره لهم أن يتعرضوا لنسائهم وبناتهم بالتشبيب والغزل ، فتقدم لهم ألا يشيب أحد بامرأة إلا جلده ، مما اضطر حميد بن ثور أن يشبَّ بِسَرَحَةٍ (شجرة) ، وأن يقول في تشبيهه :

فهل أنا إن علَّتُ نفسي بِسَرَحَةٍ

من السَّرحِ موجودٌ على طريق^(٣)

ويذهب عمر ، ويأتى عثمان فيسير سيرة صاحبه من النهى عن التعرض للأعراض ، وقد حبس ضابي بن الحارث البرجمي لإقذاعه في الهجاء ، وبقى في سجنه حتى مات^(٤).

وعلى هذا النحو أخذ فن الشعر يضعف بضعف دواعيه في عصر الخلفاء الراشدين إلا ما كان في حروب على ومعاوية ، فقد رجع الشعراء يعيدون السيرة القديمة من السب والتنايد بالألقاب^(٥). لكن هذه الحركة لم تكن في المدينة نفسها ، إنما كانت في العراق مع الجيوش المقتتلة هناك .

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموي وجدنا الشعر ينهض في المدينة نهضة واسعة ، وكأن المدينة عادت في هذا العصر إلى حال تشبه حالها في الجاهلية إذ كان الشعر أهم فنون الأدب التي تمارسها ، وقد هجرته في عصر الخلفاء الراشدين أو كادت ، ولكنها سرعان ما رجعت إليه وأوغلت فيه .

ونحن نعرف أن الإسلام نفي اليهود عن المدينة وقد سكنتها جماعة كبيرة من قريش هاجرت إليها قبل النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، كما نزحت إليها جماعة كبيرة من الموالى الأجانب الذين استرقَّهم أهلها في فتوحهم وانتصاراتهم في بلاد الفرس والشام ومصر .

(٤) ابن سلام ص ٤٠ ، وانظر الشعر والشعراء

لابن قتيبة طبع ليدن ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٥) المسعودى ٤٦/٥ .

(١) أغاني ١٤٠/٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٤٣/٤ .

(٣) أغاني ٣٥٧/٤ .

وهذا الخليط من قريش والأنصار والموالى فى المدينة كان له نشاط واسع فى الشعر فى أثناء هذا العصر ، وآية ذلك كثرة التراجم التى عقدها أبو الفرج فى أغانيه لشعرائهم جميعاً ، وهى تراجم تتضمن أخبارهم ، كما تتضمن طرائف من أشعارهم ، وخاصة التى غنى فيها المغنون . وأشهر من ترجم لهم من قريش عبد الرحمن ابن الحكم^(١) ، من بيت بنى أمية ، وعبد الله^(٢) بن الحسن بن الحسن بن على من بيت العلويين ، وعبد الرحمن^(٣) بن أبى بكر الصديق من بيت أبى قحافة ، وجعفر^(٤) بن الزبير من بيت الزبيريين ، والحسين^(٥) بن عبد الله بن عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب من بيت العباس^(٦) ، وعروة بن أذينة من بنى كيث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وأشهر من ترجم لهم أبو الفرج من حلفاء قريش ابن أُرطاة^(٧) ، وعبيد الله^(٨) بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وهو من حلفاء بنى زُهرة وعداده فيهم ، ثم ابن هُرمة^(٩) ، وهو من الخُلج ، ويقال إنهم من قريش ، وأدرك العصر العباسى .

وقد ترجم أبو الفرج بجانب هؤلاء القرشيين وحلفائهم لجماعة من شعراء الأنصار المهمين ، وكان شعراء الأنصار فى المدينة هذا العصر أكثر نفراً من شعراء قريش . وهذا طبيعى فقد كان فى الأنصار بيوت كثيرة تشتهر بالشعر منذ العصر الجاهلى ، كبيت حسان بن ثابت ، وقد ترجم صاحب الأغاني لشاعرين منه فى هذا العصر ، وهما عبد الرحمن بن حسان^(١٠) وابنه سعيد^(١١) . وبحوار بيت حسان نجد بيت كعب ابن مالك ، يقول صاحب الأغاني : لكعب أصل أصيل وفرع طويل فى الشعر ، ابنه عبد الرحمن شاعر ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، ومعن بن عمر

-
- | | |
|--------------------------------|---|
| (١) أغاني ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣ . | (٨) المصدر نفسه ١٣٩/٩ . |
| (٢) المصدر نفسه ٢٠٣/١٨ . | (٩) المصدر نفسه ٣٦٧/٤ . |
| (٣) المصدر نفسه ٩٣/١٦ . | (١٠) ترجم أبو الفرج لعبد الرحمن بن حسان |
| (٤) أغاني ١٠٤/١٣ . | ترجمة متداخلة مع عبد الرحمن بن الحكم ، انظر |
| (٥) المصدر نفسه ١٦٩/١٠ . | الأغاني ٧٢/١٢ وكذلك ١٥٠/١٣ . |
| (٦) أغاني ١٦٢/٢١ . | (١١) انظر أغاني ٢٦٩/٨ . |
| (٧) انظر الأغاني ٢٤٢/٢ . | |

ابن عبد الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر ، ومعن بن زهير بن كعب شاعر ، وكلهم مجيد مقدم^(١). ووراء هذين البيتين الكبيرين للشعر في هذا العصر نجد كثيراً من شعراء الأنصار ترجم لهم صاحب الأغاني مثل النعمان بن بشير^(٢) والسري بن عبد الرحمن^(٣) ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً الأحوص شاعر المدينة في هذا العصر غير مدافع .

ويأتى في إثر هؤلاء الشعراء من قريش وحلفائهم ومن الأنصار طائفة من شعراء الموالى مثل موسى شهوات وكان يلقب بشهوات لأنه كان سئولاً مُلْحِفاً ، وقيل لأن امرأته كانت تقول ما يزال موسى ينجثنا بالشهوات ، فغلبت عليه^(٤). وأصله من أذربيجان ، وقيل ليس بالمدينة شاعر من الموالى إلا وأصله من أذربيجان^(٥)، واشتهرت من هؤلاء الموالى أسرة بالشعر هي أسرة يسار النسائي ، فقد كان ابنه إسماعيل شاعراً مهماً ، ترجم له صاحب الأغاني ترجمة مستفيضة^(٦)؛ وكذلك كان ابنه محمد وإبراهيم شاعرين^(٧) ، وكانت فيهم جميعاً نزعة إلى الشعوبية ، وروى صاحب الأغاني شعراً لإسماعيل يُفصح في وضوح عن هذه النزعة^(٨).

أرأيت إلى هذا الحشد الحاشد من الشعراء الذين عاشوا في المدينة لهذا العصر وترجم لهم صاحب الأغاني ، وهو لم يترجم لكل شاعر نبت في المدينة حيثئذ ، إنما ترجم للمشهورين منهم . وليس من شك في أن هذا الحشد يدلُّ دلالة قاطعة على مدى ما كان في المدينة من نهضة للشعر ، وهى نهضة واسعة تجعل الإنسان يظن أن أهل المدينة كانوا جميعاً يصطنعون الشعر في هذا العصر حتى الموالى منهم كانوا ينظمونه ويصنعونه .

(٥) الشعر والشعراء ص ٣٦٦ .

(٦) أغاني ٤٠٨/٤ .

(٧) المصدر نفسه ٤١٢/٤ .

(٨) المصدر نفسه ٤١١/٤ وكذلك ٤٢٣/٤ .

(١) أغاني ٢٧/١٥ .

(٢) أغاني بولاق ١١٩/١٤ .

(٣) المصدر نفسه ٦٥/١٨ .

(٤) أغاني ٣٥١/٣ .

الشعر والأغاني

وإذا أخذنا نبحت الشعر العربي في المدينة في أثناء العصر الأموي وجدناه يتفرع إلى فرعين كبيرين : فرع تقليدي ، وفرع للغناء هو الأغاني ، ونقصد بالأول شعر الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وبالثاني شعر الغزل الذي كان يغنى فعلاً ، يغنيه المغنون والمغنيات في المدينة ، ويصحبون غناءهم بالضرب على الأدوات الموسيقية ، وكان موضوعه غالباً الحب وما يتصل به .

وإذا أخذنا نقارن بين هذين الفرعين الكبيرين للشعر في المدينة في أثناء العصر الأموي ، عصر الغناء والمغنين ، وجدنا الفرع الثاني يتفوق على الفرع الأول تفوقاً شديداً سواء في كثرة ما رُسِّوه ، أو في كثرة ما جاء منه من نماذج فنية . وتحقيق هذه المسألة لا يحتاج إلى أكثر من قراءة تراجم الشعراء السابقين في كتاب الأغاني واستعراض ما خلفوه من شعر . ولعل أول ما يلاحظه قارئ الأغاني على هؤلاء الشعراء أن أغلب القرشيين منهم لم يُغنوا بالشعر التقليدي أي عناية ، فعبد الله بن الحسن إنما يروي له صاحب الأغاني غزلاً ، وكذلك هو يروي لعبد الرحمن بن أبي بكر ولجعفر بن الزبير وللحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس . وطبيعي ألا يُؤثر عن هؤلاء السادة مديح ، وفيمن يمدحون ؟ وهم يرون أنفسهم خليقين بالمدح ، وأنه كان أولى بالشعراء الذين يمدحون ملوك بني أمية أن يمدحوهم ، وهم كذلك كانوا يرفعون أنفسهم عن الإسفاف وأن ينزلوا من سمائمهم إلى السب والقذف ، لذلك كله لم يتركوا مديحاً ولا هجاء ، وإنما تركوا شعراً يعبر عن عواطفهم الخالصة ، وسرعان ما يسمع به المغنون والمغنيات أو يُسمِعونه لهم ، فيقبلون على غنائه والترنم به .

ولم يتورط أحد من نبلاء قريش في الشعر التقليدي سوى عبد الرحمن بن الحكم فقد أغرم بهجاء عبد الرحمن بن حسان . ويظهر أنه اضطرَّ إلى ذلك ؛ لأن عبد الرحمن كان يكثر من هجاء معاوية وبيته ، فردَّ عليه ، وسرعان ما استمر الهجاء بينهما^(١).

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن عبد الرحمن بن حسان حين أراد أن يهاجم معاوية ابتكر طريقة سار عليها كثير من شعراء الحجاز وهي أن يهاجمه عن طريق الغزل بابتته . وهكذا تغزل في رَمْلَة بنت معاوية ، وغاز ذلك أخاها يزيد فيما يقول الرواة (١) .

ويذهب عبد الرحمن بن حسان فلا يخلفه من يقوم على هجاء بني أمية ، فقد أذغنت المدينة لهم منذ موقعة الحرّة ، ولعلها من أجل ذلك لم يظهر بها شعر سياسي مما ظهر في هذا العصر عند شعراء الأمويين من مثل الأخطل ، أو شعراء الشيعة من مثل الكُمَيْت ، وحتى ابن الزبير لم يكن له شاعر بالمدينة ، بل حتى عبد الله بن حنظلة لا نجد في المدينة من يرثيه لا هو ، ولا قتلى الحرّة ، إنما يرثيه ويرثيهم ابن قيس الرقيات بقصيدته المشهورة :

ذهب الصَّبَا وتركت غِيَّتِيهَ ورأى العَوَالِي شَيْبَ لِمَتِيهَ (٢)

لم يَمُ الشعر التقليدي في المدينة هذا النمو الذي أتاح في بيئات أخرى للشعر السياسي أن يظهر وأن يكثر ، لأن المدينة كانت تتخفف ، ولم ترد أن تتورط في شغبٍ قد يؤذيها .

وقد أسلمت المدينة لعبد الملك ، ولم يعد يوجد فيها شاعر يُعنى بهجاء بني أمية ، بل إن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ينزع عن مذهب أبيه ، ويتخذ مذهب المدينة وما كان يشيع فيها من ملق للأمويين ، فيمدحهم ويصلونه (٣) . وكذلك كان الأحوص يمدح الأمويين وينال صلاتهم (٤) ، وقد تخصص ابن هرمة في مديح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عامل المدينة لمروان بن محمد ، وفيه يقول (٥) .

يكاد بأئلك من جودٍ ومن كرمٍ من دون بوابه للناس يندلقُ
وربما كان المدح أكثر شيوعاً في شعراء الموالي بحكم أنهم أجانب وأن مركزهم الاجتماعي يجعلهم في حاجة إلى التكسب كما يجعلهم أكثر استعداداً للتذلل والتضرع . وكانوا يمدحون النبلاء الذين يجاوزونهم من أهل المدينة ، ولم يكن هواهم

(١) أغاني ١٢٢/١٤ . (٢) المصدر نفسه ٢٤٨/٤ وما بعدها .

(٣) ديوان ابن قيس الرقيات (طبع فيينا) ص ١٨٦ . (٤) أغاني ١٠٣/٦ .

(٥) أغاني طبع دار الكتب ٢٦٩/٨ .

على العموم مع بنى أمية ، لأن النبلاء الذين يعيشون معهم لم يكونوا من هوى بنى أمية ، ثم بنو أمية عُرِفوا بتعصبهم للعرب على الموالى ، فكان ذلك مدعاة لأن يكتفوا بمدح من يجاورونهم من الأشراف والسادة . ومع ذلك كله نجدهم يفدون على الأمويين بمدحهم وينالون جوائزهم ، ففي الأغاني أن خلفاء بنى أمية كانوا يحسنون إلى موسى شهوات ويدرون عطاءه ، وتجيئه صلاتهم إلى الحجاز^(١) . وكذلك كان إسماعيل بن يسار يقدِّ عليهم ويحيزونه ، مع أنه كان كالمقطع إلى عروة ابن الزبير^(٢) .

على أننا إذا أخذنا نقيس مدح هؤلاء الشعراء إلى ما أنتجوه هم أنفسهم من شعر في الحب والغزل غنَّى فيه المغنون والمغنيات في المدينة لم نجد شيئاً مذكوراً . والحق أن من يبحثون عن شعر المدح في هذا العصر ينبغي ألا يبحثوا عنه في المدينة ، إنما يبحثون عنه في العراق عند جرير والفرزدق والأخطل شاعر البلاط الأموى المشهور ومن نهج نهجهم .

لم تكن المدينة متفوقة هذا العصر في شعر المدح ، وهى كذلك لم تكن متفوقة في شعر الهجاء ، وليس معنى ذلك أنه لم يوجد فيها هجاء ، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء الذين سميناهم ومعهم الأصوص يعنون بالهجاء أحياناً ، ولكنهم لم يتخصصوا به على نحو ما نجد في العراق التى أنتجت في هذا العصر النقائض المعروفة بين جرير والفرزدق أو بين جرير والأخطل .

ولعل من الطبعي ألا يسود الشعر التقليدى من هجاء وغير هجاء في المدينة هذا العصر ، لأن المدينة لم تكن محافظة ، ولم تكن تسير في حياتها على النهج الجاهلى ، كما سارت قبائل العراق ، بل لقد كانت مجددة ، وقد أصابت حظوظاً من الترف والنعيم ، فكان من نتائج ذلك أن نفرت إلى حد ما ، مما يمثل حياة العرب القديمة وخاصة هذه الحياة التى تقوم على الصعوبة في الخلق والخشونة ، فيكون الهجاء ، ثم هى كانت من الثروة والترف بحيث لا تحتاج إلى مال بنى أمية وبحيث يضطرها هذا المال إلى أن تسرف في مديحتها للأمويين ، ثم هى كانت معارضة

(٢) المصدر نفسه ٤/٤٠٨ .

(١) أغاني ٣/٣٦٥ .

لبنى أمية ، فلم يطلب منها الأمويون شعراء المدح الذين يباهون بهم الأقاليم الأخرى وشعراءها .

وبجانب ذلك كله كانت المدينة مكتظة بدور الغناء والمغنين والمغنيات ، وكانت هذه الدور تطلب دائماً غزلاً يُغنى ، وكان هذا الغزل هو الذى يشيع ، لأن أشراف المدينة وسادتها كانوا يطلبونه لمغنيهم ومغنياتهم ، وكانوا إذا فقدوه فى المدينة طلبوه فى شعر البادية^(١) ، وهل تظن أن أحداً من الشعراء الذين سميناهم اشتهر فى المدينة هذا العصر وهو لا ينظم غزلاً ؟ إنهم جميعاً كانوا أصحاب غزل ينظمونه ، وبهذا الغزل نالوا شهرتهم فى عصرهم ، بل إن كثيراً منهم لم يؤثر عنهم شعر تقليدى كأكثر شعراء قريش وبعض شعراء الأنصار من مثل السرى بن عبد الرحمن ، وفيه يقول صاحب الأغاني : « إنه كان أحد الغزلين »^(٢) . وعلى هذا النحو كان كثير من شعراء المدينة يقصر نفسه على الغزل وحكاية عواطف الحب ، إما لأنه من سادتها أو لأنه يريد أن يرضى دور الغناء فيها . وكان من يكون شاعراً من هؤلاء السادة يتخصص بشعره بعض المغنين أو المغنيات ، يغنيه له ، فقد روى صاحب الأغاني أن مالك بن أبى السمح كان يتغنى^(٣) فى أشعار الحسين ابن عبد الله بن العباس .

وكما كان يتخصص بعض المغنين بشعر بعض سادة المدينة كان يتخصص بعض آخر بشعر شاعر ممتاز ولو لم يكن من كبار الأشراف والسادة . وكانت المغنيات خاصة تتعلق بشعر الأحوص إذ كن يُعجبن به وبشعره . كانت تعجب به جميلة^(٤) وسلامة^(٥) وغيرهما .

وأخذ المغنون يشتهرون بمجموعات من هذه الغزليات التى كان ينتجها الشعراء ، وكانوا هم يغنون فيها ، فيونس الكاتب يشتهر بزينيات ابن هرمة ، وهى قطع كلها فى زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٦) ، وحتى عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة نجده يشتهر بسعادياته ، وهى سبعة ألحان تُذكر

(٤) أغاني ٢٠١/٨ .

(١) أغاني ٢١٣/٤ .

(٥) المصدر نفسه ٢٣٧/٨ .

(٢) أغاني ٦٥/١٨ .

(٦) أغاني ٤٠٥/٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٧٠/١٠ .

فيها كلها سعاد^(١).

ومهما يكن فإن الغزل كان هو الشغل الشاغل للمدينة في هذا العصر ، وكان الشعراء يهتمون به اهتماماً شديداً ، وقد توفروا عليه من قرشيين وأنصار وموال كل يريد أن يحدث فيه ما يشتهر به بين أبناء عصره . واستطاعوا أن ينهضوا به نهضة واسعة إذ حشدوا أنفسهم له ، وكادوا ألا يستبقوا من ملكاتهم شيئاً لفن آخر ، لا لخطابة ولا لكتابة ولا حتى لشعر تقليدي . ولعل من أطرف ما يُروى في هذا الصدد أن أحد أبناء المدينة سأل جريراً أن يُسمعه بعض شعره ، وشعره كله على ما نعرف تقليدي : مدح وهجاء ، فأبى عليه أن يسمعه شيئاً قائلاً : يا أهل المدينة إنما يعجبكم النسب^(٢).

كانت المدينة بلدة النسب كما يقول جرير في هذا العصر وكان يغنيه طوئس وسائب خاثر ومعبد وجميلة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات . واستطاعت المدينة أن تظفر بطائفة كبيرة من الشعراء تجد عندها ما يغنيه هؤلاء المغنون الكثيرون ، بل قل ما يوقعه هؤلاء المغنون الكثيرون على أدواتهم الموسيقية المختلفة . وسنقف قليلاً نتحدث عن هذا الشعر ونعرض لأهم مميزاته .

٣

خصائص في مضمون الغزل وأغانيه

لعل أول ما يلاحظ على الأغاني التي كان يغنيها المغنون والمغنيات في المدينة أنها كانت مقطوعات قصيرة ، فهم لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، ومهما أطالوا فلن يتجاوزوا سبعة أبيات إلا في النادر . على أن بعض المغنين كان يأبى أن يغني في أكثر من بيتين^(٣) .

وهذه القطعة الصغيرة التي كانت تغنى كانت تُختار من الشعر التقليدي

(٣) انظر الأغاني ١/٣٧٩ .

(١) أغاني ٩/٢٥٤ .

(٢) أغاني ١/٧٦ .

أحياناً ، فقد تكون مديحاً أو تكون حماسة أو رثاء أو حكمة ، ولكن ليس هذا هو الغالب ، إنما الغالب أن تكون غزلاً ، بحيث إذا قلنا إن الغزل كان موضوع الأغاني في المدينة لم نبعد . وهو غزل قصير لم يستطع الشعر القديم أن يمد المغنين والمغنيات منه إلا بقطع قليلة ، لأن الغزل لم يكن الموضوع الغالب على الشعر الجاهلي ، إنما كان يغلب عليه الحماسة والهجاء . ومن ثم كان من الضروري أن يجد المغنون والمغنيات حاجتهم من شعر حديث يؤلف لهم ، شعر يكون موضوعه الحب : حياته وموته ووقائعه ، وليس من الضروري أن يكون قصائد طويلة ، بل يكفي أن يؤلف الشاعر طائفة صغيرة مختارة من الأبيات فيغنيها المغنون والمغنيات ويجدوا فيها طلبهم .

وقد أقبل شعراء المدينة على هذا الغزل يؤلفونه ، وأقبل من ورائهم شعراء البادية وشعراء مكة . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وهو ينظم من هذا الشعر الذي تطلبه دور اللهو وقصور النبلاء والأشراف من رجال ونساء كى يغنيه مواليهن من مغنيات ومغنين . وهكذا لم تعد المدينة تُعنى بالشعر الذي كان يقال في حروبها القديمة ، حرب بُعَاث وغيرها ، وكذلك لم تعد تعنى بالشعر القديم كله ، فقد صَبَتْ عنايتها على هذا الشعر الجديد الذي كان يحكى قصة الحب ، ويصور لواعجه وحوادثه . وقد يعنى شاعر المدينة بالمديح فلا يعنى به الناس ، ولا يعنى به المغنون إلا أن يكون في خليفة أو أمير كبير ، ويذهبوا إليه يطلبون جائزته ، فيغنوا له بهذا الشعر الخاص (١) .

ونقول الخاص لأنه فقد الآذان التي تُعنى به في المدينة ولم تعد هناك أذن تحب أن تسمع سوى الشعر الحديث الذي يغنى فيه طويس ومعبد وجميلة وسلامة ومن إليهم ، فهو الشعر العام الذي يستهوى جميع القلوب والأفئدة .

أصبحت المدينة لا تعنى إلا بهذا الغزل الجديد ، وقد كان يخالف - إلى حد كبير - نسب القدماء ، الذين لم يكونوا يحرصون نسبهم بمقطوعات خاصة على نحو ما نعرف في هذا العصر ، بل كانوا يسوقون النسب في مطلع قصائدهم كأنه ليس

(١) أغاني ٢٩٧/١ وكذلك ٢٤٩/٤ وما بعدها .

غايته من أشعارهم ، إنما هو يأتي تبعاً ، أما في هذا العصر فقد أصبح الغاية كلها .
وأيضاً فإنهم كانوا يعنون بيبكاء الديار ووصف أثر ارتحال المرأة مع قومها ، أما في
هذا العصر فقد كان أهل المدينة مستقرين ، وكذلك كانت ديارهم ، فلم يعد
لشعرائهم ولا لمغنيهم حاجة بهذه الصورة القديمة من النسب إلا حين يريدون أن
يقلدوا القدماء .

كان غزل المدينة يختلف في صورته عن النسب القديم لا مما قدمنا فقط .
بل أيضاً من أن الشاعر كان يقصد في القطعة التي يعالجها إلى تصوير حبه وما يلقي
فيه من وَصَبٍ وعذاب . وبذلك كان غزله معنوياً أكثر من النسب القديم ،
فالشاعر يُعنى فيه بحكاية خواطره ، وقلما عُنِيَ فيه بوصف المرأة وصفاً حسيّاً ، وينبغي
أن لا نفهم من ذلك أن أغلب غزل المدينة في هذا العصر كان غزلاً عفيفاً ، ففرق
بين أن يكون الغزل معنوياً وأن يكون عفيفاً ، ومرّ بنا ما كانت تنغمس فيه المدينة
من حضارة وترف ، وما كان يشعر به أهلها من حرية وهي حرية جعلت الغزلين
منهم يعبرون في صراحة عن خواطرهم إزاء المرأة في شعرهم وماذا يمنعهم من هذا التعبير ؟
وهم قوم لا عمل لهم إلا الفراغ وإلا اللهو ، فتلك هي وظيفتهم حينئذ في الحياة ،
وهي وظيفة نعموا بها حيناً من الدهر ، وكان لا بد للغزل الذي يعبرون به عن خلجاتهم
أن يفصح عن وظيفتهم ، بل قل عن حياتهم ، وهي حياة صريحة لا يتكلفون فيها
ولا يتصنعون .

كانت صورة الغزل في المدينة هذا العصر صورة صريحة لا التواء فيها ولا عوج ،
بل يحكى فيها الشاعر كل ما يقع له مع صواحيبه ، ومن هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة
في هذا العصر غزل صريح لم تكن مخطئين .

وليس معنى ذلك أن المدينة انتفى منها الغزل العفيف ، وإنما معناه أن هذا
هو الكثير الغالب . وقد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب شعر عفيف فيه تسام
وفيه طهر ، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من تغزلوا وعبروا في غزلهم عن مثالية
من العفاف والنبيل دون سقوط في حكاية رغبات حسية أو لذائذ جسدية على نحو ما
نعرف عند فقيه المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

وأيضاً ينبغي أن نعرف أن غزل الصريحين أنفسهم كان يختلف باختلاف

المرأة التي يتغزلون فيها ، فالمرأة العربية الكريمة من قريش أو من الأنصار لا يتغزلون بها في حرية على نحو تغزلهم بالقيان من الجوارى المغنيات اللاتى كن يُعَنَّ في الأسواق .

وليس من شك في أن هؤلاء القيان كان لهن أثرهن في شيوع الغزل الصريح بالمدينة وانتشاره . وكذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت البيئتان تشابهان من حيث الحضارة والترف ومن حيث وجود دور اللهو وهؤلاء القيان .

ولعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف في البادية عند جميل وكثير وأصحابهما ، فقد كانت البيئة غير متحضرة ، ولم يكن هناك هؤلاء القيان ولا هؤلاء الشبان المترفون من أهل المدينة .

على كل حال كان غزل المدينة في هذا العصر يتميز بألوان من الصراحة والحرية . فالشاعر فيه مرسل طليق لا يعوقه شيء عن التصريح بما يدور في نفسه . وقد شاع بين الشعراء بدع جديد هو أن يقصوا حوادثهم من غير تحفظ ولا تكلف ، واستمع إلى هذه القصة ينظمها إسماعيل بن يسار أحد الموالى هناك (١) :

كَلَّمْتُ أَنْتِ الْهَمُّ يَا كَلَّمْتُ	وَأَنْتُمْ دَائِي الَّذِي أَكْتُمْ
أَكَاثِمِ النَّاسَ هَوَى شَفَى	وَبَعْضُ كَتَمَانِ الْهَوَى أَحْزَمُ
قَدْ لُمْتَنِي ظُلْمًا بَلَا ظَنَّةٍ	وَأَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا الْوَمُ
أُبْدِي الَّذِي تُخْفِيهِ ظَاهِرًا	أَرْتَدُّ عَنْهُ فَيْكُ أَوْ أَقْدِمُ
إِمَّا بِيَأْسٍ مِنْكَ أَوْ مَطْمَعٍ	يُسْدَى بِحَسَنِ الْوَدِّ أَوْ يُلْحَمُ (٢)
لَا تَرَكْنِي هَكَذَا مَيِّتًا	لَا أُمْنَحُ الْوَدَّ وَلَا أَضْرُمُ
أَوْفَى بِمَا قُلْتَ وَلَا تَنْدَمِي	إِنْ الْوَفَى الْقَوْلُ لَا يَنْدَمُ
إِيهِ بِمَا جِئْتَ عَلَى رِقْبَةٍ	بَعْدَ الْكَرَى وَالْحَى قَدْ نَوَمُوا
أَخَافُ الْمَشَى حِذَارَ الْعِدَا	وَاللَّيْلِ دَاغَ حَالِكُ مَظْلَمُ

أى ينسج إما ابتداء وإما انتهاء

(١) أغاني ٤/٤١٦ .

(٢) يسدى ويلحم : من سداة الثواب ولحمته

ودون ما حاولتُ إذ زرتكم
وليس إلا الله لي صاحبٌ
حتى دخلت البيت فاستدرفتُ
ثم انجلي الحزن وروعاته
فتُ فيما شئت من نعمةٍ
حتى إذا الصبح بدا ضوؤه
خرجتُ والوطء خفيُّ كما
أخوك والخالُ معاً والحَمُّ
إليكم والصارمُ اللَهْدَمُ
من شَفَقَ عيناك لي تَسْجُمُ
وعُيْبُ الكاشحِ والمُيْرَمُ^(١)
يمنحنيها نحرها والفم
وغارتِ الجَوْزاء والمِرْزَمُ^(٢)
ينساب من مكنه الأَرَقَمُ^(٣)

وواضح أن إسماعيل يبدأ قصته بمخاطبة صاحبه كلثم ، وهو يعلن أنه حاول أن يكتُم هواها ، ويذكر ما كان من لومها إياه ويصف ما كان منه بعد ذلك ، فهو يتردد بين اليأس والطمع ، وما يزال بها يطالبها بما وعدته ، ثم يقص علينا وعداً معها ، فيروى كيف أنه زارها خلصة ذات ليلة وقد نام أهلها ورقبائها ، ويصف كيف كان يخفّف مشيه حتى لا يشعر به أحد ، وما يلبث أن يدخل بيتها فتبكي وتبلى خدودها بالدموع ، ثم ينجلي الحزن ، أو قل ينجلي إثر المفاجأة ، حتى إذا بدا ضوء الصباح انصرف إسماعيل كما أقبل ، يخفف من مشيه وسيره ، كأنه أرقم ينساب من مكنه .

أرأيت إلى هذه القصة القصيرة وما تصف في حرية وصراحة ؟ إنها مثال هذا الغزل الذي شاع في المدينة والذي لم يكن إسماعيل بن يسار خير من يمثله ، وإنما كان الأحوص الشاعر الأنصاري خير من يمثله حقاً ، فقد شاعت في شعره الحرية والصراحة .

وسنعرض للأحوص بالتفصيل في غير هذا الموضع . ومهما يكن فإن كثيراً من غزل المدينة لهذا العصر كان غزلاً صريحاً .

(١) المبرم : المجلس الثقيل .

(٣) الأرقم : أحببت الحيات .

(٢) المِرْزَم : نعيم .

خصائص موسيقية

تحدثنا عن خصائص الأغاني في المدينة من حيث الموضوعات والمعاني التي كانت تعالجها ، ولكن لم نتحدث عن موسيقاها ، ولعل الحديث في هذا الجانب أوفر شعباً ، وأكثر فروغاً ، فهذه الأغاني كانت مقطوعات تُغنى ، أو قل - كما كانوا يقولون - كانت أصواتاً تُغنى . ومعنى ذلك أن المغنين والمغنيات كانوا يُقطِّعونها ويملِّدونها أو يملِّطونها ويضربون عليها بآلاتهم الموسيقية ، وقد تضرب عليها جوقه ، وقد يرقصون عليها كما قدمنا في حديثنا عن دار جميلة ، فقد كان غناء الشعر في هذه الدار يُضَحَّبُ بجوقه تضرب على الآلات الموسيقية في حين يغنى المغنون وقد لا يكتفون بذلك ، فإذا هم يرقصون في أثناء هذا الضرب .

وليس هذا كله ما مر بنا في فصل الغناء السابق ، فقد مر بنا أيضاً أن هؤلاء المغنين والمغنيات نقلوا إلى العربية أنغاماً وألحاناً أجنبية عن نشيط وغيره ، وأنهم استطاعوا أن ينقلوا الغناء العربي من حال بسيطة ساذجة إلى غناء متقن ، أو قل إلى فن له مصطلحاته وتقاليده ، فإذا بنا نسمع عن ثقیل أول ، وثقیل ثان ، وخفيف ثقیل ، ورمل ، وخفيف رمل ، وهَزَج ، وإذا بنا نسمع عن أصابع ، فهذا ثقیل بالبصر أو بالخنصر في مجرى البصر ، ونحو ذلك مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

وإنما نذكر ذلك الآن لتساءل هل أحدث هذا الفن الجديد من الغناء عند العرب تجديداً أو تغييراً في موسيقى الأغاني في أثناء هذا العصر الأموي . وأكبر الظن ، بل أكبر اليقين ، أن تجديداً أو تغييراً في هذه الموسيقى قد حدث ، ويتضح ذلك لمن يقرن موسيقى هذه الأغاني التي كانت تُغنى في المدينة لهذا العصر إلى موسيقى الشعر الجاهلي القديم ، ونقصد طبعاً موسيقى الأغاني التي كانت تؤلف حينئذ للمغنين والمغنيات ، لا ما كانوا يغنون فيه من الشعر كله ، فبعض ما كانوا يغنون فيه كان يُختار لهم من الشعر القديم نفسه .

ولعل أول ما يدركه قارئ كتاب الأغاني في هذا الصدد أن موسيقى الأغاني الجديدة كانت أكثر صفاء من موسيقى الشعر القديم ، وكانت لغتها أكثر قرباً من لغة الشعر القديم ، فهي تُختار من اللغة المألوفة ، وكان ذلك من أهم الأسباب في أن تصبح هذه الأغاني الجديدة شعراً شعبياً .

ويأتى الوزن بعد اللغة ، وهو الآخر طرأ عليه كثير من التعديل إذ كان المغنون والمغنيات يُضْطَرُّون مع ألحانهم أن يطيّلوا ويمدّدوا في بعض حروف تفعيلات البيت وأن يقصروا أو يهمسوا في حروف أخرى من هذه التفعيلات . وذلك يجعلنا نؤمن بأن موسيقى الشعر القديم نفسها تطورت تحت تأثير هذا المدّ والهمس فطالت المسافات الزمنية في بعض الحروف وقصرت في أخرى . وأتاحت هذه الصورة من الغناء للشعراء المعاصرين ، أو قل نبتهم ، أن يحدثوا زخافات وعِلَلًا كثيرة في شعرهم . ومن يدرس هذا الباب في عروض الخليل يعرف إلى أى حد يتغير البحر عن صورته حين تدخل فيه هذه الزخافات والعلل ، فالرمل مثلاً ووزنه فاعلاتن ثلاث مرات ، حين يلم به الزخاف في جزئه الأول ويصبح فَعِلَاتن يتغير عن صورته القديمة ، ويصير سريعاً لسرعة حركاته ، ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعاً ، بخلاف الطويلة فتجعله بطيئاً ، وتلائم الأولى الموضوعات العنيفة التي تعبر عن عواطف ملتهبة ، في حين تلائم الثانية الموضوعات الهادئة التي تعبر عن عواطف فاترة أو معزّنة . وعلى هذا النحو كان الشعراء في المدينة في أثناء هذا العصر يحرفون في صورة الوزن القديم تحت تأثير الغناء المعاصر لهم ، تحريفاً يضيق ويتسع في تفعيلات الشعر . ومن يرجع إلى عروض الخليل يدرك مدى هذا التحريف ، فهو أكثر وأوسع من أن نلم به في هذا المكان .

وليس هذا كل ما أثار به المغنون والمغنيات في الأغاني وأوزانها ، فقد أثروا فيها من طريق آخر ، وذلك أنهم كانوا يقبلون على الأوزان الخفيفة ، ويطلبونها ، مما جعل أصحاب الأغاني في عصرهم يهجرون ، إلى حد ما ، الأوزان الطويلة من مثل الطويل والكامل ويقبلون على الأوزان السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهزج ، ولم يكتفوا بذلك ، فقد توسعوا في تلبية نداء المغنين والمغنيات ، فإذا هم يجرّئون لهم الأوزان الطويلة المعقدة ، كما يجرّئون لهم الأوزان

السهلة البسيطة ، حتى يخففوا عليهم ما وسعهم التخفيف ، وحتى يهثوا لهم الفرصة لتطبيق ألحانهم وأنغامهم على ألفاظ الشعر كما يريدون . واستطاع المغنون حقاً أن ينفذوا من ذلك إلى كل ما كانوا يتمنونونه ويحلمون به من الوصول ببعض أصواتهم إلى أروع صورة ممكنة لفهم وغنائهم . ولعل القارئ يذكر ما مرّ بنا في فصل الغناء عند معبد وأنه كان يقول : « لقد صنعت ألحاناً لا يقدر شعبان ممتلى ولا سقاء يحمل قربة على الترم بها ، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكى أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم » وذكر أبو الفرج لحناً من هذه الألحان التي لا يستطيع أن يغنيها متكئ حتى يجثو ولا قاعد حتى يقوم وهو :

ولقد قلتُ والضمي ر كثيرُ البلايل
ليت شعري تمنياً والمنى غير طائل
هل رسولٌ مبلغٌ فيؤدّي رسائل

وكان لحن معبد فيه خفيفٌ ثقيلٌ بالسبابة في مجرى الوسطى^(١) . وواضح أن هذا اللحن الذي توافرت فيه كل هذه القيم الموسيقية في الغناء والذي كان يقيم الناس ويقعدهم ، وزنه مجزأً أو معدل ، فهو من مجزوء الخفيف . ومن يقرأ كتاب الأغاني ينجح إليه أن أصحاب الأغاني لم يتركوا في هذا العصر وزناً قديماً معقداً أو بسيطاً إلا جزءوه ، ابتغاء تحريف صورته بحيث تتعادل مع الغناء الحديث . ومر بنا في فصل الغناء أن يونس الكاتب اشتهر بغنائه في الزينيات السبع ، وهي سبع مقطوعات لابن رُهَيْمَة في زينب بنت عكرمة على ما قدمنا . ومن ينظر^(٢) فيها يجد ثلاثاً من الأوزان غير المجزأة ، وأربعاً من الأوزان المجزأة وهي قوله :

أَقْصَدْتُ زَيْنَبُ قَلْبِي وَسَبَّتْ عَقْلِي وَلَبِّي
وهو من مجزوء الرمل ، وقوله :
إِنَّمَا زَيْنَبُ هَمِّي بَأْبَى تَلَكْ وَأُمِّي
وهو أيضاً من مجزوء الرمل ، وقوله :
وَجَدَ الْفَوَادُ بَزِينَا وَجَدَا شَدِيداً مُتَعَبَاً

(٢) أغاني ٤٠٢/٤ وما بعدها .

(١) أغاني ١٢٧/٩ .

وهو من مجزوء الكامل ، وقوله :

إنما زينبُ المني وهى الهُم والهُوى

وهو من مجزوء الخفيف ، فكثرة زينبات ابن رهيمة من الأوزان المجزأة ، وفى هذا ما يرمز إلى العصر كله ، إذ كثر الشعر على الأوزان المجزأة ، وكان الشعراء يصنعون ذلك إرضاء للمغنين والمغنيات فإن تركوه فإلى أوزان تشبه هذه الأوزان المجزأة كالهزج والمتقارب ، وكان المغنون والمغنيات يطلبون ذلك بأنفسهم ويلحّون فى طلبه . روى صاحب الأغاني أن ابن عائشة المغنى تعرض لعروة ابن أذينة ، وطلب منه قطعة من الهزج يغنى فيها ، وما زال به حتى صنع له قوله :

سَلِمَتِ أَرْمَعَتْ بَيْنَا فَأَيْنَ بَوْصِلِهَا^(١) أَيْنَا^(٢)

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن بعض المغنين والمغنيات كان ينظم الشعر ، ومعنى ذلك أن من المغنين والمغنيات أنفسهم من كان يقوم بإحداث الملاءمة بين الشعر وما يريد من نغم وتلحين . وربما كان أشهر من صنع الشعر منهم فى هذا العصر سلامة القس ، وروى صاحب الأغاني من شعرها الذى غنت فيه قولها تندب يزيد بن عبد الملك مولاها ، وهو من مجزوء الرمل :

قد لَعَمْرَى بَتْ لَيْلَى كَأَخَى الدَّاءِ الْوَجِيعِ^(٣)

وبجانب سلامة نجد أبا سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً^(٤). وما من ريب فى أن أبا سعيد وسلامة ومن لَفَّ لهما من شعراء المغنين أحدثوا تغييراً فى أوزان الشعر تحت تأثير ألحانهم وأنغامهم .

ونحن نلاحظ من طرف آخر أن الدورة تمت ، فكما أن بعض المغنين والمغنيات تعلم الشعر كى ينظمه حسب ما يريد للحنه ونغمه ، فكذلك تعلم بعض الشعراء الغناء ومصطلحاته ، كى يوفر لشعره ما يريد من نغم ولحن . وخير من يمثل ذلك عروة بن أذينة أحد فقهاء المدينة ومحدثيها^(٥)، فقد كان يصوغ الألحان والأنغام

(١) هكذا فى ابن عديده ٢٣٣/٣ ورواها (٣) أغاني ٣٣٢/٨ .

أبو الفرج تقولها بمعنى تظنها - ، والين : القراق . (٤) المصدر نفسه ٣٣٠/٤ .

(٢) أغاني ٢٣٧/٢ وما بعدها . (٥) أغاني ١٦٢/٢١ .

على شعره ، وقد روى له ابن عبد ربه صوتين مما يغنى فيه الحجازيون^(١).
ولعل في هذا كله ما يوضح كيف أن الغزل في المدينة لهذا العصر
كان يمتاز بخصائص موسيقية كثيرة سواء في لغته أو أوزانه فقد دخلها تعديل
كثير ، تارة عن طريق الزحافات والعلل وتارة عن طريق اختيار الأوزان السهلة
البسيطة ، وتارة ثالثة عن طريق تجزئتها بحيث تصبح خفيفة على الفم والسمع ،
وبحيث يستطيع المغنون أن يحملوها من قيم الغناء والحنان وأنغامه ما يريدون .

(١) ابن عبد ربه ٢٣٣/٣ .

الفصل الرابع

اتساع موجة الغزل وأغانيه

١

الغزل وأغانيه بين المدينة ومكة

رأينا المدينة تنهض بالغزل وأغانيه في هذا العصر نهضة واسعة ، وهي نهضة كانت تشاركها فيها مكة ، بل قل كانت تنافسها منافسة شديدة ، وطبيعي أن تنافس مكة المدينة ، فقد كان بها كثرة من الغزليين والمغنين . حقاً هي تأخرت عن المدينة قليلاً في النهوض بفن الغناء ، ولكنها لم تلبث حين عرفته أن أسرفت فيه ، فكان لها مغنون ممتازون مثل ابن مسجج وهو أقدم مغنيها ، واشتهر بنقله إلى العربية أحياناً وأنغاماً من الغناء الأجنبي : الفارسي والرومي^(١) ، وكذلك صنع تلميذه ابن مُحَرَز^(٢).

وينبغي أن لا نفهم من ذلك أن مكة استقلت عن المدينة في غنائها ، إذ كانت تستمد دائماً منها . وآية ذلك أن أشهر مغنيها بعد ابن مسجج وابن مُحَرَز وهو ابن سُرَيْج ، تتلمذ على طويس في المدينة^(٣) ، وهو أول من ضرب في مكة بالعود الفارسي على الغناء العربي^(٤) ، وكان يغني في الثقيل والخفيف^(٥) ، فيستوفي النغم الطوال ويحسن النغم القصار . وليس ابن سُرَيْج فقط هو الذي كان يأخذ عن أصحاب الغناء في المدينة فقد كان ابن مسجج وابن مُحَرَز يذهبان إليها لأخذ بعض الأصوات من المغنين والمغنيات هناك^(٦).

على كل حال كانت مكة تتأثر المدينة في غنائها ، واشتهر فيها بجانب من قدمنا

(١) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٣٧٨/١ .

(٣) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ .

(٤) أغاني ٢٥٠/١ .

(٥) أغاني طبع دار الكتب ٢٧٦/١ .

(٦) المصدر نفسه ١٨٨/٨ .

الغريض تلميذ ابن سريج ، وكان غناؤه أشجى من غناء أستاذه ، وهو مولى الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر المذكورة في شعر عمر بن أبي ربيعة ، وكان من موالها أيضاً يحيى قَيْلٌ وَسُمَيَّةُ^(١) وبجانب هؤلاء نجد مغنين آخرين مشهورين ، ترجم لهم صاحب الأغاني من مثل الهذلي^(٢) وعبادل^(٣) وابن عباد^(٤) ويحيى المكي^(٥) وإسماعيل بن الهَرْبِذِ^(٦) وعمر الوادي^(٧) . وكما اكتظت مكة بالمغنين اكتظت بالمغنيات^(٨) ، وإن كانت لم تستطع أن تظفر بمثل جميلة وسلامة ، وغيرهما من مغنيات المدينة الممتازات .

ومكة إن لم تستطع أن تتفوق على المدينة تماماً في فن الغناء فإنها نافستها فيه ، كما نافستها في الغزل ، فقد كان لها فيه شعراء كثيرون ، وأهم شعرائها عمر بن أبي ربيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات والحارث بن خالد المخزومي . والعرجي . وعمر هو أكبر شاعر غَزَلَ أنتجته حركة الغناء في مكة لهذا العصر ، وساعدته ظروف مختلفة على أن ينبغ في هذا الفن ويشتهر فيه ، فقد كان ثرياً ثراءً واسعاً ، فكان ابن سريج والغريض يعيشان في كنفه ويغنيان في أشعاره ، وكان له جاريتان في بيته يغنيانه في شعره يقال لإحدهما بَغُوم وللأخرى أسماء^(٩) . ولم يساعده ثراؤه على اتخاذ المغنين والمغنيات وعنايتهم بغناء شعره فقط ، بل ساعده على شيء آخر مهم وهو أن يقصر نفسه على الغزل وبذلك لم يتكلف مديحاً ولا فنّاً آخر من فنون الشعر التقليدي . روى صاحب الأغاني أن سليمان بن عبد الملك قال له : « ما يمنعك من مدحنا ، فقال إني لا أمدح الرجال ، إنما أمدح النساء^(١٠) » .

تخصص عمر في فن الغزل وهو أهم موضوعات الأغاني في عصره ، وشعره في هذا الجانب يعتبر طُرفاً خالصة في جمال موسيقاه وفي صراخته . ويحيل إلى الإنسان أن عمر لم يكد يترك فتاة جميلة في مكة والمدينة إلا شَبَّبَ بها وذكرها ونَوَّهَ باسمها ، فهو

(١) انظر ترجمة الغريض في الأغاني ٣٥٩/٢ . (٦) المصدر نفسه ١٠٤/٧ .

(٢) الأغاني ٦٥/٥ . (٧) المصدر نفسه ٨٥/٧ .

(٣) المصدر نفسه ٩٦/٦ . (٨) المصدر نفسه ٣١٣/١ وكذلك ٢١٠/٨ .

(٤) المصدر نفسه ١٧١/٦ . (٩) أغاني ١٦٥/١ .

(٥) المصدر نفسه ١٧٣/٦ . (١٠) المصدر نفسه ٧٤/١ .

يشب بزئب بنت موسى الجمحية^(١) - ولعلها هي نفسها نُعم^(٢) - وبالثر يا بنت علي ابن عبد الله ، ويقول صاحب الأغاني إنه كان مشغوباً بها ، وكانت عُرْضة ذلك جمالاً وتاماً^(٣) . ولم يكتف عمر بذلك فقد كان يتعرض للنساء الحواج في الطواف وغيره من مشاعر الحج . ويشب بهن^(٤) . ومن أشهر من شَبَّ بهن ليلى بنت الحارث البكرية^(٥) ، ورَملة^(٦) بنت عبد الله بن خلف الخزاعية ، وفاطمة بنت محمد ابن الأشعث الكندي^(٧) زوجة^(٨) شيخ النحو أبي الأسود الدؤلي . وهكذا لا يكاد يترك سيدة أو فتاة تشتهر بميسم جمال وتقصد إلى مكة حتى يتعرض لها وينظم فيها غزله .

ولم يكن عمر يتعرض للسيدات والفتيات في مناسك الحج فقط بل كان يخرج لاستقبالهن في طرقهن إلى مكة . روى صاحب الأغاني أنه خرج مع ابن سريج على نجيين رحالتاهما ملبستان بالديباج . وقد خَضَبَا النجيين ، ولبسا حُلَّتَيْن ، فجعلتا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل^(٩) . وروى صاحب الأغاني أيضاً أنه كان يعتمر في ذى القعدة ، ويُحِلُّ ، ويلبس تلك الحُلَّ والوشى ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويُسَبِّل لِمَتَهُ ، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عِرْقٍ محرمات ، ويتلقى المدينيات إلى مرٍّ ، ويتلقى الشاميات إلى الكديد^(١٠) . وكل حوادث عمر مع هؤلاء الحواج وكل وقائعه مع غيرهن من فتيات مكة ونسائها ، كل ذلك مصور في شعره أجمل تصوير ، وهو ينساق كله في التشبيب والغزل .

وكان يعاصر عمر عبيد الله بن قيس الرُّقِيَّات ، وهو « أشد قريش أسرَّ شعر في الإسلام^(١١) » . وإنما لُقِّبَ الرُّقِيَّات لأنه شَبَّ بثلاث نسوة ، سُمِّن جميعاً رُقِيَّة^(١٢) . وكان زيرى الهوى ، وله في آل الزبير مدائح كثيرة . وقد مدح من بعدهم

(٧) المصدر نفسه ٨٤/١ .

(٨) المصدر نفسه ١٤٧/١ .

(٩) المصدر نفسه ٢٥٨/١ .

(١٠) المصدر نفسه ٢٢١/١ .

(١١) ابن سلام ص ١٣٧ .

(١٢) أغاني ٧٣/٥ .

(١) أغاني ٩١/١ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢١٣/٤ .

(٣) أغاني ٢١٢/١ .

(٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩ .

(٥) أغاني ١٥٧/١ .

(٦) المصدر نفسه ٢١٤/١ وما بعدها .

عبد الملك بن مروان . ومعنى ذلك أنه لم يقصر نفسه مثل ابن أبي ربيعة على الغزل ، يقول ابن سلام : « كان غزلاً ، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبي ربيعة ، وكان عمر يصرح بالغزل . . وكان عبيد الله يشب ولا يصرح ، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر ، وكان انقطاعه إلى آل الزبير^(١) . »

ويأتى بعد ابن قيس الحارث بن خالد المخزومي ، وهو أحد شعراء قريش الغزليين في العصر ، « وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة ، لا يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشب بها^(٢) ، حين تلم بمكة في حجها . وكان على طريقة عمر يشب بالحوارج^(٣) ، وقد ولّاه عبد الملك مكة فحج بالناس وحجت عائشة ، فأرسلت إليه : « آخر الصلاة حتى أفرغ من طوافي فأخرها » وأنكر أهل الموسم ذلك منه ، وعلم عبد الملك فعزله^(٤) . وغزل الحارث غزل طريف ، لكنه لا يلحق غزل عمر في صراحته ولا في تأثمه وكثرة وقائعه .

وربما كان العرجي أشبه الشعراء المكين بعمر ، وهو من أبناء عثمان بن عفان ، فهو من بيت ثروة ويسار ؛ وسُمي العرجي لأنه كان ينزل عرج الطائف ، وقيل بل لمال كان له في العرج^(٥) . ونَحَا نحو عمر في الغزل وتشبّه به فأجاد ، وكان يعيش مثله معيشة لاهية ، وساعده على ذلك ثراء ضخم ، فقد روى الرواة أن مجاعة حدثت فأمر بإطعام الناس وإعطائهم ، وبلغ ما أخرجه حينئذ عشرين ألف دينار ، كما رُوي أنه كان يلبس الحلتين قيمتهما خمسمائة دينار .

وكان من سوء حظ العرجي أن هجا محمد بن هشام هجاء مقذعاً ، وكان محمد خال هشام بن عبد الملك . فلما ولي الخلافة ولّاه مكة ، فما زال يطلب سبيلاً إلى العرجي حتى وجده^(٦) ؛ فأخذه وقيدَه وضربه ، وأقامه للناس ثم حبسه ، ومكث في حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات^(٧) . وفي حبسه يقول^(٨) :

أضاعوني وأئى فتى أضاعوا ليوم كرية سيداد نغر

(١) ابن سلام ص ١٣٧ .

(٢) أغاني ٣/٣١٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣/٣٢٩ .

(٤) أغاني طبع دار الكتب ٣/٣١٧ .

(٥) أغاني ١/٣٨٥ .

(٦) المصدر نفسه ١/٤١٠ .

(٧) المصدر نفسه ١/٤٠٩ .

(٨) أغاني ١/٤١٣ .

وهؤلاء هم أهم شعراء مكة في العصر ، وكلهم من قریش وكان وراءهم شعراء
كثيرون مثل كثير بن كثير (١) السهمي ، والفضل بن العباس اللهي (٢) ثم أبي
العباس الأعمى (٣) ، وكان من الموالى

على كل حال أحدث الغناء في مكة ، كما أحدث في المدينة ، نشاطاً واسعاً
في الغزل ؛ فقد كثر أصحابه وكثر ما يقدمون من أصوات أو كما نقول الآن
من أدوار ، يغنى فيها المغنون والمغنيات في مكة . وينبغي أن نلاحظ هنا شيئاً مهماً
وهو أن هذه الأصوات أو الأدوار لم تكن تقدّم إلى أصحاب الغناء في مكة فقط ؛
بل كانت تقدّم أيضاً إلى أصحاب الغناء في المدينة ، وكان عمر نفسه يذهب بشعره
إلى المدينة ويقدمه إلى المغنين ليغنوه فيه ، وكان يعطيهم فيكثر في عطيته من أجل
ذلك (٤) ، وكما كان يقصد المغنين بشعره كان يقصد دور المغنيات ، وخاصة
دار جميلة (٥) ، وكان العرجي يصنع صنيعة (٦) . ومن يرجع إلى ترجمة ابن قيس
الرقبات في الأغاني يجد أكثر من غنى في شعره كانوا مدنيين ؛ وعلى رأسهم مالك
ابن أبي السمح الطائي ، ولذلك ترجم له أبو الفرج بعده مباشرة . وغير ابن قيس
مثل عمر والعرجي كانوا شركة بين المغنين في مكة والمدينة .

وبحسن أن نلاحظ هنا أيضاً ملاحظة ثانية بجانب الملاحظة السابقة ، وهي أن
شعر عمر وغيره من شعراء الغزل في مكة كان في فتيات بلدتهم ونسائهن من الأحرار
وإن تركوهن فإلى الحواج من شريفات العرب ونبيلاتهن ، وقلما تغزلوا في أمة من
الإماء . ومهما يكن فإن مكة شاركت المدينة في الغزل والأغاني لهذا العصر ، وقد
اقتنّ فيهما أصحابهما على صور مختلفة .

(١) انظر أغاني ٢٤٦/١ وكذلك ٣١٩/١ (٤) أغاني طبع دار الكتب ٢٩٢/٤ .

(٥) المصدر نفسه ٢٠٦/٨ .

(٦) المصدر نفسه ٢٣٠/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني طبع بولاق ٢/١٥ .

(٣) المصدر نفسه ٥٩/١٥ .

شغف أهل المدينة بالغزل وأغانيه

قدمنا في الفصل الثاني من هذا البحث مدى تعلق أهل المدينة بالغناء ومدى تقديرهم له وإعجابهم به ، وكان الغناء يقترب بالغزل الذي يُغنى فيه ، فكان طبيعياً أن ينسحب إعجاب أهل المدينة بالغناء على الغزل الذي يصحبه . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد في المدينة إلا وهو يروى هذا الغزل ويرفع صوته به إن كان له صوت ممتاز ، ومن يرجع إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج يرى هذا الغزل يُروى في كل مكان بالمدينة ، حتى في المسجد ، وعلى لسان أشهر الفقهاء في العصر ، وأكثرهم تحرجاً ، فقد روى صاحب الأغاني أن سعيد بن المسيب كان ينشد الغزل في مسجد رسول الله ، وقال أبو الفرج : إنه كان كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر^(١)

وإذا كان ابن المسيب يروى الشعر في المسجد فقد كان أهل المدينة شبابهم وكهولهم ينشدونه في الطرقات ، وفي ضواحي المدينة ، يدفعهم في ذلك إعجاب شديد بهذا الشعر ، بل قل شغف شديد . روى أبو الفرج أن إنساناً أنشد عند إبراهيم بن هشام ، وهو والي المدينة قول الأحوص :

إِذْ أَنْتَ فِينَا لَمْ يَنْهَكَ عَاصِيَةٌ وَإِذْ أَجْرُ إِلَيْكُمْ سَادِرًا رَسَنِي

فوثب أبو عبيدة بن عمار بن ياسر قائماً ، ثم أرخى رداءه ، ومضى يمشى على تلك الحال ، ويجره ، حتى بلغ العرض^(٢) ، ثم رجع فقال له إبراهيم بن هشام حين جلس ما شأنك ، فقال : أيها الأمير إني سمعت هذا البيت مرة فأعجبني فحلفت لا أسمعُه إلا جَرَرْتُ رَسَنِي^(٣) . ولعل خير من يمثل شغف أهل المدينة بالغزل أبو السائب المخزومي ، وكان من عبّادها ، وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة^(٤) ، ومع ذلك كان إذا استمع إلى مقطوعات الغزل طرب طرباً شديداً .

(٣) أغاني ٢٦١/٤ .

(١) أغاني ٩٣/٥ .

(٤) أغاني ٢٧٧/١ .

(٢) واد من وديان المدينة فيه زروع ونخيل .

روى أبو الفرج أنه سمع رجلاً ينشد قول أبي دَهَبَل الجمحي :

أليس عجيباً أن تكون ببلدةٍ كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلمُ
فقال له أبو السائب : قِفْ يا حبيبي ، فوقف ، فصاح بجارية : يا سلامة
اخرجي ، فخرجت ، فقال له : أعِدْ ، بأبي أنت ، البيت ، فأعاده ، فقال : بلى
والله إنه لعجيب عظيم ، وإلا فسلامة حرة لوجه الله ، اذهبْ فديتك مصاحباً^(١) .
وروى أبو الفرج أن رجلاً كان يثقل عليه أنشد أمامه غزلاً فأقبل عليه يقول : « بأبي
أنت » كنت والله لا أحبك وثقل على ، فأنا الآن أحبك وتخف^(٢) على » وأنشده يوماً
إسماعيل بن أبي أويس لقيس :

تعلق رُوحِي روحَهَا قبل خَلْقِنَا ومن بعد ما كُنَّا نطافاً وفي المهدِ
فزاد كما زِدْنَا وأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنقِصِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كل حادثٍ وزائرنا في ظلمة القبرِ واللحدِ

فحلف لا يزال يقوم ويقعد حتى يحفظها ويرويه^(٣) . وروى ابن عبد ربه
أنه خرج يوماً هو وابن أبي عتيق يتنزهان ، فمال أبو السائب لبعض حاجته وعليه
طويلته فانصرف دونها ، فقال له ابن أبي عتيق : ما فعلت طويلتك ؟ قال : ذكرت
قول كثير :

أرى الإزار على لُبِّي فأحسدهُ إن الإزار على ماضٍ محسودُ
فتصدقتُ بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه ، فأخذ ابن
أبي عتيق طويلته ، فرمى بها وقال له : أتسبقني أنت إلى برِّ الشيطان^(٤) . وروى
ابن أبي الزناد قال : « كنت ليلة عند الحسن بن زيد ببطحاء^(٥) ابن أزهر نصفَ
الليل جلوساً في القمر ، وأبو السائب المخزومي معنا ، وكان ذا فضل ، وكان
مشغولاً بالسماع والتغزل ، وبين أيدينا طبق عليه فريك ، فنحن نصيب منه ، فأنشد
الحسن قول داود بن سلم :

(٤) ابن عبد ربه ٣/٢٣٩ .

(٥) موضع على ستة أميال من المدينة .

(١) أغاني ٧/١٢٠ .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٧/١٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ٩/١٩٦ .

ومن يُطعم الهوى يُعرف هواه وقد يُنيك بالأمر الخير
وجعل يمد به صوته ويطرّبه ، فأخذ أبو السائب الطبق ، فرمى به إلى السماء
فوقع الفريك على رأس الحسن بن زيد فقال له : مالك ويحك أجننت ؟ فقال
له أبو السائب : أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما
أعدت إنشاد هذا الصوت ومددته كما فعلت ! فما ملك الحسن نفسه ضحكاً^(١) .
وروى أبو الفرج أنه مضى مع بعض أصحابه إلى العقيق فتناشدا وتحدثا ولم يلبث
صاحبه أن أنشده للعرجى :

باتا بأنعم ليلةٍ حتى بدا صُبحٌ تلوح كالأعرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبايةً أخذَ الغريم بفضلِ ثوبِ المعسرِ
فقال لصاحبه : أعدّه على ، فأعاده ، فقال : أحسن والله ! امرأتى طالت
إن نطقتُ بحرفٍ غيره حتى أرجع إلى بيتي ، ومضى مع صاحبه فلقيهما عبد الله
ابن حسن بن حسن فسلم ، ثم قال : كيف يا أبا السائب ، فقال له :
فتلازما عند الفراق صبايةً أخذَ الغريم بفضلِ ثوبِ المعسرِ
فالتفت عبد الله إلى صاحبه ، وقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ فقال منذ
الليلة ، فقال إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضى هو وصاحبه
فلقيهما محمد بن عمران التيمي قاضي المدينة . . . فسلم ثم قال كيف أنت يا أبا
السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صبايةً أخذَ الغريم بفضلِ ثوبِ المعسرِ
فالتفت محمد بن عمران إلى صاحبه ، فقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ قال :
آنفاً ، فلما أراد المضي قال له صاحب أبي السائب : أفتدعه هكذا ؟ والله ما آمن
أن يتهوّر في بعض آبار العقيق ، قال : صدقت ، يا غلام قيد البغلة فأخذ القيد ،
ووضعه في رجله ، وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه ، يرى أنه يفهم عنه قصته ،
ثم نزل الشيخ وقال : يا غلام احمله على بغلتي ، وألحقه بأهله^(٢) .
ويقول أبو الفرج : « كان أبو السائب رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم

(١) أغاني ١٦/٦ .

(٢) أغاني ٣٩٧/١ .

الدهر ، وكان أرقَّ خلق الله وأشدَّهم غزلاً ، توجه ابنه يوماً يأتيه بما يفطر عليه فأبطأ الغلام إلى العتمة ، فلما جاء ، قال له : يا عدو نفسه ، ما أنخرَك إلى هذا الوقت ؟ قال : جُرْتُ باب بني فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بني ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبُّوك ولئن كنت أسأت لأضربنك ، فاندفع يغني بشعر كثير :

ولما علّوا شغباً^(١) تبيّنت أنه تقطّع من أهل الحجاز علائقي
فلا زلن حسرى ظلّعا لم حملنها إلى بلد ناء قليل الأصادق

فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل ، فقالت له زوجته : يا هذا قد انتصف الليل وما أفطرتنا ، فقال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره ، فلم يزل يغنيه إلى السحر ، فلما كان السحر ، قالت له زوجته : هذا السحر وما أفطرتنا ، فقال : أنت طالق إن كان سحورنا غيره ، فلما أصبح قال لابنه : خذ جبتى هذه وأعطني خلّك ليكون الحياء فضل ما بينهما ، فقال له : يا أبت ! أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا أقوى على البرد منك ، قال : يا بني ما ترك صوتك هذا للبرد على سبيلاً ما حييت^(٢) . وإذا كان أبو السائب على صلاحه وزهده وصومه الدهر يطرب للشعر هذا الطرب ، فغيره ممن لم تكن حياتهم تقوم على الزهد والمبالغة في الصوم والصلاة كان يطرب طرباً ، لعله أشد من طربه ، حين يستمع إلى ما كان يحدثه الأحوص وغيره من شعراء المدينة ومكة ، وما كان يحدثه كثير وغيره من شعراء البادية ، ويغني فيه المغنون .

وكما كان شباب المدينة وشيوخها يعجبون بهذه الأغاني كان نساء المدينة أيضاً يعجبن بها إعجاباً واسعاً ، وبلغ من إعجابهن بها أنهن كن يرونها ، وكانت السيدة سكينة بنت الحسين من أهم النساء اللاتي تعلقن بها وبروايتها ، وكان يفد عليها في دارها المسماة بالبريدى بالعقيق كبار الشعراء المعاصرين لها ، فيشددونها ومن معها من نساء المدينة غزلهن^(٣) ، وكانت تجيزهم ، وتعلق عليهم بنقد يدل على ارتفاع ذوق

(١) شغب : منهل بين طريق مصر والشام . (٣) انظر أغاني ١٥٠/١ و ٣٧٦/٢ وانظر

(طبعة بولاق) ١٧٣/١٤ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٩٠/٧ .

المرأة في المدينة لهذا العصر^(١). وكانت عائشة بنت طلحة مثل سكيئة تعجب بهذه الأغاني^(٢) التي شغلت عصرها وأهل بلدتها .

وكانت المرأة الشريفة في المدينة لا تجد حرجاً في أن تُذكر في الشعر ، وأن يتغنى الشعراء بها ، لأن في هذا اعترافاً بجمالها ، وكما قيل الغواني يغرن الثناء ، وأى ثناء أوقع في روع المرأة من الثناء على جمالها وحسنها البارح . وكأن المرأة في المدينة كانت ترى في ذكر الشعراء لها ما يعبر عن هذا الثناء ، وعما تحظى به من جمال ، ولم تكن ترفض ذلك إلا أن يخرج الشاعر عن وقاره إلى نوع من الحرية والإباحية^(٣) .

ولعل في هذا ما يفسر رضا فضليات النساء في المدينة لهذا العصر عن الشعراء حين يذكرون أسماءهن في غزلهم ، وكأنما كان هذا الغزل حينئذ يشبه صحافتنا الحديثة ، فكما أنك قلما تجد الآن سيدة ترفض أن تظهر صورتها في صحيفة يومية أو أسبوعية ، فكذلك كان هذا الغزل في العصر الأموي صحافة العصر ، فهو الذي يسجل أخبار النساء الحواج ، وهو الذي تظهر في مرآته صورهن العديدة وما من ريب في أن ذلك هو الذي جعل المرأة العربية الشريفة تطلبه ، حتى نساء الخلفاء وشريفات بيت بني أمية كن يطلبنه ، فقد روى صاحب الأغاني أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبي ربيعة ألف دينار كي يذكرها في شعره^(٤) ، وروى أيضاً أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء الغزلين أن ينظموا فيها شعراً ، فبعضهم تشجع ونظم فيها ، وبعضهم جبن فاكثى بالنظم في بعض جواربها^(٥) .

وأشاع إعجاب نساء المدينة وقتياتها بهذا الشعر رقة شعور عامة ، كما أشاع ظرفاً ودماثة ؛ ولعل مما يصور ذلك أدق تصوير ما رواه صاحب الأغاني من أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بَحْمُرٍ فباعها كلها ، وبقيت السود منها ، فلم تنفق ، وكان صديقاً للدارمي أحد^(٦) شعراء مكة ومغنيها ، فشكا ذلك إليه وكان

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٦/١ .

(٥) أغاني (طبع بولاق) ٤٩/١١ .

(٦) أغاني ٤٥/٣ .

(١) أغاني ١٧٤/١٤ وما بعدها .

(٢) انظر الأغاني ٣٢٠/٣ وما بعدها .

(٣) أغاني ٢٥٤/٦ وما بعدها .

قد نسك ، وترك الغناء وقول الشعر ، فقال له لا تهتم بذلك فإنى سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ماذا صنعتِ براهبٍ متعبدٍ
قد كان شمراً للصلاة ثيابه حتى وقفت له يباب المسجد
وغنى فيه ، أيضاً سنان الكاتب ، وشاع فى الناس ، وقالوا قد فتك الدارمى
ورجع عن نسكه ، فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود حتى نفذ
ما كان مع العراقى منها (١) . وليس من شك فى أن هذا حادث بالغ الدلالة على
مدى ما كان للأغاني فى هذا العصر من تأثير فى أهل المدينة . والحق أنهم كانوا
يُشغفون بها شغفاً شديداً ، وكان شغفهم بها يزداد حين تُغنى فى دور النبلاء والأشراف
ودور المغنين والمغنيات ، ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن يعجب بها الزهاد
والنساك ، وأن يطلبها الرجال والنساء ، وأن يغرقوا فى إعجابهم وطلبهم .

٣

بعض الفقهاء ينظمون فى الغزل العفيف

رأينا الناس فى المدينة يُشغفون بالغزل ويعجبون به إعجاباً شديداً ، وعلى
رأسهم الناسك المشهور أبو السائب المخزومى . وكان من مظاهر هذا الإعجاب
وذلك الشغف أن كثر من ينظمون الغزل فى المدينة كثرة مفرطة ، كما قدمنا
فى غير هذا الموضع ، وحتى بعض فقهاء المدينة أخذوا يشتركون فى هذا النظم ، فكان
منهم شاعران فى هذا العصر ، هما عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة .
أما عروة فقد كان معدوداً فى الفقهاء والمحدثين ، روى عنه مالك بن أنس
وعبيد الله بن عمر العدوى (٢) . وقد تحدثنا عنه فى غير موضع ، وقلنا إنه كان
يغنى شعره ، وله فيه أصوات معروفة ، وهو شعر كله ينساق فى الغزل العفيف ، فهو شاعر

(٢) أغاني ١٦٢/٢١ .

(١) أغاني ٤٦/٣ .

من شعراء المدينة وهو شاعر يغنى شعره ويوقعه ، ويُحدث فيه ما يريد من تقطيعات وتمديدات ، وكان لهذا كله أثر في غزله ، فهو غزل يكتظ بالموسيقى ، وتتوافر له منها قيم صوتية كثيرة . واستمع إلى هذه القطعة :

جُعِلَتْ هَوَاكَ كَمَا جُعِلَتْ هَوَىٰ لَهَا	إِنِ الَّتِي زَعَمْتُ فَوَادَكَ مَلَّهَا
يُبْدَىٰ لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا	فِيكَ الَّذِي زَعَمْتُ بِهَا وَكَلَا كَمَا
لَوْ كَانَ تَحْتَ فِرَاشِهَا لِأَقْلَهَا (١)	وَيَبِيتُ بَيْنَ جَوَانِحِي حُبًّا لَهَا
يَوْمًا وَقَدْ ضَحِيَتْ إِذْنَ لِأَظْلَهَا	وَلَعَمْرُهَا لَوْ كَانَ حُبُّكَ فَوْقَهَا
شَفَعَ الْفَوَادُ إِلَى الضَّمِيرِ فَسَلَّهَا	وَإِذَا وَجَدْتَ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةَ
بِلِبَاقَةٍ فَادَّقَّهَا وَأَجَلَّهَا	بِيَضَاءٍ بَاكِرِهَا النَّعِيمِ فَصَاغَهَا
أَرْجُو مَعُونَتَهَا وَأَخْشَى دَلَّهَا	لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّمًا لِي حَاجَةَ
مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَهَا	مَنْعَتْ تَحِيَّتَهَا فَقَلْتُ لِصَاحِبِي
مِنْ أَجْلِ رَقَبَتِهَا فَقَلْتُ لَعَلَّهَا	فَدَنَا فَقَالَ لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ

كان غزل عروة يزخر بالموسيقى على هذا النحو ، فهو غزل مهيا للغناء ، يغنى فيه صاحبه ، ويغنى فيه غيره . وليس هذا كل ما يميز غزل عروة ، بل هناك ميزة تتصل بمعانيه ، وقد تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وقلنا إن الأغاني كانت تنصب على الغزل غالباً ، وإن الغزل في المدينة كان على صريحين : غزل صريح فيه حرية ، وغزل عفيف فيه طهر ، وفيه مثالية . وما من ريب في أن غزل عروة كان من الضرب الثاني ، وتعليل ذلك واضح ، فهو فقيه ، وله من تدينه رادع يقيه أن يكون آنماً في حبه ، أو صريحاً صراحة تؤدي بغزله إلى أن يكون مادياً مكشوفاً .

وكان يذهب هذا المذهب نفسه في الغزل العفيف عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعداده في قریش مثل ابن أديته ، وجده عتبة أخو عبد الله بن مسعود له صحبة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وليس من البدرين ، وأبوه عبد الله كان رجلاً صالحاً استعمله عمر بن الخطاب فأحمدته (٢) . وعبيد الله أحد وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث ، وهو أحد السبعة الفقهاء المقدمين من أهل المدينة ، وهم

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١٣٩/٩ .

(١) أقلها : حملها .

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار .

وكان عبيد الله ضريراً ، وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة مثل ابن عباس وعمه عبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وروى عنه الزهري وابن أبي الزناد وغيرهما من نظرائهما . وكان عبد الله بن عباس يقدمه ويؤثره (١) ، ويقول الزهري : « أدركت أربعة بحور ، عبيد الله بن عبد الله أحدهم » . ويقول أيضاً : سمعت من العلم شيئاً كثيراً ، فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كأني كنت في شعب من الشعاب فوقعت في الوادي ، وقال مرة : « صرت كأني لم أسمع من العلم شيئاً » ، وقد أثنى عليه عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فقال : « لو كان عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة حياً ما صدرت إلا عن رأيه ، ولوددت أن لي بيوم من عبيد الله غُرماً » (٢)

كان عبيد الله بن عبد الله فقيهاً ممتازاً في عصره ، ويكفي أنه كان أحد فقهاء المدينة السبعة الذين حُمِلَ عنهم الدين والعلم ، وكان إلى ذلك موضع إجلال من الخلفاء والأمراء . ومن يرجع إلى ترجمته في الأغاني يجده رقيقاً ، شديد الحساسية جداً ، فقد روى هشام بن عروة أنه استأذن على عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة فردّه الحاجب وقال له : عنده عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وهو مُختَلٍ به ، فانصرف غضبان وأرسل إلى عمر :

أَبْنُ لِي فَكُنْ مِثْلِي أَوْ ابْتَغِ صَاحِباً

كَمِثْلِكَ إِنِّي تَابِعُ صَاحِباً مِثْلِي

عَزِيزُ إِخَائِي لَا يَنَالُ مَوَدَّتِي

مِنَ النَّاسِ إِلَّا مُسْلِمٌ كَامِلُ الْعَقْلِ

وَمَا يَلْبَثُ الْفَتْيَانُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا

إِذَا لَمْ يُؤَلَّفْ رُوحُ شَكْلِ إِلَى شَكْلِ

فبعث عمر إليه من يعذره عنده ويقول : إن عمر يقسم بالله ما علم بأبياتك

ولا بردَّ الحاجب إياك فاعذره (١). ويقال إن أبا بكر بن حزم مرَّ عليه وهو وال على المدينة فلم يسلم عليه ، فتلومته (٢).

كان عبيد الله رقيقاً مرهف الإحساس ، وهياً ذلك لأن يصبح من شعراء عصره الغزلين . وقصة غزله قصة طريفة ، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة تسمى عثمة ، فعتب عليها في بعض الأمر فطلَّقها ثم ندم على طلاقها إذ كان يحبها حباً شديداً ، ولكن ماذا يصنع ، لقد قُضى الأمر وخرجت من يده ، ويظهر أنه لم يستطع إرجاعها ، فتولَّع بها وهام ، وأسف أسفاً شديداً على ما فاتته منها ، وتكلف في ذلك ألواناً من الخطوب وتعرض لضروب من الألم .

والرواة يملكون بهذا الحادث في حياة عبيد الله مرّاً سريعاً ، فلا يذكرون لنا شيئاً بعد ذلك ، لا يذكرون لنا كيف كانت علاقة عبيد الله بزوجته في أثناء زواجهما ، ولا كيف تم هذا الزواج ، وحتى ما رووا من أشعار عبيد الله رويها عارياً من حوادثه وأخباره ، فأصبحنا لا نستطيع أن نفصل في غزله ، فترجع بعضاً منه إلى ما قبل زواج عثمة وبعضاً إلى أيام زواجهما ، وبعضاً ثالثاً إلى أيام فراقهما .

ومهما يكن فإن عبيد الله كان شاعراً بارعاً أقيمت حواجز بينه وبين مَنْ أحبَّها ، فتولَّع بها وأغرم غراماً شديداً ، وحاول ، فيما يظهر ، السَّلوَى فلم يجد إلى ذلك سبيلاً ، ماذا يصنع ؟ لم يجد إلا الغزل ينفس به عما في نفسه ، واستمع إليه يقول (٣):

كتمت الهوى حتى أضرب بك الكتم	ولامك أقوامٌ ولومهم ظلم
فيا مَنْ لنفس لا تموت فينفضي	عناها ولا تحيا حياة لها طعم
أترك إتيان الحبيب تأثماً	ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فدق هجرها قد كنت تزعم أنه	رشادٌ ألا يا ربما كذب الرِّغم

كتم عبيد الله الهوى ، ولم ينفعه كتمانها ، فقد أضرب به ضرراً بليغاً فأعلن حبه ، فلامه الناس ، حينئذ تمنى الموت حتى يخلص من تلك الحياة التي لم يكن يعرف لها لوناً ، والتي أصبح لا يجد لها طعماً ، وهو يعود إلى نفسه فيجده لا يزال حياً ،

(١) أغاني ١٤٣/٩ .

(٣) أغاني ١٤٩/٩ وما بعدها وانظر ابن عبد ربه

(٢) المصدر نفسه ١٤٤/٩ .

. ١٢٦/٣

وقد هجر صاحبتَه ، بل هي التي هجرته ، وهو يذوق الآن هجرها وما قدّمت يداه من طلاقها ، فحياته كلها أحزان وهموم أو كما يقول هو عن نفسه (١) :

أروحُ بهم ثم أغدو بمثله ويُحسبُ أني في الثياب صحيحُ

وأى صحة ؟ إنها صحة تشبه المرض ، بل قل إنها مرض خالص ، فقد تركته صاحبتَه ولم تحاول أن ترجع إليه ، وهو ينتظر أن تلمّ به فلا تلم ، فيتحرق حسرة ولوعة ، وسرعان ما تجيش نفسه بالشعر فيقول (٢) :

تغلغل حبُّ عثمةً في فؤادي فباديه مع الخافي يسيرُ
تغلغل حيث لم يبلغ شرابُ ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ
صدعت القلب ثم ذررت فيه هواك فلم فالتأم الفطور (٣)
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطيّر لو أنّ إنساناً يطير
غنى النفس أن أزداد حباً ولكني إلى صلة فقيرُ

وعلى هذا النحو كان عبيد الله يتغزل بصاحبتَه هذا الغزل الرقيق الذي يعبر به عن لواعج حبه ، وكان يسأل أتقول الشعر ، في فضلك ونسكك ؟ فيقول : إن المصدور إذا نفت برأ . وقد كان برؤه دائماً إلى حين ، ثم يُصدر ، فيعمد إلى هذا الشعر يصف فيه ما يعانى من الحب وما يلقي من آلامه .

وواضح في هذا الغزل الذي رويناه لعبيد الله أنه يخلو من الرغبات واللذائذ الحسية ، وهذا طبيعي ، فهو فقيه ، بل هو من كبار الفقهاء في عصره ، وهو من أجل ذلك لا تلمّ به نزوات الجسد ، إذ هو في سريره متمسك بدينه وطهارة خلقه ، لذلك كنا نشعر عنده - كما شعرنا من قبل عند عروة - بسمو في عاطفته ، بل لعله يتفوق على عروة في ذلك ، إذ لم يُعرف عروة بعشق على نحو ما عُرف صاحبه ، ولعل ذلك ما يجعلنا نحس في شعره بحرارة ولهفة أكثر من إحساسنا إزاء شعر عروة على الرغم مما فيه من توفر الموسيقى وجمال الأصوات .

ونحن إنما نسجل هذا كله لتنفيذ منه إلى أن موجة الغزل لهذا العصر

(٣) الفطور : الشقوق .

(١) أغاني ١٣٨/٩ .

(٢) أغاني ١٥١/٩ .

كانت حادثة وأنه لم يسلم من الإعجاب بها أحد ، بل لقد ساهم فيها الفقهاء ولم يجدوا فيها حرجاً ، بل لقد توسعوا في مساهمتهم ، فلم يكن منهم أصحاب غزل فقط كعبيد الله ، بل كان منهم من ينظمون هذا الغزل ويضعون له الأصوات كما رأينا عند عروة في غير هذا الموضع .

٤

أغاني الغزل تصبح شعراً شعبياً عاماً

لعل من الظواهر المهمة في أغاني الغزل لهذا العصر أنها أصبحت شعراً شعبياً عاماً تتردد مقطوعاته في جوانب العالم العربي ، إذ لم يكن للعرب حينئذ صحف يقرءونها سوى الشعر ، فهو صحفهم التي يقرءون فيها حوادثهم وأخبارهم ، ويرون فيها عواطفهم وشعورهم . وكلنا نعرف قصة جرير حين أساء إليه الراعي وابنه في البصرة فنظم فيه قصيدة طويلة ختمها بقوله :

فَنُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَ كَعْبًا بَلِغْتَ وَلَا كِلَابَا

وغدا في المريد فأنشدها ، فثبت الراعي ساعة ، ثم رحل إلى الشَّريف وهو أعلى دار بنى نمير بنجد ، فوجد القصيدة قد سبقته^(١) . ويُروى أيضاً أن الحكم ابن عبدل الأسدي كلم محمد بن حسان بن سعد التميمي ، وكان على خراج الكوفة ، أن يترك لرجل ثلاثين درهماً من خراجه ، فقال : أمانتي الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً ، فانصرف ابن عبدل غاضباً ، وهجاه بقصيدة جاء فيها :

يقول أمانتي ربي خداعاً أمانت الله حسان بن سعد

فاشتهرت القصيدة حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره فيقول : عَدَّ (كلمة لزجر الدواب) ثم يقول بعدها أمانت الله حسان بن سعد . وكان أبوه يسمع ذلك فيقول : بل أمانت الله ابني محمداً ، فهو عَرَضْنِي لهذا البلاء في ثلاثين درهماً^(٢)

(١) أغاني طبع دار الكتب ٢٩/٨ وما بعدها . (٢) المصدر نفسه ٤١٢/٢ .

وهذان الحادثان اللذان يرويها صاحب الأغاني يدلان على شدة شيوع الشعر عند العرب ، ومع ذلك فقصيدة جرير وقصيدة ابن عبدل لم تكونا من أغاني الغزل التي تُغنى في العصر ، بل كان يتناقلهما الناس والرواة . وإنما سقنا ذلك لندل على قابلية العرب لرواية الشعر وتداوله وإنشاده .

وقد توافر لأغاني الغزل مع هذه القابلية العامة عند العرب شيء مهم ، بل لعله كان أكثر أهمية من هذه القابلية في حد ذاتها ونقصد أنها كانت تُغنى وعمل هذا الغناء على إشاعتها بين الناس بوسيلتين : الأولى غناؤها في موسم الحج ، فنحن نقرأ دائماً في أخبار المغنين أنهم حبسوا الناس في الموسم ، فهذا الغريض بالمرزلفة يغنى الناس ويحبسهم عن مناسكهم (١) ، وهذا ابن سُرَيْج يغنى فيجعل الحاج يركب بعضهم بعضاً (٢) . وكذلك كان يصنع ابن عائشة (٣) وغيره . وهذه كانت الوسيلة الأولى إلى إذاعة الأغاني بين الناس . والوسيلة الثانية كانت انتقال الأصوات نفسها من المدينة ومكة إلى الحواضر والبادى المجاورة في الحجاز ، ثم الحواضر البعيدة في العراق والشام . ولنتخذ الطائف مثلاً لحواضر الحجاز ، فإنها كانت تُتخذ مصيفاً لنبلاء المدينة ومكة ، فكان المغنون في البلدين ينزلون فيها ، ومن أمثلة ذلك الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية مولاة الغريض وقيل وسُمِّيَة ، فإنها كانت تصيف هناك (٤) ، وأيضاً فإن العرجى كان ينزل في عَرَج الطائف ، وكان يصحبه بعض المغنين وعلى رأسهم فند ، مولى عائشة بنت سعد ، وذكر ذلك في شعره (٥) . وليس من شك في أن هؤلاء المغنين جميعاً كانوا يذيعون هناك غزل الأحوص وعمر ابن أبي ربيعة وغيرهما ممن يُغنى في شعره بالبلدين الكبيرتين . ومن الأدلة التي توضح ذلك عمر الوادى مغنى الوليد بن يزيد فقد كان من أهل وادى القرى بالحجاز ، ويقول صاحب الأغاني إنه ذهب إلى الحرَم فتعلم الغناء ، ثم رجع إلى وادى القرى ، فأخذ عنه حكم وذووه من أهل الوادى (٦) . ومعنى ذلك أننا نجد في وادى القرى ما نجده في الطائف من أن المغنين ينقلون الغناء من المدينة ومكة بما فيه من

(٤) المصدر نفسه ٢١٢/١ .

(٥) أغاني ٣٩٣/١ .

(٦) أغاني ٨٥/٧ .

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣٦٢/٢ .

(٢) المصدر نفسه ٣١٧/١ .

(٣) المصدر نفسه ٢٠٨/٢ .

غزل وما فيه من موسيقى . وليس ذلك كل ما نلاحظه في الحجاز ، فقد كانت هذه الأغاني لا تشيع في الحواضر فقط ، بل كانت تشيع أيضاً في البوادي ، فقد روى عمر الوادى أنه كان يسير ليلة بين الرُّوحاء والعَرَج ، فسمع إنساناً يعنى صوتاً لم يسمع قط أحسن منه ، وهو :

وكنْتُ إذا ما جئتُ سَعْدَى بأرضها أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعيدُها
من الخَفَرَاتِ البَيضِ ودَّ جليْسُها إذا ما انقضت أُحدوثُ لو تُعيدُها
وكاد يسقط عمر من راحلته طرباً وتبع الصوت ، فإذا هو برجل يرعى غنماً ، وإذا هو صاحب الصوت ، فأعلمه الذى أقصده إليه ، وسأله إعادته عليه ، فأعاده عليه مراراً حتى أخذه ، وهو من خفيف الرمل . وقال الراعى في بعض حديثه لعمر الوادى إني ربما ترنمت به وأنا جائع فأشبع ، وكسلان فأنشط ، ومستوحش فأنس ، ويروى الرواة أن عمر كان يشعر إزاء الصوت الشعور نفسه^(١).

وعلى هذا النحو كانت أصوات المغنين في المدينة ومكة تُنقل لا إلى الحواضر في الحجاز ، بل إلى البوادي وبين الرعاة . ولم يكن هذا كل ما اتُخذ في نقلها ، فقد نُقلت بعيداً حيث المغنون في العراق والشام ، ولعل مما يدل على ذلك أننا نجد حينئذ الحيرى يغنى في العراق بشعر للأحوص^(٢)، كما يغنى بشعر لكثير بن كثير السهمي^(٣) الشاعر المكي . وأمضى الغريض أيامه الأخيرة باليمن^(٤)، وغنى هناك فيما كان يغنى به في مكة من شعر الغزلين في الحجاز . وكثير من المغنين والمغنيات في المدينة - كما مرّ بنا - وكذلك في مكة قصدوا إلى دار الخلافة في دمشق حيث غنوا الخلفاء ، ولا بد أنهم كانوا في طريقهم وفي القوافل التي ركبوها يتغنون أغانيهم .

وليس من شك في أن القوافل لعبت دوراً مهماً في إشاعة هذه الأغاني وذيوعتها ، فبعد أن كانت هذه القوافل في الجاهلية تستخدم الحُداء في أثناء سُراها ، أخذت في هذا العصر تستخدم الغناء ، فابن مسجح يقص علينا أنه ذهب إلى دمشق وكان في القافلة التي ذهب فيها جوار مغنيات^(٥) . وأوضح من ذلك أننا نجد من

(٤) المصدر نفسه ٣٩٩/٢ .

(٥) المصدر نفسه ٢٨٢/٣ .

(١) أغاني ٨٦/٧ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣٤٢/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣٤٣/٢ .

أصحاب هذه القوافل مغنياً من معنى المديّة اشتهر في العصر وهو دَحْمان وكان يُكْرَى إلى المواضع ويتجر ، وليس من شك في أنه كان يغنى في قافلته ، بل كان يشركه بعض الجوارى . وقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية تغنى في إحدى قوافله فاشتراها منه بعشرة آلاف دينار^(١).

وهذا كله أحدث ما نريد أن نصل إليه وندل عليه من أن الغزل أصبح في هذا العصر شعراً شعبياً عاماً ، فالمغنون يرددونه في مواسم الحج وفي حواضر الحجاز وبواديها ، وفي حواضر العراق والشام ، وفي القوافل ، والناس من ورائهم يصنعون صنيعهم .

وساعد على شعبية هذا الغزل وأغانيه أن الشعراء أخذوا يهذبون ألفاظه وموسيقاه على نحو ما قدمنا في غير هذا الموضع ، وقد جعلوا لغته أكثر قرباً للناس من لغة الشعر القديم ، وحتى من لغة الشعر التقليدي المعاصر عند الفرزدق وجريز . ولم تكن لغته هي القرية من نفوس الناس فقط ، بل كانت معانيه أيضاً ، فهي تدور حول الحب ووقائعه ، في حين يدور الشعر التقليدي حول وقائع قديمة حيث نجد الشعراء يفتخرون بوقائع آبائهم في الجاهلية وحروبهم . ومن الغريب أنهم تركوا وقائع الإسلام وفتوحاته واستمروا يتحدثون عن أيام الجاهلية وحروبها ووقائعها ، وكان ذلك كله لا يقرب من نفوس الناس قُربَ معاني الأغاني التي دارت في أكثر أحوالها على الحب ووقائعه . على كل حال كانت أغاني الغزل في هذا العصر تدور على ألسنة الناس فقد أشاعها المغنون وأشاعتها سهولتها وقرب لغتها ومعانيها . وليس من شك في أن ذلك كان إيذاناً بأن تقتحم على الشعر التقليدي عُقر داره في العراق ، وتظفر به ظفراً محققاً على ما سنرى .

(١) أغاني ٢٥/٦ وما بعدها .

تفوق الغزل وأغانيه على الشعر التقليدي

رأينا الغزل يصبح شعراً شعبياً عاماً ، وكان من آثار ذلك أن أخذت موجته تنسج ، بل قل أخذت تعلو وترتفع وتسير قدماً إلى الأمام ، فإذا هي تكتسح كل الموجات التي تقابلها من موجات الشعر التقليدي ، وتقصد موجات الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وهو اكتساح بدأ في الحجاز ثم أخذ يمتد إلى الشام ثم العراق عقر الشعر التقليدي .

وأكبر الظن أن القارئ لم ينس ما قدمناه من أن الشعر العربي كان صحف العرب في العصر ، وهي صحف مختلفة ، تارة تكون رجزاً وتارة تكون شعراً ، وتارة تكون غزلاً وتارة تكون مديحاً أو هجاء ، وقد أخذت تتركز هذه الصحف المختلفة في دارين كبيرتين : دار الحجاز ودار العراق ، وكانت الدار الأولى مركز الغزل وأغانيه في حين كانت الثانية مركز الشعر التقليدي . فأما الدار الأولى فقد كانت تُصدر صحيفتها منذ أوائل العصر الأموي ، وكان يوجد بجانبها صحف صغيرة للشعر التقليدي في الحجاز ، غير أنها لم تلبث أن ابتلعتها أو كادت ، وحوّلتها جميعاً - إلا في القليل - إلى أغان .

وعلى هذا النحو أخذت صحف الشعر التقليدي في الحجاز تختفي واحدة وراء الأخرى ، فكانت لا تظهر إلا في فترات قليلة ثم ما تلبث أن تنقطع ، وقد تعود إلى الظهور ، ولكنها سرعان ما تعود إلى الانقطاع . أما صحيفة الغزل وأغانيه فكانت هي الصحيفة الكبرى ، وآية ذلك أن الشعراء لم يكونوا يشتهرون في هذه البيئة إلا بغزلهم ، فكثير ، مع أن له مدائح في الأمويين والهاشميين ، إنما يشتهر بشعره في عزة ، وابن قيس الرقيّات ، مع أن له مدائح في الأمويين والزبيريين ، إنما يشتهر بغزله في الرقيّات ، وهكذا الأحوص إنما يُعرفُ بغزله في أم جعفر أو في جميلة أو سلامة . وليس هذا كل أدلتنا على ما نزعمه فهناك دليل ثان وهو أن الشعراء في الحجاز أخذ بعضهم يقصر نفسه على الغزل الذي كانت تطلبه بيئته ، فلا

يتركه إلى غيره من فنون الشعر التقليدي ، على نحو ما هو معروف عن عمر ابن أبي ربيعة .

وبينما كانت هذه الدار الأولى تُعنى بإصدار صحيفة الغزل وأغانيه وقد أخذت تنتصر على ما حوّلها من صحف الشعر التقليدي حتى اكتسحتها جميعاً ، كانت الدار الثانية ، دار العراق ، لا تُصدر إلا صحيفة واحدة هي صحيفة الشعر التقليدي ، وخير ما يمثلها نقائض جرير والفرزدق التي كانا ينشدانها في المريد بالبصرة ، فتذيع على السنة العامة والخاصة هناك لسبب بسيط وهو أنها صحيفتهم اليومية .

ونحن نلاحظ أن أخبار هذه الصحيفة الثانية ، صحيفة الشعر التقليدي في العراق ، لم يكن لها طرفة أخبار الصحيفة الأولى ، صحيفة الأغاني بالحجاز ، لأنها انصبّت في الغالب على ذكر وقائع وأحداث وأيام كانت للقوم في الجاهلية ، وقلما عرضت لشيء من حياتهم الجارية ، أو حياتهم اليومية الحاضرة . أما صحيفة الأغاني فقد كانت صحيفة يومية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فيها يقرأ الناس ما يقع في مواسم الحج بين شعراء الحجاز والحواج ، وفيها يقرءون ما يقع بين هؤلاء الشعراء وصواحبهم في المدينة ومكة .

كانت الصحيفتان مختلفتان : صحيفة تاريخية ، تتحدث عن الماضي البعيد غالباً ولا تكاد تلم بالحاضر إلا في النادر ، وصحيفة إخبارية كل أحاديثها عن الحاضر ، أو قل بعبارة أدق ، إنها مرآة الحاضر بكل ما فيه من أحداث ووقائع . وليس هذا كل ما بين الصحيفتين من خلاف ، فقد كانت الصحيفة التقليدية تخلو من الصور ، فهي جافة ، وإن أتت بصور فهي غالباً صور جاهلية ، صور حرب ومتحاربين قدماء ، أما الصحيفة الغنائية فصحيفة حية تمتلئ بالصور وأي صور : صور العذارى والجوارى والنساء اللاتي كنّ حديث أهل الحجاز ، واستصيّن شعراء المدينة ومكة .

وخلاف ثالث بين الصحيفتين عرضنا له قبل ذلك وهو أن إحداها كانت تعتمد على التلوين ، فهي تعتمد على التصوير من جهة ، وتعتمد على التلوين

من جهة ثانية ، بخلاف الصحيفة الثانية ، ونقصد بالتلوين ما كان يصحب صحيفة الغزل من موسيقى وغناء .

كانت صحيفة الغزل تتميز بخصائص كثيرة تتيح لها الانتصار والظفر على الصحيفة التقليدية وكل ما يمثلها ، وقد بدأ هذا الانتصار في الحجاز نفسه فأصبحت هي الصحيفة التي تُتلى هناك ، ولم تعد تظهر صحف للشعر التقليدي إلا لماماً . ولم يقف انتشار هذه الصحيفة وتغلبها على الصحيفة الثانية صحيفة الشعر التقليدي عند الحجاز ، فقد أخذت دمشق تسمع بها وكذلك العراق . ولم تطلبها العراق تَوّاً لأنها كانت محافظة مغرقة في المحافظة وكانت تجد لذتها في الاستماع إلى ما يُتلى في صحيفتها التقليدية ، ومع ذلك فإن أصحاب هذه الصحيفة نفسها أخذوا يشعرون بما للصحيفة الأولى ، صحيفة الأغاني ، من خطر . ولعل ذلك ما جعل الفرزدق ، وهو أحد أصحاب هذه الصحيفة يقول حين استمع إلى بعض الشعر الذي سجلته صحيفة الغزل : هذا الذي كانت الشعراء تطلبه ، فأخطأته ، وبكت الديار^(١) ، وكذلك قال صاحبه جرير : « إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه^(٢) » . ومع ذلك فالفرزدق وجرير لم يُعدّلا شيئاً في صحيفتهما التقليدية ، بل استمرا يُصدرانها على النمط القديم .

لم تسرع العراق إذن إلى التعديل في صحيفتها التقليدية القديمة ، ولعل الشام كانت أكثر منها إسرعاً ، وأتاح لها ذلك اتصاها بالمغنين والمغنيات منذ أوائل هذا العصر الأموي ، فإن يزيد بن معاوية كان له ذوق موسيقى ، وهو ابن ميسون بنت بَخلد الكلبية ، وكانت تنظم الشعر ، وقد رفضت معيشة دمشق كما يقول الرواة ، وآثرت عليها البادية ، ونشأ ابنها على غرارها يحب الشعر ، وكان يحب الغناء ويطرب للموسيقى وقد طلب المغنين من المدينة فذهبت إليه عزة الميلاء^(٣) . ومن ذلك الوقت نجد الخلفاء يستقبلون كثيراً من المغنيات والمغنين في دمشق . ومعروف أنه تلا عصر يزيد عصر مضطرب ، فلا نسمع عن مغنين ومغنيات ذهبوا من المدينة إلى الشام ، حتى تهدأ الأمور ، ويعتلى عرش الخلافة عبد الملك بن مروان فنجدته يستقبل

(٣) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٥٩٢/٣ .

(١) أغاني ٧٥/١ .

(٢) المصدر نفسه ١٠٦/١ .

ابن مسجح مغنى مكة ويسأله أن يغنيه الغناء المتقن^(١) وكذلك استقبل بُدَيْح المليح مولى عبد الله بن جعفر ، واستمع إليه وأثابه^(٢). وقد أقام الوليد ابنه برغم اشتغال جيوشه في فتوح الهند بقيادة محمد بن القاسم والأندلس بقيادة موسى بن نصير حفل استقبال في دمشق لابن سُرَيْج ، مغنى مكة^(٣).. ولم يكن سليمان بن عبد الملك يعجب بالغناء وكذلك عمر بن عبد العزيز ولكن لا يلبث يزيد بن عبد الملك أن يتولى الخلافة فيرسل في طلب المغنين من المدينة ويقف عليه معبد ومالك وابن عائشة^(٤)، وقد اشترى سلامة القس وحباية .

وهذه الصلة بين الخلفاء في دمشق وبين المغنين والمغنيات في الحجاز كانت تؤذن بانتصار صحيفة الغزل في هذا الإقليم الذي دخلته ، إقليم الشام ، وهو إقليم لم يكن يشارك مشاركة ذات قيمة في الأغاني حتى عصر يزيد بن عبد الملك ، إذ كان يكتفى بقراءة ما يصله من صحيفة الأغاني الحجازية على أيدي الناشرين من المغنين والمغنيات .

وسرعان ما تحدث المفاجأة فإذا الوليد بن يزيد يُخرج ، أو يحاول أن يخرج ، صحيفة للغزل وأغانيه في دمشق نفسها ، كأنه يريد لها أن تكتفى بهذه الصحيفة الجديدة ، وأن تجد فيها ما تريده من غذاء للشعر .

وكان الوليد شاعراً ممتازاً ، وفي كتاب الأغاني ترجمة مطولة له عرض فيها أبو الفرج لشعره وما غنى فيه المغنون والمغنيات^(٥)، وفي موضع آخر حيث يتحدث عن الخلفاء وأولادهم الذين تركوا أصواتاً ، نراه يضع في أعلى طبقاتهم الوليد إذ كان يضرب بالعود ويؤقِّع بالطبل ويمشي بالدُّفِّ على مذهب أهل الحجاز^(٦) .

وإذن فالوليد كان من أصحاب الأغاني ، وكان أيضاً من المغنين الذين يؤلفون الأصوات ، لم يكن يغني للناس ، ولكن الناس تناقلوا غناؤه . وما من ريب في أن هذا يعطى صحيفة الأغاني عنده طرافة ومن يرجع إليه في كتاب الأغاني يجده يتعلق بالأوزان القصيرة المعدلة والمجزوءة ، وليس ذلك فقط ، فقد روى له صاحب

(٤) أغاني ١٠٩/٥ .

(٥) انظر ترجمته في الأغاني ١/٧ وما بعدها .

(٦) أغاني (طبع دار الكتب) ٢٧٤/٩ .

(١) أغاني ٢٨٤/٣ .

(٢) أغاني ١٠/١٤ وما بعدها .

(٣) أغاني ٢٩٧/١ .

كتاب الأغاني قطعة من وزن المجتث^(١)، وهو وزن قصير حديث نظن أنه كان أول من نظم فيه .

واستمرت هذه الصحيفة الغنائية في الشام تصدر طوال حياة الوليد قبل خلافته ، وفي أثناء خلافته ، ويظهر أنه لم يكن لها أنصار كثيرون ، فنحن لا نجد شاعر غزل في الشام بجانب الوليد بن يزيد ، وكان من نتائج ذلك أن صحيفته التي كان يُصدرها هناك انقطعت بمجرد قتله ولم تعد للظهور ، إنما تظهر هذه الصحيفة في إقليم جديد يتناولها من أيدي شعراء الحجاز والوليد بن يزيد ، ويحقق لها من النجاح كل ما كان يحلم به أصحابها سواء في الشام أو في الحجاز ، ونقصد إقليم العراق الذي أخذ يتصل بحركة الغناء والمغنين في الحجاز على نحو ما بينا ذلك في الفصل الثاني .

ونحن لا نصل إلى العصر العباسي حتى نجد كثيرين من أهل العراق عرباً وموالى يتعاونون على إصدار صحيفة الغزل وأغانيه هناك ، وساعد على ذلك أن الدولة اهتمت بهذه الحركة ، وأصبحت لا تجد مغنياً مشهوراً في الحجاز إلا وهو يفرع إلى العراق . وقد تكونت هناك مدارس للغناء والموسيقى ، وكثر فيها الأساتذة والتلامذة كثرة مفرطة ، بحيث غطت هذه المدارس على حركة الغناء القديمة في الحجاز .

ولم يعد للحجاز شأن في الغناء والموسيقى حينئذ ، فقد تركهما للعراق كما ترك معهما صحيفة الغزل التي كان يصدرها ، فلم نجد نسمع عن شاعر لها كبير يظهر هناك مثل عمر بن أبي ربيعة والأحوص ، بل اقتصر ذلك على العراق وشعرائه من مثل بشار ومطيع بن إياس وأبي نواس والعباس بن الأحنف وهلم جرا .

ولا نستطيع أن نعرض ببيان واضح لمدى ما كان للصحيفة الغنائية في العراق من شيوع وانتشار ، ونشاط وازدهار ، لأن ذلك يخرج عن موضوعنا ، لكن يكفي أن نقول إننا لا نجد في العراق شاعراً مشهوراً في القرن الثاني إلا وتوسَّس شهرته على ما يخرج من غزل . ومعنى ذلك أن صحيفة الغزل انتصرت أخيراً في العراق على الشعر التقليدي ، وقد جدد الشعراء ، تحت تأثير الغناء والموسيقى ، كثيراً من

الأوزان ، كما جددوا في اللغة والأساليب ، وليس هنا مكان الإفاضة في ذلك .
 على أنه ينبغي ألا نظن أن صحيفة الشعر التقليدي انقطعت تماماً في العراق ،
 فقد بقي منها بقايا ، أهمها ما يتصل بالمديح وكانت تصدر هذه الصحيفة أعداداً
 ممتازة حين يقف الشعراء بآبواب الخلفاء والوزراء والأمراء فيمدحونهم ويأخذون
 جوائزهم .

ونرى من كل ما سبق أن صحيفة الغزل وأغانيه انتصرت انتصاراً واسعاً على صحف
 الشعر التقليدي . سواء في الحجاز أو في العراق أخيراً ، فقد أصبحنا لا نكاد
 نسمع عن نقائص جرير والفرزدق ، إذ هجرها الناس والشعراء إلى هذا الشعر
 الجديد الذي يخف على الأسماع والأفواه .

الفضل الخامس

الأحوص

١

نسب الأحوص وحياته وصفاته

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله^(١) بن عاصم بن ثابت من بني ضبيعة بن عمرو، ابن عوف من الأوس^(٢). وكان يقال لبني ضبيعة في الجاهلية بنو كسر الذهب^(٣). ولنا نعرف شيئاً واضحاً عن حياة الأحوص إلا ما يُروى عن جده عاصم من أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه بعثاً فقتله المشركون ، وأرادوا أن يصلبوه فحمته الدبّر ، وهي النحل ، فلم يقدروا عليه ، حتى بعث الله عز وجل الوادي في الليل ، فاحتمله السبل فذهب به ، ولذلك يقال له حمى الدبّر^(٤) ، وافتخر الأحوص بذلك فقال : وأنا ابن الذي حمى الدبّر رُ قتيل اللحيان^(٥) يوم الرجيع

وليس في كتب التاريخ ما يُروى بعد ذلك عن جد الأحوص الأدنى عبد الله ولا عن أبيه . أما أمه فهي أثيلة بنت عمير بن مخشي ، وليس بين أيدينا ما يوضح شخصيتها ولا شخصية أسرتها . وافتخر الأحوص بحال له فقال :

غسّلتُ خالي الملائكة الأب رَأُ مَيْتاً طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيع^(٦)

-
- (١) هكذا نسب الأحوص في الأغاني طبع (٣) أغاني ٢٢٤/٤ .
دار الكتب ٢٢٤/٤ ، وفي طبقات ابن سلام (٤) انظر ابن سعد في الجزء السابق ص ٣٣ .
ص ١٣٧ أنه ابن عبد الله بن محمد بن عاصم ، (٥) أغاني ٢٢٤/٤ وكذلك ٢٣٤/٤ واللحيان :
وانظر ابن سعد القسم الثاني من الجزء الثالث ص ٣٣ .
حي من هذيل . (٢) يقول ابن سلام إنه خزرجي ، انظر الطبقات (٦) أغاني ٢٣٤/٤ .
ص ١٣٧ .

وغسيل الملائكة هو حنظلة بن عامر من بني ضُبَيْعَة^(١) بن عمرو بن عوف من الأوس ، قُتِلَ في وقعة أُحُد ، فقال عنه النبي إن حنظلة لتغسله الملائكة^(٢) . وإذا صح أنه خال أدنى للأحوص وأن أمه من أسرته يكون أوسياً أباً وأماً .
واسم الأحوص - كما رأينا - عبد الله ، وإنما لقب بالأحوص لحوص كان في عينيه وهو ضيق يعترى مؤخر العين . وكان الأحوص - إلى ذلك - أحمر شديد الحمرة ، ووصفه الفرزدق فقال : كأنه وَحْرَة^(٣) ، والوحرة يَعْسُوب أحمر ينزل الأنبار .

ومن يقرأ أخبار الأحوص في كتاب الأغاني يحس أنه كان فيه نزق ، بل حمق وطيش ، فقد روى الرواة أن السيدة سُكَيْنَة بنت الحسين ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم وافتخرت به ، فافتخر هو عليها بأبيه حَمِيّ الدَّبَرِ وخاله غسيل الملائكة^(٤) . وبفضل جدّ السيدة سُكَيْنَة حمت أباه الدَّبَرِ وغسلت خاله الملائكة .
ويروى الرواة أنه قدم البصرة فتزوج ابنة رجل من تميم ، وخرج بها إلى المدينة ، وكانت أختها عند رجل في طريقها ، فقالت له : اعدل بي إلى أختي ، ففعل ، فذبحت لهما وأكرمتهما ، ثم جاء زوجها ، وكان في إبله ، فلما رآه الأحوص اقتحمته عينه وازدراه لقبحه ، وقال تَوّاً^(٥) :

سَلامُ الله يا مَطَرٌ عليها وليس عليك يا مطرُ السَلامُ
فطَلَّقَها فلست لها بكفٍّ وإلا عَصَّ مَفْرَقُ الحِسامِ

وليس كل ما يلاحظ على الأحوص الطيش والحمق ، فنحن نلاحظ عليه أيضاً ميلاً إلى الخصومة والشر مما يدل على أنه كان حادّ الشعور ، وهي حدة تحولت إلى هجاء كل من حوله ، وبذلك ملأ قومه شراً . روى صاحب الأغاني أنه أقبل يوماً حتى وقف على معن بن حُميد الأنصاري أحد بني عمرو بن عوف بن جَحْجَجِي فقال :

(٤) أغاني ٢٣٤/٤ .

(٥) أغاني طبع بولاق ٦٤/١٤ .

(١) طبقات ابن سعد ٤٦/٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/٣ .

(٣) أغاني ٢٣٢/٤ .

رَأَيْتَكَ مَزْهُوًّا كَأَنَّ أَبَاكُمْ صُهِبَةً أُمْسَى خَيْرَ عَوْفٍ مُرْكَبًا
تُقَرِّبُكُمْ كَوْنِي^(١) إِذَا مَا نُسَبِّمُ وَتُنْكِرُكُمْ عَمْرُو بْنُ عَوْفٍ بِنَ جَحْجَبِي
عَلَيْكَ بِأَدْنَى الْخُطْبِ إِنْ أَنْتَ نَلْتَهُ وَأَقْصِرْ فَلَا يَذْهَبُ بِكَ التَّيُّهُ مَذْهَبًا

فَقَامَ إِلَيْهِ بَنُوهُ وَمَوَالِيهِ ، فَقَالَ : دَعُوا الْكَلْبَ ، خَلُّوا عَنْهُ ، لَا يَمْسُهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ ،
فَانْصَرَفَ ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ أَحْجَارِ الْعِرَاءِ بَقَاءً لَقِيَهُ ابْنُ أَبِي جَرِيرٍ أَحَدُ بَنِي
الْعَجْلَانِ ، وَكَانَ سَيِّدًا ، فَقَالَ لَهُ الْأَحْوَصُ :

وَإِنَّ بِقَوْمٍ سَوْدُوكَ لِحَاجَةً إِلَى سَيِّدٍ لَوْ يَظْفَرُونَ بِسَيِّدٍ

فَأَلْقَى ثِيَابَهُ ، وَأَخَذَ بِحُلُقِ الْأَحْوَصِ ، وَمَعَ الْأَحْوَصُ رَاوِيَتَهُ ، وَجَاءَ النَّاسُ
لِيُخْلَصُوهُ ، فَحَلَفَ لَثْنٍ خَلَصَهُ أَحَدٌ مِنْ يَدَيْهِ لِيَأْخُذَنَّهُ ، وَلِيَدْعُنَ الْأَحْوَصَ ، فَخَنَقَهُ
حَتَّى اسْتَرْخَى ، وَتَرَكَهُ حَتَّى أَفَاقَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُلَّ مَمْلُوكٍ لِي حَرٌّ ، لَثْنُ سُمْعٍ أَوْ
سَمِعْتُ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ النَّاسِ لِأَضْرَبَتْكَ ضَرْبَةً بَسِيفِي أُرِيدُ بِهَا نَفْسَكَ ، وَلَوْ كُنْتُ
تَحْتَ أَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، فَأَقْبَلَ الْأَحْوَصُ عَلَى رَاوِيَتِهِ فَقَالَ : إِنْ هَذَا مَجْنُونٌ ، وَلَمْ
يَسْمَعْ هَذَا الْبَيْتَ غَيْرَكَ ، فَيَاكَ أَنْ يَسْمَعَهُ مِنْكَ أَحَدٌ^(٢)

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ كَانَ الْأَحْوَصُ يَسِيرُ مَعَ الْأَنْصَارِ هَذِهِ السَّيْرَةَ مِنْ هِجَاثِهِمْ ،
وَكَانُوا يَسِيرُونَ مَعَهُ هَذِهِ السَّيْرَةَ مِنْ إِهَانَتِهِ وَازْدِرَائِهِ ، وَلَمْ يَكُونُوا وَحْدَهُمُ الَّذِينَ يَزْدُرُونَهُ ،
فَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ يَزْدُرُونَهُ أَيْضًا ، رَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي أَنَّهُ مَرَّ بِعَبَّادِ بْنِ حَمْزَةَ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ وَمُحَمَّدِ بْنِ مُصْعَبِ بْنِ الزَّبِيرِ بِخَيْمَتِي^(٣) أُمِّ مَعْبَدٍ ، وَهَمَا
يُرِيدَانِ الْحَجَّ وَكَانَ آيَاً مِنْ عِنْدِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَهُوَ عَلَى نَجِيبٍ لَهُ فَارَهُ وَرَحْلٍ
فَاحِرٍ وَبِرَّةٍ مَرْتَفَعَةٍ ، فَحَدَّثَهُمَا أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَجَازَهُ وَكَسَاهُ
وَأَخْدَمَهُ^(٤) ، فَلَمْ يَرْهَمَا يَهْشَانِ لَذَلِكَ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : خَيْمَتِي أُمِّ مَعْبَدٍ ، عَبَادُ وَمُحَمَّدُ ،
كَأَنَّهُ يَرُوضُ الْقَوَافِي لِلشَّعْرِ يَرِيدُ قَوْلَهُ ، فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُصْعَبٍ : إِنِّي أَرَاكَ فِي
تَهِيئَةِ شَعْرِ وَقَوَافٍ ، وَأَرَاكَ تَرِيدُ أَنْ تَهْجُونَا ، وَكُلَّ مَمْلُوكٍ لِي حَرٌّ لَثْنُ هِجَوْتَنَا بِشَيْءٍ

(١) كَوْنِي : مُحَلَّةٌ بِمَكَّةَ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ .

(٣) مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ .

(٤) أَعْطَاهُ خَادِمًا .

(٢) أَغَانِي ٤/٢٤١ .

إن لم أضربك بالسيف مجتهداً على نفسك ، فقال الأحوص : جعلني الله فداك !
 إني أخاف أن تُسمع هذا في عدواً ، فيقول شعراً يهجوكم به فينحلي به وأنا أبرئكما
 الساعة ، كل مملوك لي حر إن هجوتكما بيت شعر أبداً^(١)

ولعل في هذا كله ما يدل على أنه كان ذا عاطفة جامحة ، وأن هذه العاطفة
 تحولت إلى هجاء من حوله من قرشيين وأنصار ، حتى أصدقائه . روى صاحب
 الأغاني أنه لما أراد الخروج إلى يزيد بن عبد الملك نهض صديق له كان هو صديقه
 الوحيد من بني جَحْجَبِي ، فجهَّزه وقام بحوائجه وشيئعه ، فلما ركب الأحوص أقبل
 عليه فقال : لا أخلف الله عليك بخير ، فقال مَهْ غفر الله لك ! فقال الأحوص :
 لا والله أو أعلّقها حرباً^(٢)

وطبيعي أن يكون الأحوص بسبب هذا الشر كله منبوذاً من قومه في المدينة ،
 وأيضاً فإنه كان ضعيف الخلق لا يبالي أحداً^(٣) ، فتحاماه الناس وابتعدوا عنه
 لسفاهة لسانه وسفاهة خلقه جميعاً .

وأحس الأحوص أنه غريب في قومه ، فهم يزورون عنه كلما لقوه ، فماذا
 يصنع ؟ لقد رأى أن يولّي وجهه نحو دمشق وأن يتصل ببني أمية ، فهم الذين
 يستطيعون إذا قربوه أن يفرضوه على قومه فرضاً . وهكذا ذهب يستعين بهم ، ودفعه
 إلى ذلك أنه لم يكن مثرياً ، وأنه أراد أن يدفع بهم شر الحاجة . وقد قربوه منهم ،
 وأجزلوا له في مكافآتهم ، حتى لئراه يقول^(٤) :

وما كان مالي طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتَلَدَا
 ولكن عطايا من إمامٍ مباركٍ مَلَا الأرضَ معروفاً وجُوداً وسُودَا

فبنو أمية هم ثروة الأحوص وتجارته التي يستمد منها ما ينفقه . ويظهر أنها
 كانت ثروة وتجارة ممتازة ، فقد روى صاحب الأغاني أنهم أعطوه في إحدى قصائده
 لهم عشرة آلاف دينار^(٥) ، وأعطوه في أخرى مائة ألف درهم^(٦) ، ومن هنا كان الأحوص

(٤) أغاني ٨/٩ .

(٥) المصدر نفسه ٨/٩ .

(٦) المصدر نفسه ١٧٢/٩ .

(١) أغاني ٢٤٢/٤ .

(٢) أغاني ٢٤٠/٤ .

(٣) أغاني ٢٣٣/٤ .

يكثّر من مديحهم . ولعل ذلك كان من أسباب كراهية أهل المدينة له ، فقد عرفنا قبلاً أنهم لم يكونوا من هوى بنى أمية ، بل إن بنى أمية كانوا يستأجرون الشعراء من أمثال الأخطل لهجائهم . وكان شعراء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن حسان يردون على الأخطل وأمثاله هجاءهم ، ويهجون معهم معاوية وابنه يزيد .

أما اليوم ، فقد ظهر الأحوص ، ودفعه قومه ، فاندفع إلى الأمويين يتقرب إليهم بقصائده ومدائحه ، التي يبالغ فيها ما شاءت له المبالغة ، حتى يمكن أن نعهده من شعراء البيت الأموي في العصر ، ولو أن ديوانه بين أيدينا لاستطعنا أن نفهم في وضوح هذا الجانب من شعره ولكنه مفقود ، ولم يبق منه إلا قطع في كتب الأدب ، وأهمها الأغاني ، ومع ذلك فقد رُوي له شعر في الوليد بن عبد الملك وفي يزيد أخيه ، وهو في هذا الشعر لا يقف عند وصفهما بأنهما كريمان شجاعان من بيت شريف ، بل ينفذ إلى إمامتهما الدينية في الناس ، واستمع إليه يقول في الوليد (١) :

إمامٌ أتاه الملكُ عفواً ولم يُثبِّ	على مُلكه مالا حراماً ولا دماً
تَحَيَّرَهُ رَبُّ الْعِبَادِ لَخَلَقَهُ	وليّاً وكان الله بالناس أعلماً
فلما ارتضاه الله لم يدعُ مسلماً	ليبعته إلا أجاب وسلماً
ينال الغنى والعزَّ من نال ودّه	ويرهب موتاً عاجلاً من تشاماً
وإنَّ بِكَفِّهِ مَفَاتِيحَ رَحْمَةٍ	وغيثَ حياً يحيا به الناس مرهماً (٢)

وهذه نعمة لا شك في أن الوليد وغيره من بنى أمية كانوا يعجبون بها ، وكان المغنون ما يفتأون يغنونهم فيها . والحق أن الأحوص كان يغلو في مدحهم ، إذ كان يمدحهم على نحو ما يمدح الشيعة أئمتهم ، لا يمدحهم بالسياسة والحزم ، كما يمدحهم الأخطل مثلاً ، وإنما يمدحهم بأنهم أئمة الله ، اختارهم لخلقه ، وكأنه يردُّ بذلك على الشيعة الذين يزعمون أن النبي أوصى لعلي ، واستمرت الوصية تتابع في أبنائه . وهو أيضاً يرد عليهم ما يدعونه على الأمويين من سفك الدماء والظلم على نحو ما نجد عند الكميت في هاشمياته ، فهذا الوليد لم يسفح دماً ولم يُثبِّ

مالاً حراماً ، وإن بكفيه مفاتيح رحمة يفتح بها على الناس أبوابها ، وسحب كرم يرسل بها على الناس غيثها .

ويمثل هذا الشعر كان الأحوص يأخذ من بنى أمية الألو ف وكانوا يرسلون في طلبه (١) . وتروى كتب (٢) الأدب أنه مدح عبد العزيز بن مروان ، ويظهر أنه طلبه وهو في مصر ، كغيره من شعراء الحجاز ، فذهب إليه . وتدل أخباره أنه كان كثير التقلب في البلاد وأنه كان يذهب إلى العراق ، وأكبر الظن أنه كان يذهب لمديح بشر بن مروان كعبد الشعراء ومقصدهم هناك . وليس بين أيدينا ما يدل على أنه قصد عبد الملك بن مروان ، ولكن المعقول أن لا يمدح أخاه عبد العزيز وإلى مصر ويترك الخليفة وراءه .

وليس من شك في أن هذه الصلة التي عقدها بينه وبين بنى أمية كانت تتيح له أن يسير سيرته المعوجة التي عُرِف بها في المدينة ، فليس هناك وال يستطيع أن ينال منه لأنه شاعر سادته الذين يؤلونه ، وما زال هذا شأنه حتى تولى سليمان ابن عبد الملك ، وكانت فيه شدة ، فوُلِّي على المدينة أبا بكر بن حزم ، وكان هو الآخر لا يقل عن مولاه شدة . ويروى أن سليمان أرسل إليه أن يحصى المخنثين في المدينة لما سمع من إفسادهم لنسائها فخصاهم (٣)

ولما رأى أشرف المدينة شدة الخليفة الجديد وشدة ابن حزم واليه ، تقدموا إلى هذا الوالى يشكون الأحوص وسيرته ، وقيل بل تقدموا إلى سليمان نفسه ، فشكوا إليه الأحوص وأنه يشب بنسائهم (٤) . فكتب إلى ابن حزم يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيم على البُلس (٥) للناس ، وصدع ابن حزم بما أمره ، فجلد الأحوص مائة ، وأقامه على البلس ، فكان يصيح :

ما مِن مصيبة نكبة أُمّني بها إلا تُعْظِمْنِي وترفع شأني
وتزول حين تزول عن مُتخمطٍ (٦) تُخْشِي بَوادِرُهُ على الأقران

(١) أغاني ٢٥١/٤ .

وانظر ٢٤٦/٤ .

(٢) ابن سلام ص ١٣٨ .

(٥) البلس : جمع بلاس وهي غرائر كبار

(٣) أغاني ٢٧١/٤ وما بعدها .

يحمل فيها الثبن ويشهر عليها من يتكل به .

(٤) المصدر نفسه ٢٣٣/٤ وكذلك ٢٣٩/٤ (٦) متخبط : متكرر .

إني إذا خفيَ اللثامُ رأيتني كالشمس لا تخفى بكل مكانٍ
إني على ما قد ترون مُحسَّداً أُنمى على البغضاء والشنآن
أصبحتُ للأَنْصار فيما نابهم خَلْفاً وللشعراء من حَسَّانٍ (١)

وما زال الأُحوص واقفاً على البلس حتى جاءه بنو زُرَيْق من الخزرج فدفعوه عنها واحتملوه (٢). والأُحوص يَأْسِي في هذه الأبيات على نفسه ، ويقول إنه أصبح خَلْفاً للأَنْصار فيما نابهم . ولكن لا يظن القارئ أنه استشعر بعد ذلك أو قبل ذلك مأساة الأَنْصار فيما حلَّ بهم في أثناء العصر الأموي ، فإنه لم يكن يستشعر شيئاً من هذا أبداً ، أما البيت فهو لا يعدو فكرة طارئة لم يكن لها أى ظل وراءها . وآية ذلك أنه أخذ يهجو ابن حزم جزاء لما صنع به ، ولكنه كان يفرِّق دائماً بينه وبين بني أمية ، حتى يُنحِيهم بعيداً عن خصومته معه ، واستمع إليه يقول (٣) :

أَهْوَى أُمِيَّةٌ إِنْ شَطَّتْ وَإِنْ قَرَبَتْ يوماً وأهدى لها نُصْحِي وأشعاري
لا تَرْتَيْنَ لِحَزْمِي رَأَيْتَ بِهِ ضُرّاً وَلَوْ أَلْقَى الْحَزْمِيَّ فِي النَّارِ
الناخسين بمروان بسدى خُشْبٍ والمُقَحِّمين على عثمان في الدَّارِ

لم يحاول الأُحوص أن يهجو سليمان بن عبد الملك لجلده إياه ، بل لقد استمر ، كما يقول ، يهدى إليه وإلى غيره من بني أمية أشعاره . وفي هذه الأبيات ما يكشف عن ضعف خلقه ، فهو يحاول أن يوقع بين ابن حزم ومن ولَّوه من بني أمية ، إذ يرميه بأن آباءه أعانوا على قتل عثمان يوم الدار ، كما أعانوا على إزعاج الأمويين وعلى رأسهم مروان من وادي ذى خُشب القريب من المدينة قبل واقعة الحرَّة . ولعل في ذلك ما يكشف ، من بعض الوجوه ، عن موقف الأُحوص من خصومة أهل المدينة لبني أمية ، وأنه لم يكن يحس شيئاً من هذه الخصومة .

وقد رجع الأُحوص بعد جلد ابن حزم له وتشهيره به يعلن محبته للأمويين وأنه يهواهم ، كما رجع يهدى إليهم أشعاره . روى الرواة أنه لما توفي سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز وفد عليه مع كثيرٍ ونُصِيب ، وامتنع عليهم عمر ، لأنه كان يكره أن يجيز على الشعر ، ولكنه عاد فأذن لهم ، وأنشده الأُحوص قصيدة بديدة يقول فيها :

(٣) المصدر نفسه ٢٣٨/٤ .

(١) أغاني ٢٣٦/٤ وكذلك ٢٤٠/٤ .

(٢) أغاني ٢٣٩/٤ .

رَأَيْتَكَ لَمْ تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ يَمْنَةً
وَلَكِنْ أَخَذْتَ الْقَصْدَ جَهْدَكَ كُلَّهُ
فَقُلْنَا وَلَمْ نَكْذِبْ بِمَا قَدْ بَدَأَ لَنَا
وَلَوْلَا الَّذِي قَدْ عَوَّدْتَنَا خِلَافَتَهُ
لَمَّا وَخَدْتِ^(١) شَهْرًا بِرَحْلِي جَسْرَةً^(٢)
وَلَكِنْ رَجَوْنَا مِنْكَ مِثْلَ الَّذِي بِهِ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلشَّعْرِ عِنْدَكَ مَوْضِعٌ
وَكَانَ مُصِيبًا صَادِقًا لَا يَعْيبُهُ
فَإِنْ لَنَا قُرْبَى وَمَحْضٌ مَوَدَّةٌ
فَذَاوَا عَدُوَّ السَّلْمِ عَنْ عُقْرِ دَارِهِمْ

ويقول الرواة إن عمر أعطاه ثلثمائة درهم^(٤) . وعاد الأحوص إلى المدينة ، وكان ابن حزم لا يزال عليها . ويظهر أن الأحوص أخذ يسير سيرته القديمة ، فرجع الناس أمره إلى ابن حزم ، وكان صدره مُوْغراً عليه لكثرة أهاجيه فيه ، فكتب إلى عمر بأمره فبعث إليه أن ينفيه إلى دَهْلَك^(٥) . ونفاه ابن حزم واستمر هناك طوال خلافة عمر ، ولم تنفعه قصائده الكثيرة التي يترضاها بها ويستعطفه ، واستمع إليه يقول في إحدى هذه القصائد^(٦) :

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِي
وَقُلْ لَأَنْيَ حَفْصٍ إِذَا مَا لَقَيْتَهُ
أَفَى اللَّهِ أَنْ تُدْنُوا ابْنَ حَزْمٍ وَتَقْطَعُوا
هُدَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَسَائِلِي
لَقَدْ كُنْتُ نَفَّاعًا قَلِيلَ الْغَوَائِلِي
عُرَى حُرُمَاتٍ بَيْنَنَا وَوَصَائِلِي^(٧)

الأغاني طبع دار الكتب ٦٤/٩ . ويلاحظ أن الروايات مضطربة فيمن نفي الأحوص إلى دهلَك هل هو عمر أو سليمان بن عبد الملك كما في الأغاني ٢٤٦/٤ ، ووفقنا بينها معتمدين في ذلك على شعر الأحوص نفسه ، فجعلنا لسليمان أمراً بالجلد وجعلنا النفي لعمر بن عبد العزيز .

(٦) أغاني ٦٥/٩ .

(٧) الوصائل : جمع وصيلة وهي ما يوصل به الشيء .

(١) وخذت : أسرعت .

(٢) الجسرة : الناقة السريعة .

(٣) المناصل : السيوف والرماح

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٧

وما بعدها ، وانظر الأغاني طبع دار الكتب ٢٥٦/٩ وما بعدها .

(٥) دهلَك : جزيرة في بحر القلزم بينها وبين

بر اليمن نحو ثلاثين ميلاً . وانظر في الخير هنا

وكيف ترى للعيش طيباً ولذة
وما طمع الحزمى في الجاه قبلها
وشئ وأطاعوه بنا وأعانه
وخالك أمسى مؤثفاً في الجبال^(١)
إلى أحدٍ من آل مروان عادل
على أمرنا من ليس عنا بغافل

وتحوّل في بقية القصيدة يهجو ابن حزم ، ويعلن أنه رجا منه الصلح . حتى إذا بلغ منه ما يريد التفت إلى الشامتين به ، يعلن أن مثل هذه النكبة لا تفلّ من قوته وعزيمته . وهذه معان فيها شيء من القوة والصبر على البلاء الذى نزل به ، ولكن بجانبها أبيات وأشعار أخرى فيها تحاذل وتضرع إلى عمر أن ينقض ما أبرم فيه ، كأن يقول^(٢):

هل انت أمير المؤمنين فإنتى
متمم أجرك قد مضى وصنيعة
فكم من عدو سائل ذى كشاحة
بودك من ودّ العباد لقانع
لكم عندنا أو ما تعدّ الصنائع
ومنتظر بالغيب ما أنت صانع

ولم يغنه مثل هذا التضرع عند عمر ، ولا ما أرسل إليه من أشعار أخرى ، وهى كلها تنحو هذا النحو من التوسل والتزلف بالرحم والقربة ، واستمع إليه يقول فى قصيدة أخرى^(٣) :

ألا صلة الأرحام أدنى إلى التقي
فما ترك الصنع الذى قد صنعته
وكنا ذوى قرنى لديك فأصبحت
وأظهر فى أكفائه لو تكربما
ولا الغيظ منى ليس جلدأ وأعظما
قربتنا ثدياً أجداً مضرباً^(٤)
وكنّت وما أملت منك كبارق
وقد كنت أرجى الناس عندى مودة
أعدك حزواً إن جنيت ظلامه
لوى قطره من بعد ما كان غيماً
ليالى كان الظن غيباً مرجماً
ومالاً ثرياً حين أحمل مغرماً
تدارك بعثي عاتباً ذا قرابة
طوى الغيظ لم يفتح بسخط له فما

ولم ينفعه ذلك شيئاً ، ولم يخل سبيله عمر . ويقال إن رجالاً من الأنصار أتوا

(١) يشير إلى رحم بينهما .

آخر للقصيدة .
(٤) التدى الأجد : اليايس لا غداء فيه . والمصرم :

(٢) أغانى ٦٦/٩ .

(٣) أغانى ٢٤٩/٤ ، وقد ذكر أبو الفرج سبياً منقطع اللين .

عمر فكلّموه فيه ، وسألوه أن يعفو عنه ، فلم يقبل شفاعتهم ، وقال والله لا أردّه ما كان لى سلطان^(١). فمكث فى متفاه بقية ولاية عمر وصدرأ من ولاية يزيد ابن عبد الملك ، إذ كانت عنده جارية مغنية من صواحب الأحوص القديمت فى المدينة ، وهى حباة ، فأرسل إليها الأحوص بشعر يمدح فيه يزيد ، وتوسل إليها أن تغنيه به ، حتى يعفو عنه ، فصنعت ، وغنّت هذا الصوت :

أيهذا المخبرى عن يزيدٍ بصلاحٍ فذاك أهلى ومالى
ما أبالى إذا يزيدٌ بقى لى من تولّت به صُروفُ الليالى

وواضح أنه يعرّض فى البيت الثانى بعمر ، ويستبشر بولاية يزيد ، ولا سمع يزيد من جاريته الصوت قال : من يقول هذا ؟ قالت : الأحوص وهونت أمره ، وكلمته فى أمانه ، فأمنته^(٢). وكتب برده وحمله إليه ، وأنفذ إليه صلات سنية ، فلما قدم إليه أدناه وقرّبه وأكرمه . ويروى الرواة أنه قال له يوماً فى مجلس حافل : والله لو لم تمّت إلينا بحق ولا صهر ولا رَحِم إلا بقولك :

وإنى لأستحييكم أن يقودنى إلى غيركم من سائر الناس مطمّع
لكفالك ذلك عندنا ولم يزل يتادمه وينافس به حتى مات^(٣).

أصبح الأحوص شاعر يزيد المقرب منه ، وقد أخذ برّد له جميله وحسن صنيعه بقصائد عذبة بديعة ، لم تبق منها إلا بقايا ، احتفظ بها كتاب الأغانى . وهى تدل على إخلاصه ليزيد الذى رد إليه حريته . ولم يكتف الأحوص بهذه المدائح وما قدّم لمولاه ، فقد تعرض لخصومه يهجوهم ويُقدّع فى هجائهم ، وورّطه هذا الهجاء فى بلاء كثير . روى صاحب الأغانى أن يزيد بن عبد الملك بعث ، حين قُتل يزيد ابن المهلب ، فى الشعراء ، يأمر بهجاء يزيد بن المهلب ، منهم الفرزدق وكثير والأحوص . فقال الفرزدق : لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً ، وإنه لقبّيح بمثل أن يكذب نفسه على كبر السن ، فليعفى أمير المؤمنين ، فأعفاه ، وقال كثير : إنى أكره أن أعرض نفسى لشعراء أهل العراق إن هجوت

(٣) أغانى ٦٧/٩ .

(١) أغانى ٢٤٧/٤ وما بعدها .

(٢) أغانى ٢٤٩/٤ .

بنى المهلب . وأما الأحوص فإنه هجاهم . ثم حدث أن بعث به يزيد بن عبد الملك إلى الجراح الحكمي وهو بأذربيجان ، وكان بلغ الجراح هجاء الأحوص بنى المهلب ، فبعث إليه بزق من خمر ، فأدخل منزل الأحوص ، ثم بعث إليه خيلاً فدخلت منزله ، فصبوا الخمر على رأسه ، ثم أخرجوه على رؤوس الناس ، فأتوا به الجراح ، فأمر بحلق رأسه ولحيته ، وضربه الحد بين أوجه الرجال ، والأحوص يقول : ليس هكذا تُضرب الحدود ! فجعل الجراح يقول : أجل ولكن لما تعلم . ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يعتذر ، فأغضى له عليها (١) ، لما كان له من قوة العصبية هناك . وعاد الأحوص إلى دمشق يجر أذياله . ويظهر أن حياته لم تطل بعد هذا الحادث كثيراً ، فنحن لا نجد له أخباراً مع من جاء بعد يزيد من الخلفاء ، ويقول الرواة إنه توفي بدمشق بعد مرض ألمّ به (٢) .

٢

غزل الأحوص

ليس من شك في أن شعر الأحوص يعتبر صورة طريقة للشعر والفن في المدينة في أثناء العصر الأموي . والغزل هو أهم خطوط هذه الصورة وأكثرها بهجة وزُواء . وطبيعي أن يبرع الأحوص في الغزل لأنه كان متعة نفسه ومتعة أهل المدينة من حوله . وقد تحدثنا عن هذا الجانب قبلاً ، وصورنا كيف كان أهل المدينة أصحاب صباغة وغزل ، وكيف كانوا يشغفون بالأغاني التي تقصّ خواطر العشاق والمحبين شغفاً شديداً ، حتى عبّأدهم وزهادهم لم يبرءوا من هذا الشغف .

واستطاع الأحوص أن يمدّهم في هذا الجانب بفيض لا ينضب من حكاية العشق والصبابة بالمرأة والإفصاح عن لواجع الحب وما يصيب به أصحابه من عذاب ووصب ، بل قل ما يصيب به أصحابه من سقم ، كلما أرادوا أن يشفوا منه زادوا سقماً على سقم ، ولعل ذلك ما جعله يردد (٣) :

(١) ٢٣٢/١ .

(١) أغاني ٢٥٥/٤ وما بعدها .

(٢) أنظر الأغاني ٢٦٨/٤ وخزانة الأدب للبغدادى (٣) أغاني ٢٦٦/٤ وما بعدها .

إذا قلتُ إني مُشتَفٍ بِلِقائِها فحُمُّ التَّلَاقِ بيننا زادني سَقَمًا

فاللقاء والقرب من صاحبتِه كل ذلك ينشر حوله جَواً مريضَ الأنفاس ، ولكنه مع ذلك جو فيه لذة لا توصف . وكان الأحوص يشعر بذلك شعوراً متأصلاً في ذات نفسه ، ولعله من أجل ذلك كان يقول^(١) :

إذا أنت لم تعشَقْ ولم تَدِرْ ما الهوى فكنْ حَجَراً من يابس الصَّخْرِ جَلَمَداً

فالحياة في رأى الأحوص هي العشق ، ومن لم يعشق ينبغي ألا يعدَّ نفسه حياً ، لأن الشعور بالحياة ينقصه ، وما الحياة بدون عشق ؟ إنها تصبح ، في رأيه ، ظلاماً خالصاً ، بل إنها تفقد الإنسان حسه ، وتجعله حيواناً شديد الغباوة ، بل حجراً من الصخر شديد القساوة :

الأحوص إذن من الشعراء الغزلين الذين يتعمق العشق أفئدتهم لأنهم يؤمنون بأنه نعيم الدنيا إن خلت من أشعته انطفأت فيها بهجتها الحقيقية ، وأطبق الظلام من كل جانب . ليست الحياة في رأى الأحوص شيئاً مذكوراً إن هي خلت من العشق ، ولقد كان يقول ذلك في إيمان عميق ، ولذلك كان يعلن دائماً أنه لن ينسى حبه حتى يوم الحشر يوم تُبلى السرائر^(٢) :

ستَبْقَى لها في مُضْمَرِ القلب والحشا سِريرةٌ حُبٍّ يوم تُبلى السرائرُ

حبه إذن لن ينتهى بموته ، بل سيحشر معه ، ولن ينساه في هذا اليوم يوم الروح والفرع الأكبر ! واستمع إلى هذا البيت الذى يصور حقيقة العاشق وما يعتربه من كُرب الوجوم حين يلقي صاحبتِه^(٣) :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فَأُبْهِتَ حَتَّى ما أكادُ أُجِيبُ

فهو يعبرُ تعبيراً دقيقاً عن لحظة المفاجأة وما يصحبها من حيرة في نفس العاشق حتى لينعقد لسانه . ولعل أجمل ما نظمه في هذا الباب تلك المقطوعات التى ناجى بها صاحبتِه أم جعفر ، وهى سيدة من بنى خَطْمة من الأوس ، وكان يكثر فيها من

(٣) أغاني ٢٤٧/٤ .

(١) أغاني طبع بولاق ١٥٨/١٣ .

(٢) أغاني ٢٤٨/٤ وخزانة الأدب ٢٣٣/١ .

التشبيب والغزل ، ومن شعره البديع فيها^(١) :

لقد منعتُ معروفها أمَّ جعفرٍ	وإني إلى معروفها لفقيرُ
وقد أنكرتُ بعد اعترافٍ زيارتي	وقد وَغَرَّتْ فيها علىَّ صدورُ
أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ	بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ
أزورُ البيوتَ اللاصقاتِ بيبتها	وقلبي إلى البيت الذي لا أزور
وما كنت زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى	إذا لم يُرَّزْ لا بد أن سيزور
أزور على أن لست أنفكُ كلما	أتيت عدواً بالبنان يشرُّ

وهو يستهل هذه القطعة بأن أم جعفر تتدلل عليه وتتمنع ، ويقول الرواة إن أخاها « أئمن » كان يتوعده ويتهدده ، وإنه استعدى عليه وإلى المدينة في خبر طويل ذكره صاحب الأغاني^(٢). ولعل ذلك ما جعل الأخص يتعلق بها ويشد تعلقه ، فيضع فيها شعراً كثيراً ، إذ أحس في حبها شيئاً من الحرمان ، وكان يحبها من أعماق نفسه ، ولم يستطع لقاءها فاشتعل قلبه حباً . وزاده اشتعلاً أنه كان لا يجد سبيلاً إلى رؤيتها ، فكان يزور البيوت اللاصقات بيبتها ، وكان يكثر من الدوران حول دارها ، لعله يشفي ما به من سقم وعشق ، ولكن أنى له الشفاء ، وأئمن يبادره العداء ، وتبادره هي بالجفاء ، بل بالنكر والاستخفاء . ولقد تجالذ يوماً هو وأئمن بسببها فأصلاه سيّاطاً حامية^(٣) ، وكان ذلك سبباً - على ما يظهر - في أنه ابتعد عن الدوران حول بيتها ، وقد ذهب يعبر عن ذلك في تذلل لها وضراعة ، يقول^(٤) :

وإني لآتي البيتَ ما إن أحبه	وأكثر هَجَرَ البيت وهو حبيبُ
وأغضى على أشياء منكم تسومني	وأدعى إلى ما سرَّكم فأجيبُ
أبتك ما ألقى وفي النفس حاجة	لها بين جِلْدِي والعظام دَيْبُ
لك الله إني واصلٌ ما وصلتني	ومثني بما أوليتني ومثيبُ
وأخذ ما أعطيت عفواً وإنني	لأزورُ عما تكرهين هيوبُ
فلا تتركني نفسى شعاعاً فإنها	من الحزن قد كادت عليك تذوبُ

(١) أغاني طبع دار الكتب ٢٥٥/٦ .

(٣) أغاني ٢٥٤/٦ .

(٢) أغاني ٢٥٤/٦ .

(٤) أغاني ٢٥٧/٦ .

فقد تعود أن يهجر بيتها ، أو بعارة أدق ، البيوت اللاصقات ببيتها ، عوده ذلك أيمن وسياطه ، ومع ذلك فهو لا يزال يذكرها ، ويغضى على ما تصنعه هي وما يصنعه أيمن ، رجاء أن تمنّ عليه بقاء أو نظرة . وكانت امرأة عفيفة وسيدة شريفة ، وكان ذلك حرياً أن يدفع الأحوص عنها ، ولكنه استمر في غزله واستمر يطلب إليها كما نرى هنا أن تصله وأن تعطيه ولو عفواً ، وما كانت تعطيه شيئاً ، بل لقد جعلته يوماً يشهد أمام الناس أنه لا يعرفها . روى صاحب الأغاني أنه لما أكثر الأحوص من ذكرها جاءت منتقبة ، فوقفت عليه في مجلس قومه ، وهو لا يعرفها فقالت له : اقض ثمن الغنم التي ابتعتها مني ، فقال : ما ابتعت منك شيئاً ، فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه ، وبكت وشكت حاجة وضراً وفاقة ، وقالت : يا قوم كلموه ، فلامه قومه ، وقالوا اقض المرأة حقها ، فجعل يحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها ، فكشفت وجهها وقالت ويحك ! أما تعرفني فجعل يحلف مجتهداً أنه ما يعرفها ولا رآها قط ، حتى إذا استفاض قولها وقوله ، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار ، وكثر لغظهم وأقوالهم ، قامت ، ثم قالت : أيها الناس ، اسكنوا .. ثم أقبلت عليه ، وقالت : يا عدو الله صدقت ! والله ما لي عليك حق ولا تعرفني ، وقد حلفت على ذلك ، وأنت صادق ، وأنا أم جعفر ، وأنت تقول : قلت لأم جعفر وقالت لي أم جعفر في شعرك ، فخرج الأحوص وانكسر عند ذلك^(١).

وأكبر الظن أن الأحوص لم يكن محظوظاً عند حرائر المدينة ، لا عند أم جعفر ولا عند غيرها ، ولعل ذلك ما جعله يعرض عن الحرائر جملة فيقول^(٢) :

ثُنتان لا أدنو لوصولهما عُرُس الخليل وجارة الجنب^(٣)
أما الخليلُ فلست فاجعه والجارُ أوصاني به ربّي

ولسنا ندرى أكان يقول الأحوص ذلك عن إخلاص ونية صادقة ، أو كان يقوله عن غير إخلاص .

ولكن إذا كان الأحوص مكروهاً أو منبوذاً عند حرائر المدينة فقد كان محبوباً

(٣) جار الجنب : اللاصق بك إلى جنبك .

(١) انظر أغاني ٢٥٨/٦ .

(٢) أغاني ٢٦٤/٤ .

عند الإماء من مغنيات المدينة اللاتى يغنين فى نواديهما الموسيقية ، وكان ذا حُطوة ممتازة فى دار جميلة ، إذ كان هو الشاعر الذى يعطى هذه الدار ما تغنى فيه من شعر وغزل . وليس ذلك فقط ، بل لقد كان يعشق ما فى الدار من مغنيات ويتخذ منهن خدبنات له ، وكأنه كان عاشقاً للجمال أين حلّ أو تصوّر ، لا يهمه أن تكون المرأة التى بها عربية ، إنما يهمه أن تكون جميلة بارعة الحسن . ولا يعنيه بعد ذلك شيء منها ولا من تاريخها وأصلها . وهنا يفترق الأحوص فى غزله من شعراء الحجاز الذين نعرفهم ، سواء شعراء البادية أو شعراء الحاضرة ، أما شعراء البادية فقد كانوا يتغزلون بنساء بدويات من مثل عزة وبشينة ولىلى ، وأما شعراء الحاضرة فقد كانوا يتغزلون بالنساء الجميلات من الحاضرة ، وكانوا يختارونهن من العرب ، وقلمنا نجد شاعراً يتغنى بقينة أو أمة ، ولنضرب لذلك مثلاً عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين فى مكة ، فإنه كان يتغزل فى الحواج من العربيات ، وكانت صواحبه اللاتى أكثر من الغزل فهن قرشيات من مكة ، فالثريا ونعم وزينب كلهن قرشيات مكيات ، ولكن ارجع إلى ما روى صاحب الأغانى للأحوص من غزل فستجد أكثره فى هؤلاء المغنيات من الإماء الأجنبية اللاتى كن يغنين فى المدينة من أمثال جميلة والدلفاء وسلامة وعقيلة العقيقة .

والأحوص حين يتغزل فى هؤلاء المغنيات لا يتغزل عابثاً على نحو ما يتغزل عمر بن أبى ربيعة ، ولكنه يتغزل فى صديق ، فهو يحبن حباً عميقاً يتغلغل إلى ذات نفسه . ويظهر أنه تعلق أول الأمر بجميلة ، إذ يقول صاحب الأغانى إنه كان معجباً بها ، وكان لا يكاد يفارق منزلها إذا جلست^(١) ، ومن شعره فيها وقد غنت فيه^(٢) :

وإن يَقلُّ الناسُ لى عاشقٍ فأين الذى هو لم يَعشَقِ
ولم يَبكِ نُوباً على عِبرةٍ بداء الصَّبابةِ والمَعْلَقِ^(٣)

فهو يعلن عشقه لجميلة وأنه مريض منها بداء الصبابة ، وجميلة تعجب به وبشعره وتغنيه فيه ، ويغنيها فيه معبد^(٤) وغيره من المغنين والمغنيات الذين يغنون فى دارها . ومن شعره فيها أيضاً قوله^(٥) :

(١) المصدر نفسه ٢٠١/٨ .

(١) أغانى طبع دار الكتب ٢٣١/٨ .

(٥) أغانى ٢٣٣/٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٨٤/٨ .

(٣) المعلق : المحبة .

وبالفقر دارٌ من جميلة هيَّجَتْ سوافَ حُبٌ في قِوَادِكِ مُنْصَبٍ^(١)
تري العينُ ما تهوى وفيها زيادةٌ من الحسنِ إذ تبدو وملهى لمُلْعَبٍ

وقد قال يونس : ما لها صوت أحسن من صوتها في هذا الشعر ، وقال : أنا أغنيه فتعجبني نفسي ، ويدخلني شيء لا أعرفه من النخوة والتيه^(٢) وهذا نفسه ما كانت تشعر به جميلة صاحبة الصوت وصانعة ، وهل من ريب في أنها كانت تشعر في أثناء أدائها له بمودتها للأحوص ، كما كانت تشعر بشيء من التيه ، فهذا أهم شعراء المدينة يتعلق بها وينظم فيها كما ينظم ابن أبي ربيعة بمكة في الشريقات من النساء والفتيات الغزلات .

ولم يتعلق الأحوص في دار جميلة بصاحبة الدار وحدها ، بل لقد تعلق بكثير من المغنيات عندها . وقد تحدثنا في غير هذا الموضع عن كثرة من كان عندها من الإماء المغنيات ، وكان الأحوص يتنقل بينهن جميعاً ، يتغزل فيهن ، ويعلن عشقه لهذه اليوم ، ولتلك غداً ، واستقر عشقه ، على ما يظهر عند ثلاث ، هن : الذلفاء وعقبلة وسلامة ، وفي الذلفاء يقول^(٣) :

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ هُمِّي	فَلْيَدْعِنِي مَنْ يَلُومُ
أَحْسَنُ النَّاسِ جَمِيعاً	حِينَ تَمْشِي وَتَقُومُ
حَبِّبَ الذَّلْفَاءُ عِنْدِي	مَنْطِقُهَا مِنْهَا رَجِيمُ
أَصْلُ الْحَبْلِ لِرَضَى	وَهِيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ
حُبُّهَا فِي الْقَلْبِ دَائٌ	مُسْتَكِنٌ لَا يَرِيمُ ^(٤)

وهكذا كان الأحوص يحب المغنية من المغنيات ، فيرى أنها كل هم في الحياة ، وأنها أحسن الناس جميعاً حين تمشي ، وحين تقوم ، وحين تغني . ونحن لا نرتاب في أن دار جميلة أتاحت له أكبر حظ ممكن من الاتصال بهؤلاء النساء ، يتغنى عندهن ما يملأ حسه ونفسه من متعة بالجمال والحسن ، إذ كان هؤلاء المغنيات من أجناس مختلفة . وإن تغنى الأحوص بهن ليكشف عن ناحية

(١) منصب : متعب .

(٣) أغاني ٢٠٠/٨ .

(٢) أغاني ٢٣٣/٨ .

(٤) يريم : يريح .

مهمة في نفسه ، وهي أنه كان أكثر شعراء المدينة أو قل شعراء الحواضر الحجازية شجاعة في الإفصاح عن دخائله وما يُطوى في قواده ، وهو لذلك يتغزل في هؤلاء الإماء ، ولعله كان يفضلهن على النساء الحرائر ، فذهب يفصح عن ذلك في حرية وصراحة .

وأكبر الظن أن الأحوص اندفع في ذلك أيضاً بعامل رغبته في الشذوذ على أذواق معاصريه ، فإذا هو يختار لغزله هذا الموضوع الجديد من الإماء والقيان ، وهو يختاره محباً له مؤثراً ، إذ كان يجد في هؤلاء القيان والإماء من الصباية والهوى والغزل ما لا يجده في النساء الحرائر المتحفظات ، وكان يتغزل فيهن كما يريد ويهوى غزلاً عفيفاً وغزلاً صريحاً ، لا حرج عليه في ذلك ، ولا لائم يلومه ، لا أيمن ولا غير أيمن ، واستمع إليه يقول في عَقِيلَةَ العَقِيقَةِ (١) :

يا للرجال لَوْجِدِكَ المتجدِّدِ	ولما تُؤمِّلُ من عَقِيلَةَ في غَدِ
ترجو مواعِدَ ، بَعَثُ آدَمَ دُونَهَا	كانت خَبَلاً للْفُؤَادِ الْمُقْصَدِ (٢)
هل تَذَكِّرِينَ عَقِيلُ أو أنساكِه	بَعْدَى تَقَلُّبُ ذَا الزَّمانِ الْمُفْسِدِ
يومي ويومك بالعَقِيقِ إِذِ الهوى	مَنَّا جَمِيعُ الشَّمْلِ لَمْ يَتَبَدَّدِ
لى ليلتان فليلةٌ معسولةٌ	أَلْقَى الحبيبَ بها بنجم الأسعدِ
ومريحةٌ هُمَّى عَلَى كَانَتِي	حتى الصباح معلق بالفرقد (٣)

وليس غريباً أن يكون الأحوص صريحاً في غزله على هذا النحو فعهدنا به أنه لا يخفى شيئاً في دخيلة نفسه .

وأهم مغنية تعلق بها الأحوص وشُغِفَ بها حُبًّا سَلَامَةَ الْقَسِّ ، وقد فُتِنَ بها الناس على ما يظهر في المدينة ، بل في مكة أيضاً حيث هام بها عبد الرحمن بن أبي عَمَّار الجُشَمِيُّ الذي لُقِّبَ بِالْقَسِّ لعبادته ، ولذلك سميت سلامة القسِّ ، وله فيها أشعار طريفة (٤) . وقد تحدثنا عنها في فصل الغناء ، وكانت إحدى الجوارى اللاتي تعلق بهن

(٣) تريح همه عليه : تسوقه إليه .

(٤) أغاني ٣٣٤/٨ .

(١) أغاني ٢٥٩/٤ .

(٢) المقصد : المجرع بالسهم

الأحوص ، بل اللأى أحبهن حباً مفرطاً ، وكانت تبادله حباً بحب ، وفيها يقول^(١) :

أَسْلَامُ هَلْ لِمَتَيْمٍ تَتَوِيلُ أَمْ هَلْ صَرَمْتُ وَغَالِ وَدَكِ غُولُ
لَا تَصْرِفِي عَنِّي دَلَالِكَ إِنَّهُ حَسَنٌ لَدَيَّ وَإِنْ بَخَلْتَ جَمِيلُ
أَزَعَمْتُ أَنَّ صَبَابِي أَكْذُوبَةٌ يَوْمًا وَأَنْ زِيَارَتِي تَعْلِيلُ

وفي البيت الأخير ما يدل على أنها كانت تقول له إنك محب غير صادق فأنت رجل تحب كل من في الدار ، دار جميلة ، تحب صاحبة الدار وقد أحبيت الذلّفاء وعقيلة العقيمة ، وأحبيت غيرهما ، فأنت لست محباً صادقاً ولا صاحب صباية صادقة ، إنما أنت رجل غزل تغازل النساء والإماء جميعاً ، لا تفرق بين واحدة وأخرى . ويظهر أنها كانت تكثر عليه من الدلّ ، فقلما أتاحت له ما يريد من بهجة اللقاء ، ومن أجل ذلك كان يكثر من توددها واستعطافها والتذلل لها كأن يقول^(٢) :

أَسْلَامُ إِنَّكَ قَدْ مَلَكَتِ فَاسْجُجِي قَدْ يَمْلِكُ الْحَرُّ الْكَرِيمُ فُسْجُجُ^(٣)
مُنَى عَلَى عَانَ أَطْلَتِ عَنَاءَهُ فِي الْغُلِّ عِنْدَكَ وَالْعَنَاءُ تُسْرَحُ^(٤)
وَإِذَا شَكُوتُ إِلَى سَلَامَةٍ حَبِّهَا قَالَتْ أَجِدُ مِنْكَ ذَا أَمٍّ تَمْزُجُ

فهى دائماً تتشكك في حبه ، وتهتمه بأنه إنما يريد اللعب والعبث ، بل لعله يريد المزاح وتزجية الفراغ ، ومن ثم كان يعلن لها دائماً في شعره أنه لا يستطيع سلوا عنها ، بل إنه ليبلل يديها بدموعه ، واستمع إليه يقول^(٥) :

يَا دِينَ^(٦) قَلْبِكَ مِنْهَا لَسْتَ ذَا كَرَاهَا إِلَّا تَرْقُقُ مَاءَ الْعَيْنِ أَوْ دَمْعًا
أَدْعُو إِلَى هَجْرَهَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي حَتَّى إِذَا قُلْتَ هَذَا صَادِقٌ نَزْعًا
لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعًا عَنْ مَحَبَّتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
كَمْ مِنْ دَنَى^(٧) لَهَا قَدْ صَرْتُ أَتْبَعُهُ وَلَوْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا صَارَ لِي تَبْعَا

(٥) أغاني ٢٩٩/٤ وما بعدها .

(٦) الدين هنا : الداء

(٧) الدنى : التافه الوضع

(١) أغاني ٣٣٧/٨ .

(٢) المصدر نفسه ٣٣٨/٨

(٣) الإسجاج : حسن العفو .

(٤) عان : مقيد بالأغلال .

وزادني كلفاً في الحب أن منعتُ وحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنعا
وهكذا كانت سلامة تكثر من التمتع على الأحوص ، فيزداد شغفه بها وتعلقه ،
ويكثر من شعره فيها ، وكانت تغني بنفسها هذا الشعر فتحسن فيه إحساناً شديداً .
وقد روى صاحب الأغاني أنه هو وابن قيس الرقيات الشاعر المكي اجتماعاً عندها ،
فغنتهما على البديهة بشعر لهما جميعاً فيها ، فأحسنت في شعر الأحوص بأكثر
مما أحسنت في شعر ابن قيس الرقيات ، فقال ابن قيس الرقيات : أحسنت
يا سلامة والله ، وأظنك عاشقة للأحوص ، فقال له الأحوص : ما الذي أخرجك
إلى هذا ؟ قال : حسن غنائها بشعرك ، فلولا أن لك في قلبها محبة مفرطة ما جاء
صوتها هكذا حسناً على هذه البديهة ، فقال له الأحوص : على قدر حسن شعري
على شعرك هكذا حسنُ الغناء به ، وما هذا منك إلا حسد ، فقالت سلامة : لولا
أن الدخول بينكما يوجب بغضةً لحكمت بينكما ، فقال الأحوص : أنت من
ذلك آمنة ، فقال ابن قيس الرقيات : كلا ! قد أمنت أن تكون الحكومة عليك ،
فلذلك سبقت بالأمان لها (١)

وطبعي أن تحسن سلامة في غنائها بشعر الأحوص لأنها من جهة تغني في
شعر عاشق لها ، ومن جهة أخرى تريد أن تثبت تفوقها في غنائها بشعره على زميلاتها
الأخريات اللاتي يتغزل بهن ويتغنين في غزله . وحدث أن اشترى يزيد بن عبد الملك
سلامة فازداد شغف الأحوص بها وأخذ يرسل لها بأشعار ، ويروي الرواة أنها
كانت تغني فيها يزيد مولاها ، وما غنته فيه (٢) :

عاودَ القلبَ من سلامةَ نَصَبُ فلعينيَّ من جوى الحبِّ غَرَبُ
ولقد قلتُ أيها القلبُ ذو الشو قِ الذي لا يحبُّ حبَّك حبُّ
إنه قد دنا فراقُ سُلَيْمى وغدا مطلبٌ عن الوصلِ صَعْبُ

فهو يبكي سلامة على البعد ، وهو يحس لها بين جوانحه بحب لا يماثله حب ،
وهو يشعر أنها فرت من يده هذه المرة ، ولن يستطيع لقاء لها ولا وصلاً . والطريف

(٢) أغاني ٣٤٠/٨ . والنصب : العناء . والغرب : الدمع .

(١) أغاني ٣٣٧/٨ .

أنه يعلن هنا أنه لا يوجد محب يحب كما يحب هو ، فهو إذا أحب ازداد كلفه وولعه وبالغ في حبه إلى أقصى غاية ممكنة ، فهو يحب جميلة ، ويحب أم جعفر ، ويحب الذلفاء ، ويحب عقيلة، ويحب سلامة ، ومن يدري لعله كان يحب أخريات وراءهن لم تسجلهن أشعاره في كتاب الأغاني . ونحن نظن أنه كان يحب حباية أيضاً التي اشتراها يزيد هي الأخرى من المدينة ، وقد سَعَت قبل صاحبته سلامة إلى إصدار العفو عنه من سيدها يزيد كما مر آنفاً . غير أن سلامة - على ما يظهر - هي التي شغفته حباً ، فقد أكثر من الشعر فيها ، وأكثر من تدلّعه ، كما أكثر من تحسره على فراقها ، ومن أجمل ما يُروى له في بيان لهفته عليها بعد خروجها من المدينة قوله (١) :

ضوءُ نارٍ بدا لعينك أم شبَّ متٌ بذى الأثُلِ (٢) من سلامة نارٍ
تلك بين الرياض والأثُلِ والبَا ناتٍ منّا ومن سلامة دار
وكذاك الزمانُ يذهب بالنّا سٍ وتبقى الرسومُ والآثارُ

وعلى هذا النحو لم يبق للأحوص من سلامة ما يتحسسه ويرفع الطرف فيه ويخفضه سوى الرسوم والآثار ، فهي كل ما بقي له .
وأكبر الظن أنه انطبعت في أنفسنا الآن صورة غزل الأحوص فهو يتغزل في الإماء والجواري من مغنيات المدينة ، وهو يحسن في ذلك ، ويأتى بالطريف البديع الذي يعجب معاصريه ، ويروقهم ، وقد تخصص بهذا الموضوع وأشاعه . وإذن فالغزل بالإماء والجواري ليس ظاهرة عباسية محدثة في الشعر العباسي عند بشار وأصحابه كما ظن بعض المعاصرين ، وإنما هو ظاهرة أقدم من ذلك ، هو ظاهرة أموية قبل أن يكون ظاهرة عباسية ، أو قل هو ظاهرة حجازية قبل أن يكون ظاهرة عراقية .

مدائح الأحوص وأهاجيه

من يقرن مدائح الأحوص في بنى أمية إلى مدائح جرير والفرزدق والأخطل يشعر بفروق أساسية بين النوعين من المدائح ، فمدائح الأحوص أسهل وأقرب إلى اللغة المألوفة من مدائح الفرزدق وصاحبيه ، وهو من هذه الناحية يتميز تميزاً واضحاً . ليست مدائح الأحوص في بنى أمية مدائح طنانة ، وهو حتى إن استطاع أن يصنع بعض المدائح الطنانة ، فإنه لا يستطيع أن يعمم ذلك في كل مدائحه . إذ كثيراً ما تخرج بعض نماذجه فيها عن الصورة العراقية التي تعتمد على البناء الضخم ، إلى صورة حجازية متحضرة ، فيها أثر الغناء والموسيقى الجديدة . فالأحوص شاعر من نوع آخر غير الذي نعهده عند جرير والفرزدق والأخطل ، شاعر يعتمد في حياته على أن يعيش في دور الغناء بالمدينة ، وهو يصنع الشعر لهذه الدور من لغة مألوفة ، وقد تسرب ذلك إلى مدائحه ، فإن من يقرأها يلاحظ أن لغتها قريبة إلى اللغة المألوفة . وهي ظاهرة يلاحظها كل من يقرأ شعر هذا العصر في الحجاز ، ويقرنه إلى شعر العراق عند جرير والفرزدق وأمثالهما ، فهو أقرب لغةً وخواطر ومعاني إلى نفوس الناس . ولسنا أول من يلاحظ هذه الظاهرة على شعر الأحوص فقد لاحظها من قبل شاعر عاصره ، وهو الفضل بن العباس اللهي ، إذ تعرض له يوماً ، وهو ينشد شعره ، ولامه بأنه لا يحسن استخدام الغريب في الشعر (١) ، وفات الفضل أن عصر الغريب انتهى على الأقل عند الأحوص وغيره من الغزليين في الحجاز ، وهو لم ينته عند الأحوص في غزله فقط ، بل انتهى أيضاً في صروب شعره الأخرى من مديح وغير مديح ، واستمع إلى هذه الأبيات يقولها في يزيد ابن عبد الملك (٢) :

كريمٌ قریشٍ حينٌ يُنسَبُ والذي أقرتَ له بالملك كَهلاً وأمرداً

(١) أغاني (طبع بولاق) ٣/١٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢٥٠/٤ .

وليس وإن أعطاك في اليوم مانعاً إذ أعدت من أضعافٍ أضعافٍ عَدَا
أهان تِلَادَ المال في الحمد إنه إمامٌ هُدًى يجرى على ما تعودَا
تشرف مجداً من أبيه وجده وقد ورثا بُنيانَ مجدٍ تشيِّداً

لم يكن الأحوص يستخدم اللغة الغريبة في مدائحه ، بل كان يستخدم لغة عادية قريبة إلى لغة الغزل الذي يصنعه ، وكأنه كان يزيد لهذه المدائح أن تشيع على ألسنة الناس في عصره ، وأن تصبح شبيهة بهذا الغزل الذي يغنى في دور اللهو والموسيقى بالمدينة ، حتى تذيع ، بل حتى تكون صالحة لأن يغنيها المغنون ، وكانوا يغنون فعلاً مدائحه في بني أمية^(١)

ونحن نحس في الواقع عند الأحوص بتطور واسع يصيب قصيدة المديح . فقد أخذ أصحابها في الحجاز يحاولون أن يقتربوا في لغتها من الناس حتى تصلح للغناء . فتستقبلها آذان الجماهير كما تستقبل مقطوعات الغزل ، وهم من أجل ذلك يستخدمون فيها اللغة الشعبية نفسها التي يستخدمونها في الغزل حتى يمكنوا لها في نفوس الناس . واستمع إلى هذا الشعر يقوله الأحوص أيضاً في يزيد بن عبد الملك^(٢) :

من يكن سائلاً فإن يزيداً ملكٌ من عطائه الإكثارُ
عمٌ معروفهٌ فعزَّ به الدُّ ينُّ وذلت لمُلكه الكفار
وأقام الصُّراطَ فابتهج الحقَّ منيراً كما أثار النهار

وليس من ريب في أن هذا شعر خفيف على اللسان والأذن جميعاً ، وهو من أجل ذلك أقرب إلى ذوق من يستمعون إلى غزليات الأحوص وغيره من شعراء الحجاز ، وهو أيضاً أقرب إلى ذوق من يغنون في أشعارهم من المغنين والمغنيات .

لم تكن قصيدة المديح عند الأحوص يراد بها أن تنشُد بين أيدي الخلفاء ، بل كان يراد بها أن تغنى في سمرهم . يغنى فيها المغنون والمغنيات عندهم ، كما يغنى فيها المغنون والمغنيات عند الشعب نفسه . ومن هنا كنا لا نعجب حين نجد هذه

(١) انظر الأغاني ٢٩٧/١ وكذلك ٢٥١/٤ . (٢) أغاني ٢٥١/٤ .

القصائد تختلف في لغتها عن لغة القصائد الأخرى عند جرير والفرزدق والأخطل ،
فهؤلاء لم يصنعوا شعرهم وهم يفكرون أن يطلبوا إلى المغنين والمغنيات مثل حَبابة
أو مَعبد أن يغنوا فيه في أثناء سمر الخلفاء على نحو ما كان يطلب الأحوص^(١) .

كانت قصيدة المديح عند الأحوص قصيدة غنائية بالمعنى الدقيق فهي قصيدة
يراد بها أن تُصَحَّبَ بالضرب على الآلات الموسيقية ولعل هذه الغاية عند الأحوص
هي التي أعدت قصيدة المديح لتطور واسع في موسيقاها ، فإن من يدرس موسيقى
الأغاني وتطورها في الحجاز يلاحظ أنها تعدلت ، وتجزأت ، كما لاحظنا في غير
هذا الموضع ، وقد أخذ ذلك يتسرب فيما بعد إلى قصيدة المديح وغيرها من الشعر
التقليدي بحكم أن من كانوا يصنعونه كانوا يساهمون في صنع الأغاني على نحو
ما نلاحظ الآن عند الأحوص .

على كل حال كانت مدائح الأحوص تخالف - من بعض الوجوه - مدائح
جرير والفرزدق في لغتها ، وفي موسيقاها ، إذ كانت موسيقاها أكثر صفاء بحكم
اندماجها في الأوساط الموسيقية بالمدينة ، وأعدّه ذلك ، كما أعد غيره من أصحاب
الأغاني ، أن يستخدموا في شعرهم التقليدي الأوزان السهلة كالخفيف والرمل
وما إلى ذلك ، بل لقد أخذوا يستخدمون الأوزان المجزأة والمعدلة . ولم يظهر أثر
ذلك واضحاً في العصر الأموي ولكنه ظهر في وضوح في أثناء العصر العباسي .

وإذا كانت مدائح الأحوص تخالف إلى حد ما مدائح جرير والفرزدق والأخطل
في لغتها وصفاء موسيقاها وما يقترح أحياناً على نفسه من أوزان ينظم فيها ، فكذلك
كانت أهاجيه تخالف أهاجيهم إذ لم تكن تعتمد على أيام العرب القديمة وحروبهم
تَقْصُّها على نحو ما نعرف في نقائض جرير والفرزدق أو نقائض جرير والأخطل ،
إنما كانت تعتمد على هجو الشخص نفسه وتقبّحه بصورة تتصل به .

لم تكن قصيدة الهجاء عند الأحوص تستمد موضوعها من التاريخ ومن سيرة
القبائل القديمة ، إنما كانت تستمد موضوعها من الشخص المهجو نفسه . ونحن
نغلو حين نسميها قصيدة ، فلم يترك الأحوص في الهجاء قصيدة بالمعنى المعروف
إلا نادراً ، إنما كثرة ما تركه مقطوعات قصيرة وأبيات مفردة .

وهجاء الأحوص من هذه الناحية شبيه بهجاء العصر العباسي الذي نقرؤه عند بشار وحماة عَجْرَد مثلاً ، فهو لا يستعين على هجاء خصمه بقصيدة محبوبة الأطراف ، وإنما يعتمد إلى البيت والبيتين أو الأبيات القليلة فيهجوه بها هجاء مقذعاً .

ولعل في هذا النوع من الهجاء ما يلفتنا إلى ما حدث في شعر الحجاز وأنه كان شعراً شعبياً في جميع جوانبه ، فالشاعر حين يصنع غزلاً لا يعتمد إلى القصائد الطويلة التي لا يأتي الإنسان إلى آخرها حتى ينسى أولها . وهو كذلك حين يهجو لا يهجو بقصيدة طويلة قلما تحفظ ، إنما يهجو بيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، حتى تحفظ ، وتدور على جميع الألسنة .

ولم يتعلق الأحوص بهجاء شخص في المدينة كهجاء ابن حزم الذي جلدته ونفاه إلى دهلك ، ولكن يكاد هجاؤه فيه يعد مفقوداً ، لولا بعض أبيات رواها صاحب الأغاني ، وربما كان من أسباب ذلك أن المغنين أبوا أن يغنوا للأحوص في أهاجيه فيه ؛ لأنه كان يلي المدينة ، وكان قاسياً في ولايته لها ، شديداً حازماً ، فخافوه ، ومن شعره فيه (١) :

أقول وأبصرتُ ابنَ حزمِ ابنَ فَرْتَنِي وقوفاً له بالمأزَمِينِ (٢) القبائلُ
تُرى فَرْتَنِي كانت بما بلغ ابنُها مُصدِّقاً لو قال ذلك قائلُ

والفرتني الأمة بنت الأمة . وإن فيما بقي من أهاجيه في غير ابن حزم ما يدل على شدة لذهه ، وبعد كيده في الهجاء ؛ فمن ذلك أنه لما تعرض له الفضل ابن العباس اللهي يقول إنه لا يحسن الغريب ، فكَّر ماذا يرُدُّ عليه ، ثم ذكر أن جده أبو هُب وأن جدته حَمَّالة الحطب في جيدها حَبْلٌ من مَسَد ، فقال تَوَّ (٣) :

ما ذات حَبْلٍ يراها الناس كلهم وَسَطَ الجحيمِ ولا تخفى على أحدٍ
كلُّ الحبال حبال الناس من شَعْرِ وحَبْلُها وَسَطُ أهلِ النارِ من مَسَدٍ

وعلى هذا النحو كان الأحوص يبلغ أحياناً بأبياته القليلة في الهجاء مبلغ أصحاب

(٣) أغاني ٣/١٥ .

(١) أغاني ٢٣٧/٤ .

(٢) المأزَمَان : جلامكة .

القصائد الطويلة ، قصائد النقائص . ويقول الرواة إنه هجا رجلاً من الأنصار ، فاستعدى عليه الفرزدق يهجو له ، ويرد عليه هجاءه ، فأبى ، وكذلك أبى جرير ؛ لما كانا يعلمان من قدرته في الشعر والهجاء^(١) .

وكما يمتاز هجاء الأخص بقصره يمتاز أيضاً بقرب لغته وأنه أدنى إلى اللغة العادية ، فتلك صفة عامة في شعره ، وكان يعممها في هجائه ، حتى يبلغ ما يريد من العنت بمن يهجو ، والتشهير به .

٤

متزلة الأخص بين شعراء عصره

إذا أخذنا ننظر في الشعراء الذين عاصروا الأخص وجدناهم ينقسمون قسمين كبيرين : أصحاب الشعر التقليدي من مديح وهجاء ، وكان موطنهم العراق ، وأصحاب الأغاني من غزل ونسيب وما يتصل بهما ، وكان موطنهم الحجاز . وإذا حاولنا أن نوازن بين القسمين وجدنا من الناحية التاريخية ، كما قدمنا في غير هذا الموضع ، أن أصحاب الغزل يأخذون في التفوق في أثناء هذا العصر على أصحاب الشعر التقليدي ، بحيث لا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتم لهم التفوق نهائياً .

ولكن هل يتيح لنا ذلك أن نضع أصحاب الأغاني جميعاً من مثل الأخص في متزلة تعلو متزلة أصحاب الشعر التقليدي ؟ وبعبارة أخرى ، هل يتيح لنا ذلك إن حاولنا أن نضع طبقات للشعر في العصر الأموي أن نجعل في أعلى هذه الطبقات أصحاب الأغاني ؟

إن من يرجع إلى طبقات ابن سلام التي وضعها لشعراء هذا العصر والتي يسميها طبقات الإسلاميين^(٢) يجده يضع في الطبقة الأولى من هذه الطبقات جريراً والفرزدق والأخطل . ومعنى ذلك أنه هو وغيره من اللغويين في عصره كانوا يرون

(١) أغاني ٤/٢٦٣ .

(٢) ابن سلام ص ٧٥ .

تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الغزل وأغانيه . ونحن نخالفهم في هذا الحكم من جميع الوجوه ، بل لعلنا نعكسه عكساً تاماً ، فنذهب إلى قصر الطبقة الأولى على شعراء الحجاز من أصحاب الغزل ، فهؤلاء هم الشعراء الممتازون حقاً الذين كانوا يعبرون أولاً عن روح عصرهم وحياتهم التي يحيونها ، ثم هم الذين جددوا في موسيقى الشعر العربي ، وفي لغته ، وأيضاً فإن شعرهم كاد أن يكون شعراً شعبياً يجرى على جميع الأفواه والألسنة .

نحن إذن نخالف ابن سلام وغيره من اللغويين في تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الغزل وأغانيه ، ولعلمهم إنما اضطروا إلى ذلك لأنهم كانوا لغويين ولم يكونوا يبحثون في الشعر عن القيم الفنية من حيث هي ، وإنما كانوا يبحثون عن الشاهد والمثل ، وكانوا يجدون في نماذج الشعر التقليدي مدداً لا ينضب من الأمثال والشواهد على اللغة وغريبها في اللفظ والتعبير ، فانساقوا من ذلك إلى تفضيل أصحاب الشعر التقليدي ، ووضعوا أشهرهم في الطبقة الأولى من الشعر الإسلامي .

وينبغي ألا ننساق معهم في هذا التفضيل لأن الحاجة اللغوية لا تهمننا ، وإنما تهمننا الحاجة الفنية من حيث هي . ومن أجل ذلك كنا نخص الطبقة الأولى من الشعر الإسلامي أو الأموي بأهم من نظموا في الأغاني من أهل الحجاز ، ولا نصنع صنيع ابن سلام حين أخرهم في طبقاته ، وهل تدري أين وضعهم ؟ لقد وضعهم - أو قل وضع كثيرهم - في طبقة متأخرة هي الطبقة السادسة^(١) بين طبقاته العشر ، ولم يقدم أحداً منهم سوى كثيرٍ فقد وضعه في الطبقة الثانية^(٢) .

ونحن لا نستطيع أيضاً أن نجعل كثيراً خير شعراء الحجاز من الغزلين ، أو قل أصحاب الأغاني ، ولعل ابن سلام ، إنما قدمه ، لأنه بدوى يجد عنده من غريب اللغة ما لا يجده عند شعراء الحواضر أمثال الأخوص وابن أبي ربيعة .

وقد وضع ابن سلام الأخوص في الطبقة السادسة وقرنه بابن قيس الرقيات وجميل ونُصِيب ، وتأخرَ به في مكانه بعد ابن قيس ونُصِيب ، ويظهر أنه تأثر في تأخره به أيضاً مسائل لغوية ، لأنه كان عالماً لغوياً ، ولم يكن يهيمه أن يقدم

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(١) ابن سلام ص ١٣٧ .

الشاعر من وجهة معنوية أو وجهة موسيقية . وعلى أبو الفرج لتأخر ابن سلام به تعليلاً آخر ، فقال : « والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنى الأخلاق والأفعال أشد تقدماً من ابن قيس ونُصِيب عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة (١) » . وكأن أبا الفرج لم يقبل حكم ابن سلام على الأحوص ، فهو في رأيه ينبغي أن يتقدم كل زملائه الذين ذكرهم ابن سلام في الطبقة السادسة .

ولعل في ذلك ما يدل على أن خلق الأحوص شوّهه عند بعض النقاد وإنه ينبغي أن نفرق دائماً بين خلق الشاعر وشعره ، لأن الشعراء ليس من وظيفتهم أن يحققوا مثلنا الأخلاقية العليا في الحياة ، فالشعر شيء ، والخلق شيء آخر .

الأحوص إذن ينبغي أن يوضع في المكان الأول من شعراء الطبقة السادسة التي خص بها ابن سلام شعراء الحجاز ، ولكن هل يتأخر عن كثير أو يتقدم عليه ، أما ابن سلام فقدم كثيراً على شعراء الحجاز عامة ، وهو حكمٌ بنى على أسباب لغوية فيما نظن ، أما إذا تركنا اللغة ولم نحتكم إلى ذوق اللغويين فإننا نقدم على كثير عمر بن أبي ربيعة شاعر مكة ، كما نقدم عليه الأحوص شاعر المدينة من حيث ما أنتجناه لهذا العصر من الغزل الذي أمدّ به المغنين والمغنيات في الحجاز .

أما عمر فقد كان يقول فيه جرير إن أنسب الناس المخزومي (٢) ، ولم يتجاوز عمر بشعره الغزل والنسيب إلى موضوع آخر ، فهو من هذه الناحية يعدُّ أهم شاعر في الحجاز وقف نفسه على الأغاني التي كان يغنيها ابن سريج وابن مسجح وابن مُحَرَّر والغريص في مكة ، كما كان يغنيها المغنون في المدينة من مثل مَعْبُد وجميلة .

وأما الأحوص فكان شاعر المدينة في النسيب والغزل غير مدافع ، وكان يحقق لنفسه في هذا الجانب تفوقاً ممتازاً حاولنا أن نصفه آنفاً ، ويكفي لييان تفوقه على كثير في غزله أن عرّة نفسها كانت تفضله عليه وتقول له : الأحوص ألين جانباً منك في شعره وَأَصْعَرُ خِداً للنساء وأشعر منك (٣) .

وأكبر الظن أننا نستطيع أن نصل من ذلك إلى أن الأحوص كان من أصحاب المنزلة الأولى للشعر والفن في عصره ، وهو إذا قُرِنَ حقاً فينبغي أن يُقَرَنَ إلى

(٣) أغاني (طبع بولاق) ٢٣/١١ .

(١) أغاني ٢٣٣/٤ .

(٢) أغاني ٧٦/١ .

عمر بن أبي ربيعة ، فهما أهم من نظم الغزل في العصر ، وكان عمر شديد الصلة بالمغنين في مكة في حين كان الأحوص شديد الصلة بالمغنين والمغنيات في المدينة . ومن يقرأ الأغاني يحس أن عمر كان له قَصَبُ السَّبْقِ في تأليف الغزل وأغانيه . على أنه ينبغي أن نحتاط في الحكم لأن ديوان الأحوص مفقود ، ولأن ما قدمناه عنه يدل على أنه كان أكثر حرية من عمر ، إذ كان يتغزل في الإماء في حين كان يتغزل عمر في الحرائر .

ومهما يكن فإن عمر والأحوص يُعَدَّان في الطبقة العليا من شعراء العصر الأموي . ولسنا نستطيع أن نحكم بتفوق أحدهما على صاحبه حكماً واضحاً لأن أدوات هذا الحكم ناقصة ، على الأقل فيما يتصل بالأحوص . ولعلنا لا نتجاوز الحق حين نضعهما جميعاً في الطبقة الأولى من شعراء الأغاني . ثم نعمم فنجعل هذه الطبقة أولى طبقات كل الشعراء الذين أنتجهم العصر الأموي من تقليديين وغير تقليديين .

نحن إذن نخالف ابن سلام في تقديم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الغزل ، لأننا نحكم الفن نفسه . وليس من شك في أن الشعر العربي أثرى عند أصحاب الغزل ثروة فنية عريضة ، فقد أثرى من حيث الخواطر والمعاني ، وأثرى من حيث اللغة والأسلوب ، وأثرى أخيراً من حيث صحيفة الألحان ، فإن أصحابه هم الذين غيروا في طبقات الأوزان الشعرية تبعاً للتغيير في طبقات الغناء وما عاصروهم من موسيقى .

الكتاب الثاني
في مكة

الفصل الأول

مكة

١

موقع مكة

مكة أهم مدن الحجاز ، وهي تقع في منتصف الطريق بين الشام واليمن ، وتقوم في بطن وادٍ شقته الطبيعة في جبال السَّراة ، ذلك الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين نجد في الشرق وتهامة في الغرب . وتأخذ مكة في هذا الوادى شكل هلال ، طوله ضعف عرضه^(١) ، ويتخلل هذا الهلال مرتفعات كثيرة تنتهى شرقاً بجبل أبي قُبَيْس وغرباً بجبل قُعيَّعان . ويسمى قاع هذا الهلال باسم البطاح ، وفيه بئر زمزم والكعبة المقدسة . وما وراء البطاح إلى الجبال يسمى باسم الطواهر^(٢) .

والشقة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلومتراً ، ومرفؤها عليه في الإسلام جُدَّة ، وكان في الجاهلية الشَّعْبِيَّة^(٣) . وبرغم ارتفاع سطحها عن البحر بنحو ٢٨٠ متراً جوَّها حار في الصيف حرارة شديدة^(٤) حتى ليقول ابن بطوطة إن حَضَباءها تشبه صفحات محمَّاة^(٥) . وشتاؤها أيضاً قاس في برودته . ومن هنا يقول شاعر قديم فيها^(٦) :

وليس بها مَشْتَى ولا متصَيِّفٌ ولا كَجَوَائِي ماؤها يتفجَّر

وجوائى : بلدة بالبحرين . وواضح أن الشاعر يعيها أيضاً بقلة مائها . ومعروف

-
- (١) انظر مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ١٨٧/١ . (٤) أحسن التقاسيم (طبع ليدن) ص ٩٥ .
(٢) معجم البكري (طبعة أوربا) ١٥٥/١ . (٥) رحلة ابن بطوطة (طبع أوربا) ٢٨٠/١ .
(٣) أخبار مكة للأزرقي (طبع أوربا) ص ١٠٧ . (٦) رسائل الجاحظ (طبع فان فلوطن) ص ٦١ .

أنه ليس بها آبار مهمة سوى زمزم^(١) ، فهي أطيب آبارها . ويقول ياقوت إنه لا يمكن الإدمان على شربها^(٢) ، ولعل ذلك ما جعل الخلفاء يعنون بتوفير المياه للحجاج . وليس من ريب في أن مكة في أثناء العصر الجاهلي عانت كثيراً في هذا الجانب ، ولذلك كان من الوظائف المقدسة فيها حينئذ سقاية الحجيج .

وندره المياه بمكة تدل بوضوح على أن المملكة النباتية ليس لها هناك مكان سوى بعض أشجار البادية من مثل التَّام والسَّلم والإذخر^(٣) . وفي القرآن الكريم على لسان إبراهيم (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) . وفي السيرة النبوية أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنه ليس من الناس أحدٌ أضيّق بلدًا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، وليسط لنا بلدنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق^(٤) . وفي سورة الإسراء (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا) .

مكة إذن بلد قاحل تحيط به الجبال من كل جانب إلا نوافذ أربعة تصل بينها وبين ما حولها . وقد قامت - على ما يظهر - في الزمن الأقدم حول بئر زمزم ، لتكون محطة للقوافل التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى اليمن . وسميت في العصر الجاهلي أسماء مختلفة ، سميت مكة وبكة وأم القرى وناسة ، كما سميت باسم صلاح . وسمّاها القرآن الكريم « البلد الأمين » .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (طبع لجنة التأليف

والنشر) ١٥٦/٢ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (طبع الحلبي) ٣١٦/١ .

(١) انظر في حقائق مكة وآبارها فتوح البلدان

للبلاذري (طبع دى جويه) ص ٤٨ والأرزقي ص ٤٣٦ .

(٢) معجم ياقوت (طبع مطبعة السعادة) ١٤٢/٨ .

مكة في العصر الجاهلي

تاريخ مكة في العصر الجاهلي غامض ، ولذلك كانت تحف به الأسطورة .
 ويزعم مؤرخو العرب أنه كان يسكنها في قديم الدهر قبائل من جرهم وبقايا من
 الأمم البائدة^(١) ، ثم نزلتها خزاعة حين نزحت مع من نزع من قبائل اليمن إلى
 الشمال . ويمكن أن تؤرخ لهذا التزوج بأواخر القرن الثالث للميلاد ، أو أوائل
 القرن الرابع حين أخذت آخر الدول اليمنية ، وهي الدولة الحميرية ، في
 الاضمحلال^(٢) فنزحت هذه القبيلة من هناك لتسيطر على هذه المحطة التجارية
 التي كانت تمرُّ بها القوافل اليمنية إلى الشام محملةً ببضائع اليمن والهند^(٣) .
 وما زالت خزاعة قائمة على هذه المحطة التجارية حتى انفجر سدُّ مأرب حوالي
 سنة ٤٥٠ للميلاد^(٤) ، فضعفت الدولة الحميرية في اليمن ضعفاً تاماً . وحول هذا
 التاريخ يظهر قُصَيٌّ مع قبيلة قريش في مكة^(٥) ، فيستولى عليها ، ويطرد خزاعة منها^(٥) :
 وازدهرت التجارة في مكة في أثناء هذا العهد القرشي ، إذ أصبحت تحتكر
 التجارة في بلاد العرب ، وأصبحت محطة كبيرة للتجارة الآتية من الجنوب ،
 تجارة اليمن وما يأتيها من الهند ومن الحبشة . وكانت أيضاً تأتيها من الشرق قوافل
 محملة بتوابل الهند التي تهبط على الخليج الفارسي . وكانت الحقبة الأخيرة من
 العصر الجاهلي حقبة ذهبية لتجارة مكة بسبب ما كان بين الروم والفرس من
 تصادم . فكانت مكة مركز كل القوافل والتجارة الداهية إلى الشمال والمنحدرة
 إلى الجنوب أو الشرق ، وكانت قوافلها تذهب إلى غزة^(٦) ومنها إلى مصر^(٧) ،

لقيليب حتى (الترجمة العربية) ص ٨٤ .
 (٥) الطبري ١٠٩٢/١ وانظر مروج الذهب

للمسعودي (طبع باريس) ١١٩/٣ .

(٦) المغازي للواقدي ص ١٩٨ .

(٧) الولاة والقضاة للكندي ص ٧

(١) ابن هشام ١١٦/١ وانظر الحيوان طبع الحلبي
 ٢١٤/٧ .

(٢) O'Leary, Arabia Before Muhammad
 (London, 1927) p. 17.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨١ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٩ وانظر تاريخ العرب المطول

كما تذهب إلى بُصْرَى في سوريا^(١) .

ومن يقرأ أخبار هذه القوافل يحْتَل إليه أن مكة نفسها كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها هذه القوافل المتتابعة إلى الشمال والجنوب . وفي القرآن الكريم : (لِإِيلَافٍ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) . أما رحلة الشتاء فكانت إلى اليمن ، وأما رحلة الصيف فكانت إلى الشام . الإيلاف : المعاهدة مع الملوك^(٢) . وطبيعي أن يعقد زعماء قريش مع الملوك الذين يتاجرون ويتزلون في بلادهم معاهدات ، ويقال إن هاشماً جد الرسول عقد مع قيصر معاهدة^(٣) ، وعقد عبد شمس أخرى مع النجاشي ، في حين عقد نوفل معاهدة مع الأكاسرة^(٤) . وفي هذا ما يشير إلى حركة هذه القوافل الدائبة . وطبيعي أن هؤلاء الزعماء كما تعاقدوا مع ذوى الشأن في البلاد الأجنبية حتى ينظموا قواعد هذه التجارة ، كذلك تعاقدوا مع أشرف العرب وقبائلهم التي يمرون بها في طرقهم حتى لا يقرّبوا قوافلهم نظير إتاوات وهدايا خصّصوها لهم^(٥) .

ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى ما كانت تضطلع به مكة في هذا العمل الشاق إلا إذا تصورنا الطرق الوعثة الطويلة التي كانت تمر بها هذه القوافل ، ويقال إن إحداها بلغت ٢٥٠٠ بغير^(٦) . وتدل الأخبار المختلفة أنه كان يتقدم القافلة رواد مستطلعون يتعرفون على أخبار الطريق كما حدث في غزوة بدر ، فإن هؤلاء الرواد عرفوا أن الرسول سيهجم على القافلة التي وراءهم ، فذهبوا إلى مكة واستنفروا أهلها لإنقاذ القافلة^(٧) . وكان يوجد مع القافلة أيضاً أدلاء يرشدونها في طريق سيرها حتى لا تضلّ في شعاب الصحراء^(٨) ، وأيضاً كانت توجد معها حامية لحراستها ، وكانت أخلاطاً من قريش وعبيدها ، ثم شذاذ العرب وصعاليكها^(٩) .

- (١) ابن سعد المجلد الأول القسم الأول من (٦) الطبري ١٢٧١/١ .
 الطبقات (طبعة أوربا) ص ٤٣ .
 (٧) ابن هشام ٢٦٠/٢ .
 (٨) الأغاني طبع بولاق ٧٤/١٩ وانظر ابن هشام (٢) المسعودي ١٢١/٣ .
 (٣) اليعقوبي (طبع أوربا) ٢٨٠/١ والطبري ١٢٩/٢ .
 (٩) الأزرقي ص ٤٦٢ ورسائل الجاحظ السابقة ١٠٨٩/١ .
 (٤) اليعقوبي ٢٨٢/١ والطبري ١٧٨٩/١ .
 (٥) اليعقوبي ٢٨٠/١ .
 ٦٥ - ٦٦ وأغاني طبع بولاق ٢٨/١٠ ، ٣٢/١٠ ، ٧٥/١٩ ، ٤٩/١٢ .

وهكذا كانت قوافل قريش تجوب بلاد العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً ، تنقل تجارة المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى سواحل البحر المتوسط . فمن إفريقية عن طريق اليمن كانت تنقل التبر والرقيق والصمغ والعاج ، ومن اليمن نفسها كانت تنقل الجلود والعمود والبخور وثياب عدن النفيسة . ومن العراق كانت تنقل توابل الهند . وأيضاً كانت تنقل الزبيب من الطائف والذهب من مناجم بني سليم . كل ذلك تنقله إلى الشام ومصر ، ثم تعود محملة بالأسلحة والغلال والزيت والخمر والأقمشة القطنية والكتانية والحريرية (١) .

ولعل في هذا كله ما يرينا أهمية مكة في العصر الجاهلي ، وقد جعلت هذه الأهمية أبرهة وإلى الحبشة على اليمن يغزوها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ للميلاد ابتغاء الاستيلاء على ما فيها من ثروة ، والمصادر الإسلامية تجعل حملته دينية وأنه كان يريد هدم الكعبة . وباءت حملته بالفشل الذريع ففشت الأوبئة في جيشه ولم ينج أبرهة نفسه من المرض والموت (٢) .

لم ينجح غزو أبرهة لمكة ، بل زاد في تقديسها وإعظامها لما شاع من أخبار هذا الجيش المنهزم عنها ، وقد جمعت هذه الهزيمة قلوب العرب حولها ، وجعلتهم يحسون شيئاً من القومية والاعتداد بأنفسهم وأمتهم . ولم يحاول ولاية الحبشة على اليمن بعد ذلك غزو مكة ، ولا حاولته أمة أخرى . فكانت مكة خالصة للعرب ، وكانت بكعبتها المقدسة رمزاً لاستقلالها وقوتهم ومن هنا سميت أم القرى . وفي القرآن الكريم : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا) فكان البيت آمناً ، وكانت مكة آمنة ، لا تدخلها أمة ، ولا تدين لأمة .

ويقول الجاحظ : « لم تزل مكة آمناً ولقاحاً (٣) ، لا تؤدي إتاوة ، ولا تدن للملوك . . . » وقال حرب بن أمية في ذلك :

أبا مطر (٤) هَلُمَّ إِلَى صَلَاحٍ فتكفيك الندامي من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هُدَيْتَ لخير عيش

(١) الأزرق ص ٥٥ ومكة في دائرة المعارف (٣) اللقاح : البلد الذي ليس في سلطان أحد .

الإسلامية . (٢) أبو مطر هو أبو الحضرمي يدعوه حرب لحلفه .

(٣) ابن هشام ٥٤/١ وما بعدها . (٤) صلاح : اسم مكة كما تقدم .

وتنزل بلدة عَزَتْ قديماً وتأمّن أن يزورك ربّ جيش^(١)

ويقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خُزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الجبل إذا دخلوا الحرم ... وهم بعد أعز العرب ، يتأمّرون على العرب قاطبة »^(٢) .
ويقول ابن دريد : إنهم كانوا يأخذون من العرب إتاوة تسمى الحريم . كان يدفعها كل من نزل مكة في الجاهلية^(٣) .

ولم تكن مكة تأخذ إتاوة من العرب فحسب ، بل كانت تأخذها أيضاً من التجار الأجانب الذين ينزلون بها ، وكانت تسمّى ذلك العشور . ويذهب أوليرى إلى أنه كان بها وكلاء بيزنطيون ، وكانت مهمتهم تجارية أكثر منها سياسية^(٤) ، ولعل صُهيياً الرومى الذى أسلم فيما بعد كان واحداً منهم . وأيضاً كان ينزلها بعض الفرس^(٥) . وكان بها جالية^(٦) حبشية كبيرة .

وفى كل ما قدمنا ما يدل على عِظم شأن مكة في الجاهلية ، وقد ذهب لامنس فى كتابه عنها إلى أنها كانت جمهورية وأنه يمكن مقارنتها بالبندقية^(٧) ، وذهب أوليرى إلى أنها لم تعد اتحاد قبائل ارتبط بعضها ببعض فى حلف ، هدفه نقل التجارة^(٨) . ولعل من الطريف أنه كان بها ملاً ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، وكان لا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة^(٩) . ولم يكن هناك انتخاب لاختيار شيوخ مكة فى الملاً ، إنما كانوا يختارون ، على ما يظهر ، حسب غناهم وخدماتهم التى يؤدونها . وكل ما فى الأمر أنهم كانوا يختارون من بطون قريش البطاح . وهم : هاشم وأمّية ومخزوم وجمّح وسهم وتيم وعدى وأسد ونوفل وزهرة^(١٠) . وكان هؤلاء الشيوخ ينظرون فى شؤون مكة الدينية والتجارية ، ولم يكن لأحد منهم امتيازات

(٦) كتاب أوليرى ص ١٨٤ وانظر مجلة كلية الآداب

(٧) جامعة القاهرة سنة ١٩٣٣ .

(٨) Lammens, La Mecque (Beyrouth, 1924) ص ١٧٢ وانظر الأزرقى

p. 175.

(٩) كتاب أوليرى ص ١٨٣ .

(١٠) الاشتقاق ص ٩٧ وابن هشام ٢٩٨/٢ .

(١١) المحبر لابن حبيب طبع الهند ص ١٦٧ والمسعودى

١١٩/٣ .

(١) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ .

(٢) كتاب البلدان لابن الفقيه طبع أوربا ص ١٨ .

(٣) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وانظر الأزرقى

ص ١٧٥ .

(٤) كتاب أوليرى السابق ص ١٨٤ .

(٥) المسعودى ١٤٨/٢ إذ يزعم أن الفرس كانت

تقصّد البيت الحرام وتطوف به .

على نظرائه وأقرانه ، وإنما كانوا جميعاً متساوين بتراض منهم .

ومن غير شك كان ينمو في هذه الجمهورية أو في هذا الاتحاد للقبائل القرشية نظام تجارى معقد ، فكانت هناك المكاييل والموازين^(١) ، وكان هناك البيع الحاضر وبيع النسيئة أو البيع المؤجل^(٢) ، كما كانت هناك المضاربة ، وهى أن يأخذ الشخص مالا من غيره فيتجر فيه ، ويكون له حظ معلوم من الربح على نحو ما صنعت السيدة خديجة مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زواجه منها^(٣) ، وكانوا يتعاملون على أساس دنانير الروم ودرهم الساسانيين^(٤) . ويقول لامنس إن مكة كانت تشبه مصرفاً كبيراً ، وكان الربح في المصرف عظيماً^(٥) ، ومن هنا كان الربا فيه فاحشاً ، حتى لقد يخرج أهله الدينار بدينارين . وفي القرآن الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً) .

وكان يساهم في هذه التجارة كل فرد من أفراد قريش في مكة حتى النساء كان لهن سهم فيها ، واشتهر الرسول صلى الله عليه وسلم بتجارته في أموال السيدة خديجة ، ويروى الرواة أن هنداً زوجة أبى سفيان وأم معاوية كانت تتجر في قبيلة كلب بالشام .

واشتهر في مكة قبل الإسلام بيتان بالثراء : بيت الأمويين وبيت المخزوميين . ويقال إن أكثر قافلة بدر كان للأمويين^(٦) ولعل ذلك ما جعل أباً سفيان يرأس هذه القافلة . وفي الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات المخزوميين ، حتى كان منهم من يسمى رباً مكة^(٧) . ويظهر أن الثراء لم يكن خاصاً بهذين البيتين ، فنحن نجد من قبيلة أبى بكر الصديق عبد الله بن جُدعان وكان يتجر في الرقيق ، وقد شبهه بعض الشعراء بقيصر إذ يقول^(٨) :

يَوْمَ ابْنِ جُدْعَانَ بِجَنْبِ الْحَزْوَرَةِ كَأَنَّهُ قَيْصَرٌ أَوْ ذُو الدَّسَكِرَةِ

(١) كتاب مكة للامنس ص ٢٢٤ وفتح البلدان (٥) كتاب مكة ص ٣٠٥ وانظر الطبرى ١/١٤٦٠ ص ٤٦٦ .
والواقدي ص ١٩٨ .

(٢) مسند ابن حنبل ١/٣٩٨ .

(٣) الطبرى ١/١٢٧ والأزرقى ص ٤٧١ .

(٤) الاشتقاق ص ٦٠ وكذلك ٩٢ .

(٥) كتاب مكة ص ٢٢٦ وانظر مكة في دائرة (٨) معجم البكرى ٤/١ . والحزورة : موضع بلى المعارف الإسلامية .

البيت الحرام كانت به سوق مكة .

وفي اليعقوبى أن سادات قريش فوق آل جَفْنَة^(١) . وفي الحيوان للجاحظ أنهم فوق كِسْرَى^(٢) .

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها كما استلزمت الحياة فيها أن توجد بعض الصناعات بها ، وفي أخبارها أن منها من كان حدّاداً أو نجاراً أو خياطاً أو جزّاراً أو صانع برم^(٣) . ومعنى ذلك أن مكة في الجاهلية كانت أشبه بمدينة ، ففيها الملا أو مجلس الشيوخ ، وفيها البطون الممتازة بطون النبلاء التي تنزل في البطاح . ووراءهم قريش الظواهر ومعهم الحلفاء والنازلة^(٤) ، والموالى والرقيق . ويروى الرواة عن بعض المخزوميين أنه كان له رقيق أو عبيد من الحبشة يحترفون جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً^(٥) .

وتكوين مجتمع مكة على هذا النمط من أحرار وعبيد أو أشراف ورقيق ، كثير الشبه بمجتمع أثينا القديمة . ويقال إن هنداً بنت عبد المطلب عمّة الرسول اعتقت في يوم واحد أربعين رجلاً من عبيدها^(٦) . وهذا معناه أن العبيد كانوا كثيرين جداً في مكة قبل الإسلام .

وليس عندنا نصوص كثيرة تصوّر مدى ترف أشراف مكة ، ولكن لا بد أنهم بلغوا من ذلك حدّاً واسعاً بحكم ما تمتعوا به من ثراء حتى ليقال إنهم كانوا يصيّفون في الطائف ويشتون في جدّة . ويقال إنه كان لأبى سفيان ضيعة في سوريا ينزل فيها في أثناء تجارته . ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة^(٧) ، ويقال إن عبد المطلب دُفِنَ في حلّتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب^(٨) . وكان بينهم من يلبس الثوب بخمسين^(٩) ديناراً أو نحو ثلاثين جنيهاً . وكما تأنقوا في ملابسهم تأنقوا شيئاً في طعامهم فعرفوا أنواعاً من طعام الأمم الأجنبية

(١) اليعقوبى ٢٨١/١ .

(٢) الحيوان ١٦٥/١ ، وفي الحيوان ٢٤٦/٢ : التسعة الأولى دائماً ترجع إلى طبعة دار الكتب .

(٣) إذا قالوا سيد قريش فقد قالوا سيد العرب .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٧٧ .

(٥) سورة الزخرف آية ١٨ .

(٦) اليعقوبى ١٣/٢ .

(٧) مسند ابن حنبل ٤٠٣/٣ .

(٨) الطبرى ١٢٠٣/١ والحيوان ٢١٤/٧ .

من مثل الفالوذج^(١) .

وكانت مكة في الجاهلية وثنية ، بل كانت حارسة الوثنية في الجزيرة العربية ، فقد كان بها الكعبة بيت الأوثان والأصنام . ويستطيع من يتبع أخبارها في هذا الجانب ويقف عند الآلهة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وما جاء فيه من وصف عبادتها أن يعرف أنها كانت تقدّس بعض الأجرام السماوية . وفي القرآن : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) .

ويذهب أوليرى إلى أن العزى تطابق كوكب الزهرة ، في حين تمثل اللات الشمس^(٢) ، ونجد في أسمائهم كثيراً عبد شمس . أما مناة فكانت صخرة لهذيل وخزاعة ، وفيها ما يشير إلى أنهم قدّسوا بعض الأحجار . وفي القرآن الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ^(٣) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . والأنصاب : حجارة تُنصب وتُصب عليها دماء الذبائح وتُعبّد باعتبارها مقراً للروح . وكما قدّسوا الحجر قدّسوا الشجر مثل ذات أنواط التي كان يحج إليها المكيون سنوياً .

ويذكر القرآن الكريم بجانب مناة واللات والعزى آلهة أخرى ، إذ يقول جلّ وعزّ في سورة نوح : (وَلَا تَدْرِنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) وربما كانت كلمة نسر تشير إلى الطائر المعروف ، وقد يكون في هذا ما يدل على أنهم قدّسوا بعض الحيوان والطيور ، وربما أشارت كلمة ود إلى الصداقة ومعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحافظ ، وهى صفات قد تشير إلى أرواح حافظة .

وكان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة بيت هذه الآلهة وأصنامها وأوثانها ، وتزعم الرواية العربية أن عمرو بن لُحَي الخزاعي هو الذى أدخل الأصنام مكة^(٤) ، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم ملكة ثلثائة صنم وستون^(٥) أشهرها اللات والعزى ومناة ، ثم هُبل ، وهو كبير

(٤) ابن هشام ٧٨/١ والمسعودى ١١٤/٣ والأزرق

ص ١٣٣ .

(٥) الأزرق ص ٧٦ .

(١) أغاني ٣٢٩/٨ .

(٢) انظر كتاب أوليرى ص ١٩٤ .

(٣) الأزلام : القداح .

آهتهم ، ويظهر أنهم كانوا يرمزون به لربهم . وفي القرآن الكريم ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله ، قال تعالى على لسانهم : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ولكنهم على كل حال كانوا وثنيين يعبدون ويقدسون أشياء كثيرة من نجوم وأحجار وأشجار .

على أن هذه الوثنية في مكة لم تمنعها من الاتصال بالمسيحية واليهودية عن طريق الرقيق الحبشى وغير الحبشى الكثير فيها ، وأيضاً عن طريق يثرب وغيرها من القرى التى كان ينزل فيها اليهود،والتي كانت منبئةً في الحجاز ، ثم ما كان من اختلاط أهلها أنفسهم في أثناء تجارتهم في الشام وغير الشام بالمسيحيين ، حتى ليقال إن بعضاً من أهلها تنصروا قبل الإسلام ، فاليعقوبى يقول : « أما من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قریش^(١) » ويقال إن منهم ورقة بن نوفل ، وأيضاً عتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى^(٢) . وفي السيرة النبوية أن حليلة السعدية حين رجعت بالرسول من البادية بعد فطامه لقيها نفر من الحبشة نصارى^(٣) ، وفي ابن سعد أنهم كانوا يهوداً^(٤) . ونجد في أسد الغابة شخصاً يسمى شمعون^(٥) ، وفي السيرة النبوية شخصاً يسمى جبراً كان عبداً لبني الحضرمى ، وكان مسيحياً^(٦) . ويذكر الواحدى عبيدين نصرانيين نزلا في مكة وأصلهما من عين التمر^(٧) . ولا بد أن بعض مسيحي الجزيرة في نجران وفي الحيرة وبعض يهودها المنبثين في الحجاز كانوا يفدون على سوق عكاظ وسوق ذى المجاز اللتين كانتا تقومان بجوار مكة ، وقد وفد قُسّ بن ساعدة على سوق عكاظ وخطب فيها قبيل الإسلام^(٨) .

ويقال إن شماساً زار مكة في الجاهلية^(٩) وكان يعيش في مَرّ الظُّهْران راهب

-
- | | |
|--------------------------------------|--|
| (١) اليعقوبى ٢٩٨/١ . | (٦) ابن هشام ٣٣/٢ . |
| (٢) الخبر ص ١٧١ وابن هشام ٢٣٩/١ . | (٧) أسباب النزول ص ٢١٢ . |
| (٣) ابن هشام ١٧٧/١ . | (٨) البيان والتبيين ٣٠٨/١ . |
| (٤) القسم الأول من المجلد الأول ص ٧١ | (٩) ابن هشام ٣٤٩/١ وأسد الغابة ٣٧٥/٣ . |
| (٥) أسد الغابة ٤/٣ . | |

مسيحي^(١) . ومن طريف ما يذكره ابن الأثير في أسد الغابة أنه كان بمكة جوار روميات^(٢) .

ومع ذلك فإن هذا كله لم يكن له قيمة بالنسبة لوثنيي مكة ، فقد كانوا محافظين على دين آبائهم ، وكانوا حُرَّاساً على الوثنية الجاهلية ، فهم سَدَنَةُ الكعبة وأصنامها ، وحقاً أن جماعة منهم تشككت في دينها وتحفَّت^(٣) ، ولكن هؤلاء كانوا شذوذاً في قومهم ، وكانوا يعدّونهم مارقين من دينهم .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على ارتفاع شأن مكة في الجاهلية ، فقد كانت تُعدُّ عاصمة الجزيرة العربية ، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقى فيه الخطباء والشعراء ، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية في الجزيرة ، فضلاً عن ثرائها ومكانتها التجارية والدينية .

٣

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ما زالت مكة قائمة بوظيفتها التجارية والدينية حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم حين استكمل أربعين عاماً يدعو الناس إلى هدى الإسلام . وأسرع إلى تلبية دعوته زوجه السيدة خديجة ، ومولاه زيد بن حارثة ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبرة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة^(٤) . وعلى يد أبي بكر أسلم عثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، ثم أسلم أبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون وسعيد بن زيد وزوجه^(٥) أخت عمر بن الخطاب .

(١) السيرة الحلبية ٧٥/١ . (٣) ابن هشام ٢٣٧/١ وانظر المحبر ص ١٧١ .

(٢) أسد الغابة ٣٨٧/١ وانظر ٢٣٢/٤ = ١٩٤/٥ ، (٤) ابن هشام ٢٦٩/١ .

(٥) المصدر نفسه السابق وانظر اليعقوبي ٢٢/٢ . ٤٦٢/٥ .

وأقام رسول الله بمكة ثلاث سنين يدعو سراً إلى الإسلام^(١) ، ثم أمره ربه أن يصدع بما أرسله ، فأخذ يدعو قومه جهراً بالحكمة والموعظة ، ويجادهم بالتي هي أحسن في آلهتهم وعبادتهم . وفزعت قريش إذ كانت تعدّ نفسها حارسة للملوثية في الجزيرة ، وغضبت غضباً شديداً حين رأت الرسول الكريم يسفّه آلهتها وأحلامها ، فناكروه وأجمعوا على خلافة وعداوته ، وراجعوا عمه أبا طالب ، وقالوا له : اعرض عليه أن يترك دعوته وأن يحتكم في أموالنا بما يشاء^(٢) ، فأجابه : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته^(٣) .

ومضى الرسول يحجر بدعوته ومضت قريش تحادّه وتعانده ، بل لقد ذهبت تعذب من أسلموا وتحاول أن تفتنهم عن دينهم الجديد ، فلم يكن ذلك يردّهم ، بل كان يزيدهم إيماناً^(٤) . وقد أخذ سفهاء قريش يتعرضون للرسول بالإيذاء ويرمونّه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ومن أهم من آذوه ونصبوا له العداوة أبو جهل^(٥) . وعدّد ابن حبيب المؤذنين من قريش للنبي وأصحابه ، فذكر منهم أبا لهب والحكم بن أبي العاص وعقبة بن أبي معيط وعدى بن حمراء الثقفي وعمرو ابن الطلاطلة الخزاعي^(٦) . وبجانب هؤلاء الذين آذوه كانت طائفة تتعمد الاستهزاء به وبدعوته وعلى رأسها العاص بن وائل السهمي والحارث بن قيس الكعبي ، وهو صاحب الأوثان ، وكان إذا مرّ بحجر أحسن من الذي عنده أخذه وألقى الذي عنده ، وفيه نزلت الآية : (أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) ومنهم أيضاً الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة المخزومي والأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة^(٧) .

ووثبت كل قبيلة تعذب من أسلم منها ، وخاصة الموالى ، بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء^(٨) مكة إذا اشتد الحر . وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد

(١) البقوى ٢٣/٢ .

(٥) ابن هشام ٣١١/١ .

(٢) نفس المصدر ٢٣/٢ .

(٦) المخبر ص ١٥٧ وانظر البقوى ٢٣/٢ .

(٣) انظر ابن هشام ٢٨٠/١ - ٢٨٥ .

(٧) المخبر ص ١٥٨ .

(٤) ابن هشام ٢٧٨/١ .

(٨) ابن هشام ٣٣٩/١ وما بعدها .

أسلم له شرفاً ومنعةً أنبه ، وقال : تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفن حلمك ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به (١).

ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من العذاب والجهد الشديد أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وكان ذلك في السنة الخامسة للبعثة ، حتى يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه ، فخرج أولاً اثنا عشر رجلاً ثم خرج سبعون (٢) سوى أبنائهم ونسائهم ، فأكرم النجاشي وفادتهم ، وتبعهم قريش هناك إذ نراها توجه بعمر بن العاص وعُمارة بن الوليد المخزومي إلى النجاشي ومعهما الهدايا ، يطلبان منه أن يخرج هذه الجماعة المسلمة من بلاده ، وأن يكف عنهم حمايته (٣) ، ولكن النجاشي لم يصنع إلى قريش ورداً رسولها ردّاً قبيحاً (٤). وفي هذه الأثناء أسلم حمزة وعمر بن الخطاب ، فقويت شوكة المسلمين بهما . غير أن ذلك لم يفت في عضد قريش ، فترى ملاًها أو مجلس شيوخها يجتمع ويقرّر كتابة صحيفة ظلمة ، تتعاقد فيها قبائل قريش ضد بني هاشم وبني المطلب على ألا يصهروا إليهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتاعوا منهم . فكتبوا ذلك وعلقوا صحيفته في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم (٥).

ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب في شعب يسمى شعب بني هاشم ، وكان ذلك في السنة السادسة من البعثة ، واستمر الحصار ثلاث سنين (٦). ولما سمع من هاجروا إلى الحبشة بإسلام حمزة وعمر وآخرين معهما ظنوا أن مركز المسلمين قوى في مكة فعادت كثرتهم (٧) وتصادف أن الصحيفة التي علقتها قريش في الكعبة أكلتها الأرضة ، ولعل قريشاً نفسها رأت أن تعود فيما أبرمته ضد آل المطلب وهاشم ، فمزقت الصحيفة (٨)، وعادت بذلك للمحصورين

(١) ابن هشام ٣٤٢/١ . (٦) اليعقوبي ٣٠/٢ .

(٢) اليعقوبي ٢٨/٢ وانظر ابن هشام ٣٥٣/١ . (٧) ابن هشام ٣/٢ .

(٣) اليعقوبي ٢٨/٢ وابن هشام ٣٥٦/١ . (٨) ابن هشام ١٤/٢ وما بعدها وانظر اليعقوبي .

(٤) انظر القصة في ابن هشام ٣٥٦/١ وما بعدها ٣١/٢ .

(٥) ابن هشام ٣٧٥/١ .

حريتهم أو على الأقل عاد شيء من حريتهم .

وأخذت أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته قريشاً تُنقل من مكة إلى القبائل المجاورة وغير المجاورة ، فإن مكة كانت مركزاً تجارياً يلتقى العرب إما فيها وإما في أسواقها ، فطبعي أن تسمع القبائل بهذه الدعوة الجديدة ، وكان الرسول يسعى إلى رؤساء العرب الذين يتجمعون هناك يعرض عليهم الإسلام . ويقال إن قريشاً رصدت له سبعة عشر نفراً اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه (١) . وروى اليعقوبى أن رسول الله قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء ، فقال : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا ، وإذا رجل يتبعه له غدیرتان كأن وجهه الذهب ، وهو يقول : يا أيها الناس إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . ولم يكن هذا الرجل سوى أبى لهب عم الرسول (٢) ، وكان يكثر من إينائه هو وزوجه ، وفيهما نزلت السورة الكريمة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

ولم تلبث السيدة خديجة أن توفيت في السنة العاشرة من البعثة (٣) وتوفى على أثرها أبو طالب ، فأثر ذلك في نفس الرسول واجترأت عليه قريش ، إذ كان أبو طالب يحميه ، وهما به غير مرة ، فرأى رسول الله أن يولى وجهه نحو الطائف وأن يدعو أشrafها إلى الإسلام ، لعلهم يأوونه وينصرونه ، غير أنهم هزئوا به ، ورماه سفهاؤهم بالحجارة ، فعاد محزوناً إلى بلده (٤) .

وفى أثناء ذلك لقي الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من أهل المدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا (٥) . ولما دار العام أقبل عليه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم فروض الإسلام ويفقههم في الدين (٦) ، حتى إذا استدار العام أتاه وفد

(٤) ابن هشام ٦١/٢ واليعقوبى ٣٦/٢ .

(٥) ابن هشام ٧٠/٢ .

(٦) ابن هشام ٧٥/٢ وما بعدها .

(١) المحرر ص ١٦٠ .

(٢) اليعقوبى ٢٣/٢ وما بعدها .

(٣) اليعقوبى ٣٤/٢ .

ثان يضم سبعين رجلاً وامرأتين ، فسأله الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى (١) . وعاهدوه أن ينصروه على القريب والبعيد والأسود والأحمر وأن يمنعوه مما يمنعان منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم .

وكانت هذه البيعة إيذاناً بانتقال النبي وأصحابه إلى المدينة فأمرهم أن يسبقوه إليها ، فلم تمض بضعة أشهر حتى نزلوها جميعاً . ثم هاجر الرسول في إثرهم ، فدخلت البشائر عند هجرته في المدينة وخرج أهلها فاستقبلوه استقبلاً كريماً ، وكلٌّ وَدَّ لو ينزل في داره ، فنزل في دار أبي أيوب الأنصاري ، حتى بنى له داراً وبني بجوار الدار مسجداً (٢) .

ولم تقف هجرة الرسول وأصحابه الصراع بينه وبين قريش ، فإنها خشيت من وجوده في المدينة ، وهي في طريقها إلى الشام ، تلك الطريق التجارية التي هي عماد ثروتها وحياتها . ولم تلبث الفرصة من قريش أن تعرضت للرسول فإن أبا سفيان قدم من الشام يعير لقريش تحمل أقواتاً وأموالاً ، فخرج رسول الله يطلبه ، وعرف أبو سفيان ، فأرسل إلى مكة بضمضم بن عمرو الغفاري يستصرخ أهلها (٣) ، فخرجوا لقتال رسول الله وصحبه ، وكانوا ألف رجل أو يزيدون ، وخرج رسول الله في ثلثمائة فالتقى الجمعان في بدر ، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة ، ودارت الدائرة على المشركين ، وقُتل كثير من رؤساء قريش وساداتها ، ولم يبق إلا القليل الأقل من مَلِكَيْهَا أو مجلس شيوخها ، فقد قُتل أبو جهل وَعُتْبَةُ وشيبة ابنا ربيعة والعاص بن هشام بن المغيرة وزَمْعَةُ بن الأسود والحارث ابنه والنَّضْرُ ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط . وبلغ من قُتل من سادات قريش سبعين رجلاً (٤) ، وتوفي أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام كمداً وغيظاً . ويقول اليعقوبي إن العرب حين رأت من قُتل من قريش في وقعة بدر أوفدت وفودها إلى الرسول (٥) ، فقد أخذت كلمة الحق تعلق كلمة الباطل علواً عظيماً .

على أن قريشاً لم تقبل الاستكانة لهذه الهزيمة المنكرة ، فجمعت جموعها

(١) ابن هشام ٨٤/٢ وكذلك ٩٧/٢ وانظر (٣) اليعقوبي ٤٥/٢ .

اليعقوبي ٣٨/٢ . (٤) اليعقوبي ٤٦/٢ .

(٥) المصدر نفسه ٤٧/٢ .

(٢) ابن هشام ١٤١/٢ .

فى العام التالى مستعينة بكل ما قدم به أبو سفيان فى قافلته من مال (١) ، وخرجت من مكة فى ثلاثة آلاف . والتقى الفريقان فى أحد شمالي المدينة ، وكادت الدائرة أن تكون على المشركين لولا مخالفة النبالة لأوامر الرسول ، فإنهم تركوا أماكنهم حين رأى المشركون الأدبار ، غير أنهم لم يلبثوا أن اتوهم من خلفهم وأعملوا السلاح فى ظهورهم ، وقتل حمزة بن عبد المطلب ، وهُزم المسلمون (٢) .

ورجعت قريش إلى مكة وقد غرَّها ما أصابت من النبي وأصحابه ، فأخذت تجمع الأحزاب والقبائل ضده ، حتى إذا تم لها ما أرادت خرجت فى العام الخامس للهجرة يناصرها فى ذلك بنو النضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة (٣) ، كما يناصرها غطفان وقبائل كثيرة . ولما رأى الرسول أن لا قبل له بأعدائه حفر الخندق حول المدينة ، وبذلك سُميت الغزوة غزوة الخندق ، وتسمى غزوة الأحزاب . ولما طالت محاصرة المدينة ولم تستطع هذه الأحزاب أن تصل إليها دبَّ الشقاق بينها ، وأرسل الله عليها ريحاً صرصراً عاتية ، عجلت برحيلهم دون أن يصيبوا من المدينة شيئاً (٤) .

وفى السنة السادسة للهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يريد العمرة ، وساق من الهدى سبعين بدنة وساق أصحابه أيضاً وكان معهم السلاح ، أو كانوا مسلحين ، وقد بايعوا النبي بيعة الرضوان على القتال . ولما علمت قريش بذلك رأت أن تدخل مع الرسول فى معاهدة على ألا يعتمر هذا العام ، ويؤجل ذلك إلى العام القابل فيخلوها له ثلاثة أيام وعلى أن الهدنة بينهم ثلاث سنين ، لا يؤذون فيها أحداً من أصحاب رسول الله ، ولا يمنعونه من دخول مكة ، وأيضاً لا يؤذى أحد من أصحاب رسول الله أحداً منهم . ورجع رسول الله إلى المدينة ثم خرج فى العام القابل فأدى العمرة ، وهى عمرة القضاء (٥) .

وكانت خُرَاعة قد دخلت فى عقد رسول الله فى حين دخلت كنانة فى عقد قريش ، فشجر الخلاف بينهما ، وأعانت قريش كنانة ، إذ أرسلوا مواليمهم إليهم ،

(١) اليعقوبى ٤٧/٢ وابن هشام ٦٤/٣ .

(٢) اليعقوبى ٤٨/٢ .

(٣) ابن هشام ١٩٩/٣ .

(٤) اليعقوبى ٥٠/٢ .

(٥) اليعقوبى ٥٤/٢ .

فقتلوا في حُزاعة . حيثُ استنجدت خزاعة بالرسول وبما بينها وبينه من عقد . فصمم على غزو مكة . وجمع لها كثيراً من القبائل التي دخلت في الإسلام . وأقبل بهذا الجيش الضخم إلى مكة . ورأت مكة أن لا طاقة لها به وبمن معه ، فأرسلت أبا سفيان وحكيم بن حزام وُبْدَيْل بن وَرْقَاء ليأخذوا لها الأمان . وفتح الله على نبيه وكفاه القتال ، ودخل الجيش مكة من أربع جهات ، ودخل رسول الله الكعبة وأزيلت الأصنام ، ومحيت الصور ، وخطب في القوم ، فقال : « ألا كل دم ومال ومأثرة في الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمي هاتين إلا سيّدانة الكعبة وسقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما ، ألا وإن مكة محرمة بحرمة الله لم تحل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد من بعدي . . . فهي محرمة إلى يوم القيامة » لا يُخْتَلَى (١) خلاها ولا يُعَصَّدُ (٢) شجرها ولا ينفر صيدها ولا تحل لُقْطُها إلا لمنشد (٣) . واستسلمت كنانة كما استسلمت قريش .

وبذلك انتهى الصراع بين الرسول ومكة ولكن بعد أن دوّخها وزعزع مركزها التجاري . فإن الطريق إلى الشام قطعه الرسول والمسلمون من حوله وكان لذلك شأنه في تدهور التجارة بمكة . وأخذت الأموال تُستخدم لا في البيع والشراء ، ولكن في حرب الرسول والمهاجرين وأهل المدينة ، وأخذت الحرب تأكل هذه الأموال فلا تُبْقَى ولا تذر .

ومعنى ذلك أن التجارة أخذت تكسب في مكة ، وكان بعض المهاجرين من كبار التجار كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، فخسرت مكة بعض رؤوس الأموال ، وأيضاً هؤلاء أنفسهم أخذوا يرسلون بالغير إلى الشام ، فنافست المدينة مكة في قوافل التجارة . ولما فتحت مكة انتقل كثير من الأسر المهمة إلى المدينة ، وازداد هذا الميل إلى المهاجرة في أثناء حكم الخلفاء الثلاثة الأول . وقليل هم الذين عادوا بعد هجرتهم (٤) ، وانتقلت بطون بأكملها (٥) . وضاع سلطان مكة القديم على العرب . إذ تحول هذا السلطان إلى المدينة ، وأصبحنا لا نسمع عن قوافل

(٤) أنظر ابن سعد ٣٢٨/٥ .

(٥) المصدر نفسه ٣٣٦/٥ .

(١) يختل : يقطع . والخلا : الكلأ .

(٢) يعصد : يقطع .

(٣) اليعقوبي ٥٨/٢ وما بعدها .

مكة كبيرة تقطع بلاد العرب صيفاً أو شتاء ، وحتى أسواقها كمكاظ وذى المجاز لم يعد لها أخبار تذكر . وكان الاستيلاء على العراق والشام في عهد أبي بكر وعمر ورجوع الطريق التجارى القديم من خليج فارس إلى بلاد الموصل فالشام الصَّربَة القاضية على مركز مكة التجارى .

ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح ، فلم تعد البلدة الأولى في الحجاز ، بل سبقتها ونافستها المدينة ، وقد أصبحت تابعة لها « وولّى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب ^(١) بن أسيد واستمر عليها في عهد أبي بكر ، وولّى عليها عمر ولاية مختلفين أهمهم نافع ^(٢) بن عبد الحارث الخزاعي ، أما عثمان فولى عليها خالد بن العاص بن هشام ، ثم ولاية آخرين « ولما خلفه على ولى عليها قثم بن العباس بن عبد المطلب .

٤

في العصر الأموي

لعل أهم ما يلاحظ على مكة في أوائل هذا العصر أنها ، أو قل إن كثرتها ، لم تكن مغاضبة لمعاوية ، إذ نهض للأخذ بثأر شيخها المقتول : عثمان . غير أن الظروف أخذت تتطور بعد ذلك ، فإن أهل مكة والحجاز جميعاً أخذوا ينقمون على الأمويين نقلهم عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق في الشام ، حتى إذا ولى الأمر يزيد بن معاوية رأينا المدينة تثور عليه ، وقد قُتل الحسين في وقعة كربلاء على ما هو معروف ، وخرج عبد الله بن الزبير إلى مكة ، وعاد بالبيت وسمى نفسه العائد ، وأعلن هناك العصيان ، وطرده إلى يزيد ، ومكث ينظر ^(٣) .

وأرسل يزيد جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة ليُبدل من الثائرين في المدينة ومكة ، وهاجم هذا الجيش المدينة في وقعة ^(٤) الحرّة ، ثم خرج منها يريد مكة

(٣) طبرى ٢٢٢/٢ .

(٤) طبرى ٤٠٥/٢ .

(١) ابن هشام ١٤٣/٤ .

(٢) ابن سعد ٣٣٩/٥ .

وابن الزبير . واحتضر قائده في الطريق فاستخلف الحصين بن نمير ، وقدم بالجيش مكة ، فحاصرها ورمها بالنيران فاحترقت الكعبة ^(١) . وفي هذه الأثناء توفي يزيد ، فرفع الحصار عن مكة ، ويقال إن الحصين قال لابن الزبير « هل لك أن أحملك إلى الشام » فليس بالشام أحد فأبى لك « فليس يختلف عليك اثنان ؟ فقال ابن الزبير رافعاً صوته : لا والله الذي لا إله إلا هو أو نقتل بأهل الحرة أمثالهم من أهل الشام ، فقال له الحصين : من زعم أنك داهية فهو أحمق ، أقول لك مالك سراً وتقول لي ما عليك علانية ^(٢) » ثم انصرف إلى الشام .

وأعلن ابن الزبير أنه خليفة المسلمين وتبعه كثير من البلدان « تبعه الحجاز » وتبعته مصر وبعض بلدان الشام ، كما تبعه العراق وخراسان ، ولم تبق ناحية خارجة عليه سوى الأردن وصاحبها يومئذ حسان بن بخدل الكلبى ^(٣) . وأخطأ ابن الزبير خطأ شنيعاً « إذ أمر بطرد بني أمية من المدينة إلى الشام ، فساروا إليها وعلى رأسهم مروان بن الحكم ^(٤) . وهناك دعا مروان لنفسه ، وعقد مؤتمر في الجابية عقدت فيه الخلافة لمروان ^(٥) . واتجه مروان مع أصحابه إلى دمشق حيث التقوا بالضحاك بن قيس في مرج راهط ^(٦) ، فكانت الدائرة عليه . وبذلك خلصت الشام لمروان ، وولى وجهه نحو مصر فدخلها وصالح أهلها وأعطوه الطاعة ^(٧) . وفي هذه الأثناء اضطرب حبل الأمور في العراق ، وسرعان ما توفي مروان ، وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك .

وكان عبد الملك داهية من دواهي قريش ، ولعل من أهم ما يدل على دهائه أنه لما رأى ابن الزبير يتصل بأهل الشام وخاف أن يفسدهم عليه منعهم من الحج ، فقالوا له أئتمننا من حج بيت الله الحرام ، وهو فريضة فرضها الله ، فقال : بل هذا ابن شهاب الزهري يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس .

(٤) طبرى ٤٦٧/٢ .

(١) طبرى ٤٢٦/٢ وما بعدها .

(٢) اليعقوبى ٣٠١/٢ وما بعدها وانظر المسعودى (٥) اليعقوبى ٣٠٤/٢ .

(٦) اليعقوبى ٣٠٥/٢ .

١٩١/٥ .

(٧) اليعقوبى ٣٠٦/٢ .

(٣) اليعقوبى ٣٠٤/٢ .

وبذلك صرفهم مؤقتاً عن المسجد الحرام إلى مسجد بيت المقدس ، واستغلَّ الصخرة فيه التي يُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء ، فأقامها لهم مقام الكعبة ، فبنى عليها قبةً ، وعلّق فوقها ستور الديباج ، وأقام لها سَدَنَةً ، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة^(١) .

وأخذت الأمور تتطور في جانب عبد الملك ، فإن العراق كثرت فيه الفتن ، فتن الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وقد غلبوا على البصرة ، وفتن الشيعة بقيادة المختار الثقفي وقد غلبوا على الكوفة . فأرسل ابن الزبير أخاه مصعباً ، وكان بطلاً من أبطال قريش وسيداً من ساداتها ، فاستقام له العراق ، وقضى على المختار كما قضى - أو كاد يقضى - على الخوارج^(٢) .

وكان من أهم الأمور التي أساءت إلى ابن الزبير أنه تحامل على بني هاشم فأخرجهم من مكة ، ويقول اليعقوبي - إن صحَّ ما يقول - إنه ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته فقبل له : « لم تركت الصلاة على النبي ؟ فقال ؟ إن له أهل سوء ، يشربون لذكركه ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به^(٣) » . وعلى كل حال كانت الأحوال مضطربة ، ولعل من أوضح ما يدل على اضطرابها أن نجد في سنة ٦٨ هـ أربعة ألوية بعرفات ، لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه ، وثان مع ابن الزبير ، وثالث مع نجدة بن عامر الحروري الخارجي ، ورابع مع بني أمية^(٤) .

وأخيراً سار عبد الملك إلى مصعب بن الزبير ، فلقبه بموضع يقال له دَيْر الجائليق على فرسخين من الأنبار ، فاقتتلا هناك قتالاً شديداً ، ولم يلبث أصحاب مصعب أن انحازوا عنه ، واستمرَّ يقاتل حتى قُتل^(٥) في ذي القعدة سنة ٧٢ للهجرة .

وندب عبد الملك الناس لحرب ابن الزبير في مكة فتقدم إليه الحجاج وكثيرون معه ، فوجهه إليه في عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم . وقدم الحجاج ابن يوسف ، فقاتل ابن الزبير قتالاً عنيفاً ، ولم يُغنِ ابن الزبير تحصنه بالبيت .

(٤) اليعقوبي ٣١٤/٢ وطبري ٤٥٢/٢ وانظر

٧٨١/٢ .

(٥) انظر الطبري ٨٤٤/٢ .

(١) اليعقوبي ٣١١/٢ .

(٢) انظر اليعقوبي ٣١٤/٢ وما بعدها .

(٣) اليعقوبي ٣١١/٢ .

فقد رماه الحجاج بالمجانيق من كل جانب ، حتى هدمه (١) ، بعد أن بناه ابن الزبير وأنفق كثيراً في بنائه (٢) .

ولما رأى ابن الزبير أنه لا طاقة له بحرب الحجاج دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها : كيف أصبحت يا أمي ؟ فقالت له : إن في الموت لراحة ، ثم قال لها : إني أخاف إن قتلني هؤلاء القوم أن يمثلوا بي ، فقالت : يا بني إن الشاة لا تألم للسَّخ إذا دُبِحت ، فخرج وقاتل حتى قُتل (٣) سنة ٧٣ للهجرة .

ولا ريب في أن هذه الحوادث التي أملت بمكة من عام ٦٣ إلى عام ٧٣ للهجرة جعلتها تقف في صفوف المعارضة من بني أمية ، ونحن نعرف أن هذه المعارضة كان موطنها العراق حيث الخوارج والشيعة ، واشتركت فيها الحجاز ومكة في أثناء خلافة ابن الزبير . وأخذت حدة هذه المعارضة تضعف مع مر الزمن ، ولكن استمرت النفوس مطوية على الإحن .

وإذا رجعنا إلى ولاية مكة في هذا العصر الأموي وجدنا بينهم خالد (٤) بن العاص ابن هشام وإلى عثمان ثم وإلى معاوية ، ويظهر أنها لم تدم معه طويلاً ، فقد أخذت تتبع وإلى المدينة ومن ولأه عليها معاوية الوليد بن عقبة ، ونزعه يزيد وإلى عمرو (٥) ابن سعيد بن العاص ، ثم عزله وأعاد الوليد (٦) ، ثم عزله وإلى عثمان بن محمد ابن أبي سفيان وكان قتي حدثاً لم يجرب الأمور ولم تجرب به ، فكان لا ينظر في شيء من سلطانه وعمله (٧) .

ثم غرقت مكة في حوادث ابن الزبير ، وكانت إذ ذاك عاصمة لخلافته ومقرراً لإدارة سياسته ، ثم عادت إلى الأمويين . وكانت تُمنَحُ في العادة لقرشي ، وإن كان قد تولاهما عقب قتل ابن الزبير الحجاج بن يوسف فأقام فيها سنة ثم تركها إلى العراق ، وفي أثناء حكمه لها وللحجاز بنى الكعبة وأدخل فيها الحجر وجعل

(١) الطبري ٨٤٤/٢ .

٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .

(٢) اليعقوبي ٣٠٩/٢ وما بعدها .

(٥) طبري ٢٥٥/٢ .

(٣) الطبري ٨٤٤/٢ واليعقوبي ٣١٩/٢ .

(٦) طبري ٣٩٩/٢ .

(٤) طبري ١٦/٢ وكذلك ص ٧١ ، ٨١ ، (٧) طبري ٤٠٢/٢ .

لها بايين^(١) . ثم تعاقب عليها ولاية مختلفون أشهرهم نافع بن علقمة الكناني وقد شدد في النبيذ والغناء والمغنين^(٢) ، ومن أهم ولايتها خالد القسري ولها في عهد الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٩ للهجرة وفي ولايته كتب الحجاج إلى الوليد : « إن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى مكة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم » . فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري ، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهداً وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار ، فأما عمرو بن دينار وعطاء فأرسلوا لأنهما مكيان ، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج^(٣) . وكانت في خالد شدة ، وخطب في أهل مكة يوماً فقال :

« يا أيها الناس ! إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهى التى اختار الله من البلدان ، فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حَجَّه من استطاع إليه سبيلا . أيها الناس ! فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإنى والله ما أوفى بأحد يطعن على إمامه إلا وصلبته فى الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيت وكيت ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون فى بلادكم ، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائع عن الجماعة ، فإنى لا أجد أحداً منهم فى منزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا من تنزلون فى منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة فإن الفرقه هى البلاء العظيم^(٤) » .

ويروى أنه كان يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحش التى تأمن فى الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة^(٥) » . وأقر سليمان بن عبد الملك خالداً على مكة وأحدث فيها أحداثاً ، منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة وكانت صفوف الناس فى الصلاة بخلاف ذلك^(٦) .

ولعل فى هذا ما يدل على أن مكة انصرفت عن بنى أمية ، فقد أصبحت

(٤) طبرى ١٢٣١/٢ .

(٥) طبرى ١٢٣٢/٢ .

(٦) السعوى ٣٩٩/٥ .

(١) طبرى ٨٥٤/٢ .

(٢) أغانى طبع بولاق ٢٠/١١ .

(٣) طبرى ١٢٦٢/٢ .

بينها وبينهم دماء منذ قام فيها ابن الزبير ، وحج الوليد سنة ٩٤ للهجرة فخطب بها خطبة بتراء ، توعد فيها أهلها ، وتهدهم^(١) . وينتفى القرن الأول وتدخل في القرن الثاني ولا توجد حوادث واضحة في هذا القرن سوى ما كان من استيلاء الإيباضية برياسة أبي حمزة الخارجي على مكة سنة ١٢٧ للهجرة . واستولوا أيضاً على المدينة ، ثم ولّوا وجوههم نحو الشام ، فلقبتهم جيوش مروان بن محمد ، وهزمتهم هزيمة نكراء . وتبعته حتى اليمن حيث قُتل زعيمهم عبد الله بن يحيى الكندي الذي يسمى طالب الحق^(٢) .

٥

ثراء وحضارة

من أهم ما يميز مكة في العصر الجاهلي أنها كانت بلد ثراء شديد ، فقد كانت تتجر كما قدمنا ، وكانت قوافلها تجوب بلاد العرب ، وكان فيها بيوت ثرية كبيرة ، أهمها بيت بني أمية وبيت بني مخزوم . ولا بد أن عبد الله بن جدعان كان ثرياً ثراء عظيماً ، فقد قرنه بعض الشعراء - كما تقدم - إلى قيصر ، ويبالغ الرواة في كرمه وما كان يبذل للناس^(٣) . ويقال إن الأرباح بلغت في قافلة بدر خمسة وعشرين ألف دينار ، وقد تنازل عنها أصحابها لحرب النبي^(٤) ، وفي هذا التنازل ما يدل على أن أصحاب هذه الأموال كانوا من ذوى الألواف . ومن أشهر الأثرياء حينئذ أسرة سعيد بن العاص وكان لها في قافلة بدر ثلاثون ألف دينار ، ولقبية الأمويين عشرة آلاف . وأكثر مال القافلة كان للأمويين ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان - كما مر بنا - يرأس القافلة . ومن أثرياء مكة من بني مخزوم الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبي ربيعة . وقد دفع المخزوميون للرسول في فداء بعض أسراهم أربعة آلاف

المحيرص ١٣٧ .

(١) اليعقوبى ٣٤١/٢ .

(٤) اليعقوبى ٤٧/٢ .

(٢) اليعقوبى ٤٠٦/٢ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٧/٨ وانظر

درهم^(١) ، وافقدوا رفات قتيل يوم الخندق بعشرة آلاف درهم^(٢) . ومن أثرىء
بنى هاشم المعدودين العباس بن عبد المطلب ، وقد اقتدى نفسه يوم بدر وابنى أخيه
عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بمائة وأربعين أوقية^(٣) .

وفى كل مكان نسمع أخبار هذا الثراء الفاحش وما يتبعه من كرم وضيافة . عن
أبي ذر قال : « قدمت مكة معتمراً فقلت أما من مضيف ؟ قالوا : بلى كثير وأقربهم
منزلاً الحارث بن هشام المخزومي ، فأتيت بابه ، فقلت : أما من قرى ؟ فقالت لى
الجارية : بلى ، فأخرجت إلى زيباء فى يدها . فقلت : ولم لم تجعليه فى طبق ؟
فعلمت أنى ضيف ؟ فقالت : ادخل ، فدخلت . فإذا أنا بالحارث على كرسى
وبين يديه جفان فيها خبز ولحم وأنطاع عليها زيب فقال : أصب . فأكلت .
ثم قال هذا لك ، فأقمت ثلاثاً ، ثم رجعت إلى المدينة فأخبرت النبي صلى الله
عليه وسلم خبره ، فقال : إنه لسرى ابن سرى ، وددت أنه أسلم^(٤) . وأخبر
الكلبى فى إسناده عن رجلين من بنى سليم أخوين قالا - إن صح ما قالاه - :
« دخلنا مكة معتمرين فى سنة ، فما وجدنا بها شواء ولا قرى ، فبينما نحن كذلك
إذ رأينا قوماً يمضون ، فقلنا أين يريد هؤلاء القوم ؟ فقيل لنا يريدون الطعام ،
فمضينا فى جملتهم حتى أتينا داراً ، فولجناها ، فإذا رجل آدم أحول على سرير
وعليه حلة سوداء ، وإذا جفان مملوءة خبزاً ولحماً فقعدنا فأكلنا ، فشبت قبل
أخى ، فقلت له : كم تأكل ؟ أما شبت ؟ وسألنا عن صاحب الطعام ،
فإذا هو أبو جهل بن هشام^(٥) » وفى أيه هشام يقول بُجير
ابن عبد الله^(٦) :

فأصبح بطنُ مكةَ مقشعراً كأن الأرضَ ليس بها هشامُ

ومن هؤلاء المخزوميين من كان يقال له ربّ مكة كما قدمنا . والحق أن قريشاً

(٥) المحبر ص ١٤٠ .

(٦) المحبر ص ١٣٩ ومقشعراً : أصابته قشعريرة

أى رعدة

(١) الواقدى ص ١٣٦ .

(٢) ابن هشام ٢٦٥/٣ .

(٣) اليعقوبى ٤٦/٢ .

(٤) المحبر ص ١٣٩ .

بلغت مبلغاً عظيماً من الثراء في أثناء العصر الجاهلي ، حتى اشتهر أشرافها بأنهم كانوا يملكون دوراً ليصيّفوا فيها بالطائف .

وليس من ريب في أن هذا كله يؤكد أنه كانت هناك ثروات ضخمة في الجاهلية . وقد أخذت هذه الثروات تتأثر - كما مرّ بنا - في أثناء الحروب بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين مكة ، كما أخذت تتأثر أكثر بمهاجرة كثير من أصحابها إلى المدينة . بل لقد أغلقت طرق القوافل المكية حينما فتح طريق العراق إلى الشام بعد فتح البلدين ، فحُمِلت فيه تجارة الهند . غير أن مكة فُتِح لها طريق آخر ، لم يكن في هذه المرة طريق قوافل ، ولا كان خاصاً بها ، بل كان عاماً لها ولأهل المدينة والعرب جميعاً وهو هذا الطريق ، بل الطرق الحربية ، التي انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس ومصر والشام . وكان القرشيون مميّزين في هذه الفتوح ، فكان كثير منهم يرأس الجيوش والحملات ، وكان كثير منهم يتولى على المقاطعات والولايات . وانصبّت كنوز الأرض في حجوهم وحجور العرب ، يقول ابن خلدون : « إن بحار الرّفّة زحرت لديهم حتى كان يُقسّم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب ^(١) » ومرّ بنا في حديثنا عن الثراء والحضارة في المدينة أن الأسلاب قُسمت بعد موقعة القادسية فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة . وأن عمر خطب في الناس مرة ، فقال : « إنه قدم علينا مال كثير إن شئتم أن نعدّه لكم عدداً ، وإن شئتم أن نكيّله لكم كيلاً » كما مرّ بنا أنه بلغ خراج سواد الكوفة وحدها في عهد عمر عشرين ومائة ألف ألف ، وأنه لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة رأى عمر أن الفتوح قد توالى وأن كنوز الأكاسرة قد مُلكت ، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت « فدوّن الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقررّاً تراوح بين ألف وخمسة آلاف في العام

وهذا كله كان يصبُّ في بلاد العرب وخاصة في البلدين الكبيرتين اللتين كانت تقيم فيهما قريش ، وهما مكة والمدينة . وأخذ القرشيون يُثرون ثراء لا نكاد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٧ .

نتصوره الآن، ومرّ بنا في الحديث عن الثراء والحضارة في المدينة كيف وقف المسعودي عند ثروات بعض كبار الصحابة وقفة طويلة ، واستعرض ما صار إليهم وعجّب منه . ولا عجب ، فقد ملك العرب الأرض ، وأصبحو من ذوى الألوף المؤلفة .

ومهما يكن فقد أثرى كثيرون من أهل مكة ثراء واسعاً ، ومن أهم أثريائها وأجوداها في العصر الإسلامي الأول عبد الله بن عامر وإلى عثمان على البصرة ، وقد اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لأهلها ، فلم يكونوا يؤدّون عنها خراجاً (١) . واتخذ في مكة حياًضاً ونحلاً بعرفات ، وأقام النّباج ، وهي قرية على الطريق بين مكة والبصرة ، واتخذ قريتين أخريين وغرس بهما نخلاً وأنبط عيوناً (٢) . ويعرض ابن حبيب لجود القرشيين في أوائل العصر الإسلامي عرضاً يشبه الآن أن يكون قصصاً ، فمنهم من كان يهب البستان قيمته ستائة ألف درهم ، ومنهم من كان يهب الجارية ابتاعها بمائة ألف درهم (٣) .

ولما صار الأمر إلى معاوية اهتم ببلدته القديمة ، فأجرى فيها عشرة عيون ، واتخذ فيها بساتين (٤) ، وما زال الأمويون يعنون بها ، فكانوا يستنبتون بها الأشجار ويحفرون الخزانات والآبار (٥) . وروى اليعقوبي أن سليمان بن عبد الملك أراد الحج فكتب إلى عامله خالد القسري وإلى مكة يأمره أن يجري له عيناً من الماء العذب ، فعمل خالد بركة في أصل « ثبير » بحجارة منقوشة ، واستنبط ماءها من ذلك الموضع ، ثم شقّ من هذه البركة عيناً تجرى إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص ، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن وزمزم (٦) .

وليس من شك في أن هذه مظاهر حضارة ، ولعل من أهم مظاهرها حينئذ اتخاذ الدور والقصور وبناءها بالآجر والجصّ واتخاذ أبوابها من الساج . ولم يكن بينها العرب ، وإنما كان بينها أجانب من الفرس والروم جلبوهم لهذا الغرض .

(٤) الأزرق ١/٤٤٣ .

(١) المحبر ص ١٥٠ .

(٢) المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ١٦٤ . انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) اليعقوبي ٢/٣٥١ .

وانظر الأزرق ١/٤٤١ .

(٣) المحبر ص ١٤٦ وما بعدها .

وبنى معاوية لنفسه بمكة دوراً يقال لها الرُّقْط لاختلاف ألوانها ، بناها فُرس من العراق بالجِصِّ والآجر^(١) ، ويروى أنه اشترى من حُوَيْطِب بن عبد العزَّى داراً بأربعين ألف دينار^(٢) . وباع آل عقبة بن الأزرق قسماً من دارهم قرب المسجد الحرام بثمانية عشر ألف دينار^(٣) . واتسع بناء القصور في مكة في أثناء حكم ابن الزبير ، فقد انجلبت إليها الأموال من العراق ومصر . ومن هذه الأموال بنى الكعبة^(٤) . ويروى الأزرق أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب ابن الزبير : هيات ! هيات ! تركت والله سنة عمر . . قضى عمر أن أسفل الوادى وأعلاه مناخ للحجاج . وأن أجياداً وقُيَّعَعا للمريحين والذاهبين ، واتخذتها وصاحبك دوراً وقصوراً^(٥) .

ويظهر أنهم بالغوا في العناية ببناء هذه الدور والقصور حتى أصبحت تنافس دور دمشق وقصورها . روى الرواة أن معاوية حج ذات مرة فوقف أمام دار عبد الله بن الحارث جد الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة يتعجب من حسن بنائها . فخرج إليه عبد الله يقول : لا أشيع الله بطنك ! أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار^(٦) .

ولم يكن كل ما أصاب الناس في مكة من تغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التي أخذوا ينقلونها هناك هو بناء الدور والقصور فحسب ، فقد أخذت معيشة القوم تتغير - ونقصد طريقة أكلهم وحياتهم - إذ دخل مكة كثير من الرقيق والجواري الفارسيات والروميات . دخلوا في عصر الخلفاء الراشدين مع الفاتحين الذين جلبوهم ، وكان القواد أنفسهم يرسلون بهم ، فقد أرسل معاوية - كما مر بنا في كتاب المدينة - إلى عمر بأربعة آلاف من سبى قيسارية ، واستمرت هذه السيول الأجنبية فيما بعد ، وساعد عليها ثراء الناس وأسواق الرقيق .

ولا ريب في أن هذا الرقيق الفارسي والرومي غير كثيراً في معيشة القوم إذ

(١) الأزرق ٤٤٩/١ وانظر الأغاني طبع دار (٤) الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٨١ .

(٥) الأزرق ٣٩٢/١ .

(٦) أغاني طبع دار الكتب ٢١١/١ .

(٢) المعارف ص ١٥٩ .

(٣) الأزرق ٤٥٩/١ .

كانوا يقومون على خدمتهم وكانوا يعدّون لهم حياتهم إعداداً وصوّروا ذلك تصويراً دقيقاً ابن خلدون في النص الطويل الذي نقلناه عنه في الحديث عن الثراء والحضارة في المدينة .

والحق أن أهل مكة والعرب جميعاً اقتحمتم الحضارات الأجنبية اقتحاماً ، وأخذت تغزوهم في عُقر دورهم وفي حياتهم وطريقة معيشتهم ، فإذا كانوا قد فتحوا فارس وبلاد الروم (مصر والشام) حربياً فإن هذه البلدان فتحهم حضارياً . وأقبلوا على ذلك أول الأمر حذرين على نحو ما أقبل عمر في الأخذ بنظام الدواوين الفارسي ، فاقصر على ديوان العطاء^(١) ، ولكن لا نصل إلى معاوية حتى نجده يأخذ نظم الدواوين الفارسية كلها^(٢) . وهذا ما نلاحظه في الحياة نفسها ، فقد كان الصحابة إلى عصر عمر لا يتعمقون الحضارات الأجنبية ولا يأخذون إلا بظاهر منها ، ولكنهم أخذوا يتعمقونها في أثناء عصر عثمان^(٣) ، وكلما تقدموا في الزمن تقدم بهم التأثير بهذه الحضارات .

وساعد أهل مكة على الاستمرار في هذا التأثير ما ورثوه عن آبائهم في الجاهلية من أموال ، وما جلبه لهم هؤلاء الآباء في الفتوح الإسلامية من ثروات ، وكان ديوان العطاء الذي استحدثه عمر مدداً مستمراً طوال العصر الأموي لا ينقطع . ومن المعروف أن الأمويين كانوا يغدقون أموالهم على شباب مكة والمدينة ليلهموم عن طلب الملك والخلافة^(٤) . فكان لذلك كله أثره في استمرار البذخ الذي عرفته مكة عقب الفتوح . يدلّ على ذلك من بعض الوجوه ما كانوا يتخلّصونه في الكسوة التي كانت توضع على الكعبة ، ومعاوية هو أول من كسا الكعبة الديباج واشترى لها العبيد^(٥) . ولما فرغ ابن الزبير من بنائها كساها القباطي^(٦) ، ومسح بالخلّوق داخلها وخارجها ، فكان أول من خلّقها^(٦) . وبعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري وهو على مكة بثلاثين ألف دينار ، فضربت صفائح ، وجعلت على باب الكعبة وعلى

(١) الوزراء والكتاب للجهمي طبع الحلبي (٤) انظر الفخري ص ١٢٧ وابن عبد ربه ص ١٧ .
 (٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .
 (٣) السعدي ٢٥٣/٤ .
 (٤) اليعقوبي ٢٨٣/٢ .
 (٥) اليعقوبي ٣١١/١ .

الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب . فكان أول من ذهب البيت في الإسلام^(١).

وهذه كلها صور من الحضارة التي أخذت تغزو مكة بل الكعبة نفسها ، ولا ريب في أن البيوت خلف الكعبة كانت تأخذ بحظ بل بحظوظ مختلفة من هذه الحضارة .

٦

ترف وبعض فنون اللهو :

وهذا الثراء وتلك الحضارة سرعان ما تحولًا إلى ضروب من الترف والنعيم ، وماذا ينقص أهل مكة لكي يترفوا ؟ إن المال ملء حجورهم والجواري الفارسيات والروميات ملء قصورهم . وليس من ريب في أن هؤلاء الجواري كن يفهمن الحياة في صورة أخرى غير الصورة العربية ، وأنهن أخذن يدخلن هذه الصورة في دور مكة وقصورها ، يساعدهن في ذلك الموالى والرفيق الذي حشد هناك من كل مكان . وبون بعيد بين حياة المكين في العصر الإسلامي وحياتهم في العصر الجاهلي ، فقد كانت حياتهم حينذاك خشنة إلى حد ما ، أما في هذا العصر فقد بدّلوا حياة أخرى عرفوا فيها كل ضروب النعيم والترف في المطعم والملبس وفنون الزينة المختلفة . إذ أتيح لهم أن يأخذوا بحظوظ وافرة في كل جانب من جوانب الحياة ، فطعموا الألوان المختلفة المترفة من الطعام^(٢) ، وأكلوا وشربوا في أواني الذهب والفضة^(٣) ، ولبسوا السندس والديباج والإستبرق ومقطّعات الخز^(٤) والحرير والحلل الموشاة^(٥) ، وحتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج^(٦) ، وكانوا يضعون في أعناق

(١) البعقوبي ٣٤٠/١ .
 (٢) المستطرف للإبشبي طبع المطبعة العثمانية (٥) أغاني طبع دار الكتب ٢٢١/١ وأنظر بمصر ١٦٢/١ .
 (٣) ابن عبدربه ١١١/١ وابن سعد ١٢٦/٤ (٦) المصدر نفسه ٢٢١/١ .
 (٤) أغاني طبع دار الكتب ٦٦/٥ .
 (٥) المصدر نفسه ٢٧٨/١ .

خيوطهم أطواقاً من الذهب^(١) . ويروى صاحب الأغاني في أخبار الهذلي أحد مغنيهم أنه كان إذا أمسى أشرف على المسجد وغنى وهو في الجبل ، فلا يلبث أن يُرى الجبل كقرص الخبيص صفرة وحمرة من أردية قریش^(٢) . وكان العرجي الشاعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار^(٣) أو بنحو ثلثائة جنيه .

وإذا كان الرجال يصنعون ذلك كله أو يفرقون في ذلك كله ، فإن النساء هن الأخريات غرقن في فنون الزينة المختلفة ، سواء في ملابسهن أو في حليهن . وقد تفننن في اتخاذ الثياب الرقيقة الشفافة^(٤) ، كما تفنن في اتخاذ الحلي والجواهر^(٥) . ولعلت أسماء جماعة من الفتيات والسيدات على نحو ما تلمع أسماؤهن في البيئات المتحضرة من مثل السيدة عائشة بنت طلحة ، وكانت تقيم في المدينة سنة وفي مكة أخرى ، وكانت تصيف بالطائف^(٦) ، وكان لها ماشطتها الخاصة^(٧) التي تعني بطيها وعطرها^(٨) . وعلى مثالها كانت الثريا بنت علي بن عبد الله^(٩) بن الحارث بن أمية الأصغر ، وكان أبوها من أثرياء مكة ، وكان لها قصر عظيم^(١٠) ، وكانت مثل عائشة تصيف بالطائف^(١١) . ويظهر أن دارها بمكة كانت تكنت بالرقيق والجواري ، فقد تخرج فيها اثنان من أشهر المغنين هما الغريص ويحيى قيل ، كما تخرجت فيها سُميَّة ، المغنية . وكانت الثريا جميلة وكان فيها دك وإعجاب بنفسها^(١٢) على عادة الفتيات والسيدات المترفات .

وليس بين أيدينا أخبار واضحة عن هؤلاء السيدات وما كنَّ ينفقن في زينتهن ،

-
- (١) أغاني ٢٥٩/١ .
 (٢) أغاني طبع دار الكتب ٦٥/٥ والخبيص : (٦) أغاني طبع بولاق ٦١/١٠ .
 (٣) أغاني طبع دار الكتب ٣٩٥/١ وفي حديث نوع من الحلواء يتخذ من التمر والسمن .
 (٤) أغاني ٦٠/١٠ .
 (٥) أغاني ٥٤/١٠ .
 (٦) أنظر في نسبها الأغاني ٢١٠/١ .
 (٧) أغاني ٢١١/١ .
 (٨) أغاني ٢١٢/١ .
 (٩) أغاني ٣٥٩/٢ .
 (١٠) أغاني ٢١٤/١ وما بعدها .
 (١١) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ وأنظر (١٢) أنظر ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٧٤ ، ٢١١ ، ٢٨٣ وأنظر الأغاني ٤٠٤/١ .
 (١٣) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ وأنظر

ولكن لا بد أنهن كن يُسرفن في ذلك ، فالمال كثير وحوانيت العطر والطيب حوهن^(١) ، وكذلك حوانيت الثياب العدنية واليمينية^(٢) والهروية^(٣) . والمرأة من عاداتها إن وجدت المال أنفقته على ملابسها وهيتها وزيتها وعطرها .

ولعل أهم ما يلاحظ على هذه البيئة المترفة أن جمهرة من كانوا فيها من شباب كانوا فارغين من عمل ، فليس هناك ما يشغلهم ، وخاصة أن بنى أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مع ابن الزبير ، فلم يتخذوهم على الولايات ، ومع ذلك لم يمنعهم عطاء ، بل كانوا يزيدون فيه من حين إلى حين ، فهم أهلهم وعشيرتهم الأقربون . وورثوا عن آبائهم في الجاهلية والإسلام أموالاً ضخمة كما قدمنا ، فكان ذلك كله سبباً في أن تتكوّن بمكة طبقة من الشباب المترف العاقل الذي نُشئ في الحليّة والزينة .

ومثل هذا الشباب في المدن المترفة إن لم يُوجّه لدراسات فكرية ، توجّه توجّه إلى اللهو وبعض الملاهي حتى يقطع وقته في المتعات الممكنة . وأهم متعة عُثيت بها مكة في هذا العصر هي متعة الغناء ، وسنعرض لها بالتفصيل في الفصل التالي . ومن أخبارهم في هذا الباب أنهم تعلقوا بلعب الشطرنج والنرد والفرق أو ما يسمى في مصر بالسبيجة^(٤) . روى أبو الفرج أن « عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم^(٥) » .

وعلى هذا النحو انتشرت بعض الملاهي في مكة ، وانتشر معها المرح ، وربما كان من أهم ما يصوره أن نجد لمكة في هذا العصر مضحكاً مشهوراً ، كانوا يتخذونه للتندر والدعابة . وهذه عادة من عادات الجماعة حين تتمدين وتتحضر ، فإنها تميل إلى الدعابة والنادرة ، ويوجد لها من يضحكها وينشر في جوها المرح . ومضحك مكة حينئذ شاعر خفيف الروح يسمى الدارمي ، ترجم له أبو الفرج

(٤) انظر لعب العرب لتيومور ص ٤٩ .

(٥) أغاني ٢٥٣/٤ .

(١) أغاني ٣٩٩/٢ وانظر ٤٧/٣ .

(٢) أغاني ٣٦٨/٢ وانظر ٢٥٩/١ .

(٣) أغاني ٢٥٩/١ .

ترجمة طريفة ذكر فيها مجموعة من نوادره ، فمن ذلك أنه كان عند بعض الولاة يحدثه ، فأغنى الوالى ، فعطس الدارمى عطسة هائلة ، ففزع الوالى فزعاً شديداً ، ثم استوى جالساً وقال له : أنفزعنى ؟ قال : كلا ! ولكن هكذا عطاسى ، فقال اتنى ببينة على ذلك . فخرج فأتاه برجل ، فسأله الوالى : بم تشهد لهذا ؟ قال : أشهد أنى رأيته مرة عطس عطسة ، فسقط ضرسه ، فأغرق الوالى فى الضحك (١) .

وكما كان الدارمى يُضحك الأمراء والرجال فى مكة ، كان يُضحك النساء ، فكان لا يطيب لهن متزّه إلا به (٢) ، وهو فى ذلك يشبه أشعبَ مضحك المدينة . وطلبت منه جارية طيباً ، وكان فيه بخل وحرص ، فوعدها بإحضاره ، ثم تاب إلى رشدته فقال :

أنا بالله ذى العِزِّ وبالرُكن وبالصَّخره
من اللاتى يُردن الطيه ب فى البئر وفى العُسره
وما أقوى على هذا ولو كنتُ على البُصره

وتصادف أن التقيا ، فعاتبته إلى أن قالت له : يا دارمى أتجننى ، فقال : نعم ، أفتحينى ؟ قالت : نعم . قال : فيا لك الخير ! فأنت تجينى وأنا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا (٣) . وكانت له بديهة حاضرة ، قال له محمد بن إبراهيم الإمام : لو صلحت عليك ثيابى لكسوتك ، قال : فديتك ! إن لم تصلح على ثيابك صلحت على دنائرك (٤) .

وهذا المجتمع المرح الضاحك الذى كان يأخذ بحظوظ من الفكاهة ، كان يأخذ أيضاً بحظوظ من الحرية ، وهى حرية ينبغي أن لا نسيء فهمها ، فمن طبيعة المجتمعات المتحضرة أن يكثر فيها لقاء الرجال للنساء . وهذا ما نلاحظه فى مكة فى أثناء هذا العصر ، فأبو الفرج يروى أن عائشة بنت طلحة كانت

(٣) أغانى ٤٧/٣ .

(١) أغانى ٤٨/٣ .

(٤) أغانى ٤٨/٣ .

(٢) أغانى ٤٧/٣ .

تسفر ولا تستر وجهها من أحد^(١)، وكذلك كانت عمرة^(٢) الجمحية صاحبة أبي دَهبل الشاعر المكي المعروف .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لقاء عمر بن أبي ربيعة بالثريا^(٣) وبغيرها من شريفات^(٤) مكة . وليس في هذا غرابة ما دام المجتمع كان يبيع اللقاء الشريف بين الرجال والنساء ، وكل ما في المسألة من غرابة أننا نأبى أن نقيس الماضي على الحاضر . وننظر إلى بعض جوانب الحياة في المدن القديمة نظرة ضيقة .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٢١٥/١ وما بعدها .

(٤) أغاني ٩١/١ وانظر أغاني ١٠٥/١ .

(١) أغاني ٥٤/١٠ .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ١٣٥/٧ .

الفصل الثاني

الغناء في مكة

١

في العصر الجاهلي

من يُعنى بدرس الحياة العربية في العصر الجاهلي يلاحظ كثرة النصوص التي تدل على انتشار الغناء وذيوعه في كل مكان من الجزيرة العربية . يقول المسعودي : « لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب^(١) » . ويؤكد الإنسان لا يقرأ ديوان شعر جاهلي لشاعر مهم إلا ويجد فيه ذكر الشراب والغناء^(٢) ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون أشعارهم ، وفي الأغاني أن المهلهل تغني ببعض شعره^(٣) وكذلك السليك^(٤) بن السُّلَكة . ولعل مما يدل على ذلك أن نجدهم يعبرون عن إنشاد الشعر بالغناء والتغنى . ففي حديث عمر بن الخطاب للناطقة الجعدى أنه قال له : « أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، يريد من شعرك^(٥) » .

فالشعر والغناء كانا مرتبطين في العصر الجاهلي ، وكانا يتخللان حياة العرب في سلمهم وحرهم . وما يشهد لذلك من بعض الوجوه ما يقوله ابن رشيقي من أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس^(٦) . فالشاعر كان

(١) المسعودي ٩٣/٨ . (٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الثامنة)

(٢) انظر على سبيل المثال معلقة الأعشى ومعلقة ص ٤٣ .

طرفة وبسمية علقمة بن عبدة الفحل . (٦) ابن رشيقي ٣٧/١ وانظر المزهر طبع بولاق

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٥١/٥ . ٢٣٦/٢ .

(٤) أغاني طبع بولاق ١٣٤/١٨ .

يُسْتَقْبَلُ بِالْغَنَاءِ ، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ كَانَ يَشَارِكُ فِيهِ .

ولم تكن مكة شاذة على هذا الذوق العام عند العرب ، بل لعلها كانت مبرزة في هذا الجانب بحكم ما فيها من مال وثراء . وكان بجوارها سوق عكاظ ، وفيها كانت تُلقَى قصائد الشعر الكبيرة المسماة بالمطولات أو المغلقات . ومن يدرى لعلها كانت تعني^(١) ، أيضاً ، إذ كانت أسواق العرب مجتمع الشعراء والمغنين والمغنيات^(٢) .

وكانت مكة من جهة أخرى مركز الوثنية الجاهلية ، ولا بد أنهم كانوا يرتلون وينشدون بعض الأناشيد في أثناء حجهم وإفاضةهم . وما يُروى أنهم كانوا يرتلون : « أَشْرَقَ نُورٌ كَمَا نُغِيرُ^(٣) » . وفي القرآن الكريم : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً) . والمكاء : الصغير ، والتصدية : التصفيق . وفي الخبر لابن حبيب صورٌ لتبليياتهم وتهليلاتهم في الجاهلية^(٤) . ويقول المسعودي : « لم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النَّصْبُ^(٥) » . وربما كان في اشتقاق هذه الكلمة ما يدل على أن هذا ضرب من النشيد الديني حول الأوثان ، وفي الحديث : « كلهم كان ينصب » أي يغني غناء النَّصْبِ^(٦) .

وفي هذا العصر لم تكن فكرة الحريم قد ظهرت ، فكان النساء يتمتعن بما يتمتع به الرجال ، وكن يشتركن في الغناء على شكل جوقات وخاصة في الأعراس إذ كن يعزفن على الدفوف والمزامير^(٧) ، وفي الحروب إذ كن ينشدن أناشيد حربية لتحسيس الجيش . وما يُروى في هذا الصدد أن هنداً بنت عتبة وجماعة من نساء قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد ، وكانت هند تنشد الشعر ، وكن يَرْدُدْنَ عليها^(٨) . وكان من الفنون الخاصة بالنساء في الجاهلية واشتهرت فيها هند بنت عتبة النواحُ وندب الموتي^(٩) .

وبجانب هند وصواحيها القرشيات نجد أحاديث كثيرة عن القيان في مكة :

- | | |
|-------------------------------------|---|
| (١) دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٣/١ . | (٧) الطبرى ١١٢٦/١ . |
| (٢) طبرى ١٣٠٧/١ . | (٨) الطبرى ١٤٠٠/١ . |
| (٣) دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٠/٢ . | (٩) أغاني طبع دار الكتب ٢١٠/٤ . وانظر أيضاً |
| (٤) الخبر ص ٣١١ . | أغاني طبع بولاق ٨٨/١٩ وما بعدها والمفضليات |
| (٥) المسعودي ٩٣/٨ . | ص ٢١٥ . |
| (٦) أنظر مادة نصب في لسان العرب . | |

ويتعمق ذكرهن في تاريخها القديم ، حتى ليزعم الرواة أن عاداً وقُدت في أيام العماليق وفدأ يستقي لها من مكة ، فلما وصل الوفد إلى مكة أقبل على الشراب واللهو والسماع إلى غناء الجرادتين ، وكانتا قيتتين لمعاوية بن بكر^(١) . وكان عند عبد الله بن جُدعان قبيل الإسلام قيتان سماهما الجرادتين ، وكانتا تغنيان الناس ، وقد وهبهما لأمية ابن أبي الصلت الثقفي ، وكان امتدحه^(٢) . وفي الأغاني أن أبا سفيان « نصح قريشاً أن ترجع في غزوة بدر ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى بدرأ ، فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام ونُسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب^(٣) » .

وكل هذه النصوص تدل على أن القيان كنّ كثيرات في مكة في أثناء العصر الجاهلي . ويروي الزمخشري في الكشف أن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قيته ، فيقول : « أطعبيه واسقيه وغنيّه » ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد^(٤) .

وهنا يختلف الباحثون فيقول ليال إن هؤلاء القينات كنّ إما فارسيات وإما يونانيات من سوريا ، وكن يتغنين أشعاراً عربية ولكن بالحن أجنبية ، ويزعم فون كريم أن هؤلاء القيان كنّ يغنين بلسانهنّ الفارسي أو اليوناني^(٥) ، ولعله ذهب هذا المذهب لقول حسان بن ثابت إنه رأى عند جبلة بن الأيهم « عشرين قيان : خمساً روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة^(٦) » . ولكن هذا إن صدق في بلاط جبلة فإنه لا يصدق على مكة وغيرها من قرى الجزيرة وبواديها ، بل إن الأخبار كلها التي تدور حول هؤلاء القيان تدل على أنهن كنّ يتغنين باللسان العربي ، وقد غنت إحداهن شعراً للناطقة فيه إقواء ، ودلّته بصوتها على موضعه^(٧) . وكانت جرادتا عبد الله بن جدعان تغنيانه بشعر أمية بن أبي الصلت فيه^(٨) .

(١) الطبري ٢٣٣/١ والمسمودي ٢٩٦/٣ حيث الحديث .

(٥) أنظر هنا Farmer, A Hist. of Arabian Music (London 1929) p. 12 يزعم أن اسم إحداهما ثماد والثانية قعاد .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٧/٨ .

(٣) أغاني ١٨٣/٤ . وأنظر الطبري ١٣٠٧/١ (٦) أغاني طبع بولاق ١٥/١٦ .

(٧) أغاني طبع بولاق ١٦٤/٩ . (٨) أنظر تفسير الكشاف في سورة لقمان وتعليقه على

الآية الكريمة : « ومن الناس من يشتري هو (٨) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٨/٨ وما بعدها .

ومهما يكن فقد كان الغناء منتشرًا في مكة في أثناء العصر الجاهلي ، وكان يشترك فيه نساء قريش وهذه العناصر الأجنبية من القيان . ويظهر أن الرجال كانوا يشتركون فيه أيضاً ، فحسان بن ثابت يروى أنه كان يفد على جبلة بن الأيهم من يغنيه من مكة^(١) ، ويروى المسعودي أن النضر بن الحارث قدم العراق فتعلم ضرب العود والغناء عليه . ثم قدم مكة فعلم أهلها فاتخذوا القينات^(٢) . واتخذ القينات هنا معناه المبالغة فيه .

ونرى من ذلك كله أن موجة حادة من الغناء اكتسحت مكة في العصر الجاهلي ، حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى العراق فيطلب تعلم الغناء ثم يعود فيعلمه قومه . وهذا دليل نهضته ، وإن كنا لا نستطيع أن نتحقق منها ، إذ ليست عندنا صور من غناء القوم ، تدل على مدى ما اتخذوه من رسوم في غنائهم . على أننا نميل إلى أن الغناء بمكة في هذا العصر الجاهلي لم تُرسم له قواعد ، إنما كان المغنون والمغنيات والقيان ، كل يغني حسب ذوقه وميوله وعواطفه . إذ كان العرب لا يزالون أقرب إلى الفطرة في كل فنونهم .

٢

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لا تكاد الحوادث والشخصيات تتضح في مكة في أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ومن أجل ذلك تقلّ النصوص عن حركة الغناء حينئذ . غير أن المعقول أن أدواته ومعاذفه لم تحطم بعد الفتح بسبب بسيط ، وهو أن الإسلام لم يحرم الغناء ، فلم يرد في القرآن الكريم نص صريح ضده . وذهب بعض المفسرين^(٣) إلى أن قوله تعالى في سورة فاطر : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) ، إنما يشير إلى الصوت الحسن ، وفي سورة لقمان : (إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) .

(٣) انظر تفسير البيضاوي للآية الكريمة .

(١) أغاني ١٥/١٦ .

(٢) المسعودي ٩٣/٨ .

وإذا تركنا القرآن الكريم إلى الحديث الشريف وجدنا الغزالي كما مر بنا في حديثنا عن الغناء في المدينة لعصر الرسول والخلفاء الراشدين يعقد فضلاً طويلاً في إحيائه للسمع والغناء ، وقد برهن بأحاديث كثيرة على إباحته ، وقال إنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس .

وأكبر الظن أن الغناء ظل بمكة في أثناء عصر الرسول واستمرّ ونما في عصر الخلفاء الراشدين ، فقد أقبلت أسلاب الفتوح الإسلامية ومغانمها على الحجاز في عهد أبي بكر وعمر ، وأقبل معها كثير من الرقيق الأجنبي . ولا نصل إلى عصر عثمان حتى نشعر أن حياة العرب على وشك التحول إلى الترف وما يتبع الترف من هو وملاه ، فقد فتحت البلدان ، ومُصِّرَت الأمصار ، وعاد كثير إلى ديارهم في الحجاز : مكة وغيرها ، ولم يعودوا فارغين ، وإنما عادوا وحجورهم مملوءة بالمال ، فبنوا القصور على مثال ما رأوا في الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وحشدوا فيها الأسرى من فرس وروم ، وأخذوا يستبدلون بحياتهم القديمة حياة جديدة ، فيها تأثر واضح بألوان الحضارة الأجنبية ، كما أخذوا ينمون الفن القديم في بيئتهم ، فن الغناء ، وكان كثير منهم يجلب معه بعض المغنين أو بعض المغنيات ، ومن طريف ما يروى أن عبد الله بن عامر وإلى البصرة لعثمان اشترى جوقاً من الإماء الصنّاجات (١) . وكما قدمنا ليست حوادث مكة وشخصياتها واضحة في هذا العصر ، عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ولذلك لا تتضح لنا في سهولة حركة الغناء فيها حينئذ وما نالته من رقي وحظيت به من تقدم تحت تأثير العناصر الأجنبية الجديدة المجلوبة من الفتوحات ، إذ تختفي ظروف الحياة وشخصياتها في هذه الحقبة بمكة وراء ظروف الحياة وشخصياتها في المدينة العاصمة . غير أن ما كثر في المدينة حينئذ من مغنين ومغنيات جلبوا من الخارج يدل على أن مكة هي الأخرى شاركتها في هذا الجانب ، وخاصة منذ عصر عثمان ، إذ أخذ المسلمون يخطون خطوات واسعة نحو الترف والمتاع ببعض الملامى .

في العصر الأموي

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الغناء كان أهم شيء في الحياة بمكة وغيرها من مدن الحجاز في أثناء العصر الأموي ، فقد أقبل الناس عليه إقبالاً شديداً ويخيل إلى الإنسان أن أيام الناس ولياليهم كلها أصبحت غناء ، ففي كل مكان وفي كل زمان لا نسمع إلا أحاديث الغناء والمغنين .

ويزعم المسعودي أن الغناء لم يتم في مكة والمدينة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية^(١) . وهذا غير صحيح إلا إذا سلمنا بأن يزيد هو الذي أشاع الغناء هناك ، وقد رأينا الغناء منذ العصر الجاهلي ، ووجدناه مستمراً في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . والصحيح أن الغناء أخذ في النمو بمكة والمدينة جميعاً تحت تأثير العناصر الأجنبية التي جلبها الفاتحون هناك ، منذ عصر عثمان . ويؤكد ذلك أننا لا نصل إلى مفتتح العصر الأموي حتى نجد مغنين مشهورين ، يتقنون الغناء على أصول نظرية عربية حديثة ، وهي نظرية لم تتم فجأة ، بل أخذت تكونها مدة طويلة من الزمن . ولذلك كنا نظن ظناً أن الغناء بدأ في النمو منذ عصر عثمان ، لا عصر يزيد ابن معاوية كما يقول المسعودي .

ونحن لا نكاد نتقدم في العصر الأموي حتى نجد لمكة مغنين مشهورين من مثل ابن مسجّع وابن مُحَرَّز وابن سُرَيْج والغريص ويحيى قَيْل والأبجر ، وغيرهم كثير . ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج لا يزال يجد من حين لآخر اسم مغنٍ مكِّي أو مغنية مكبية من مثل بَغُوم وأسماء وكانتا أُمَيتين عند عمر بن أبي ربيعة^(٢) ، ومثل سُمَيَّة وكانت أمة في دار الثريا بنت علي الأموية^(٣) ومكة لا تشتهر هذا العصر بدور كبيرة للمغنيات مثل دار عَزْرَةَ الميلاء في المدينة ، وكذلك دار جميلة التي

(٣) أغاني ٣٥٩/٢ .

(١) المسعودي ١٥٧/٥ .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ١٦٥/١ .

خَرَجَتْ كثيراً من المغنيات . وينبغي أن نلاحظ أن أكثر المغنيات اللاتي اشتهرن في دار جميلة كن يزرن مكة وخاصة في مواسم حجها ، وذهبت جميلة في أحد المواسم - كما مرَّ بنا في حديثنا عن المدينة وأنها أهم مراكز الغناء في العصر الأموي - وكان معها الفَرَّهَة وعَزَّة الميلاء وحَبَابَة وَسَلَّامَة وخُلَيْدَة وَعُقَيْلَة والشَّامِسيَّة وفرَّعه وبلبلَة ولذَّة العيش وسُعيدَة والزرقاء ، ثم خمسون قينة لأهل المدينة خرجن معها لكي يأخذن عنها بعض الغناء .

وقد يكون من المبالغة أن نفصل في هذا العصر بين المغنين والمغنيات في مكة والمدينة ، فدائماً كان هناك اتصال ، ودائماً كان مغنى مكة يذهب إلى المدينة ، ومغنى المدينة يذهب إلى مكة . فطويس وسائب خاثر ومعبد وابن عائشة ومالك الطائي وعطرْد ، كل هؤلاء كانوا يزورون مكة ويغنون فيها ، وكذلك كان يزور المدينة ويغنى فيها ابن مِسْجَح وابن محرز وابن سُرَيْج والغريص والأبجر ويحيى قَيْل ، وغيرهم . ولم يكن هذا شأن المغنين وحدهم ، فقد كان أيضاً شأن المغنيات بل كان شأن الناس أنفسهم ، فكل شاعر مكى مشهور نجد في أخباره أنه زار المدينة ، وكل شاعر مشهور في المدينة نجد كذلك في أخباره أنه زار مكة . ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلدين ضاحية للأخرى ، أو كأنما كانت بينهما مرحلة واحدة . وكان هذا سبباً في اختلاط النصوص على بعض الباحثين ، فلم يكادوا يميزون في شاعر مثل عمر بن أبى ربيعة بلدته التي كان يعيش فيها أمى مكة أو المدينة لكثرة أخباره في البلدين جميعاً . ومن الطُّرُف التي تصوِّر ذلك من بعض الوجوه أن نجد سَلَّامَة المغنية المشهورة التي خرَّجتها جميلة ، والتي ابتاعها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار لا يشتهر بها وبحبها أحد سكان المدينة ، وإنما يشتهر بذلك أحد قُرَّاء مكة ويسمى عبد الرحمن بن أبى عَمَّار الجُشَمِيّ ، وكان يلقب بالقسِّ لعبادته ، سمعها في المدينة ، وربما في مكة ، فتعلق بها وشغف حباً ، وراح ينظم - كما مرَّ بنا - فيها أشعاره .

ولا يستطيع أن يفهم مدى ما كان من نهضة في الغناء واتساع به في مكة والمدينة جميعاً إلا مَنْ يرجع إلى كتاب الأغاني ويقرأ فيه أخبار المغنين والمغنيات هناك ومواكبهم ودورهم ونواديهم . ومن الدور والنوادي الشهيرة في مكة دار كانت ببعض

أطرافها ، وكان يأتيها ابن سُرَيْج والغريص في كل جمعة ، ويجتمع لهما ناس كثير من مكة ، ويوضع لكل منهما كرسي يجلس عليه ، ثم يغني كل منهما صوتاً ، أو كما نقول الآن دوراً^(١) . وكانت كل دار لمغنٍّ تعدّ نادياً من نوادي الغناء ، فهو يستقبل فيها من يريدون سماعه^(٢) ، وكذلك كانت بعض دور الأشراف والشرىفات تعدّ كأنها نواد ، كدار ابن أبي ربيعة الذي كان يلزمه المغنون وعلى رأسهم ابن سُرَيْج وكان هو نفسه يشتري القيان والإماء المغنيات ، ومثل دار الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية ، وقد تخرج فيها الغريص ويحيى قَيْل وسُمَيْة^(٣) . وكان المغنون يقصدون إلى بعض دور الأشراف فيغنونهم ، كما كانوا يقصدون إلى بعض نواديهم « وكانوا يظهرون في الأعراس وفي حفلات الختان^(٤) . وكانوا يكثر من الوقوف في طريق الحاج^(٥) ، وعلى أبي قُبَيْس^(٦) وأخشَب^(٧) مَنى وعند بستان^(٨) ابن عامر « فركب الحاج بعضهم بعضاً ، ويُحبسون عن مناسك الحج ومشاعره « وكانوا يقفون أحياناً بين المازمين^(٩) ، وعلى كَثَب من التنعيم^(١٠) وكانت تضطرب المحامل وتمتدّ الإبل أعناقها .

واندفع الناس في مكة يعجبون بهذا الغناء ، ومعهم الفقهاء ، وعلى رأسهم عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس ، ويروى الرواة أنه ختن ابنه واستدعى في ختانه الغريص وابن سُرَيْج^(١١) ، كما يروون أنه لقي ابن سُرَيْج بذي طوى فأسمعه صوتاً ، فلما سمعه « اضطرب اضطراباً شديداً ودخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بالشعر الذي غنى فيه ابن سُرَيْج ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه سائلاً عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار لا يجيبه إلا

-
- (١) أغاني طبع دار الكتب ٢٧٦/١ .
 (٢) أغاني ٣٦٨/٢ .
 (٣) أغاني ٣٥٩/٢ .
 (٤) أغاني ٢٧٨/١ .
 (٥) أغاني ٢٥٩/١ .
 (٦) أغاني ٣٦٢/٢ .
 (٧) أغاني ٢٩٣/١ وأخشَب مَنى إما أبو قُبَيْس (١١) أغاني ٢٧٨/١ وانظر ٣٤٨/٢ .
 (٨) أغاني ٣١٦/١ .
 (٩) أغاني ٣٤٥/٣ والمآزمان : مضيقا جبلين بمكة .
 (١٠) أغاني ٣٤٦/٣ والتنعيم : موضع على فرسخين من مكة .

بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صَلَّى المغرب^(١) .
ومثل عطاء في الإعجاب بهذا الغناء واسترواحه ابن جريج ، قال داود المكي :
« كنا في حفلة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدة
من العراقيين إذ مرَّ به ابن تَيْزَن المغني وقد اثترر بمَثَرَر على صدره ، وهى إِزْرَةٌ
الشطَّار عندنا » فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تسمعني ، قال : إني
مستمعجل ، فألح عليه ، فقال له : امرأتى طالق إن غنيتك أكثر من ثلاثة أصوات ،
فقال له : ويحك ! ما أعجلك إلى اليمين ! غنني الصوت الذي غناه ابن سريج
في اليوم الثاني من أيام منى على جمرة العقبة ، فغني ، فقطع طريق الذهاب
والجائي حتى انكسرت المحامل ، فغناه : [عوجى على فسلى جبر] فقال له
ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ، ويحك ! أعدّه . قال : من الثلاثة
فإني قد حلفت ، قال : أعدّه فأعاده ، فقال : أحسنت ، فأعده من الثلاثة .
فأعاده وقام ومضى ... والتفت ابن جريج إلى أصحابه ، فقال : لعلكم أنكرتم
ما فعلت ؟ فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال : فما تقولون في الرجز
يعني الحُداء ؟ قالوا : لا بأس به عندنا ، قال : فما الفرق بينه وبين الغناء^(٢) ؟ .
والفرق في الواقع كان فرق ذوق ، إذ كان أهل العراق في هذا العصر ينبذون الغناء
ويطرحونه^(٣) ، ولم يُعرف لهم مغنٍّ مشهور في العصر الأموي سوى حنين^(٤) ، وكان
ذوقه محافظاً ، فكان لا يعنى إلا النَّصَب^(٥) .

وكما كان فقهاء مكة يُعجبون بالغناء كان يعجب به كذلك قضاتها وعلى رأسهم
الأوقص المخزومي ، ويظهر أنه التحق بدور المغنين في أول حياته ، فقد حكى عن
أمه أنها قالت له : « إنك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان في بيوت
القيان » فعليك بالدين فإن الله يرفع به الخسيصة ، ويتم به النقيصة^(٦) . فكان
ذلك سبب انصرافه عن الغناء . ويقول أبو الفرج : « ولي قضاء مكة الأوقص
المخزومي ، فما رأى الناس مثله في عقافه ونبله ، فإنه لثائم في جناح له إذ مرَّ به

(٤) أغاني ٢/٣٤١ .

(٥) أغاني ٢/٣٥٢ .

(٦) ابن عبدربه ٣/٢٣٤ .

(١) أغاني ١/٢٥٧ .

(٢) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) ابن عبدربه ٣/٢٣٢ .

سكران يتغنى [عوجى علينا ربة الهودج] فأشرف عليه فقال : يا هذا شربت حراماً ! وأيقظت نياماً وغنيت خطأ ! خذه عنى ! فأصلحه له ، وانصرف^(١) .

ولعل فى هذا ما يدل على أنه لم يبق أحد فى مكة إلا وكان يُعَجَّبُ بالغناء ، وأخذ هذا الإعجاب يتزايد مع مر الزمن ، إذ كان المغنون أو قل كانت جمهورهم فى أول الأمر من فئة المختئين ، وهى فئة كانت تخضب أيديها وتلبس ملابس النساء^(٢) ، وشدد نافع بن علقمة والى مكة لعبد الملك وابنه الوليد فى طلب هؤلاء المختئين^(٣) . غير أنا لا نمضى فى العصر الأموى حتى نجد هذه الفئة تضعف تدريجاً ، وحتى نجد الغناء يصبح عملاً ممتازاً وحتى نرى بعض العرب يشتركون فيه بجانب الموالى الذين استبدوا به فى أول الأمر .

ولسنا ندري أكان للمغنين بمكة فى هذا العصر ما يشبه النقابة أولاً ؟ ولكن على كل حال كانت بينهم زمالة يحترمونها وأخذوا ينشرون فى جو مكة المرح والدعابة . روى أبو الفرج أن ابن أبى عتيق خرج على نجيب له من المدينة حمّله من طرف المشارب^(٤) ، وغير ذلك ، فلقى قتي من بنى مخزوم مقبلاً من بعض ضياعه ، فقال : يا ابن أخى أتصحبنى ؟ قال : نعم ، قال المخزومى : فمضينا حتى إذا اقتربنا من مكة جئنا عنها حتى جُزئنا ، فصرنا إلى قصر ، فاستأذن ابن أبى عتيق ، فأذن له ، فدخلناه ، فإذا رجل جالس كأنه عجوز بربرية مختضبة ، لا أشك فى ذلك ، وإذا هو الغريض وقد كبر ، فقال له ابن أبى عتيق تشوقنا إليك ، وأهدى له ما كان معه ، ثم قال له : نُحب أن نسمع ، قال : ادعُ فلانة - جارية له - فجاءت فغنت ، فقال ما صنعت شيئاً ، ثم حلّ خضابه وغنى « عوجى علينا ربة الهودج » فما سمعت أحسن منه قط ، فأقمنا عنده أياماً كثيرة ، وخجّازه قائم وطعامه كثير . ثم قال له ابن أبى عتيق إني أريد الشخصوص ، فلم يبق بمكة تحفة عدنى ولا يمان ولا عود إلا حمّله على راحلته ، فلما ارتحلنا وبرزنا صاح به الغريض ، فرجعنا

(١) أغاني ٣٦٧/٢ . أغاني ٢٧٣/٤ .

(٢) انظر أغاني ٢٤٩/١ وكذلك ص ٢٥٢ ، (٣) أغاني طبع بولاق ٢٠/١١ .

٢٥٦ وانظر أغاني ٣٦٠/٢ وكذلك ٣٦٨/٢ وكذلك (٤) المشارب : ما يشرب فيه من آنية .

إليه ، فقال : ألم تروا أنه « يحشر من بقيتنا هذا سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر » ؟ فقال له ابن أبي عتيق : بلى ، فقال : هذه سن لي انتزعت ، فأحب أن تدفنها بالبقيع ، فخرجنا والله أخسر اثنين لم نعتمر ولم ندخل مكة ، حاملين سين الغريض حتى دفناها بالبقيع ^(١) . وعلى هذا النحو كان الغناء يُشيع في مكة في أثناء العصر الأموي جواً ، كله مرح ودُعاة .

٤

الغناء المتقن

ليس كل ما يلاحظ على الغناء لهذا العصر كثرة العاملين فيه من الموالى ، فنحن نلاحظ أنه ارتقى ضرورياً من الرقى ، بل لقد استطاع المغنون أن يحدثوا نظرية الغناء العربي المعروفة التي نقرأها في كتاب الأغاني . وبذلك أصبح - كما مر بنا في حديثنا عن الغناء بالمدينة - في ستة ضروب ، وهي : ثقیل أول ، وثقیل ثان ، وخفيف الثقیل ، وزمّل ، وخفيف الرمل ، وهزج . ومرجع هذه الضروب إلى نوع النقرات فقد تكون ثقيلة ، وقد تكون خفيفة ، وقد تكون مزيجاً من الثقل والخفة . وميّزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع ، فقالوا ثقیل أول بالبنصر ، أو من خفيف الثقیل الأول بإطلاق الوتر في مجرى البنصر ، أو يقولون زمّل بالسبابة في مجرى البنصر ، ونحو ذلك مما يزخر به كتاب الأغاني .

وكان للمغنين في مكة أثر بعيد في نشوء هذه النظرية الغنائية . يقول ابن رشيق وقد عرض للغناء عند العرب في الجاهلية والإسلام : « وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصْب والسَّاد والهَزَج ... حتى جاء الله بالإسلام ، وفتحت العراق ، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم ، وتغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية »

وغنوا جميعاً بالعبدان والطنائير والمعارف والمزامير^(١) . وابن رشيق يريد أن يقول :
 إن النظرية الغنائية عند العرب حدثت تحت تأثير الموالى الذين جلبوا من الخارج ،
 وأتوا معهم بالغناء المجزأ الفارسي والرومي . ويقول أبو الفرج في ترجمة ابن مسجح
 شيخ المغنين في مكة وأستاذهم : « أول من نقل الغناء الفارسي من
 الفارسي إلى الغناء العربي سعيد بن مسجح مولى بني مخزوم . وذلك
 أن معاوية بن أبي سفيان لما بنى دوره التي يقال لها الرُّقْطَ حَمَلَ لها بُنَاتَيْنِ فرساً
 من العراق فكانوا يبنونها بالحصّ والآجر ، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم ، فيسمع
 من غنائهم على بُنَاتِهِمْ ، فما استحسّن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربي ،
 ثم صاغ على نحو ذلك^(٢) » وقال أبو الفرج في موضع آخر : « إن أول من غنى
 هذا الغناء العربي (يقصد الغناء المتقن) بمكة ابن مسجح ، مولى بني مخزوم ،
 وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غنائهم بالفارسية ، فقلبه
 في شعر عربي وهو الذي علّم ابن سُرَيْج والغريص^(٣) » وقال أبو الفرج أيضاً :
 « سعيد بن مسجح مكى أسود مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم ، وأول
 من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى
 الشام وأخذ ألحان الروم والبَرْبَطِيَّة والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس ، فأخذ
 بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ،
 وألقى منها ما استقبّحه من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم
 خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك
 ولحنه ، وتبعه الناس بعده^(٤) » .

وهذه نصوص صريحة في أن الغناء المتقن الذي ظهر في العصر الأموي لم
 يتم له هذا التحول بمؤثرات عربية خالصة ، وإنما تم له بمؤثرات أجنبية ، فهذا
 ابن مسجح أستاذ المغنين في مكة يأخذ عن الغناء الفارسي الذي كان يغنيه البناؤون
 الذين جلبهم معاوية لبناء دوره والآخرين الذين جلبهم ابن الزبير لبناء الكعبة .

(٣) أغاني ٢٧٦/٣

(٤) أغاني ٢٧٦/٣

(١) ابن رشيق ٢٤١/٢

(٢) أغاني ٢٨١/٣

ولا يكتفى بذلك « بل نراه يرحل إلى الشام ليتلمذ على المغنين هناك ويأخذ عنهم ألحانهم وإيقاعاتهم ، كما يرحل إلى بلاد فارس فيتلمذ هناك أيضاً على المغنين ويتعلم الضرب والإيقاع على الأدوات الموسيقية المختلفة . ثم يعود إلى مكة ، فينهض بالغناء العربي نهضة واسعة ، يخرج من دور البساطة القديم إلى دور جديد هو دور الغناء المتقن . ويظهر أن مغنين مختلفين ارتحلوا ، مثل ابن مسجح ، إلى بلاد الروم وفارس في طلب الغناء الأجنبي ، فقد روى أبو الفرج في ترجمة ابن مُحَرَز أنه « كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عَزَّة المِثْلَاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر » ثم شخص إلى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غنائهم ، ثم صار إلى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غنائهم . فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين ، وأخذ محاسنها ، فمزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب . فأتى بما لم يُسمع مثله ، وكان يقال له صَنَّاج العرب (١) .

وأظن في هذا كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الغناء المتقن إنما تم تحت تأثيرات أجنبية . وينبغي أن لا نبالغ في ذلك ، فإن ابن مسجح وابن مُحَرَز « ومن لفَّ لَفَّهُما من المغنين لم ينقلوا نقلاً النظريات الغنائية عند الأمم الأجنبية وإنما نقلوا بعض ألحان وبعض إيقاعات . وهذا هو معنى قول أبي الفرج عن ابن مسجح : إنه أتى ما استقبحه من النبرات والنغمات الفارسية والرومية مما يُعدُّ خارجاً عن غناء العرب ، وكذلك قوله في ابن مُحَرَز : إنه أسقط ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم .

ومعنى ذلك أننا نزعم أن ابن مسجح وابن مُحَرَز في مكة استطاعا أن ينفذا مع زملائهما من المغنين في المدينة إلى نظرية جديدة هي من تأليفهم جميعاً ، وهي تلك النظرية التي أشرنا إليها آنفاً والتي تحكمت في تاريخ الغناء العربي على مر العصور . إذ نجد كتاب الأغاني يطفح بكلمات ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف الرَّمَل وهلم جراً . وهذا هو معنى قول أبي الفرج إن ابن مسجح أول من غنى على المذهب ،

يريد مذهب هذه النقرات « أو نظرية هذه النقرات التي سجلها في كتابه » وما يطوى فيها من أصابع .

وإذن فنظرية الغناء العربي التي نقرؤها في الأغاني ليست أجنبية ولا مجلوبة من الخارج ، إنما هي عربية صُنعت في الحجاز ، صنعها هؤلاء الموالى تحت تأثيرات أجنبية ، ولم ينقلوها نقلاً من لدن الأجانب . ولعل من أهم ما يدل على ذلك أن الأسماء التي تشيع فيها من رَمَل وهَزَج وثَقِيل وسَبَّابة وبنصر وخنصر ونحو ذلك عربية . والذين استحدثوها على الرغم من أنهم من الموالى وُلدوا ونشأوا في جزيرة العرب « وغَنُّوا أولاً بالغناء العربي ، ثم تأثروا بالغناء الأجنبي : الفارسي أو الرومي . أما ما يقوله ابن خَرْداذبَه من أن العرب نقلوا الإيقاع في غنائهم من الفرس نقلاً^(١) فليس عليه دليل » وخاصة إذا لاحظنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن في الشعر ، فقد نقلوها هم عن العرب . ويقول صاحب الأغاني في أول كتابه : « إنه سيذكر اللحن وعروضه ، فإن معرفة أعاريض الشعر توصل إلى معرفة تجزئته وقسمته ألحانه^(٢) » وفي هذا ما يدل على أن نظرية الغناء التي استحدثها المغنون في مكة والمدينة لهذا العصر أسست إلى حد ما على عروض الشعر العربي نفسه ، وهذه العروض لم تنقل من الخارج . وقد كتب أبو العلاء فصلاً طريفاً عن الألحان في الغناء تحدث فيه عن ضروب الإيقاع السابقة التي سميناها وهي : الثقيل الأول والثقليل الثاني وخفيف الثقيل والرمل والهزج ، وضبط الثقيل الأول بثلاث نقرات متساويات الأوزان ، وقاسه على مثال مفعولن ، في حين قاس الثقيل الثاني على مثال مفعولان « وقاس خفيف الثقيل على مثال مفعولان أيضاً ولكن بسكون النون ، أما الرَّمَل فقاسه على مثال لان مفعو أو كما يقول العروضيون فاعلاتن ، وأما الهزج فقاسه على مثال قال لى أو كما يقول العروضيون فاعلن^(٣) .

ويوضح هذا الفصل الصلة بين عروض الشعر العربي والغناء الجديد الذي استحدثه المغنون في مكة والمدينة والذي كان يوقَّع على هذا الشعر . ولعل في ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن نظرية الغناء الجديدة في مكة لم تنقل نقلاً من لدن

(٣) الفصول والغايات ص ٨٨ .

(١) السعدي ٩٠/٨ .

(٢) أغاني ١/١

الأجانب ، وليس معنى ذلك أننا ننكر التأثير الأجنبي ، فالتأثير شيء والنقل شيء آخر .

على أن في هذا الرأي نفسه ما يرفع من شأن المغنين حينئذ ، وأنهم استطاعوا حقاً بفضل ذكائهم وقدرة أيديهم وأذنانهم وأذهانهم أن يحدثوا للعرب هذه النظرية الدقيقة التي تحكمت فيمن بعدهم قروناً طويلة . ومن يرجع إلى كتاب الأغاني يلاحظ أن ابن مسجح كان يُعنى في غنائه بالضروب الثقيلة^(١) ، في حين عُنى ابن محرز بالضروب الخفيفة^(٢) . وينقل أبو الفرج عن إسحق الموصلي أن أباه قال له : « أول من عُنى الرمل ابن محرز وما عُنى قبله ، فقلت له : ولا بالفارسية ؟ قال : ولا بالفارسية . وأول من عُنى رملاً بالفارسية سلمك في أيام الرشيد » استحسن لحناً من ألحان ابن محرز فنقل لحنه إلى الفارسية وعُنى فيه^(٣) . وواضح من هذا النص أن ابن محرز أول من عُنى هذا الضرب الخفيف المسمى بالرمل ، وواضح فيه أيضاً أنه ضرب عربي خالص لم يكن للفرس ضرب على مثاله « بل لقد نقلوه في وقت متأخر عن العرب . وهذا نفسه يمكن أن يقال عن الضروب الأخرى السابقة .

ومهما يكن فإن التأثير الأجنبي في الغناء المكى لهذا العصر إنما وقف عند النغم في الأصوات وعند بعض الألحان والإيقاعات . أما بعد ذلك فنظرية الغناء العربي جديدة ، وهي من عمل هؤلاء المغنين الذين برعوا في فهم براعة هائلة . واستمع إلى ابن سريج تلميذ ابن مسجح ، وقد سأله مالك الطائي المغنى عن قول الناس : « فلان يُصيب ، وفلان يخطئ » ، وفلان يحسن ؟ فقال : المصيب المحسن من المغنين هو الذى يُشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدّل الأوزان ، ويفخّم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقم الإعراب ، ويستوفى النغم الطويل ، ويحسن مقاطع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواقع النبرات ، ويستوفى ما يشاكلها في الضرب من النقرات^(٤) .

وهذا تصوير بدیع لوصف ما أصابوا من إحسان في غنائهم . ولعل هذا ما جعل

(٣) أغاني ٣٧٩/١ .

(٤) أغاني ٣١٥/١ .

(١) أغاني ٢٦٨/٣ = ٢٨٢ .

(٢) أغاني ٣٨١/١ .

الناس يتعلقون بهم وبفهمهم ، فقد أحسنوه إحساناً بلغ الغاية ، حتى لئرى الناس يتأثرون به تأثراً ، ينسيهم أنفسهم وقارهم . روى صاحب الأغاني أن ابن سُرَيْج مرَّ به عطاء وابن جُرَيْج ، فاستوقفهما ، فوقفا ، وغناهما . « إخوتي لا تبعدوا أبداً » فغشى على ابن جريج وقام عطاء يرقص^(١) . وإذا بلغ ابن سُرَيْج من تأثيره في عطاء وابن جُرَيْج الشيخين المحدثين هذا المبلغ ، فماذا كان مبلغ تأثيره في الآخرين ؟ لا بد أنه كان شديداً جداً . ونحن نسمع طرفاً كثيرة عن تأثر الناس بهؤلاء المغنين ، فمنهم من كان ينتف لحيته أو يحرقها ، أو يعلق نعله في أذنيه ، أو يشق ثوبه من شدة التأثر وروعة الغناء . واستمع جرير يوماً صوتاً من ابن سريج ، فقال : « الله دركم يا أهل مكة » ماذا أعطيتم ! والله لو أن نازعاً نزع إليكم لقيم بين أظهركم ، فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظاً ونصيياً^(٢) . واستمع الحارث ابن خالد المخزومي وإلى مكة لعبد الملك يوماً إلى الغريض تلميذ ابن سريج فقال له : « يا غريض ! لا لوم في حبك ، ولا عذر في هجرك ، ولا لذة لمن لا يروِّج قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن في ولايتي مكة حظٌ إلا أنت لكان حظاً كافياً وافياً ، يا غريض ! إنما الدنيا زينة ، وأزين الزينة ما فرَّج النفس ، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء^(٣) . ومن طريف ما يرويه أبو الفرج أن « الهذلي أحد المغنين في مكة كان نقاشاً يعمل البرم من حجارة الجبل ، فكان إذا أمسى غنى ، فلا يلبث الجبل أن يرى كقرص الخبيص صفرة وحمرة من أردية قریش ، فيقولون أعد ، فيقول : أما والله وهاهنا حجر أحتاج إليه لم يرد الأبطح ، فلا ، فيضعون أيديهم في الحجارة حتى يقطعوها له ويخدروها إلى الأبطح^(٤) » . ويقول أيضاً إنه كان يقول لهم : أنزلوا أحجارى ، فيلقون ثيابهم ويأثرون بأزهرهم وينقلون الحجارة وينزلونها^(٥) . وهكذا كان الهذلي بفضل غنائه يحول شباب قریش إلى حمالين وحجارين ! وحدث صاحب الأغاني عن ابن سُرَيْج أنه غنى في فنية من بنى مروان فطربوا ، وعظموه ، وتواضعوا له ، حتى صار في نفسه كأنه بمزلتهم ،

(٤) أغاني ٦٥/٥ .

(٥) أغاني ٦٧/٥ .

(١) أغاني ٣١٦/١ .

(٢) أغاني ٢٩٧/١ .

(٣) أغاني ٣٢٧/٣ .

ثم غَنَاهُمْ ثانية فطربوا ومثلوا بين يديه « ورموا بحُللهم كلها عليه » حتى غطوه بها .
فمَثَلَتْ له نفسه أنه الخليفة وأنهم له خدم ، ويقول : إنه لم يرفع طرفه إليهم بعد ذلك تِيهًا^(١).

وأخذت الدولة تعترف بهؤلاء المغنين وخاصة منذ الوليد بن عبد الملك الذى استقبل ابن سريج فى دمشق استقبالاَ حافلاً ، ولما غناه غطاه بالخلع وأهداه كيساً من الدنانير وبدرأ من الدراهم^(٢).

ويقال إن يزيد أخاه حج بالناس وسمع غناء ابن سريج فأعطاه حُلَّته وخاتمه^(٣).
ويروى أبو الفرج أن سليمان أخاهما حج فسَبَقَ بين المغنين يدرة ، والبدره : كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف دينار أو سبعة آلاف دينار « ونال الجائزة ابن سُرَيْج^(٤).
ولعل فى هذا كله ما يدل على أن الدولة أخذت تُعَيِّنُ هؤلاء المغنين وتشجعهم لإحسانهم فى قنهم « فهى تستقدمهم تارة ، وتحج فتستمع إليهم تارة أخرى ، ممثلة فى الخلفاء والأمراء .
وكان بلاط الوليد بن يزيد مكتظاً بمغنى الحجاز وعلى رأسهم مغنو مكة مثل يحيى قَيْل^(٥) والهلذلى والأبجر ، ويقال إنه حَجَّ ؛ وبينما هو يسير ليلة فى عسكره ، وإذا بصوت جميل ، فأشار لبعض من معه أن يقول : أعد الصوت ، فقال المغنى : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه ولجامه وأربعمائة دينار ، فنودى أين منزلك ؟ ومن أنت ؟ فقال : أنا الأبجر ومنزل على باب زقاق الخزازين . ففدا عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأربعمائة ونحت من ثياب ورشى وغير ذلك^(٦). وقد لزم الوليد حتى قُتِل .

ولا يرتاب كل من يقرأ أخبار هؤلاء المغنين فى أن منزلتهم أخذت ترتفع فى بلاط الخلفاء الروانيين حتى لِيُظَنُّ أنهم سبقوا الشعراء « فقد كانوا يغنون هؤلاء الخلفاء وينادمونهم ويعودون من عندهم وقد ملأوا حجورهم ذهباً وفضة . وهذا كله كان نتيجة تفوقهم فى قنهم وثمرة نبوغهم فى غنائهم .

(٤) أغاني ٣١٧/١ .

(١) أغاني ٣١٠/١ .

(٥) أغاني ٣٤/٧ وكذلك ٩٢/٧ .

(٢) أغاني ٣٠١/١ .

(٦) أغاني ٣٤٦/٣ .

(٣) أغاني ٢٥٨/١ .

أشهر المغنين

نبغ بمكة في هذا العصر كثير من المغنين ، وكتاب الأغاني يطفح بأسمائهم . وقد ترجم أبو الفرج لنفر منهم ، وسنقتصر في الحديث عنهم على مشهورهم إذ أثروا في الشعر الذي عاصروهم آثاراً عميقة . وأشهرهم حيثنذ ابن مسجح وابن مخرز وابن سريج والغريص والأبجر .

ابن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح ، وُلد في مكة ، وكان أسود مولداً ، وكان مولى بني جُمَح ، وقيل إنه مولى بني نوفل بن الحارث بن عبد المطلب^(١) . وهو أستاذ المغنين في مكة ، فعنه أخذ ابن مخرز^(٢) وابن سريج^(٣) . وهو أول من نقل الغناء الفارسي إلى الغناء العربي^(٤) ، وبذلك كان أول من أعد للنظرية العربية في الغناء . وبدأ ذلك في عصر معاوية^(٥) . وفي الأغاني أن « مولاة سمعه يتغنى ، فدعا به ، وقال له : يا بُنَيَّ أعد ما سمعته منك عليّ ، فأعاده ، فإذا هو أحسن مما ابتدأ به . فقال : أني لك هذا ؟ قال : سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية ، فتلقها ، وقلبتها في هذا الشعر . قال له : فأنت حرٌّ لوجه الله ، فلزم مولاة ، واتسع في غنائه ، ومهر بمكة ، وأعجبوا به لظرفه وحسن ما سمعوه منه^(٦) » .

وسبق أن قلنا إنه نقل هذا الغناء الفارسي إلى العربية ممن بنوا دور معاوية الرُقْط والكعبة لابن الزبير ، وقلنا إنه كان يذهب إلى البلاد الأجنبية ليتعلم الغناء فذهب إلى سوريا وفارس ، ثم عاد إلى الحجاز وقد تشبعت نفسه بضرورة التجديد في الغناء

(٤) أغاني ٢٧٦/٣ وانظر ٢٨١/٣ .

(٥) أغاني ٣٨١/٣ .

(٦) أغاني ٢٧٨/٣ وما بعدها .

(١) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٢) أغاني ٣٧٩/١ .

(٣) أغاني ٢٥١/١ .

العربي القديم . واستطاع أن ينفذ مع تلميذه ابن محرز من جهة ومغنى المدينة من جهة أخرى إلى هذه النظرية الجديدة التي نقرؤها في الأغاني ، والتي تنتهي أسانيدھا إلى هذا العصر .

وكان ذلك سبباً في شهرته . ويظهر أن جماعة من المتشددین رفعوا أمره إلى عبد الملك فأرسل إلى عامله على مكة أن يقبض ماله ويسيره إليه ، فتوجه ابن مسجح إلى الشام . ويقول أبو الفرج : إن رجلاً له جوار مغنيات صحبه في طريقه (١) ، ولعله أراد لمن أن يأخذن عنه ويتعلمن فنه في أثناء رحلته . وما زال حتى انتهى إلى دمشق ، وهناك تعرّف على أحد أقرباء عبد الملك فغنّاه ، وأعجب به إعجاباً شديداً ، حينئذ أفضى إليه ابن مسجح بما جاء به فقال له : « إني أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تحدّو ؟ قال : لا ، ولكني أستعمل حذاءً ، قال : فإن منزلي بحذاء منزل أمير المؤمنين ، فإن وافقت منه طيب نفس أرسلت إليك ، ومضى إلى عبد الملك » فلما رآه طيب النفس أرسل إلى ابن مسجح ، فأخرج رأسه من وراء شرف القصر ثم حدّا .. فقال عبد الملك للقرشي من هذا ؟ قال رجل حجازي قدم عليّ ، قال : أحضره . فأحضره له ، وقال له : احدُ مجدّاً . ثم قال له : تُغنّي غناء الرُكبان ؟ قال نعم . فقال : غنّه ، فتغنّى ، فقال له : فهل تغني الغناء المتقن ؟ قال : نعم ، قال : غنّه ، فتغنّى . فاهتز عبد الملك طرباً . ثم قال له : من أنت ؟ ويلك ! قال له : أنا المظلوم المقبوض ماله المسير عن وطنه سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ، ونفانى . فتبسم عبد الملك ، ثم قال له : قد وضع عذر فتیان قریش في أن ينفقوا عليك أموالهم ، وأمنه ووصله وكتب إلى عامله برّد ماله عليه وأن لا يعرض له بسوء (٢) . » ورجع ابن مسجح إلى مكة ، وأمضى فيها بقية حياته آمناً . ولا نجد له أخباراً مع أحد من خلفاء عبد الملك . ويقول صاحب الأغاني إنه عاش حتى لقيه معبد مغنى المدينة ، وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبد الملك (٣) .

(٣) انظر أغاني ٢٨٢/٣ وما بعدها .

(١) أغاني ٢٨٢/٣ .

(٢) أغاني ٢٨٢/٣ .

ابن مُحرز

هو أبو الخطاب مسلم (أو سلم أو عبد الله) بن مُحرز مولى بني عبد الدار ، وأصل أبيه من الفرس وكان من سَدَنَةِ الكعبة^(١). وقد تتلمذ ابن معمر لابن مسجع^(٢)، ولعزّة الميلاء^(٣)، فكان يذهب إليها في المدينة ، حيث يمضي هناك ثلاثة أشهر يأخذ عن مغنيها . وحياته الفنية طريفة ، فقد شخّص مثل أستاذه ابن مسجع إلى الشام وفارس ، فتعلم ألحان الروم والفرس جميعاً ، ثم أخضع الغناء العربي لبعض هذه الألحان ، على نحو ما كان يصنع أستاذه .

وكان لا يكتفى مثل ابن مسجع بما كان يقوم به في هذا الجانب ، بل كان يذهب إلى المدينة ، ليستمع إلى ما يُحدث المغنون هناك . ومعنى ذلك أنه كانت لديه رغبة شديدة في النهوض بفنه ، فكان يقيم بمكة ثلاثة أشهر ، ثم يرحلها إلى المدينة فيقيم بها ثلاثة أخرى ، ثم يمضي بقية عامه في الشام وفارس .

واشتهر بأنه أول من غنّى الرَّمْل ، وكذلك اشتهر بأنه لم يكن يغني إلا بزواج من الشعر^(٤) ، وغنّى في إحدى حفلات جميلة مغنية المدينة المشهورة صوتاً مؤلفاً من ثلاثة أبيات ، فقالت له : يا أبا الخطاب كيف بدا لك في ثلاثة وأنت لا ترى ذلك ؟ فقال أحببت أن أواسي مَعْبُداً^(٥)، وكان معبد سبقه إلى غناء ثلاثة أبيات ، فأحبّ أن يوافقه في ذوقه . وهذا يدل على رهاقة حس فيه .

وكان يقال له صنّاج العرب لإحسانه وجمال غنائه ، قال إسحق الموصلي قلت ليونس الكاتب : من أحسن الناس غناء ؟ قال : ابن معمر ، قلت : وكيف قلت ذلك ؟ قال إن شئت فسرت ، وإن شئت أجملت ، قلت : أجمل ، قال : كأنه خلّق من كل قلب ، فهو يغني لكل إنسان بما يشتهي ، وكان يُعدُّ أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا في الحجاز^(٦) .

(٤) أغاني ٣٧٩/١ .

(٥) أغاني ٢١٣/٨ .

(٦) أغاني ٣٨٠/١ .

(١) أغاني ٣٧٨/١ .

(٢) أغاني ٣٧٩/١ .

(٣) أغاني ٣٧٨/١ .

ويقول أبو الفرج كانت العلة التي مات بها الجذام ، فلم يعاشر الخلفاء ولا خالط الناس ، ثم يروى أن غناؤه لم يأخذه الناس عنه مباشرة ، وإنما أخذه عن جارية لصديق له من أهل مكة كانت تألفه ، فأخذه الناس عنها^(١) . ومع ذلك فنحن نجده يرحل مكة إلى الشام وفارس ودور المغنين والمغنيات في المدينة . ويروى أبو الفرج نفسه في موضع آخر من كتابه أنه كان يفد مع ابن مسجح وابن سُرَيْج والغريص على المدينة ، فيترجلون بدار جميلة ويتغنون فيها^(٢) . وربما أصابه هذا الجذام في أخريات حياته ، ولكن على كل حال لا نجد له أخباراً مع الخلفاء والأمراء .

ابن سُرَيْج

هو أبو يحيى عُبَيْد بن سُرَيْج مولى بني نوفل بن عبد مناف . وقيل بل مولى بني الحارث بن عبد المطلب ، وقيل بل مولى بني لَيْث وقيل بل مولى بني مخزوم^(٣) . وكان آدم أحمر ظاهر الدم خفيف العارضين في عينيه قبل^(٤) ، ولد في خلافة عمر ، وأدرك يزيد بن عبد الملك وناح عليه ، ومات في خلافة هشام^(٥) ، وقيل بل مات بعد قتل الوليد بن يزيد^(٦) . أخذ الغناء عن ابن مسجح^(٧) ، ورحل إلى المدينة فأخذ عن طويس^(٨) ، وكذلك أخذ عن نشيط الفارسي^(٩) مولى عبد الله بن جعفر ، وهو الذي أخذ عنه أهل المدينة الغناء الفارسي . ومعنى ذلك أن ابن سُرَيْج وإن لم يرتحل إلى بلاد فارس لأخذ الغناء الفارسي كما صنع أستاذه ابن مسجح ، فإنه ارتحل إلى المدينة لأخذه عن نشيط ، وإذن فهو أحد من تأثروا بالغناء الفارسي في ألقانه .

وظلَّ - على ما يظهر - خاملاً حتى كانت وقعة الحرَّة سنة ٦٢ للهجرة ، فعلا على أبي قُبَيْس ، وناح ، فاستحسن الناس نواحه . ويقال إن سَكِينَةَ بنت الحسين

- | | |
|-------------------------------------|-------------------------|
| (١) أغاني ٣٧٩/١ . | (٥) أغاني ٢٥٤/١ . |
| (٢) أغاني ١٨٨/٨ . | (٦) أغاني ٢٥٠/١ . |
| (٣) أغاني ٢٤٨/١ . | (٧) أغاني ٢٥١/١ . |
| (٤) أغاني ٢٤٩/١ والقبل : إقبال إحدى | (٨) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ . |
| الحدثين على الأخرى . | (٩) أغاني ٣٢١/٨ . |

بعثت إليه بشعر « أمرته أن يصوغ فيه لحناً يناح به ، فصاغ فيه لحناً ، قدمه على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف^(١) .

وما زال ابن سريج يقتصر على النياحة حتى ظهر الغريض وتفوق عليه في هذا الفن ، فتركه وعدل إلى الغناء^(٢) ، فبرع فيه ومهر ، وارتفع نجمه لا في مكة وحدها بل في الحجاز كله . وكان في أول أمره يغني مرتجلاً ويوقع بقضيب ثم غنى بالعود . وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وكان أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة^(٣) .

ولم يتقدم الزمن طويلاً بابن سريج حتى نال شهرة مدوية . قال إسحق : سألت هشام بن المُرِّيَّة وكان قد عُمِّرَ وكان عالماً بالغناء ، فقلت له : « من أحق الناس بالغناء ؟ فقال لي أنحب الإطالة أم الاختصار ؟ فقلت أحب الاختصار فقال : ما خلق الله تعالى بعد داود النبي عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج ، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحق منه بالغناء ، وبدلك على ذلك أن معبدأ كان إذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سُرَيْجُ^(٤) . وينقل إسحق عن أبيه إبراهيم أنه كان يقول : « غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد ، وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً ، وكان يقول : الغناء على ثلاثة أضرب ، فضرب مله مطرب يحرك ويستخف ، وضرب ثان له شجى ورقة ، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة ، وكل هذا مجموع في غناء ابن سريج^(٥) . وقال إبراهيم الموصلي أيضاً عن صوت سمعه لابن سريج : « ما سمعت هذا الصوت إلا أبكاني لأنني إذا سمعته أو ترنمت به وجدت غمراً على قوادي^(٦) . وسئل إسحق الموصلي عن غنائه وغناء ابن سريج فقال : « والله لقد أخذت بنخطام راحلته ، فزغزعتها ، وأنحتها . وقمت بها . فما بلغت^(٧) » وكان يقول : « أصل الغناء أربعة نفر : مكيان ومدنيان ، فالمكيان : ابن سريج وابن محرز ، والمدنيان معبد ومالك^(٨) .

(٥) أغاني ٢٩٠/١ .

(٦) أغاني ٢٧٠/١ .

(٧) أغاني ٢٥٢/١ .

(٨) أغاني ٢٥١/١ .

(١) أغاني ٢٥٥/١ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٥٥/١ .

(٣) أغاني ٢٤٩/١ وما بعدها .

(٤) أغاني ٢٥٦/١ .

وتعلق الناس به في عصره ، وخاصة أهل مكة حتى قال ابن تيزن المغني ،
وهو أحد غلمان ابن سريج : إذا أعجزك أن تُطرب القرشي فغَنِّ غناء ابن سريج
في شعر ابن أُمِّ ربيعة فإنك ترقصه^(١). ومَرَّ بنا أن عطاء سمع صوتاً له
فرقص . وكان يتصادف أن يغني في أثناء الحج فيحبس الناس عن مناسكهم .
ويقال إنه غَنَّى على أَخَشَب منى غداة النَّفَرِ صوتاً فارتفع حينئذ الناس وأنينهم^(٢) .
وأهداه شريف من أشرف الحجاج حُلَّة وخاتماً قيمتهما ألف وخمسمائة دينار^(٣).

وكان في ابن سريج رقة فكان لا يغني الناس صوتاً مُدح به أعداؤهم ولا صوتاً
عليهم فيه عار أو غضاضة^(٤). واستدعاه الوليد بن عبد الملك إلى بلاطه في دمشق ،
وأنزله في أحد قصوره ، وأجزل له في جوائزه ، وكان ابن سريج يغنيه في مديح
الشعراء له من مثل الأحوص وعدى بن الرُّقاع^(٥). ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم
قرب المغنين منذ الوليد إلى نفوس الخلفاء ، فقد كانوا يغنونهم في مدائحهم ،
وربما كان ذلك أهم الأسباب في أنهم أخذوا يظفرون من جوائزهم بما لم يظفر به
شعراؤهم ، ففرق أى فرق بين النشيد والغناء .

وترك ابن سريج ثلاثة وستين صوتاً كان يعرفها معرفة تامة إبراهيم الموصلي
وابنه إسحق^(٦). ويروى أبو الفرج أنه لما سمع مغنو مكة بسبعة معبد وشهرتها ،
وهي أصوات سبعة - كما مر بنا في غير هذا الموضع - سميت مُدَنَ معبد ، لحقتهم
لذلك غيرة ، فاجتمعوا ، فاختراروا من غناء ابن سُرَّيج سبعة ، فجعلوها بإزاء
سبعة معبد ، ثم خايروا أهل المدينة ، فانتصفوا منهم^(٧).

ولعل في هذا كله ما يدل على مدى إحسانه ومبلغ تفوقه ، وكان يغني خاصة
بالغناء الخفيف ، فكان أكثر غنائه من الأرمال والأهزاج^(٨) ، ولذلك كان يستخفه
الناس ، وكانوا يقولون كأن غناؤه خُلق من كل قلب^(٩).

(٦) أغاني ٢٦٨/١ .

(٧) أغاني طبع دار الكتب ٢٣٨/٩ .

(٨) أغاني ٢٦٧/١ .

(٩) أغاني ٢٥١/١ .

(١) أغاني ٢٨٣/١ .

(٢) أغاني ٢٩٣/١ .

(٣) أغاني ٢٦٢/١ وما بعدها .

(٤) أغاني ٢٩٦/١ .

(٥) أغاني ٢٩٧/١ وما بعدها .

الغريض

هو أبو يزيد أو أبو مروان عبد الملك^(١)، أما الغريض فَلَقَّبُ لُقَّبَ به لأنه كان نَصَرَ الوجه غَضَّ الشباب حسن المنظر . وكان مولداً من مولدى البربر ، وهو مولى الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية وأخواتها المعرفات جميعاً باسم العَبَلات^(٢). وهو خَرَّيج ابن سريج وتلميذه ، بدأ معه حين كان يحترف النياحة ، فإن مولياته ألحقته به لكي ينوح لمن على قتلاهم في الحرة^(٣). ولم يلبث أن تفوق على أستاذه في هذا الفن . ويقال إن ذلك - كما مر بنا - كان سبب عدول ابن سريج عنه إلى الغناء . وعدل الغريض معه إليه ، فكان ابن سريج لا يغني صوتاً إلا عارضه فيه^(٤)، ولكنه لم يستطع أن يبرِّه ، فقد كان دائماً يأتي دونه^(٥)، ومع ذلك فقد كان يُعَدُّ في فحول المغنين وكبارهم . وجعله إسحق الموصلي أحد خمسة تفوقوا في فن الغناء بالحجاز^(٦)، ورُوي أنهم أجمعوا على أن الغريض كان أشجى غناءً ، وكان ابن سُرَّيج أحكم صنعة^(٧) . ويقال إن السيدة سُكينة بنت الحسين حجت ، فدخل إليها ابن سُرَّيج والغريض ، فقال لها ابن سريج : يا سيدتي ! إني كنت صنعت صوتاً وحسنته وتنوّقت فيه ونجباته لك في حريرة في درج مملوء مسكاً ، فنازعني الغريض ، فأردنا أن نتحاكم إليك فيه ، فأينا قدمته فيه تقدم . ثم غناها كل منهما الصوت ، فقالت : والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجوارى الحسان ، لا يُدْرَى أى ذلك أحسن^(٨). ويظهر أنه استمر يجمع بين الغناء والنوح حتى آخر حياته ، فإن الثريا مولاته حين ماتت ناح عليها^(٩). ويقول أبو الفرج إنه كان ينوح فيدخل المآتم وتُضْرَبُ دونه الحُجُب ، ثم يُنوح فيفتن كل من سمعه^(١٠). وكان في الوقت نفسه يغني فيحسن الغناء ، ولكنه كان يأتي تابِعاً لابن سريج . وهذا على كل حال لا يحط منه ، فقد كان ابن سريج على ما يظهر يتقدم مغني الحجاز جميعاً .

(٦) أغاني ٣٨٠/١ .

(١) أغاني ٣٥٩/٢ وانظر ٢٥٥/١ .

(٧) أغاني ٣٦٢/٢ .

(٢) أغاني ٢١١/١ وانظر ٣٥٩/٢ .

(٨) أغاني ٣٦٥/٢ وكذلك ٣٦١/٢ .

(٣) أغاني ٢١١/١ وانظر ٢٥٥/١ .

(٩) أغاني ٢٤٦/١ وانظر أغاني ٣٦٤/٢ .

(٤) أغاني ٢٥٦/١ .

(١٠) أغاني ٣٦٠/٢ .

(٥) أغاني ٢٧٦/١ وكذلك ٢٧٨/١ .

ومهما يكن فقد كان للغريض منزلة عظيمة في مكة ، وكان الحجاج حين يسمعون يظنون من الجن لجمال صوته^(١)، وخرج إليه معبد مغنى المدينة الأول لسمع منه بعض أصواته^(٢)، فلما سمعه قال : لقد سمعت شيئاً لم أسمع أحسن منه « وقصر إلى نفسه » وعلمت فضيلته على . ويظهر أنه كان يحسن التأثر والنقل ، فقد قالوا إنه سمع أصوات رهبان بالليل في دبر لهم فاستحسنها وصاغ على مثالها لحناً^(٣).

وكان الغريض مقرباً من نساء مكة والمدينة جميعاً ، وكان يحظى بجوائزهم . ومن أشهر من غناهن عائشة بنت طلحة^(٤) . وليس من شك في أنه كان المغنى الأول في دار مولياته العَبَلات وعلى رأسهن الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية . وكان يلزم عمر ويصحبه في غُدواته وروحاته ، وكان يتخذهُ رسولاً إلى بعض صديقاته^(٥) . وكما كان يلزم عمر كان يلزم الحارث بن خالد المخزومي الشاعر وإلى مكة لعبد الملك ، وكان يجزل له في العطاء^(٦) . ويقال إنه غنى عاتكة بنت يزيد فأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية وغير ذلك من الألفاف^(٧) . ولما قدم الوليد ابن عبد الملك مكة صحبه وغناه فوصله وكساه^(٨) ، وكذلك غنى يزيد بن عبد الملك في أثناء حجه^(٩).

ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أنه كان أحد المغنين الممتازين في عصره ، وتتلذذ لابن سريج كما قدمنا ، ويظهر أنه تتلمذ أيضاً لابن مسجع^(١٠) ، وكان كثير الروحات إلى دار جميلة في المدينة^(١١) . ولما شدد نافع بن علقمة في طلب المغنين والمخنثين هرب منه إلى اليمن فمات بها ، وكان ذلك في خلافة سليمان ابن عبد الملك . ويقال بل توفى في عُرْس أو ختان ، وتذهب الأسطورة إلى أن الجن نهته عن صوت فغناه فقتلته^(١٢).

- | | |
|-----------------------------|--------------------------------------|
| (١) أغاني ٣٦٢/٢ | (٧) أغاني ٣٢٣/٣ |
| (٢) أغاني ٣٨٥/٢ | (٨) أغاني ٣٩٥/٢ |
| (٣) أغاني ٣٩٧/٢ | (٩) أغاني ٣٨٢/٢ |
| (٤) أغاني ٣٧٨/٢ وانظر ٣٢١/٣ | (١٠) أغاني ٢٧٧/٣ |
| (٥) أغاني ١٥٠/١ | (١١) أغاني ١٨٨/٨ وكذلك ٢١٣/٨ = ٢٢٦/٨ |
| (٦) أغاني ٣٢٣/٢ | (١٢) أغاني ٣٩٩/٢ وما بعدها |

الأبجر

هو أبو طالب عبيد الله (أو محمد) بن القاسم ، كان مولى لكتانة^(١) ، أخذ الغناء على ما يظهر عن الغريص^(٢) ولكنه لم يشتهر بادئ الأمر . ويقال إن عطاء ابن أبي رباح ختنَ بنيه أو بنى أخيه ، فكان يختلف إليهم ثلاثة أيام يغني لهم^(٣) . وكان يذهب إلى المدينة كمادة زملائه . ويقال إنه اجتمع يوماً مع ابن عائشة مغني المدينة في بيت ابن هبار فتغنى ابن عائشة ، فقال الأبجر : كل مملوك لي حرٌّ إن تغنيت معك إلا بنصف صوتي ، ثم أدخل إصبعة في شذقه ففتغى ، فسمع صوته من في السوق وحشِر الناس^(٤) .

وكان الأبجر يعترض بغنائه الحجاج على عادة المغنين في مكة ، فكان يحبسهم عن مناسكهم ، وبينما كان يتغنى يوماً وإذا بالوليد بن يزيد - كما أسلفنا - يمر به فيعجب بصوته ، ويرسل له بأربعمائة دينار ، ولزمه بعد ذلك فذهب معه إلى الشام ، واستمر عنده حتى قُتل ، فخرج إلى مصر، ومات فيها .

وكانت فيه فكاهة ، فيقال إن رسول الوليد بن يزيد ذهب في استدعاء المغنين ، فعرض عليه نفسه فأبى أن يأخذه لأنه لم يكن يعرفه ، فقال له خذني ولك مع هذا شرط ، قال : وما هو ؟ فقال الأبجر : كل ما أصبته فلك شطره ، وذهب مع المغنين ، فغنوا الوليد فلم يتحرك ولا نشط ، وغنى الأبجر فطرب ، وارتاح ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما خرج المغنون وثب فقال للوليد : إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر من يضربني مائة الساعة بحضرتك ، فضحك ، وقال له : قبحك الله ! وما السبب في ذلك ، فأخبره بقصته مع الرسول وقال : إنني أريد أن أضرب مائة ويضرب بعدى مثلها ، فقال له : قد لطفك ، أعطوه مائة دينار وأعطوا الرسول خمسين ديناراً^(٥) .

وأغلب الظن أنه كان كثير الجوائز حتى قبيل ذهابه إلى دمشق ومعيشته في بلاط

(٤) أغاني ٣/٣٤٨ .

(٥) أغاني ٣/٣٤٨ .

(١) أغاني ٣/٣٤٤ .

(٢) أغاني ٣/٣٤٧ .

(٣) أغاني ٣/٣٤٨ .

الوليد ، فالرواة يزعمون أنه ۞ لم يكن بمكة أحد أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأجير ، كانت حلتة بمائة دينار ، وفرسه بمائة دينار ، ومركبه بمائة دينار^(١) . وإذا كان أصاب هذا في حياته فماذا أصاب الذين يتقدمونه من مثل ابن محرز وابن سريج والغريص ؟ ! وكل النصوص تدل على أن هؤلاء المغنين أحسنوا فهم إلى حد بعيد .

الهذلي

هو أبو عبد الرحمن سعيد بن مسعود ، وكانت له مهنة غير الغناء ، فقد كان ينقش الحجارة بأبي قُبَيْس^(٢) ، وكان منزله في مَنى ، وكان فتيان قريش يأتونه ، فيغنيهم هناك ، وكان يجلس أحياناً على جمرة العقبة ويغنيهم^(٣) ، وأحياناً يغنيهم بالبطحاء^(٤) . وكانوا يذهبون أحياناً أخرى لمساعدته في الحجارة ، أو بعبارة أدق كانوا يذهبون لسماع غنائه ، فيأبى إلا أن يساعده في قطع الحجارة^(٥) . ويقول أبو الفرج : إنهم كانوا يفدون إليه ومعهم الطعام والشراب والدراهم ، فيقول لهم : الوظيفة ، فيقولون قد جئنا بها ، فيقول : الوظيفة الأخرى : أنزلوا أحجارى ، فينقلون له الحجارة وينزلونها ، ثم يجلس على قطعة بارزة من الجبل ، ويجلسون تحته في السهل . . وهو يغنيهم حتى المساء^(٦) .

ويدل هذا الخبر على أن الناس لم يكونوا يستمعون للمغنين بالمجان ، بل كانوا يستمعون إليهم بالوظيفة والدراهم ، وهى الطريقة نفسها المتبعة الآن . وليس من ريب في أن هذا كان دخلاً منظماً هؤلاء المغنين ، وأنه كان يدر عليهم كثيراً من الأموال .

وأهم حادث في حياة الهذلي أنه تزوج بنت ابن سُرَيْج ، زوجه منها ابن سريج نفسه ، وهذا دليل على أنه كان يتبعه ويلازمه . ويقول الرواة إنه أخذ غناء أبيها

(٤) أغاني ٦٦/٥ .

(٥) أغاني ٦٥/٥ .

(٦) أغاني ٦٧/٥ .

(١) أغاني ٣٤٥/٣ .

(٢) أغاني ٦٥/٥ .

(٣) أغاني ٦٧/٥ .

كله عنها (١) ، وجاء منها بولد فمر يوماً على مجلس فيه أشعب ، فتساءل الناس من هذا الصبي ؟ فقال أشعب : أو ما تعرفونه ؟ هذا ابن الهذلي من ابنة ابن سريج ، وُلِدَ على عود ، واستهل (٢) بغناء ، وحَنَنَ بملوى (٣) وقطعت سرتة بوتر ، وخَنِنَ بمضراب .

وهؤلاء هم أشهر المغنين الذين ظهروا في مكة في أثناء العصر الأموي ، وكان وراءهم كثيرون لا يقولون عنهم شهرة . وقد ترجم أبو الفرج لطائفة منهم مثل يحيى قَيْل (٤) مولى العبلات ، وكان أحد من لقيه الوليد بن يزيد في مكة واستمع إلى غنائه (٥) ، ومنهم عبادل مولى قریش ، وهو مغن محسن متقدم من الطبقة الثانية ، ولم يفارق الحجاز ولا وفد على ملوك بني أمية ، وكانت له صنعة كثيرة (٦) .

وكان بجانب هؤلاء المغنين كثير من المغنيات ، ولكن يظهر أن مكة لم يكن بها دار خاصة بهن ، كدار عَزَّة الميلاء وجميلة في المدينة ، ولذلك لم نسمع كثيراً عنهن ، وإن كانت نصوص الأغاني تدل على أنهن كن كثيرات . وسبق أن قلنا إن التي نقلت للمغنين والناس غناء ابن محرز جارية لصديق له . ودارُ الثريا وأخواتها العبلات التي أخرجت الغريض ويحيى قَيْل أخرجت كذلك مغنية عرفت هناك تسمى سُمَيَّة ، وكان عمر بن أبي ربيعة يمتلك جاريتين مغنيتين هما بَغُوم وأسماء . ويقول أبو الفرج ، وقد عرض لموكب جميلة حين حَبَّتْ ، إنه استقبلها في مكة قيان كثيرات لم يسمِّنَ لنا (٧) . ومن المؤكد أن مكة كانت تكتظ بهؤلاء القيان ، ويقال إن سلامة القس التي نشأت في المدينة اشتراها يزيد من مكى يسمى سهيل ابن عبد الرحمن (٨) ، ومعنى ذلك أن مكة حظيت بأغانيها وغنائها . وكذلك يقال إن حبابة التي اشتراها يزيد أيضاً والتي خَرَّجَها جميلة إنما اشتراها من آل لاحق المكيين (٩) .

(٦) أغاني ٩٦/٦ .

(٧) أغاني ٢١٠/٨ .

(٨) أغاني ٣٣٤/٨ وانظر ٣٣٩/٨ .

(٩) أغاني (طبع بولاق) ١٥٥/١٣ .

(١) أغاني ٦٦/٥ وما بعدها .

(٢) استهل : صاح .

(٣) الملوى : من أجزاء العود .

(٤) أغاني ١١٠/٣ .

(٥) أغاني ٢٧٥/٩ .

وكل الأخبار تؤكد أن مكة في هذا العصر كانت تكتظ بالمغنين والمغنيات ،
وأشرنا مراراً إلى زيارة مغنى المدينة لها من مثل معبد وجميلة ، ولا يكاد يوجد مغن
مشهور في المدينة إلا وزارها وكذلك لا تكاد توجد مغنية معروفة في المدينة إلا وزارتها
واستمعت إلى كبار مغنيها . ومن لم يأت منهم استمع إلى هؤلاء المغنين المكيين في
المدينة نفسها ، إذ كانوا يكثر من زيارتها ومن النزول على جميلة ، وكثيراً ما أحيوا
ليالى وحفلات في دارها .

وكان هؤلاء المغنون من أهل مكة يكثر من زيارة دمشق ، كما كان يكثر
من هذه الزيارة مغنو المدينة ومغنياتها . وأحدثوا فيها بفضل زيارتهم وبفضل اهتمام
الخلفاء بهم نهضة فنية في الغناء ، كان من آثارها هناك أبو كامل الغزّيل مغنى
الوليد بن يزيد^(١) ، بل كان من آثارها الوليد بن يزيد نفسه على نحو ما هو معروف^(٢) .
ونحن لا نكاد نخطو خطوات في العصر العباسي حتى نجد هذا النهر ، نهر
الغناء الحجازي ، الذى كان يسير نحو الشمال يتجه إلى الشرق حيث العراق ومدنه
الكبيرة : البصرة والكوفة ثم بغداد . وكان للرافد الكبير رافد مكة أثر واسع في هذا
التحول وما طوى فيه من نهضة فنية كبيرة للغناء والموسيقى في العراق . ولا يكاد يعيش
في مكة مغن مشهور إلى العصر العباسي إلا ونراه هناك . وقد ترجم أبو الفرج في
أغانيه لطائفة كبيرة من هؤلاء المغنين الذين كانوا واسطة انتقال هذا الغناء الموسيقي
من الحجاز إلى العراق من مثل ابن عباد وكان مولى لبنى مخزوم وقيل بل مولى
لبنى جُمَح ، وهو من كبار المغنين وقد توفى ببغداد في الدولة العباسية^(٣) ، ومثل
إسماعيل بن الهريذ وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وأدرك آخر أيام الرشيد ،
وغناه يوماً فكاد يرقص من شدة الطرب ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم^(٤) ، ومثل
يحيى المكي ، ويقول صاحب الأغاني : إنه قدم مع الحجازيين الذين قدموا على
المهدى في أول خلافته ، وبقي في العراق هو وولده يخدمون الخلفاء إلى أن انقرضوا ،
وكان آخرهم محمد بن أحمد بن يحيى المكي . وكان يعنى مرتجلاً ، ويحضر

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣٢/٧ وكذلك (٣) أغاني ١٧١/٦ .

(٤) ٤٦/٧ = ٩١/٧ وما بعدها . (٤) أغاني ١٠٤/٧ .

(٢) أغاني ٣٢/٧ وانظر ٢٧٤/٩ .

١. مجلس المعتمد مع المغنين^(١) « ومثل سباط وكان مولى لخزاعة » وقد ترك ستين صوتاً^(٢).

ولنرجع إلى المغنين الثلاثة الممتازين في عصر هارون الرشيد والذين جمعوا له الأصوات المائة التي أدار أبو الفرج كتابه (الأغاني) عليها ، وهم قُليش ابن أبي العُوراء وابن جامع وإبراهيم الموصلي ، فإنك إذا ذهبت تبحث في حياتهم وتكوينهم الفني وجدت أولهم من أهل مكة وكان مولى لبني مخزوم^(٣). أما الثاني فكان سباط زوج أمه^(٤). ولهذا يغلب أن يكون مكى الولادة والنشأة « وأما الثالث فإنه تتلمذ للمكيين « وأخذ عنهم^(٥).

وأكبر الظن أننا لا نسرف إذا قلنا : إن نهضة الغناء في العراق في أثناء العصر العباسي إنما كانت امتداداً لهذه الموجة التي نفذت إلى العراق على أيدي مغني مكة وزملائهم من مغني المدينة .

(٤) أغاني ١٥٢/٦ وانظر ٢٨٩/٦ .

(٥) أغاني ١٥٢/٦ ، ١٧٤/٦ .

(١) أغاني ١٧٤/٦ وما بعدها .

(٢) أغاني ١٥٦/٦ وما بعدها .

(٣) أغاني ٣٥٩/٤ .

الفضل الثالث

الشعر والأغاني في مكة

١

الشعر في مكة

كل من يدرس الحياة الأدبية العربية في العصر الجاهلي يشعر بأن الشعر كان عمود هذه الحياة ، إذ كان سبيل القوم إلى التعبير « سواء في وقائعهم الحربية أو وقائعهم اليومية ، فلم يكن قد تكوّن عندهم بعد هذا الحائط العقلي الذي يحول الأمة من عالم الشعر إلى عالم الكتابة الفنية . ووجد لدى القوم خطابة ، ولكنها كانت محدودة ، أما الشعر فكان الأسلوب العام للتعبير عن أحداثهم ويومياتهم .

ونحن نجد الشعر في مكة في أثناء العصر الجاهلي على كل لسان ، وفي كل مناسبة ، مما يجعلنا نؤمن أن أهل مكة كانوا مثل بقية العرب يعبرون بالشعر عن كل ما يضطربون فيه من عواطف دنيوية أو دينية . ونضرب لذلك مثلاً بيت بني هاشم ، فنحن نجد الرواة ينسبون إلى كل الشخصيات اللامعة فيه شعراً ، فقصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب كل هؤلاء يُنسب إليهم شعر (١) ، وكذلك حمزة (٢) ، بن عبد المطلب وأخواه الزبير (٣) وأبو طالب . يقول ابن سلام : « كان أبو طالب شاعراً جيد الكلام ، وأبرع ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ رَيْعُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٣٥ (٢) ابن هشام ٨/٣ .

وكذلك ص ٥٢ . (٣) طبقات الشعراء لابن سلام (طبع ليدن) ص ٦١ .

وقد زيد فيها وطُوت^(١) . وترَوى سيرة ابن هشام كثيراً من شعر أبي طالب . وإذا كان هذا شأن بيت واحد من بيوت قريش فما بالناس بقية البيوت ؟ وإن سيرة ابن هشام لتطفح بكثير من الشعر القرشي ، وكذلك الطبري وكتاب الأغاني . فقلما توجد شخصية متألفة في تاريخ مكة الجاهلي إلا ويُنسب إليها شعر ، وخاصة من اتصلوا بالسيرة النبوية ، فأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وعمرو ابن العاص وبنو بن الحجاج وغيرهم من أشرف قريش ينظمون الشعر . وقد ترجم صاحب الأغاني لآخرهم فقال : إنه من وجوه قريش وذوى النباهة فيهم^(٢) . ومن ترجم لهم أيضاً مسافر بن أبي عمرو بن أمية وكان سيداً جواداً ، وهو أحد أزواد الرُّكب . وإنما سُموا بذلك لأنهم كانوا لا يدعون غريباً ولا ماراً بطريق ولا محتاجاً يحتاج بهم إلا أنزلوه وتكفلوا به حتى يَطْعن^(٣) ، ويعرض أبو الفرج لشعره ، وما كان من مناقضات بينه وبين عُمارة بن الوليد ، وكان هو الآخر شاعراً ، وهو ثاني اثنين أرسلت بهما قريش إلى النجاشي كي يسلم إليهما المسلمين الذين اعتصموا به في الهجرة الأولى المعروفة^(٤) .

ولا نمضي في حوادث السيرة وهذا الصراع الذي نشب بين الرسول وأصحابه في المدينة والقرشيين في مكة حتى تلمع شخصيات كثيرة في تاريخ مكة الأدبي ، فقد أخذ هذا الصراع مظهرين : مظهراً حريياً في بدر وأحد والخندق ، ومظهراً أدبياً في أهاج كانت مكة والمدينة جميعاً تتقاذفان سهامها ونيرانها . وأهم من كانوا يقذفون هذه السهام والنيران من مكة الحارث^(٥) بن هشام ، وعمرو^(٦) بن العاص ، وهبيرة^(٧) بن أبي وهب المخزومي ، وضرار^(٨) بن الخطاب وأبو سفيان^(٩) ابن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزُّبَيْري ، وهؤلاء الشعراء جميعاً .

حيث يقول : إنه كان شديد العداوة لله ورسوله فأخمله الله وحضه .

(٨) انظر ابن هشام ٥٦/٢ ، ٩٣/٢ ، وكذلك ١٣/٣ ، ١٤٦/٣ ، ١٥٢/٣ ، ١٧٢/٣ .

(٩) ابن سلام ص ٦١ ويقول : له شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا

القليل .

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

(٢) أغاني ٦٢/١٦ وما بعدها .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٤٩/٩ .

(٤) المصدر نفسه ٥٥/٩ .

(٥) ابن هشام ١٩/٣ .

(٦) ابن هشام ١٥١/٣ وكذلك ١٥٤/٣ .

(٧) ابن هشام ١٣٦/٣ وانظر ابن سلام ص ٦٥ .

وما زال يتناقض هو وحسان بن ثابت حتى أتم الله نعمته على رسوله ، ففتحت مكة ، فأسلم ، ومدح الرسول واعتذر إليه ، ومن قوله بعد إسلامه (١) :

يا رسولَ الملِّيك إنَّ لسانِي راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورٌ
وأظن فيما قدمناه ما يدل دلالة واضحة على نشاط الشعر في مكة في أثناء العصر الجاهلي .

ويلاحظ ابن سلام أن قريشاً تزيد في أشعارها (٢) ، وهو يشير بذلك إلى كثرة المنحول فيها . ومن المؤكد أن الشعر كان كل شيء في حياة القوم الأدبية ، فعلى الرغم من مجلس شيوخ مكة وما يتطلبه من عناية القرشيين بالخطابة تحت تأثير جداهم وحوارهم في شئونهم المختلفة ، فإنهم لم يُعرفوا بخطابة حينئذ ، إنما عُرفوا بالشعر . وحوادث السيرة نفسها لا نجد فيها خطباً ، وإنما نجد شعراً وشعراء مما يدل على أن الشعر كان هو الفن المألوف عندهم .

ويذكر ابن سلام أن الشعر في مكة كان قليلاً ، ويعلل لذلك بأنه لم تكن بين أهلها نائفة (٣) ، كما كان الشأن بين الأوس والخزرج في المدينة مثلاً ، فإن الحرب بين الحيين هناك سَعَرَت القوم ، وكَوَّنَت منهم شعراء يتبادلون الأهاجي والنقائض . وفقدان مكة للحروب والحزازات بين أهلها في الجاهلية لا يجعلها تفقد الشعر ، ولا يؤخر مرتبتها فيه ، إنما يَلَوِّن شعرها بلون حياتها فمن الطبيعي ألا يكون هناك هجاء كثير لضعف دواعيه ، ولكن من الطبيعي بعد ذلك أن يتخذ القوم الشعر في التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم ، فينباع الشعر مستقرة في نفوسهم استقرارها في نفوس العرب جميعاً .

ومن المهم أن نعرف أن كثيراً من أحكامنا على الحياة الجاهلية ينقصه الدليل القاطع ، فلم يبق لنا من هذه الحياة إلا رسوم وأطلال ، وخاصة فيما ضاد الإسلام وعارضه . وكلنا نعرف أن الإسلام محا الوثنية في الجزيرة محواً وكل ما اتصل بها من شعر وقول ؛ ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن القرشيين عالجوا في شعرهم الوثني

(١) ابن سلام ص ٥٩ وابن هشام ٦١/٤ . (٢) ابن سلام ص ٦٥ . وثائرة : عداوة وثارات .

(٢) ابن سلام ص ٦٢ .

حياتهم الدينية « فإن العربي من شأنه دائماً أن يعبر عن سلوكه في صراحة وصدق ، وإن قيام مكة على الوثنية في الجزيرة ليؤكد أن أبنائها نظموا شعراً كثيراً في آلهتهم . وأيضاً فإن حريمهم اللسانية للرسول لا بد أن تكون قد احتوت على دفاع كثير عن دينهم . وكان عبد الله بن رَوَاحَة يعبرهم بالكفر^(١) ، وأكبر الظن أنهم بدءوا هذا الدفاع مع حركة التحنّف التي ظهرت في مكة قبيل الإسلام ، فنحن نجد زيد ابن عمرو بن نُفَيْل يفارق دين قومه وينظم شعراً يتلوّمهم فيه على وثنيّتهم وآلهتهم^(٢) ، ولعلمهم نقضوا هذا الشعر وعارضوه بشعر آخر نصرّوا فيه آلهتهم ووقروها .

وإذا كانت نصوص هذا الشعر الديني انمحت ، فقد بقيت نصوص أخرى غير دينية تدل على أن القوم استخدموا هذه الموهبة الفنية في كل ما اتصل بحياتهم ، وفي الموضوعات نفسها التي أثرت عن غيرهم من عرب الجاهلية . فنحن نجد لهم مديحاً^(٣) ، وفخراً^(٤) ، وغزلاً^(٥) ، وثناءً^(٦) ، وعتاباً^(٧) . وقصيدة قُتَيْلَة بنت الحارث في بكاء أخيها النضر عدو الله ورسوله وعتاب رسول الله على قتله بعد وقعة بدر ذائعة مشهورة ، وفيها تقول :

ما كان ضركَ لو مننتَ ؟ وربما منّ الفتى وهو المغيظُ اُحْنَقُ
النّضرُ أقربُ من أسرتَ قرابةً وأحقهم إن كان عتقُ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بني أبيه تنوشه لله أرحامُ هناك تُشَقُّ

ويقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغته هذه القصيدة قال : « لو بلغتني قبل قتله لمننت عليه^(٨) » . ويدل نسج هذه القصيدة على مدى ما بلغته المرأة القرشية في العصر الجاهلي من إحسان للشعر . ووراء قتيلة نجد كثيرات يُنسبُ إليهن شعر كبنات عبد المطلب^(٩) ، وهند^(١٠) بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وصفية^(١١) بنت مسافر .

(٧) ابن هشام ٣٥٤/١ وما بعدها .

(١) أغاني ١٣٨/٤ .

(٨) ابن هشام ٤٤/٣ .

(٢) ابن هشام ٢٤١/١ وما بعدها .

(٩) ابن هشام ١٧٩/١ وما بعدها .

(٣) ابن سلام ص ٥٨ وابن هشام ١٨٤/١ .

(١٠) ابن هشام ٤٠/٣ وكذلك ٧٢/٣ و ٩٧/٣ .

(٤) أغاني ٥٥/٩ .

(١١) ابن هشام ٤٢/٣ .

(٥) أغاني ٤٧/٩ وانظر ٤٩/٩ .

(٦) ابن هشام ٣٤٧/١ وكذلك ٢٨/٣ وما بعدها .

ومكة من هذه الناحية تتفوق على المدينة ، فإذا كان ابن سلام لاحظ أن الشعراء قليلون في مكة ، وهي ملاحظة تناقش في ضوء ما قدمنا ، فإن الشاعرات كن كثيرات . والحق أن مكة كان فيها شعر كثير . واستمرت هذه الموجة الحادة من الشعر والشعراء على ما يظهر في عصر صدر الإسلام وخاصة في عصر الرسول حين كانت المعارك مستمرة بين مكة والمدينة ، واستمرت أيضاً بعد الفتح . فإن مكة أسلمت متأخرة ، ولم تدخل في الإسلام مبكرة كما دخلت المدينة . ومن هنا كنا نظن أن استجابتها لأوامر الخلفاء الراشدين ونهيهم عن الهجاء والتشبيب بالنساء أضعف من المدينة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن دواعي الهجاء بين مكة والمدينة انتهت ، وأن هذه الدفعة المرة تلاشت ، ومع ذلك فالرواة يروون أن ضرار ابن الخطاب وعبد الله بن الزُّبَيْرِ « قدما المدينة في عهد عمر بن الخطاب فقصدنا أبا أحمد بن جحش الأسدي الضرير ، وكان الناس يجتمعون عنده ويتحدثون » فقالا له : أتيناك لتجمع بيننا وبين حسان بن ثابت ، فإنه كان ينظم في الإسلام ، وكنا ننظم في الكفر ، ونريد أن نسمع منه ويسمع منا ، فأرسل إليه ابن جحش ، فجاءهم وعرض عليه ابن جحش أن يتناشد مع خصميه القديمين ما كانوا ينظمون من شعر قبل فتح مكة ، فقبل حسان ، وبدأ ضرار وعبد الله بن الزُّبَيْرِ يُنشدانه ، ويُسمعانه مما كانا يقولان في هجائه وهجاء المسلمين حتى إذا صار حسان يفور كالرجل خلباه ، وركبا رواحلهما ، وانطلقا صوب مكة ، فخرج حسان ، يجر أذباله إلى عمر ، وقصَّ عليه الخبر ، فأرسل في طلبهما ، فردَّاهما إليه ، وقال لحسان : أنشد ، فأنشد حسان حتى شفى نفسه ، ثم قال : شأنكما الآن ، إن شئتما فارحلا ، وإن شئتما فابقيا^(١) . ولعل في هذا الخبر ما يدل على أن مكة لم تنس قديمها في عصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نلتقي فيها حيثئذ بأبي ذَهَبَل الجُمَحِيِّ ، وقد ترجم له أبو الفرج في أغانيه . على أننا لا نتقدم في العصر الأموي عصر المغنين والغناء ، حتى نجد مكة تموج موجا بالشعراء .

وكثير من المكين هاجر إلى المدينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد الفتح . وهذه هي الهجرة الأولى ، وهناك هجرة ثانية مع الفتوح الإسلامية في عهد أبي بكر

وعمر وعثمان ، ولكن مع ذلك كله استمر لمكة شأنها القديم في الشعر . ومن المعروف أن أكثر الهاشميين والأمويين نرحوا عنها . وبالرغم من ذلك نجد للأولين شاعراً مشهوراً في هذا العصر الأموي وهو الفضل بن العباس اللهي . كما نجد للآخرين شاعراً مشهوراً هو العرجي حفيد عثمان .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه إذا كان أكثر هذين البيتين الكبيرين قد هاجر من مكة ، فقد بقيت بيوت أخرى ، ورجع كثير ممن هاجروا إلى المدينة أو إلى الأمصار الإسلامية . وربما كان أهم بيت بقي في مكة ، أو على الأقل بقي أكثره هو بيت بني مخزوم ، وكان لا يقل عن البيتين الأولين أهمية في العصر الجاهلي . ونبيغ منه في هذا العصر شاعران معروفان هما عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد . وبجانب ذلك نجد البيوت الأخرى تمدنا بشعراء ممتازين مثل ابن قيس الرقيات وأبي دهبل الجُمحي . ومعنى ذلك أن الخيط الفني القديم استمر ، وأخذت تتشعب منه في هذا العصر الأموي عصر الغناء والمغنين خيوط وشعب كثيرة .

ونحن نلاحظ من طرف ثان أن مكة إذا كانت فقدت في هذا العصر بعض البيوت وكثيراً من الأسر والشخصيات فإنها أخذت تكتسب عنصراً جديداً ، لم يكن مفقوداً تماماً قبل ذلك ، ولكنه يُعدُّ على كل حال عنصراً جديداً ، ونقصد الموالى الذين أخذوا يتعلمون العربية ، ويحاولون أن يتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير . وكانت مكة في الجاهلية تنجر في رقيق إفريقية ، وظهر من هذا الرقيق في عصر الرسول والخلفاء الراشدين شاعر حبشي هو عبدة بن الحُصَّاس . وإذن فالعنصر الأجنبي في الشعر المكِّي عُرف قبل الفتوح الإسلامية ، ولكن الذي نلاحظه الآن هو اتساع هذا العنصر ، ودخول أجناب جدد لا عهد للشعر العربي بهم . ونقصد هؤلاء الموالى من الفرس خاصة الذين جلبهم كبار الفاتحين من المكين . وأشهر الموالى في مكة حيثُد أبو العباس الأعمى وهو السائب بن قُروخ مولى بني الدُّئل .

وعلى هذا كان كثير من أهل مكة في العصر الأموي يصطنعون الشعر ، فهم يتخذونه أداة تعبيرهم الأدبي . وهم يسكنون فيه عواطفهم ومادة حياتهم . وأخذت مكة تهض به تحت تأثير الغناء ، فلمعت أسماء وشخصيات كثيرة .

الشعر والأغاني

كل من يُعنى بالشعر العربي من أقدم عصوره إلى الآن يلاحظ فيه نوعاً من الشعر تُتخذ فيه رسوم وتقاليد خاصة من حيث البدء بوصف الأطلال ثم وصف الصحراء والإبل والانتقال من ذلك إلى الموضوع الخاص من مديح وهجاء . وقد شغلت قصيدة المديح الشعراء منذ زهير إلى العصر الحاضر . أما قصيدة الهجاء فإنها بلغت الذروة عند جرير والفرزدق والأخطل من شعراء بني أمية فيما يسمى بالنقائض .

وبجانب هاتين القصيدتين الطويلتين للمدح والهجاء وما يتصل بهما من عتاب أو رثاء ونحو ذلك توجد مقطوعات قصيرة تُشغل بالغزل عادة ، وقلما تشغل بحماسة أو رثاء أو مديح أو هجاء . وأكثر هذه المقطوعات يدل بصورته على أنه لم يُقَل لينشد في سوق عكاظ وغيرها من أسواق العرب ، وإنما قيل ليغنى ، إما في الحرب وإما في السلم .

ومن يرجع إلى نصوص الشعر التي أنشدها ابن هشام في السيرة النبوية لأهل مكة في العصر الجاهلي يلاحظ أن أكثرها يدخل في باب الأغاني فهي في جملتها مقطوعات ، وهي في جملتها سهلة خفيفة على اللسان والأذن حتى ليقول ابن سلام : « أشعار قريش أشعار فيها لين ، يشكل بعض الإشكال^(١) » . وأكبر الظن أن الإشكال الذي يقصد إليه ابن سلام هو أن أشعار قريش لا تجرى على صورة القصيدة التقليدية الطويلة التي عُرفت عن شعراء العصر الجاهلي .

وفي رأينا أنه كان ينبغي لابن سلام أن يميز عند العرب وعند شعراء المدن خاصة بين نوعين من الشعر : نوع تقليدي يقوم على العناية الشديدة بفن القصيدة من حيث هي قصيدة ، فلها مقدمة شرعها أصحاب فن القصيدة ، وهي مقدمة الأطلال

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

وبكاء الديار المشهورة ثم لها بعد ذلك رسومها من حيث وصف الإبل والصحراء والانتهاه أحياناً بالحكم ، ونوع آخر لا تُلتزم فيه كل هذه الرسوم والقواعد ، فأصحابه لم يعتقدوا فهم كل هذا التعقيد ، إذ هم أهل حياة يومية عاجلة ، لا تعطيهم الفرصة لكي يصنعوا القصيدة في حول كامل ، كما كان يصنع زهير في حولياته المعروفة (١) . ولنتقارن بين حياة المكي العادي في الجاهلية وحياة رجل البادية ، فالأخير أمامه الفسحة الكافية من الوقت ليصنع قصيدته كما يريد ، فحياته كلها حياة رُحى ، وأوقاته كلها ملكٌ له ، أما رجل مكة فتاجر ، تلهيه التجارة عن أداء أى شيء سواها ، وليس عنده من الوقت ما ينفقه في أداء التقاليد الفنية المرسومة للقصيدة .

ومن هنا كان المفروض أن لا ينجح فن القصيدة في مكة ، وإنما ينجح فن المقطوعات والأبيات القليلة التي يعبر بها الشاعر في سرعة عن حادثة تجري في حياته أو في الحياة الواقعة تحت بصره . وقد وُجدت في مكة كما قدمنا بيوت للغناء كان يغنى فيها القيان من مثل جرّاد بن عبد الله بن جُدعان ، وقيان الحارث بن النضر ، فإذا قلنا بعد ذلك إن مكة عرفت الأغاني بمعناها التام منذ العصر الجاهلي لم نكن مبالغين ، فمن حيث المادة ، وهي المقطوعات القصيرة ، كانت المادة وافرة ، ومن حيث الغناء كان الغناء وافراً أيضاً .

وربما كان من أهم الأدلة ، التي تقطع بما نزع ، أن هذه المقطوعات المكية التي يرويها ابن هشام في سيرته تكثر فيها الأوزان الخفيفة من مثل الهزج (٢) والمتقارب (٣) ، بل إننا نجد فيها كثيراً من مجزوءات الكامل (٤) والهزج (٥) والرجز (٦) . ولا ريب في أن هذه ظاهرة تتصل بالغناء مباشرة ، إذ من شأن التلحين أن يؤثر في موسيقى الشعر وأن يقصر فيها ويمد فتم تغيرات وتحريفات كثيرة . وأيضاً فإن

(١) البيان والتبيين ١٣/٢ وما بعدها . (٤) ابن هشام ٤١/٣ .

(٢) ابن هشام ٣٥/٣ وكذلك ص ٧٢ ، ٨٢ . (٥) ابن هشام ٤٢/٣ .

(٣) ابن هشام ٤٠/٣ وهذا البحر كثير جداً في شعر (٦) ابن هشام ١٤٥/٢ .

السيرة .

تاريخ الشعر العربي كله يدل على أن الأوزان الخفيفة إنما تشيع تحت تأثير الغناء ، حدث ذلك في العراق في أثناء العصر العباسي ، وحدث ذلك في الأندلس أيضاً فإذا رأينا بذور هذه الظاهرة واضحة في مكة منذ العصر الجاهلي آمناً بأن تأثيرات مشابهة كانت هناك . وهذا إذا لم تصلنا نصوص توضح ما كانت عليه مكة حينئذ ، أما إذا وصلتنا نصوص تؤكد وجود دور للغناء فإن الأمر يختلف ، وأظننا لم ننس بعد هذه الجوقة الكبيرة التي صاحبت جيش مكة في غزوة أحد ، وكانت تتألف من بعض نسوة قريش ، فكنّ يضرين على الدفوف ، وكانت هند بنت عتبة تغني في أثناء هذا الضرب والعزف بمقطوعات مختلفة ، من مثل (١) :

إِنْ تُقْبَلُوا نُعَانِقُ وَنُفَرِّشُ السَّمَارِقُ
أَوْ تُدْبَرُوا نَفَارِقُ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ

ومعنى ذلك أن مكة عرفت في الجاهلية الأغاني في السلم والحرب ، بل أظننا لا نغلو إذا قلنا إنها لم تكد تعرف الشعر التقليدي إلا في مواسم الحج وفي سوق عكاظ حين كان ينشد شعراء البادية شعرهم ، وإلا حين اصطدمت بشعراء المدينة في عهد الرسول من مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك . ومع ذلك فإنها لم تثبت لحسان ولا لكعب فيما يظهر ، لسبب بسيط ، وهو أنها لم تكن تحسن هذا النوع من الشعر التقليدي ، إنما كانت تحسن الأغاني التي لا تحتاج إلى تقاليد فنية كثيرة . وربما كان من الأدلة المهمة على أنها كانت تحسنها أنها استطاعت أن تطوّر لغة الشعر للغناء بحيث يلاحظ في شعرها ابن سلام هذا اللين الذي يشير إليه ، والذي دعاه أن يقول : إن شعر مكة يشكل بعض الإشكال . وأظن أنه لم يعد يشكل علينا هذا اللين الآن ، لأننا فهمنا مصدره وعرفنا علته وسببه .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن مكة ، كانت مُعَدَّةً منذ العصر الجاهلي لشبوع الأغاني فيها . فهي من هذه الناحية تتقدم المدينة ، كما تتقدم بيئات الشعر العربي الأخرى في العصر الجاهلي . ونحن نعرف أن أهم الموضوعات التي دارت عليها الأغاني في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة وأصحابه هي الغزل وقصة

(١) طبرى ١/١٤٠٠ وواق : محب .

الحب : حياته ووقائعه وموته . ويظهر أن هذه الظاهرة نفسها قديمة ، بل إن ما طبعَ غزلَ بن أبي ربيعة وأصحابه من صراحة يظهر أيضاً أنه كان معروفاً منذ العصر الجاهلي ، فنحن لا نتقدم في مكة إلى أواخر هذا العصر حتى نجد عبداً أسود نوبياً يشتهر بالشعر ، كان مولى لبني الحسحاس « وهم بطن من بني أسد ، ولذلك يسمى - كما مر بنا - عبد بني الحسحاس واسمه سُحَيْمٌ . وكان يصنع الشعر في مقطوعات ، أو بعبارة أخرى كان يصنع هذه الأغاني ، وكانت فيه لُكْنَةٌ أعجمية ، فكان إذا أنشد الشعر يقول أهسنتُ والله ! . وكان ينظم هذا الشعر في الغزل المادى الإباحي . ويقول أبو الفرج : إنه عاش إلى عصر الخلفاء الراشدين ، وقُتِلَ بسبب شعره الماجن وحديثه عن المرأة^(١) . ومعنى ذلك أن الغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي وُجد عند شاعر مكّي قديم ، وكان في صورة أفزعت الناس « صورة ماجنة تختلف عن صورة الغزل الصريح الذي اشتهر به ابن أبي ربيعة وأصحابه » ولذلك رصده الناس وقتلوه .

ولا نكاد نتقدم بعد عبد بني الحسحاس حتى نجد في أواخر عصر الخلفاء الراشدين شاعراً مكياً مهماً هو مقدمة شعراء العصر الأموي ، وهو أبو دَهْبلَ الجُمَحِيّ ، ويقول أبو الفرج إنه من أشرف قريش ، وكان يحمل الحملات والديات ، ويعطى الفقراء ، ويُقَرَى الضيف^(٢) ، ويتقدم أبو الفرج في ترجمته ، فيروى أشعاره ويقص أخباره .

وما نلم بهذه الترجمة حتى نشعر بتمام المشابهة بين أبي دَهْبلَ وبين شعراء العصر الأموي من مثل عمر ، فأكثر شعره مقطوعات ، أريد بها إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، وليس فيها هذا الجمود عند الأطلال وبكاء الديار ، وإنما فيها وصفُ قصة الحب وما يرتبط بها من عُذال ووشاة وتباريح وآلام ، وفيها بجانب ذلك تصويرٌ لأحاديث النساء وبجالسهن على نحو ما نجد عند ابن أبي ربيعة .

وليس هذا كل ما يميز شعر أبي دَهْبلَ ، فنحن نجده يمتاز بالظاهرة القديمة

(٢) أغاني ١١٦/٧ .

(١) أغاني ٢/٢٠ وما بعدها .

نفسها التي أشار إليها ابن سلام ، ظاهرة اللين والسهولة . وهي طبيعية كما قدمنا ، لأن شعراء قريش في الجاهلية والإسلام جميعاً لم يكونوا يريدون بشعرهم التعبير عن التقاليد الفنية في أروع صورها كما نجد عند أصحاب المعلقات مثلاً ، إنما كانوا يريدون التعبير عن عواطفهم في يسر وسهولة وقرب من مألوف الناس في لغتهم اليومية .

وعاش أبو دهل حتى عصر ابن الزبير ، إذ نرى في شعره مديحاً لابن الأزرق المخزومي واليه على اليمن^(١) . ومعنى ذلك أن خيوط الأغاني في مكة امتدت من الجاهلية إلى العصر الأموي عن طريق أبي دهل الجمحي . فليست الأغاني إذن التي شاعت وزاعت فيما بعد عملاً مبتكراً من أعمال العصر الأموي ، ولا ظاهرة جديدة منتبئة الصلة بالماضي كما تصوّر بعض الباحثين ، بل هي امتداد واستمرار لظاهرة قديمة .

وكل ما يمكن أن نلاحظ من جديد إنما هو اتساع موجة هذه الأغاني اتساعاً شديداً تحت تأثير الغناء والموسيقى التي أصبحت هو الناس وملء أوقاتهم على نحو ما صورنا ذلك في فصل الغناء . وأيضاً فالأغاني القديمة لم تكن تُغنى بهذه الرُّقم الموسيقية (musical notes) التي استحدثها المغنون في العصر الأموي والتي سبق أن عرضنا لها مما نجده منتشرراً في صفحات كتاب الأغاني من مثل : ثقیل أول وثقیل ثان وخفيف ثقیل ورمل وخفيف رمل ، لسبب بسيط ، وهو أن هذه الرُّقم ظهرت لأول مرة في العصر الأموي تحت تأثير هذه الحركة النشيطة التي قام بها الموالى « فبديهي ألا يُغنى الشعر القديم على ألحانها ، لأنه سابق لظهورها .

وإذن فنحن نستطيع أن نميز في تاريخ الأغاني المكية بين عصرين منفصلين : عصر كانت تُغنى فيه ولكن لا على نظرية خاصة ، أو على الأقل لم تكن تُغنى حسب هذه النظرية الجديدة التي وضعها المغنون من مثل ابن مسجّع وابن سريج والغريص ومن لف لقمهم » وإن كانت تُغنى على كل حال بالحن ، ولكنها لم تكن تخضع لنظرية معينة ، وإنما كانت تخضع لأذواق المغنين حسب أمزجتهم وميولهم . واستمر

(١) أغاني ١١٤/٧ ، ١٢٨/٧ ، ١٣١/٧ وما

بعدها .

هذا العصر من الجاهلية إلى أن كان زمنُ بنى أمية وعَمِلَ نقلُ الحضارات الأجنبية إلى الحجاز عمله . قراءت أضواء عصر ثان هو عصر الأغاني المكية المؤلفة على نظرية الغناء التي تنتهى أسانيدُها فى كتاب الأغاني إلى مغنى العصر الأموى فى الحجاز . ومعنى ذلك أنهم هم الذين أحدثوها من عندهم وتحت تأثير رقى الغناء العربى فى عصرهم .

وهذا العصر الثانى هو عصر النهضة الحقيقية للأغاني المكية وقد لمعت فيه شخصيات كثيرة على رأسها ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات ممن كتبوا شعرهم تحت تأثير النظرية الغنائية الجديدة .

- وأخذت تتسع الفروق بين هذه الأغاني والشعر التقليدى القديم . ولعل أول ما يلاحظ من هذه الفروق شدة الالتحام بين المغنين والشعراء ، وبذلك أصبح الشعراء يعيشون معيشة فنية غنائية خالصة . ولنضرب لذلك مثلاً ابن أبى ربيعة ، فأخبره فى كتاب الأغاني دائماً تتصل بالمغنين والمغنيات ، وكان يلزمه ابن سُرَيْج^(١) والغريز^(٢) يغنيانه فى شعره وكان عنده فى البيت جارتان تقومان له بما يقوم به ابن سُرَيْج والغريز وهما بَغُوم وأَسْمَاء^(٣) . ويروى أبو الفرج كثيراً أنه ذهب إلى المدينة ليستمع إلى بعض شعره يُغنى فى دار جميلة^(٤) . ولعل من الطريف أنه كان إذا أراد أن يرسل ببعض شعره إلى صواحبه أرسل به مع المغنين من مثل بُدَيْح المليلح^(٥) والغريز^(٦) .

وهذا كله معناه أن ابن أبى ربيعة حين كان يصنع أشعاره كان يصنعها تحت تأثير المغنين والمغنيات ، أو بعبارة أخرى تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء . ولم يكن هذا شأن عمر وحده وإنما كان شأن بقية الشعراء المكيين من مثل ابن قيس الرقيات والعرجي ، فقد كانت حياتهم متحضرة ، وكانوا يعيشون للشعر والغناء وهذا الترف الذى أصاب المكيين فى العصر الأموى .

ونستطيع بذلك أن نفهم كيف أن عمر لم ينزع عن الغزل ومقطوعاته إلى الشعر

(١) انظر أغاني طبع دار الكتب ٢٥٨/١ وما بعدها (٤) أغاني ٢٠٦/٨ .

(٢) أغاني ٣٩٥/٢ . (٥) أغاني ٨٨/١ .

(٣) أغاني ١٦٥/١ . (٦) أغاني ٣٧٦/٢ .

التقليدى من مديح أو هجاء ، فقد كان ثرياً ، ولم يكن فى حاجة إلى أموال الخلفاء ، وكان يعيش هذه المعيشة الفنية الخالصة التى تقوم على الغناء والموسيقى والشعر ، فبدىى ألا يتزع عن حكاية عواطفه ، وأن يستغرق الحب شعره وخواطره . وارجع إلى ديوان ابن أبى ربيعة ، فستجده كله يُشغَلُ بالغزل ، وستجد عمر يتيح لهذا الفن تحت تأثير الغناء كل ما يمكن أن يصل إليه من رقى وازدهار . وحقاً وُجد فى مكة مَنْ شغلوا أنفسهم بالمديح ، ولكنهم كانوا أقلية ، وكانوا غالباً من الموالى مثل أبى العباس الأعمى الذى كان يتشيع للأُمويين ، وقلما وجدنا قرشياً يُعنى بالمديح سوى ابن قيس الرقيات . على أن هذا المديح كان عارضاً فى فنه ، ولذلك كان مديحه أناشيد غناء ، مما سنعرض له فيما بعد .

والمهم أن نلاحظ الآن أن مكة عُنيت عناية بالغة بالأغاني فى العصر الأموى . وأن بعض الشعراء أخذ يتخصص فى هذا الفن ، لا يتعداه إلى غيره من ضروب الشعر التقليدى . وما للمكيين والشعر التقليدى وما يرتبط به من مديح وهجاء ؟ لقد أصبحوا مترفين ، وأصبحوا ينعمون بألوان وفنون من الحضارة أزال ما فى نفوسهم من وحشة وخصومة وحدة ، وهياتهم لهذه المعيشة الفنية الخالصة من الشعر والغناء والموسيقى . فطبعى أن لا يُعنوا إلا بالأغاني وأن تكون كل حياتهم وكل فنونهم وكل مواهبهم وكل حواسهم وخواطرهم .

٣

خصائص فى الغزل وأغانيه

من يستعرض شعر الغناء عند العرب فى جميع عصوره من أغاني المكيين فى الجاهلية إلى موشحات الأندلسيين وأزجالهم نجد الحب أهم الموضوعات التى تناولها هذا الشعر . وحقاً تناول الشعر موضوعات أخرى كالحماسة والمديح والفخر والهجاء ، ولكن ليس ذلك هو الغالب عليه ، إنما الغالب عليه النسيب والغزل . ونحن لا نصل فى مكة إلى العصر الأموى حتى نجد شعراء الأغاني يكادون

يقصرون أنفسهم وشعرهم على الحب وحكاية حوادثه ووقائعه ، فقد أصبح الغزل الموضوع الأساسي الذي يعالجونه وديوان عمر بن أبي ربيعة خير مثال يصور هذا الجانب ، فليس فيه إلا غزل وتشبيب وتصوير لهذه العاطفة الإنسانية الخالدة : عاطفة الحب .

وليس هذا كل ما يميز الأغاني عند عمر وأصحابه ممن عاشوا في هذا العصر ، فمن أهم ما يميزها أن فكرة القصيدة كادت تختفي منها إلا قليلاً ، لسبب بسيط ، وهو أن الشاعر لم يكن يريد أن يصنع شعراً فحسب ، وإنما كان يريد أن يصنع شعراً يُغنى ، ومن طبيعة الغناء أنه لا يحتاج إلى قصائد طويلة ، فحسبُ المغنى أن يغنى طائفة قليلة من الأبيات يُحسِن تنغيمها وتلحينها . واشتهر ابن مُعْرَز - كما مرَّ بنا - بأنه أول من غنى بزُوج من الشعر ، ثم اقتدى به المغنون ^(١) .

وما من شك في أن هذا الذوق كان له تأثيره في الشعراء فلم تعد هناك حاجة لكي ينظموا قصائد ، فالمغنون لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون مقطوعات ، ثم هم يكتفون من المقطوعات بالأبيات القليلة ، بل البيتين ، فحسب الشاعر إذن أن يصنع البيتين والثلاثة .

ومع ذلك فقد تطول المقطوعة عنده ، ولكنها على كل حال لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف في الشعر التقليدي عند زهير والنابعة في العصر الجاهلي أو عند جرير والفرزدق في العصر الأموي ، وإنما تصبح مقطوعة طويلة إن صَحَّ هذا التعبير . وهي مقطوعة تبدأ بالحب وتنتهي بالحب .

وليست الأغنية ، وإن طالت وأصبحت قصيدة ، منوعة الموضوعات كالقصائد التقليدية ، بل إن المقدمة المعروفة في القصائد التقليدية مقدمة الأطلال والديار نجدها تختفي في الأغنية إلا قليلاً لسبب بسيط ، وهو أن حياة أصحابها لم تكن حياة تنقل في البادية ، إنما كانت حياة استقرار في المدينة ، فلم تعد هناك حاجة عند الشاعر ولا عند من يخاطبهم لكي يبكي لهم ديار حبيبته ، ويصف أطلالها وما يحوس خلالها من حُمرِ الوحش .

ومن هنا اختفت المقدمة التقليدية ، مقدمة بكاء الأطلال والديار من الأغاني ، وأصبح ناظمها لا يعالجها إلا على سبيل الفكاهة ، وفي الحين البعيد بعد الحين . فقد أصبح الشعرُ شعرٌ مدنٍ واستقرار ، وأصبح الشاعر لا يتناول فيه حوادث ماضية مع بعض أحيائه اللاتى تركهن في بعض المراعى ، ثم عاد فلم يجدهن ، وإنما يتناول حوادث حاضرة كانت تحدث له مع صواحيبه في مكة والمدينة أو في ضواحيهما ، إذ يقص حوادثه اليومية مع من شَغَفْنَ قلبه حباً ، وما وقع له معهن من وقائع ، وما دار بينه وبينهن من أحداث .

وقوام هذه الأحاديث وصف الحب نفسه ولواعجه وآلامه وما يرصد المحبين من عدّال ووشاة ، وهو وصف صريح ، فيه مادية ثقلى وتكثر حسب الشاعر ، وحسب مَنْ يتغزل بها ، وماذا تريد من شعراء متحضرين سادت في مجتمعهم ضروب من الحرية ؟ إنهم لا بد أن يفصحوا عن خلجات قلوبهم ، وكل ما ينطوى في أفئدتهم ، أو ينطبع في حواسهم .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا كان طابع الأغاني عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه طابعاً صريحاً . فهم شباب مترف أترفته الحضارة الأجنبية التى غرق فيها إلى آذانه ، وأترفت ذوقه وصفته ورقت أحاسيسه ومشاعره وأخذت تسود مجتمعه طوايع من الحرية الاجتماعية المهذبة التى نجدها دائماً فى المجتمعات المتمدنة . وينبغى أن نفرق دائماً بين الحرية وبين الفساد الخلقى ، فمجتمع مكة لهذا العصر ، عصر النظرية الغنائية أو العصر الأموى ، كان يسوده ضرب من الحرية ، ولكن لم تكن تسوده ضروب التحلل الخلقى كما قد يترأى لمن يقرأ أخبار عمر بن أبى ربيعة وما نسجه خيال الرواة من مبالغات .

ومهما يكن فقد دار هذا الغزل أو هذه الأغاني حول تصوير الحب فى صراحة ، وفى حرية لا تؤدى الذوق ، فالشعراء يصورون حياتهم الفارغة إلا من هذا الحب وما يجدون فيه من وَصَبٍ وشقاء وعذاب .

وإذا تركنا الموضوع الذى عاجلته هذه الأغاني إلى لغتها لاحظنا أنها لا تُساق فى عبارة ضخمة غير مألوفة ، وإنما تساق فى عبارة عادية . وقرأ فى ديوان عمر أو فى ديوان ابن قيس الرقيّات فإنك تجد لغة قريبة منك كأنما كتبت بالأمس ،

فليس فيها صعوبة ولا غرابة ، ولا تكلف للفظ ولا لعبارة . وهذا من أهم ما يميز الأغاني في جميع عصورها ؛ فهي شعر لم يُكْتَبْ لطبقة أرستقراطية في الأدب ، وإنما كُتِبَ للشعب وللعمامة ، ومن أجل ذلك لا يعدل صاحبه إلى لغة الأدب الرفيعة ، وإنما ينطلق مع اللغة الشعبية ، فهو أدب شعبي إن صح هذا التعبير .

واستعرض النصوص المختلفة التي يروي أبو الفرج أنها أُلِّفَتْ في مكة في أثناء العصر الأموي ، فإنك تجدها دائماً خفيفة ، فالشاعر كان يتخذ لغته غالباً من الحديث الشعبي حتى يخاطب القلوب مباشرة وكأنه كان يريد بشعره غاية شعبية ، أو بعبارة أخرى كان يريد أن تحمله أفواه الجماهير وأن تقبله آذانهم ، وأن يدور في مجالسهم وأحاديثهم ، لأنه من جهة قريب منهم في لغته ، ثم هو من جهة أخرى مصوّر لحياتهم اليومية وحياة شعرائهم التي تجري تحت أعينهم ، فهو كالمرآة الصادقة ، يستبين فيها المكي تقاسم عواطفه ووجداناته .

ولا نعجب بعد ذلك إذا رأينا ابن سلام يلاحظ على الشعر المكي في الجاهلية ليناً ، فتلك صفة استمرت فيه من الجاهلية إلى العصر الأموي ، عصر عمر بن أبي ربيعة وأصحابه ، لسبب بسيط ، وهو أن هذا الشعر كان شعر مدينة اتصلت قديماً بالغناء ، وأريد لشعرها أن يُغَنَّى وأن تحمله أفواه الناس الذين كانوا يعيشون مع الشعراء هناك . وما من شك في أن هذه الظاهرة ، ظاهرة اللين ، أخذت تتسع ، أو قل أخذ سلطانها يتسع بعد العصر الجاهلي ، بحكم التطور الذي أصاب مكة تحت تأثير العناصر الأجنبية التي ملأت شعابها ودورها . وبون بعيد بين مجتمع مكة في الجاهلية ومجتمعها في العصر الأموي ، فقد غلبت عليه في العصر الأخير العناصر الأجنبية من فارسية ورومية وأخذ يُطَبَّعُ بطوايع غريبة عنه . وبديهي أن الذين كانوا يعيشون في مكة حينئذ لم يكونوا يحسنون من العربية ما كان يحسنه أسلافهم القدماء ، فقد تحضروا واختلطوا بموال من أمم مختلفة ، وعاشروهم ، وعاشوا معهم في دورهم وقصورهم . وطبيعة الحياة اللغوية وما يحدث فيها عادة تحت تأثير مثل هذه الظروف ، تجعلنا نتخيل بأن لغة المكين تطورت حينئذ ، وأنها اتخذت سُبُلًا مختلفة إلى السهولة والبعد عن الغرابة .

ولعل هذا ما جعل اللغويين ينفرون من الاستشهاد بأشعار المكين من مثل عمر

وابن قيس الرقيّات ، فقد كانوا لا يؤثّقونهم ، ولا يعدّونهم فصحاء^(١) ! لهذا الاختلاط بالأعاجم الذى صاروا إليه . وليس من شك فى أن هذه الأغاني التى كان يريد أصحابها لمجتمعهم أن يحملها وأن تدور بها ألسنته وتتقبله آذانه كانت تُصنّع بحيث تلائم هذا المجتمع الجديد وما فيه من عناصر أجنبية . وأظن أننا لم ننس ما قلناه فى الفصل السابق من أن الذين نهضوا بالنظرية الغنائية عند العرب كانوا من الأجانب مثل ابن مسّجح وابن مُحَرَّر وابن سُرَيْج والغريّض ، فطبيعى أن يؤلف لهم عمر وأصحابه الشعر الذى يغنون فيه من لغة سهلة دانية منهم ، يستطيعون أن يفهموها فى سر وبدون مشقة .

ومعنى ذلك أن عوامل كثيرة تضافرت على أن تصبح لغة الأغاني المكية فى العصر الأموى لغة قريية من حديث الناس المألوف ، فيها لين ، وفيها عذوبة ورقة ، وفيها هذه الشفافية لا عن الفكر الذى تؤديه بل عن القلوب نفسها التى تعبر عنها . فقد رُفِعَ الحجاب بين اللغة والقلوب التى تؤدى عنها من جهة ، كما رفع الحجاب بين هذه اللغة وبين القلوب التى تخاطبها . فهى لغة من محيطهم ، محيط أحاديثهم الشفوية ومحيط أحداثهم ووقائعهم اليومية . ومن هنا كنا نجد متعة لا تقدّر فى قراءة هذه الأغاني المكية إذ تعبر عن كل ما فى نفس صاحبها تعبيراً صافياً فيه واقعية إلى أقصى حد ممكن ، وفيه قرب من قصة القلب الإنسانى أيضاً إلى أقصى حد ممكن . وإذا انتقلنا إلى موسيقى هذه الأغاني ، لاحظنا فيها أيضاً ما لاحظناه فى لغته ، فهى موسيقى شفافة لا تحجب شيئاً مما وراءها ، بل إنها تأتى لتكمل التعبير مع المعانى التى تحملها ، وهى موسيقى شعراء متحضرين قد أثّرت ذوقهم وأثّرت شعورهم ، لذلك لا نحس فيها بشذوذ فى نغمة ولا بخدوش فى نبرة .

وأصبح المثل الأعلى عند هؤلاء الشعراء أن تكون أوزانهم سهلة خفيفة حتى تتلاءم وهذا الغناء الجديد وما يُطوى فيه من ألحان ، وكان الناس يستهويهم الغناء الخفيف ، وقبلما أعجبوا بالغناء الكامل التام . واشتهر ابن سُرَيْج ، أهم المغنين فى مكة ، بأنه يحسن هذا الضرب من الغناء^(٢) إحساناً شديداً ، فإذا عرفنا أن ابن سريج كان يلزم

(٢) أغاني ٦٨/١ .

(١) أغاني ٨٨/٥ .

عمر بن أبي ربيعة يلحن له شعره ويغنيه ، عرفنا إلى أى حد كان له أثر في عُمر وشعره . ويقول أبو الفرج : إن ابن سريج كان يميل في غنائه إلى الأرمال والأهزاج^(١) . وليس من شك في أن هذا هو السبب الصحيح في أن هذين الوزنين اللذين يندمجان اندماجاً تاماً في هذه الألحان ، وهما الرمل والهزج ، يكثران في ديوان عمر كثرة مفرطة ، كما تكثر الأوزان الخفيفة من مثل المتقارب والمديد والوافر والخفيف والرجز . وكل ذلك ليلائم بين شعره والمغنين من حوله وما يطلبونه لتلحينه ، ولم يكن ابن سريج وحده الذي يطلب الغناء الخفيف ، فقد كان الغريض مثله^(٢) . وإذن فالمغنيان الكبيران اللذان لازما عمر وغنّيا له شعره ولحنّاه كانا يميلان إلى الغناء الخفيف ، فلا عجب إذا وجدنا ديوانه بعد ذلك يمتاز بظاهرة الموسيقى الخفيفة والأوزان السهلة القريبة .

وليس هذا كل ما يلاحظ من تأثير للمغنين والغناء على الأغاني في هذا العصر . فنحن نظن ظناً أن هذه الأغاني حدثت فيها تعديلات كثيرة في أوزانها تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة . ولنتصور الآن أن الملحنين عندنا والمغنين يسعون جادين إلى إحداث نظرية غنائية جديدة فيها أثر للألحان الأجنبية ، أليس ذلك يتطلب من الشعراء جهداً حتى يلائموا بين أوزان شعرهم وهذه النظرية الجديدة ؟ وأقصر ما في المسألة وأقلها خطراً ، أن المغنين من دأبهم أن يمدوا في حروف بعض التفعيلات أو يهمسوا . وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً طفيفاً أو كثيراً في موسيقى المقطوعة التي يغنونها ، وما دام الشعراء كانوا يعيشون معهم مختلطين ممتزجين كما قدمنا ، فلا بد أنهم كانوا حين يلاحظون ذلك يأتون لهم بمقطوعات جديدة تتلاءم وما يريدون من مدّ وهمس أو تطويل وحذف .

وقد وضع الخليل بن أحمد في عروضه اسمين لمثل هذه التغيرات هما : الزحافات والعلل . وما نشك في أن هذه الزحافات والعلل إنما تمت تحت تأثير ضروب من الغناء في الجاهلية والإسلام جميعاً ، غير أنها اتسعت الآن بحكم هؤلاء المغنين من الأجانب ونظريتهم الغنائية الجديدة .

(١) أغاني ٢٧٦/١ وانظر ٢١٩/٤ وكذلك (٢) أغاني ٢٧٦/١ .

ولم يكتف الشعراء بهذه التغييرات الداخلية في الأوزان ، بل اتجهوا إلى عمل آخر يتضح في شعر عمر وغيره من المكيين في هذا العصر ، وهو الحذف في تفاعيل الوزن ؛ ومن هنا كثرت المجزوءات لا في الأوزان الطويلة المعقدة فحسب ، بل أيضاً في الأوزان الخفيفة السهلة من مثل الرجز والخفيف والمديد والرمل والمتقارب والهزج ، فكل هذه الأوزان نجد مجزوءاتها منبثة في شعر المكيين في أثناء العصر الأموي .

وتمّ ذلك كله تحت تأثير الغناء وهذا الالتحام الشديد بين المغنين والشعراء من جهة ، ثم بين الغناء والشعر نفسه من جهة أخرى . وليست لدينا معلومات واضحة عن مدى معرفة عمر وابن قيس الرقيات والعرجي وأضرابهم لنظرية الغناء التي عاصرتهم ، ولكن على كل حال هذه المعرفة ليست ضرورية ، فيكفي أن يوجههم المغنون لما يريدون . ومع ذلك فنحن نجد من معاصريهم شاعراً يسمى الدارمي يقول أبو الفرج عنه : إن له أصواتاً يسيرة ، وقد روى له صوتاً من المائة المختارة لهرون الرشيد وهو قوله (١) :

أَفَقُّ يا دارميُّ فقد بُلَيْتَا وإنك سوف توشك أن تموتا
أراك تزيدُ عشقاً كلَّ يوم إذا ما قلتَ إنك قد بَرَيْتَا

والصوت من وزن الوافر . وليس من شك في أن الدارمي هذا يُعدُّ مثلاً طريفاً للشعراء المكيين ومدى تأثرهم بالغناء الجديد ، فهو يسعى إلى تعلمه ، كي ينظم شعره حسب ما يريد من ألحان ، أو كي يقع من المغنين في عصره موقعاً حسناً فيغنّوه .

وعلى هذا النحو كان أصحاب الأغاني يجددون في أوزانهم تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء ، وقد رأوا أن يختاروا للمغنين أوزاناً أكثر بساطة وأكثر ألفة ، فعمدوا إلى الأوزان السهلة الخفيفة ، ولم يكتفوا بذلك بل غيَّروا في مدّ حركاتها وتقصيرها عن طريق الزحافات والعلل ، ولم يكتفوا بذلك أيضاً ، بل ذهبوا يجرِّثون فيها ويعدّلون حتى تحمل كل ما يريد المغنون لها من إيقاعات وأنغام وألحان .

(١) أغاني ٤٤/٣ وما بعدها .

شغف المكين بأغاني الغزل

إذا قرأنا في كتاب الأغاني الأخبار التي يسوقها عن المكين في هذا العصر شعرنا كأنما كانت هناك خيوط محكمة تصل بين قلوبهم جميعاً وبين قلوب شعرائهم الذين انطلق المغنون يغنون في أشعارهم ، ويحيل إلى الإنسان كأنما أصبحت أغاني الغزل شغل الناس الشاغل ، فهم يملأون بها أفواههم وأسماعهم وأوقاتهم ، يشترك في ذلك الرجل والمرأة ، والغنى والفقر ، والحر والمولى ، والعابث المستهتر والعباد الورع . فقد تحولت مكة إلى أغان وغناء ، واحتدّت الموجة فشملت النساك والفقهاء من أمثال ابن عباس وعطاء ابن أبي رباح وابن جريج . قال أبو الفرج : « بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين مُوردين أو مُصَّرين ، حتى دخل وجلس » فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا ، فأنشده :

أمن آل نعيم أنت غادٍ فمُبَكِّرُ غداة غدٍ أم رائحٌ فمُهَجِّرُ
حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : الله يا ابن عباس !
إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد ، نسألك عن الحلال والحرام فتتناقل عنا ، ويأتيك غلام مُتَرَف من مترى قريش ، فينشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيخسر
فقال ابن عباس : ليس هكذا قال ، قال : فكيف قال ؟ فقال : قال :
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيخسر (١)
فقال ابن الأزرق : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال فإني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها . . . ثم أقبل على عمر بن أبي ربيعة ، فقال أنشد ، فأنشده :

(١) يضحى : يظهر للشمس ، يخسر : يبرد .

تَشْطُّ غَدًا دَارُ جِيرَانِنَا وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أُبْعَدُ

وكان ابن عباس بعد ذلك كثيراً ما يقول : هل أحدث هذا المغيرى شيئاً بعدنا^(١) . وإذا كان ابن عباس مع جلاله ووقاره ومجلسه في الدرس بين سائليه من فقهاء العراق وفقهاء الخوارج يتركهم ليستمع إلى ابن أبي ربيعة وما أحدث في قصة الحب المكي ، فغيره من أهل مكة كان أشد إعجاباً بابن أبي ربيعة وزملائه من أصحاب الأغاني بل أشد شغفاً وسحراً .

ويظن الإنسان أنه لم يعد في مكة إلا هذا الشعر يتناقله الناس ويغنى فيه المغنون والمغنيات ، وكان من عبّادهم وفقهائهم مَنْ إذا سمعه أخذ يرقص^(٢) . واستمع عطاء ابن أبي رباح يوماً إلى شيء من هذا الشعر فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا به^(٣) ، وكان ابن جريح مثل أستاذه يفتن به فتنة شديدة^(٤) .

وعلى هذا النحو كان ابن عباس وغيره من الفقهاء يروون هذه الأغاني في المسجد الحرام ويُتشدونها ويستشدونها أصحابها وكان غيرهم من المكيين يرونها في الطرقات والمنعطفات وفي شعاب مكة وبطاحها وفي ضواحيها ومتنزهاتها ، إذ لم يكن للقوم من لهُوٍ يلهون به سوى الغناء والأغاني التي كانت تقصّ قصصاً بديعاً رواية الحب المكي وفصولها اليومية .

وكانت الطريقة التي تحمل بها هذه الأغاني إلى الناس في مكة طريقة محببة إلى نفوسهم ، ألم تكن الغناء الذي كانوا يفتنون به هو الآخر فتنة بعيدة ؟ . وهكذا أخذت تنشر هذه الأغاني الشغف حولها بما تحمل من معانٍ قريبة كأنها انتزعت من قلوب المكيين جميعاً .

وإنّا لتزعم أن المكيين عاشوا حينئذ معيشة كلها شعر وغناء ، بل قل كلها طرب وموسيقى ، وكانوا في هذا العصر - كما مرّ بنا - يقولون : « إذا أعجزك أن تُطرب القرشي ، فغنّه غناء ابن سُرَيْج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرقصه » . وهكذا كانت مكة في عصر ابن أبي ربيعة كلها طرب وغناء .

واندفع في هذا الطرب الرجال والنساء ، فكانت هناك الثريا بنت علي

(٣) أغاني ١/٢٥٧ .

(١) أغاني ١/٧٢ .

(٤) أغاني ١/٣١٦ .

(٢) أغاني ١/٣١٦ وانظر ١/٢٩٠ .

ابن عبد الله الأموية ، وكان في بيتها من موالها يحيى قَيْل والغريض وُسْمِيَّة ، وكانوا جميعاً يَغْنُونُها في شعر عمر وغيره من الغزلين في مكة وأحياناً أيضاً يَغْنُونُها في شعر الغزلين في المدينة .

١ وكان القرشيون يعرفون لعمر وشعره هذا التأثير في أهل مكة رجالاً ونساء . حَدَّثَتْ ظَبِيَّةُ مولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب أنها مرت بجدها عبد الله بن مصعب وهي داخلة منزله وهو بفنائها ، ومعها دقتر فقال لها : ما هذا معك ؟ ودعاها . فجاءته ، وقالت له : شعر عمر بن أبي ربيعة ، فقال : « ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة ! إن لشعره لموقعاً من القلوب ومدخلاً لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو (١) » .

ولعل مما يدل على شَغَفِ النساء بهذه الأغاني أن نجدهن لا يتحرَّجن من أن يذكرن فيها وأن يتغنى الشعراء بأسمائهن ، ومن هنا تردد اسم الثريا بنت علي الأموية في شعر عمر كما تردد اسم زينب بنت موسى الجمحية ، وغيرهما من شريفات قريش . وكأنما كن يتخذن من هذه الأغاني ما تتخذه المرأة من الصحافة الحديثة ، فهن يُعْلِنْنَ عن أسمائهن فيها ويتخذن من الشعراء ما تتخذه المرأة الحديثة من مصوِّري الصحف ، وكن يَسْتَبِقْنَ إلى هذا استباقاً . ولم تشرك فيه المكيات المقيّبات وحدهن ، بل اشترك فيه المكيات اللاتئي هاجر آباؤهن إلى المدينة أو إلى دمشق ، فكانت تطلبه - إن صح ما يقوله الرواة - السيدة عائشة بنت طلحة (٢) . بل إننا نجد أبا الفرج يروى - كما مر بنا في كتاب المدينة - أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبي ربيعة ألف دينار كي يذكرها في شعره ، وأن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء أن ينظموا فيها شعراً ، فبعضهم تشجع ونظم ، وبعضهم جَبُنَ ، واكتفى بالنظم في جواربها .

وفي هذا ما يدل على أي حد كان يُشَغَفُ بعض النساء بهذه الأغاني ، حتى إن كلا منهن تريد أن تظهر في مرآتها الصافية ، إذ كانت هذه المرأة تلمع في أيدي المغنين

والمغنيات لمعاناً شديداً قوياً له بريقه المؤثر في نفوس الرجال وقلوبهم . ولم يكن النساء يجدن في هذا عيباً ولا ما يشبه العيب ، بل كن يجدن فيه شرفاً ، فالنساء دائماً هن النساء ، يحببن الثناء على حسنهن والتغنى بجمالهن .

وانساق المكيون جميعاً يصفقون لهذا الشعر الذى يُغنى ، والذى يطربون له أى طرب ، فهو كل بهجتهم فى مدينتهم وكل مسرتهم فى حياتهم . وانساق معهم الفقهاء والعباد على ما قدمنا ، بل إننا نجد منهم من يساهم فى هذا الشعر ، فقد كان هناك ناسك من نساك مكة وقرائها يسمى عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشمى ، وكان يُلقب بالقسّ لعبادته ، فتصادف أن اشترى سلامة نبيلٌ من نبلاء مكة يسمى سهيل بن عبد الرحمن ، وأحضرها معه من المدينة ، وأخذت تغنى فى داره ، فسمعها القسّ على غير عمد منه ، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ ، وما لبث أن شُغف بها وشهر ، فغلب لقبه عليها ، وتُسمّى سلامة القس ، وفيها يقول (١) :

سلامٌ هل لى منكم ناصرٌ أم هل لقلبي عنكم زاجرٌ
قد سمع الناسُ بوجدى بكم فمنهم اللائمُ والعاذرُ

وأخذت أرجاء مكة تردد هذه القصة الطريفة وتردد ما يقوله فيها القسّ ، وهى مشفقة عليه ، ولكن ماذا تستطيع مكة ، وسلامة ليست حرة ، وفى ملك نبيل من نبلائها ؟ وسعرت هذه الحال القسّ فلم يستطع إفلاتاً منها ، بل لقد اشتعل قلبه ناراً ، وامتلأ فؤاده حزناً وكمداً ، فذهب يقول (٢) :

سلامٌ ويحك هل تُحيين من ماتا أو ترجعين على المحزون ما فاتا

ولم يلبث يزيد بن عبد الملك أن أرسل إلى سلامة يشتريها من مولاه ، فلم يستطع أن يمنعها دونه ، ولا استطاع أهل مكة أن يبقوها لصاحبهم ، فتولى أسفاً يكاد يتميز حسرة ولوعة . ولم يكن له إلا الشعر ينفث فيه حرق قلبه ولواعج فؤاده من مثل قوله (٣) :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصرٌ وهل أنت عن سلامة اليوم مقصرٌ

(١) انظر الأغاني ٣٣٦/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣٣٩/٨ .

(٣) أغاني ٣٣٦/٨ .

ألا ليت أنى حين صارت بها التوى جليسٌ لسلَمَى حيث ما عَجَّ مزَهْرٌ
ويقول أبو الفرج : إن للقس أشعاراً كثيرة يطول ذكرها^(١) . وليس من ريب
فى أن هذه الأشعار كانت تروع المكين روعة شديدة ، فهى من الأغانى التى كانوا
يشغفون بها . وهى لعابدهم القس المشهور .
وعلى هذا النحو كان عبّاد مكة لا يعجبون بالأغانى فحسب ، بل كانوا
يساهمون فيها . ويشتركون فى صنع مقطوعاتها ، فهى الشعر الذى يشغفون به
شغفاً شديداً . وهى الشعر الذى يطلبه الرجال والنساء والأشراف والشرقيات ،
وهى الشعر الذى يغنيه ابن سريج والغريص وابن مشجج ومن لف لفهم على آلتهم
الموسيقية . وكأنما كان أهل مكة جميعاً لا يملكون إلا أن يجرؤا وراء هؤلاء العزّاف
يستمعون فى نشوة إلى أغانيهم ، التى تفيض سحراً وجمالاً . وتذوب رقة وعذوبة .



أغاني الغزل على كل لسان

لعل من أهم ما يميز العرب فى مختلف عصورهم أنهم أمة شاعرة تُعنى بالشعر
وروايته وحفظه ، وجاء الإسلام وليس لهم رباط يربطهم إلا ما يصنعه شعراؤهم
وينشدونه أو يغنونه من قصائد ومقطوعات تردّد فى كل مكان من الجزيرة العربية .
وقد أخذ سلطان هذا الشعر على نفوسهم يضعف بتزول القرآن الكريم على رسول
رب العالمين ، وزاد فى ذلك أنهم شغلوا فى صدر الإسلام بالجهاد والفتوح ، ولكن
لا نكاد نتقدم بعد ذلك حتى نجدهم يهدون ويستقرون ويعودون إلى الشعر سيرتهم
الأولى . وكأنهم كانوا يشعرون أنه الحافظ لهم من فنائهم .
وأخذت كل قبيلة تقدم شعراءها وتهدى شعرهم إلى القبائل الأخرى إما مديحاً
وإما هجاء . ودارت هذه المعارك من الشعر التقليدى فى إقليم العراق ، حيث كان
جرير والفرزدق والأخطل يترامون بسهام الهجاء كما كانوا يهدون أزهارهم وبقاقتهم

من المديح إلى الأمراء والخلفاء . بينما شُغلت الحجاز في مكة وغيرها من الحواضر بالأغاني التي وصفناها فقد انكبَّ الناس عليها انكباً ، وكادت ألا تبقى فيهم بقية لهجاء ومديح ، فقد شُغفوا بالقصة الكبرى ، قصة القلب الإنساني ، ولم يكادوا ينظرون في القصص المحلية الصغرى ، قصص العرب وحروبهم في الجاهلية على نحو ما نجد في نقائض جرير والفرزدق .

وقد يكون من الطريف أن نعرف أن شعر القصة الكبرى ، أو بعبارة أخرى أغاني الغزل كانت أكثر ذبوعاً وانتشاراً من شعر القصص الصغرى ، أو الشعر التقليدي ، لأنها من جهة تحكى وقائع وحوادث حاضرة تتصل بحياة العصر وما انبث فيه من ألوان ترف ، ثم هي من جهة أخرى تُغنى وتنقلها ألحان الغناء في العالم الإسلامي .

وفرق بين شعر تتصل حوادثه أو قل أكثر حوادثه بالجاهلية ، وقصص المحاربين القدماء ، وما كان من أيام وحروب حينئذ ، فإن ترك ذلك فإلى مديح السادة والأشراف بصورة قديمة موروثة . فرق بين هذا الشعر وشعر عمر بن أبي ربيعة وأصحابه الذي كان يحكى قصة الحب ووقائعها في مكة في أثناء مواسم الحج وبعد هذه المواسم . وقد أثر عن الفرزدق أنه استمع إلى بعض شعر عمر فقال : « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار (١) » . وقال جرير : « هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه (٢) » .

وهذا اعتراف واضح من زعيمى الشعر التقليدى في العصر الأموى بتفوق عمر وأصحابه حين ولوا وجوههم نحو هذه القبلية الفنية الجديدة ، قبلية التعبير المباشر عن خطرات القلب وأوهامه وأحلامه وآلامه وآماله . وقد رأينا كيف أن هذا الشعر كان يستهوى أفئدة فقهاء مكة وعُبادها ، كما كان يستهوى فتياتها وشبانها وشبيها ، وأيضاً فإنه كان يستهوى المرأة النبيلة الشريفة ، ففيه كانت تُرسم صورها ، وفيه كان يتردد اسمها .

وإذا كان الخلفاء الأمويون اشتهروا بطلبهم للشعراء التقليديين كي يسمعوا

مدائحهم فيهم ، فإنهم أخذوا منذ يزيد بن معاوية يستقدمون المغنين والمغنيات في الحجاز كي يُسمعهم الأغاني التي يغنون فيها . وأقام الوليد بن عبد الملك حفل استقبال في دمشق لابن سُرَيْج كما قدمنا ، ثم كان يزيد أخوه فبالغ في استقدام مغني الحجاز ، وأكثر من إقامة الحفلات لاستقبالهم^(١) ، وابتاع حَبَابَةَ^(٢) وسَلَامَةَ القس^(٣) ، وعاش معيشة غنائية خالصة طوال حكمه . ولم يلبث أن خرج من بيته وتحت تأثير هؤلاء المغنين وشعرهم الذي يتغنون فيه شاعرٌ ممتاز ، هو الوليد بن يزيد ، الخليفة المشهور بضربه وغناؤه وأصواته في شعره^(٤) .

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى تتفوق أغاني الغزل نهائياً على الشعر التقليدي في بلاط الخلفاء ، بل إنه يبلغ من نفوذها هناك أن يتحول إليها خليفة من خلفاء الأمويين . وليس من ريب في أن ذلك كان أثراً من آثار شيوع الأغاني على كل لسان .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق مكان إلا وشاع فيه هذا الشعر ودار على جميع الألسنة . وكان من أهم الأسباب في ذلك أنه قُيدَ بالأحان المغنين ، فكان من يطلب سماع لحن من الألمان عند مغنٍ مشهور في الحجاز يسمع في أثنائه هذه الأغاني الطريفة . وكان الشعراء أنفسهم يعملون على أن يذيعوها عن طريق المغنين ، فعمر ابن أبي ربيعة يلزمه مغنيان مشهوران ، هما : ابن سُرَيْج والغريص ، فلا يكاد يرسل مقطوعة من الشعر ، حتى يلحناها له ، وحتى يحفظها في صندوق أنعامها . ولم يكونا وحدهما اللذان يصنعان ذلك ، فقد كان من ورائهما من مغني مكة من يصنع صنعهما ، بل كان يصنع ذلك أيضاً مغنو المدينة ، بل لقد كان لذلك أثره في العراق فيما بعد ، فإن مدارس الغناء حين ظهرت هناك في العصر العباسي أخذ المغنون يتداولون الألمان القديمة ، ويضيفون إليها ألحاناً جديدة ، مما أعطى لأصحاب الأغاني فرصة واسعة كي يُحفظ شعرهم من جهة ، ويذيع ويتشتر من جهة أخرى . وقد روى أبو الفرج لابن أبي ربيعة قصيدته التي تبدأ بقوله الذي سبق أن أنشدناه :

تَشْطُ غداً دارُ جيراننا وللدائر بعد غدٍ أبعدُ

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٣٤٣/٨ .

(١) أغاني ١٠٩/٥ .

(٤) انظر ترجمته في الأغاني ١/٧ وما بعدها .

(٢) أغاني (طبع بولاق) ١٥٦/١٣ .

ثم ذكر عقبها من غنوا فيها ، فإذا هو يذكر أن الذي أحصى فيها إلى وقته تسعة عشر لحناً ، ومن غنوا هذه الألحان من المكيين ابن مسجج وابن سريج والغريص والأبجر ، في حين غنى فيها من المدنيين معبد ومالك الطائي ويونس الكاتب وأشعب ، أما العباسيون فغنى فيها منهم أحمد بن يحيى المكي وإسحاق الموصلي وابن جامع وعليّة بنت المهدي^(١).

وما حدث في هذه الأغنية حدث في كثير من أغاني الغزل الأخرى لابن أبي ربيعة وغيره من الشعراء المكيين أمثال ابن قيس الرقيات والعرجي ، فقد كان الشاعر يصنع القطعة الغزلية وما يلبث المغنى أن يلحنها ، ولم يكن يلحنها مغنو مكة وحدهم بل كان يلحنها أيضاً مغنو المدينة . ومن يرجع إلى أخبار المغنين والمغنيات في المدينة أثناء العصر الأموي يجد أكثر أصواتهم التي غنوا فيها لشعراء مكة ممن سميانهم . وكان هؤلاء الشعراء أنفسهم يرحلون إلى المدينة يطلبون إلى مغنيتها ومغنياتها ، أن يلحنوا لهم أشعارهم ، وأعطى ابن أبي ربيعة أحد مغني المدينة وهو الدلال مائة دينار على صوت من شعره غناه فيه^(٢) ، وكان عمر كثيراً ما يذهب إلى دار جميلة ليستمع فيها إلى بعض شعره الذي يغنى هناك^(٣) . ولم يكن عمر وحده الذي يذهب إلى دار جميلة ليستمع إلى شعره يغنى هناك ، فقد كان يصنع صنيعة العرجي^(٤).

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين ينقلون غزلهم ومقطوعاتهم إلى المدينة ، بل كان ينقل ذلك أيضاً المغنون أنفسهم ، فنحن نجدهم دائماً في المدينة وفي دار جميلة بالذات يتغنون شعر عمر وأصحابه ، يصنع ذلك ابن مسجج وابن سريج والغريص^(٥) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان المغنون المدنيون أنفسهم يرحلون إلى مكة يأخذون عن مغنيتها ، صنع ذلك منهم كثير ، وعلى رأسهم معبد مغني المدينة الذائع الصيت^(٦) . ويخيل إلى الإنسان أنه كانت هناك رحلة مستمرة بين مغني مكة والمدينة ، فلا يسمع الأولون بمغن مشهور ينشأ في المدينة إلا ويرحلون إلى سماعه ، وكذلك لا يسمع الآخرون

(٤) أغاني ٢٣٠/٨ .

(٥) أغاني ٢١٠/٨ وما بعدها .

(٦) أغاني ٥٧/١ .

(١) أغاني ٨٦/١ .

(٢) أغاني ٢٩٦/٤ .

(٣) أغاني ٢٠٨/٨ .

بمغن مشهور في مكة إلا ويقصدونه . وهؤلاء وأولئك جميعاً يملأون حقايبهم وصناديق غنائهم بالشعر المكي ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز . عند المغنين هنا وهناك أى الشعراء كان أغلب عليه ، شعراء بلدته أم شعراء البلدة الأخرى ، فشعر الأحوص يتردد في مكة كما يتردد شعر عمر وأصحابه في المدينة . غير أن من يُنعم النظر يلاحظ أن المدينة ، وإن نافست مكة هذا العصر منافسة شديدة في الغناء حتى كادت تسبقها فيه من بعض الوجوه ، فإنها لم تستطع أن تظفر هذا الظفر في الأغاني ، فكل من يقرأ كتاب الأغاني يلاحظ أن عمر وأصحابه كان شعرهم أشد ذيوياً وأكثر انتشاراً لا في مكة نفسها بل في المدينة أيضاً . وآية ذلك أن ترجمة الأحوص وأشعاره التي غُني فيها لم تستفد من كتاب الأغاني إلا صفحات معدودة في حين استفدت أخبار عمر وأشعاره ، وبعبارة أدق كادت أن تستفد . المجلد الأول من كتاب الأغاني . وليس للمدينة بعد الأحوص شاعر أغان يمكن أن تضعه في صف ابن قيس الرقيات أو العرجي ، بل حتى في صف الحارث بن خالد المخزومي .

وإذن فمكة هي ذات الحظ الأول من أغاني الغزل في الحجاز في أثناء العصر الأموي . هذا الشعر الذي كانت تردده حلوق المغنين في كل مكان من الحجاز : في مكة وفي المدينة ، وأيضاً في الطائف ، ووادي القُرى . أما الطائف ، فكان يتزل في أوديتها العُرجي ، ويقضي هناك أكثر أيامه وأوقاته ، وكان ينزلها معه فند المغني^(١) ، وكان كثير من أشرف مكة وشريفاتها ينزلها ، وخاصة في الصيف ، وكان ممن ينزلها الثريا^(٢) بنت علي بن عبد الله الأموية ومعها موالها ، وعلى رأسهم الغريض ويحيى قَيْل وسُمَيَّة .

وليس من شك في أن هؤلاء المغنين عملوا على إذاعة أغاني الغزل المكية هناك ، وطبيعي أن تعم هذه الأصوات المحببة إلى كل نفس ، وأن تدخل كل دار ، وأن تُغنى في كل منعطف وشعب من منعطفات الأودية وشعابها . وهذا نفسه نلاحظه في وادي القُرى ، فقد كان يفد منه المغنون على مكة يتعلمون الضرب والغناء . ومن أشهر من وفدوا منه عمر^(٣) الوادي مغني الوليد بن يزيد ، ويروى أبو الفرج عن

(٣) أغاني ٨٥/٧ .

(١) أغاني ٣٩٣/١ .

(٢) أغاني ٢١١/١ .

عمر - كما مرّ بنا - أنه سمع صوتاً يغنيه بعض البدو فأعجب به إعجاباً شديداً وأخذه عنه ؛ وكان يقول : إنه لم يترنم به جائع إلا شبع ، ولم يغن به وهو كسلان إلا نشط ، ولم يلحنه وهو مستوحش إلا أنس .

وعلى هذا النحو كان الحجاز كله بحواضره وبواديه يتناقل هذه الأغاني المكية ، إذ كانت بدعة العصر ، وكان الناس يجدون فيها وفيما اقترن بها من ألحان وأنغام متعة لا تقدر . ولم يقف انتشارها عند الحجاز كما مرّ بنا ، فقد أخذت تفرّ على الشام ، بل أخذت الشام تشارك فيها عن طريق الوليد بن يزيد . وكما عرقها الشام عرقها اليمن ، فقد فرّ إليها الغريض حين تعقبه نافع بن علقمة وإلى مكة ، وهناك نشر ألحانه ، وما حملته من هذه الأغاني (١) .

وسبق أن عرضنا للمغنين وما كان لانتقالهم في العراق أواخر هذا العصر وأوائل العصر العباسي من آثار مهمة في نشوء مدارس غنائية كبيرة هناك ، فقد انتقل فن الغناء بمغنيه ومغنياته وهذه الرُّقْم الموسيقية التي استحدثها ابن مسجح وتلاميذه في مكة ، وطُوّيس وسائب خاثر وتلاميذهما في المدينة ، انتقل ذلك كله إلى العراق . وطبعاً انتقل الفن بكل ما رافقه من شعر . ورأينا آنفاً كيف أن مقطوعة لعمر بن أبي ربيعة توارد عليها مغنو مكة والمدينة أولاً ثم مغنو العراق من مثل إسحق وابن جامع .

وأظن في هذا كله ما يدل إلى أي حد عمل الغناء على شيوخ الغزل وأغانيه وانتشارها ، فقد كان المغنون الحجازيون أنفسهم ينقلونها إلى دمشق تارة وإلى اليمن أو العراق تارة أخرى ، ونزل الأبحر المغني المكي المعروف بمصر وبها توفي (٢) . ومعنى ذلك أن هذا الشعر كان يحمله المغنون إلى كل بقعة في العالم الإسلامي .

وهناك ممر آخر غير ممر المغنين عمل على ذبوع هذا الشعر وانتشاره في الأقاليم العربية ، ونقصد الحجّ والحجاج الذين كانوا يفدون على مكة من مشارق الأرض ومغاربها ، فأكبر الظن أن بعضهم كان يختلف إلى دور المغنين في مكة . على أن المغنين أنفسهم كانوا يتعرضون لهم وهم يؤدون مناسكهم ، روى أبو الفرج أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يُغنى :

لمن نأر بأعلى الخيِّ في دون البشر ما تخبو
أرقتُ لذكر موقعها فحنَّ لذكرها القلبُ
إذا ما أحمدتُ ألقى عليها المنديلُ (١) الرطبُ

فجعل الحاجُّ يركب بعضهم بعضاً ، حتى جاء إنسان من آخر القطرات فقال :
يا هذا قد قطعت على الحاجِّ حبستهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ،
فقام عنهم وسار الناس (٢) . وسمعه يزيد بن عبد الملك في بعض المواسم - كما مرَّ بنا -
فأعطاه حلَّته وخاتمه (٣) . وروى أبو الفرج أنه رفع صوته مرة يغني في موسم آخر فسمعه
الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت أما تتق الله ؟ ! قد حبست الناس
عن مناسكهم ؛ فيسكت قليلاً ، حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى
أن مرت قطعة من الليل (٤) . ومثل ابن سُرَيْج في ذلك الغريض فقد روى أبو الفرج
أنه كان يعترض بصوته الحاجَّ وأنه رجَّع صوته يوماً وغنَّى في شعر ابن أبي ربيعة :

أيُّها الرائحُ المجدُّ ابتكاراً قد قضى من تِهامة الأوطار

فأصغى الحجاج إليه تعجباً من حسنه ، وتكلم الناس ، فقالوا : طائفة من
الجن حجاج ، استحساناً لما سمعوا (٥) ، ولم يكن مغنو مكة وحدهم الذين يعترضون
الحجاج ، فقد كان مغنو المدينة يصنعون صنيعهم (٦) .

وهكذا كان المغنون الحجازيون يعترضون الحجاج بغنائهم وما يحمل من أغان
وكان يرافقهم في قوافلهم بعض مؤلاء المغنين إما في ترحالهم نحو المدينة أو فيما هو
أبعد من المدينة . واشتهر في هذا العصر - كما مرَّ بنا في كتاب المدينة - أحد
أصحاب القوافل وهو دَحْمان بالغناء ، وهو من المدينة ، ولا بد أنه كان يغني في
قوافله هو وبعض جواريه ، فقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية في إحدى قوافله ،
فاشترأها بعشرة آلاف دينار .

ولعل في هذا ما يدلنا إلى أي حد عمل الغناء على انتشار الأغاني وذبيوعها .

(٤) أغاني ٢٦٢/١

(٥) أغاني ٣٦٢/٢

(٦) أغاني ٢٠٨/٢

(١) المنديل : العود .

(٢) أغاني ٣١٦/١

(٣) أغاني ٢٥٨/١

وكان لقرب موضوعها ومعانيها من نفوس الناس أثر في هذا الانتشار والذيع لا يقل عن أثر الغناء ؛ إذ كان يتناول أصحابها قصة الحب الإنساني ، هذه القصة التي تطرب لها قلوب البشرية في مختلف عصورها ، ومختلف أمكنتها وأقاليمها .

واستطاع شعراء الأغاني في الحجاز وعلى رأسهم شعراء مكة أن ينهضوا بها نهضة واسعة من جميع الوجوه ، وهي نهضة وسّعت طاقة حملها في الصدور ، فإنهم - كما قدمنا - بسّطوا في أوزانها وفي موسيقاها ، كما قربوا لغتها من لغة الناس العامة ، فأصبحت أطوع على الألسنة وأكثر خفة على الأسماع والأفواه . ثم اقترنت بها هذه الطبول والآلات الوترية ، فأضافت إليها شجىً إلى شجىً حيناً على نحو ما كان يصنع الغريص^(١) أو فرحاً إلى فرح حيناً على نحو ما كان يصنع ابن سُرَيْج^(٢) .

والحق أن الغناء أحاط هذا الشعر بهالة من اللهب المستعر ، فإذا هو يلهب القلوب والأفئدة في الأقاليم العربية ، وإذا هذه الأقاليم تَعَنُّوْا له جباهها ، ولا تلبث الشام أن تدخل في هالة اللهب عند الوليد بن يزيد ، ثم تتبعها العراق التي زادت اللهب نيراناً ، وأضافت إلى النور أنواراً . ونحن نقف لنعرض أهم من أشعلوا هذه النيران والأنوار في مكة ، وهما عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرُّقَيَّات .

(١) أغاني ٣٦٢/٢ .

(٢) أغاني ٢٩٠/١ .

الفصل الرابع

عمر بن أبي ربيعة

١

نسب عمر وعشيرته وأهله

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة ، ويغلب عليه أن ينسب إلى جده ، فيقال ابن أبي ربيعة ، وكنيته المشهورة أبو الخطاب^(١). وينحدر عمر وآباؤه من عشيرة مهمة في مكة ، هي عشيرة بني مخزوم ، وكانت أحد البطون العشرة التي تؤولف قريش البطاح ، وكان صوتها مسموعاً بين هذه البطون ، وفي مجلس شيوخها المسمى بالملأ^(٢).

وما زال نجم المخزوميين يصعد في أواخر العصر الجاهلي حتى أصبحت لهم شهرة مدوية في الجزيرة العربية ، وخاصة هذا الفرع الذي نجم منه عمر ، فقد كان أهم فروع المخزوميين ، إذ كان آباؤه وأعمامه يُعدّون من سادة قريش الأولين . وكان أحدهم وهو هشام بن المغيرة يُلقب بربّ قريش^(٣) ، وكل من يقرأ السيرة النبوية يعرف اسم أخيه الوليد بن المغيرة . ويقول أبو الفرج إنه كان سيداً من سادات قريش وجواداً من أجوادها ، وكان يُعجب كيف ينزل القرآن الكريم على الرسول ، ولا ينزل عليه أو على عمرو بن عمير الثقفي ، وهما عظماء القريتين^(٤) ، وفيه نزل قوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) .

وبجانب الوليد وهشام ابني المغيرة نجد أبا ربيعة جد عمر ، وكان بطلاً من أبطال

(١) أغاني ٦١/١ . ابن هشام ٢٢٨/١ . وانظر تفسير الكشاف

(٢) طبع المطبعة البية ٣٥٠/٢ .

(٣) ابن دريد ص ٦٣ = ٩٤ .

قريش ، وَلَقَّبَ ذَا الرَّمْحَيْنِ لِأَنَّهُ حَارِبٌ يَوْمَ عُكَاظٍ بِرَمْحَيْنِ^(١).

ويظهر أن المخزوميين اشتهروا بالشجاعة في الجاهلية ، ولعل ذلك ما جعل قريشاً تسند إليهم أمر القَبَّةِ والأَعِنَّةِ ، أما القَبَّةُ فإنهم كانوا يضرّبونها ثم يجمعون إليها ما يجهّزون به جيش قريش ، وأما الأَعِنَّةُ فيقصّدون بها أنهم يكونون على خيلها في أثناء الحرب^(٢).

وكما تقدّم المخزوميون في قريش بالشجاعة ، تقدّموا أيضاً بالكرم وبذل المال ، فقلما يتردد اسم شخص منهم ولا يتردد معه ذكر كرمه . وكانوا - على ما يظهر - من تجار مكة الثريين ، ولهذا تردد في أوصافهم كلمة السيادة ، وهي لا تغيى في مكة التاجرة سوى الثراء العريض ، وقد نزلت في الوليد بن المغيرة أيضاً الآيات الكريمة^(٣) (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَيَّنَّ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً) .

وفي هذه الأسرة يلمع اسم عبد الله بن أبي ربيعة ، ويقول أبو الفرج : كان تاجراً موسراً ، وكان متجره إلى اليمن ، وكانت قريش تلقبه « العِدْلُ » لأنها كانت تكسو الكعبة في الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا أنه وحده عِدْلٌ لهم جميعاً . وكان اسمه بَعِجِيراً ، فلما أسلم عام الفتح سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله .

ويقول أبو الفرج : إنه كان لعبد الله عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، وعرض على رسول الله أن يستخدمهم ، ويستعين بهم ، حين خرج إلى حُنَيْنٍ ، فأبى^(٤) . واستعمله الرسول على الجند^(٥) ومخالفها في اليمن ، فلم يزل عاملاً عليها حتى قُتِلَ عمر بن الخطاب ، واستعمله عثمان ابن عفان أيضاً^(٦) ، وما زال والياً له حتى توفي في أثناء حصاره عام خمسة وثلاثين^(٧).

مخلاف وهو الكورة .

(١) أغاني طبع دار الكتب ٦١/١ .

(٢) أغاني ٦٥/١ وما بعدها وانظر أسد الغابة

(٢) ابن عبد ربه ٤٥/٢ .

١٥٥/٣ والطبرى ٣٠٥٧/١ .

(٣) تفسير الكشاف ٥٠٢/٢ .

(٧) الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ١٦١/٣

(٤) أغاني ٦٥/١ :

وشذرات الذهب لابن العماد (طبع القدسي)

(٥) الجند : إحدى ولايات اليمن الثلاث وهي :

٤٠/١ .

الجند وصنعاء وحضرموت « والمخاليف : جمع

وتزوج هذا السيد المثرى ، الذى يقال إن رسول الله اقترض منه بضعة عشر ألفاً يستعين بها فى حربه ضد ثقيف ، من امرأتين ، أما أولاهما فحبشية نصرانية ، جاء منها بالحارث وكان صالحاً ديناً^(١) وخيراً عفيفاً^(٢) ، واستعمله عبد الله بن الزبير على البصرة ثم عزله^(٣) . وأما الثانية فأم ولد يقال لها مجد سُبَيْت من حَضْرَمَوْت ويقال من حمير ، وقد جاء منها بعمر^(٤)

وإذن فعمر يبنى الأم قرشى الأب ، وهو من سلالة أشراف قريش ونبلائها . كان أبوه أحد ساداتها النابغين ، وكان أخوه الحارث أيضاً من ساداتها المقدمين^(٥) ، فهو ابن سيادة ، وثراء ، وشرف ، وكرم ، وعز شديد .

٢

حياة عمر وأخلاقه وصفاته

نبتَ عمر فى أسرة قرشية نبيلة ، ويقال إنه وُلِدَ فى العام الذى قُتِلَ فيه عمر ابن الخطاب^(٦) ، وإذن فقد وُلِدَ عام ٢٣ للهجرة ولم ينص المؤرخون على مسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه وُلِدَ فى مكة ، فالمؤرخون يسلكون أباه فيمن نزل مكة بعد الهجرة إلى الله . ورسوله^(٧) . او من هنا كنا نظن أن مكة أول أرض مسّ تراها عمر ، واستمر فيها فى أثناء نشأته وحياته ، يقول فى بعض شعره^(٨) .

وأنا امرؤ بقرار مكة مسكني ولها هواي فقد سبّت قلبي
ولم يكد عمر يتجاوز الثالثة عشرة من عمره حتى توفى أبوه كما أسلفنا ، وبذلك خلّى بينه وبين أمه الغريبة ، فنشأته كما تهوى ، أو كما تنشئ أم سيّئة فتأها الثرى

(٥) أغاني ١٠/٦٦ .

(١) أغاني ١/٦٦ .

(٦) أغاني ١/٧١ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٥٢ .

(٧) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

(٣) طبري ٢/٦٠٢ وأغاني ١/١١٠ وهو الملقب

(٨) ديوان عمر طبع ليسك ٢/١٧٦ .

بالقباع

(٤) أغاني ١/٦٦ .

ثراء مفرطاً ، ترك له حبله على غاربه ليتناول من اللهو واللعب كل ما تصبو إليه نفسه .

وماذا نريد إلى شاب نُشئ في الحلية والزينة ؟ إن مثل هذا الشاب لا بد أن ينشأ مفتوناً بذيابه وبما حوله من ملاحبها ، وماذا يتقصه ؟ إن داره تكتظ بالجوارى والسبّايا ، التي كانت تكتظ بها دور نبلاء قريش حينئذ ، وليس هناك طُرقة يراها من طرف الدنيا إلا وهو يستطيع أن يفتننها ، وأن يلهو بها ما شاء له هواه .

وكان عمر جميلاً^(١) ، ولم يلبث أن تفجر في نفسه هذا ينبوع العذب ، ينبوع الشعر ، مع فتنة في الحديث ورقة شعور ومزاج ، فأصبح حديث الشباب . وكانت موجة الغناء حادة كما قدمنا ، وكان الشعر هو القطرات التي تعقدها في أسماع الناس ، وكان عمر يحسن إرسال هذه القطرات النفسية ، فتعلّق به مجتمع مكة تعلقاً شديداً .

وانضاف إلى ذلك أن عمر كان ثرياً عظيم الثراء ، فحشد ثراءه لفنه ، فهو يصنع المقطوعة من شعره ، ثم يطلب لها أروع المغنين في عصره ، ليغنوه فيها لحناً خالداً ، ويحيزهم جوائز مختلفة ، فهذا ابن سُرَيْج يعطيه في تلحينه لإحدى مقطوعاته ثلثمائة دينار^(٢) ، وهذا الغريص يعطيه في تلحين مقطوعة أخرى خمسة آلاف درهم^(٣) ، وهذا الدلال يعطيه في تلحين مقطوعة ثالثة مائة دينار^(٤) ، وهذه جميلة يعطيها في تلحين مقطوعة رابعة عشرة آلاف درهم^(٥) . ثم هاتان بغوم وأسماء في داره تغنيانه في كل ما ينظم^(٦) ، وإنه ليعجب بصوت تغنيه جميلة في شعره ، فيرسل لها بإحدى جواريه تطارحها أياماً حتى تتقنه^(٧) .

ويؤمن الإنسان بأن حياة عمر في مكة كانت شعراً وغناء خالصاً ، ولم يكن للناس حينئذ من هو سوى هذا الغناء وما يصاحبه من شعر ، فدار اسم عمر على كل لسان .

(١) خزائن الأدب للبغدادى (طبع بولاق) (٤) أغاني ٢٩٦/٤ .

(٥) أغاني ٢١٠٨/٨ .

(٦) أغاني ١٦٥/١ .

(٧) أغاني ٢٢٢/٨ .

(٢) أغاني ٣٥٩/١ .

(٣) أغاني ٣٢٢/٣ .

٤٢٠/٢ .

وكان مجتمع مكة حينئذ تسوده ضروب من الحرية المهدبة في لقاء الرجال للنساء ، وكانت بعض أحاديث هذا اللقاء تُملأ بالصباية والغزل ، «هل هناك حديث للشباب أمتع من هذا الحديث الذي تروى فيه قصص القلب الإنساني ؟» .
ونعجب الآن إذ نسمع عن هذه الأحاديث وتلك المجالس لأننا نريد أن نتصور مكة في صورتها المتحضرة الجديدة قرية بدوية ، وننسى أنه دانت لها وللمدينة قُبل هذا العصر كل دولة فارس وكثير من دولة الروم ، وأن مجتمعا تطور تحت تأثير العناصر الحضارية التي دخلتها . والمجتمع المتحضر هو المجتمع المتحضر في كل عصر وفي كل مكان .

تحضرت مكة أو قل أغرقت في الحضارة ، ووجدت فيها هذه الطبقة اللاهية من الشباب الذين يقضون أوقاتهم في المتعة بالفنون الجميلة ، وكانت هذه الفنون في مكة لا تتعدى الشعر والغناء الذي يوقع عليه ، فوجدت المجالس التي تتمتع بهذا الشعر وبذلك الغناء ، وظهر - ككل مجتمع راق - كثير من السيدات اللاتي يُعنين بهذين الفنين وأصحابهما .

ولم تكتف بعض بيوتات مكة بالسماع من هؤلاء المغنين في الحفلات ، فاقنت طائفة منهم ، على نحو ما نجد عند الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر ، فقد اقتصت الغريص ويحيى قُبل وسمية . وطبيعي أن تُعنى مثل هذه الفتاة بالشعر الذي كان يغنى فيه موالها ، وكان أكثره من شعر عمر . ولعل ذلك ما عجّل بالصلة بينها وبينه وهي صلة فنية لا صلة شخصية . إذ كانت الثريا تحسن تذوق الشعر^(١) ، فطبيعي أن يشغف بها عمر وأن يتغنى باسمها .

وفي كل مكان من حياة عمر نجد ثريات أخريات ، فقد كانت مكة تحفل بالشرقيات والنييلات « وكن جميعاً يحتفلن بالشعر والغناء ، ويجلسن لسمعن المغنين أو لينشدن الشعراء . قال الحارث بن خالد المخزومي : « بلغني أن الغريص المغنى خرج مع نسوة من أهل مكة من أهل الشرف ليلاً إلى بعض المتحدثات من نواحي مكة ، وكانت ليلة مقمرة ، فاشتقت إليهن وإلى مجالسهن وإلى حديثهن .. وكان

عمر منى قريباً ، فأنثيته ۝ فقلت له : إن فلانة وفلانة وفلانة - حتى سميتهن كلهن - قد بعثنى ، وهن يقرآن عليك السلام ۝ وقلن تشوقن إليك فى ليلتنا هذه لصوت أشدناه الغريض . وكان الغريض يغنى هذا الصوت فيجده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجباً ، وكان كثيراً ما يسأل الغريض أن يغنيه ، وهو قوله (١) :

أمسى بأسماء هذا القلب معموداً إذا أقول صحاً يعتاده عيلاً

فلما أخبرته الخبر ، قال : لقد أزعجتني فى وقت كانت الدعة أحب فيه إلى ، ولكن صوت الغريض ليس له مترك ولا عنه محيى ، فدعا بشابه ، فلبسها ، وقال : امض ، فمضينا نمشى العجل حتى قربنا منهن ۝ فقال لى عمر : خفض عليك مشيك ، ففعلت ، حتى وقفنا عليهن ، وهن فى أطيب حديث وأحسن مجلس ، فسلمنا ، قهيبتنا ، وتحقرن منا ، فقال الغريض : لا عليكن ! هذا ابن أبى ربيعة والحارث بن خالد جاءا متشوقين إلى حديثكن وغنائى ، فقالت فلانة . عليك السلام يا ابن أبى ربيعة . والله ما تم مجلسنا إلا بك ، اجلسا ، فجلسنا غير بعيد ، وأخذن عليهن جلايبهن ، وتقنعن بأخمرتهن ، وأقبلن علينا بوجوههن ، وقلن لعمر : كيف أحسست بنا ، وقد أخفينا أمرنا ؟ فقال : هذا الفاسق جاءنى برسالتكن ، وكنت وقيداً (٢) من علة وجدتها ، فأسرعت الإجابة ، ورجوت منكن على ذلك حسن الإثابة ، فرددن عليه : قد وجب أجرك ، ولم يخب سعيك ، ووافقنا إرادته . فحدثهن بما قلت له من قصة غناء الغريض ، فقال النسوة : والله ما كان ذلك كذلك ، ولقد نهتتا على صوت حسن ، يا غريض هاته . فاندفع الغريض يغنى الصوت حتى أتى على الشعر كله إلى آخره ، فكل استحسنه . وأقبل على ابن أبى ربيعة فجزأتى الخير ، وكذلك النسوة . فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ، فقمنا جميعاً ، وأخذ النسوة طريقاً ونحن طريقاً ، وأخذ الغريض معنا (٣) ۝

وهذه صورة من صور كانت تحدث فى مكة كثيراً ، فكان النساء الشريفات

(١) معموداً : هذه العشق والعيد : ما اعتاده (٢) وقيداً : مريضاً .
(٣) أغانى ٣٢٧/٦ وما بعدها . من العشق والهيام .

يطلبن الغريص وأمثاله ليغنوا في شعر عمر ونظرائه . وكثيراً ما أقام المكيون حفلات كهذه الحفلات التي تقام في عصرنا لكبار المغنين والمغنيات . ولست أقصد الحفلات العامة ، وإنما أقصد الحفلات الخاصة . وبلغ من ثراء المكيين وترفهم ألا يقيموا هذه الحفلات كما نصنع الآن لمناسبة زواج أو عقد قران ؛ فقد كانت حياة القوم كلها حفلات ، فهم يقيمونها يوماً إذا أرادوا . وكان المغنون والمغنيات حينئذ يُملكون ؛ فيكونون عند ساداتهم ، يقيمون لهم الحفلات الغنائية كلما شاءوا ، وما أكثر ما كانوا يشاءون . فما كنت تسير في شِعْبٍ من شِعاب مكة أو في ضاحية من ضواحيها إلا وتنطلق الأصوات من حولك . وعلى هذا النحو كاد أن يكون في كل شعب وكل ضاحية مسرح . وكانت المسارح حينئذ متحركة ؛ فهذا ابن سريج بعوده يغنى في أى مكان ، وهذا الغريص بقضيبه يرتل أشجى الألحان ، وهذا عمر وأمثاله من أصحاب الغزل ينظمون ، والمغنون من حولهم يغنون ويلحنون .

وكان لعمر القدحُ المعلق بين شعراء عصره في ذلك ، فهو سيد من سادات مكة ونبيل من نبلائها ، وهذه البيوت من حوله بيوت الشريقات والنبيلات قلما لا تكون هناك واشجة قرابة بينه وبين من فيها ، ولذلك كثر اجتماعه بصواحبها وكثرت مداخلته لأهلها ، فهو يغشاهم الحين بعد الحين مع المغنين يستمع إلى الغناء في شعره والتلحين في نظمه . وأصبح عمر يدعُ العصر ، فهو طلبةُ كل بيت من بيوت أقربائه ، وهو طلبة كل فتاة تريد أن تظهر في مرآة شعره وفنه . وما أكثر هؤلاء اللاتي كن يُردنَ الظهور في هذه المرآة الفنية الرشيقة ، فقد كانت مرآة متحركة تدخل في كل بيت من بيوت مكة ، بل لقد أخذت تدخل في بيوت المدينة وغيرها من بلدان العالم الإسلامي . وفُتنت السيدات في المدينة بهذه المرآة كما فُتن سيدات مكة ونبيلاتهما ، فقد تعددت صورها وألوانها وتعددت أنغامها وألحانها . وكان يظهر ابن أبى ربيعة في أكثرها ومعه ابن سريج أو الغريص ؛ بل معه أحياناً جميلة ومُعبد وغيرهما من مغنى أهل المدينة .

وكل من يقرأ في الأغاني يخيل إليه أن عمر أصبح شغل الشباب في المدينة ومكة جميعاً ، ولم تكن المسألة مسألة عمر كما قد يُتبادر ، وإنما كانت مسألة شعره وابن

سُرَيْج والغريص اللذين يلزمانه ، ولا ينفصلان عنه . وكأنما كانت تتكون الفرقة الغنائية لهذا العصر من شاعر دائم هو عمر ومغن هو ابن سُرَيْج أو الغريص^(١) .

ولم يكن نساء مكة والمدينة وحدهن اللاتي يُعْجَبْنَ بعمر . وشعره ومن يغنون في هذا الشعر ، فقد كانت نساء بنى أمية في دمشق يعجبن بهذا الشعر أو بهذه المرأة ، ولكن يطلبن الظهور فيها حتى أخت عبد الملك بن مروان وزوجة ابنه الوليد - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - فإنهما طلبتا أن تظهرا على صفحتها .

وكانت هناك مواسم تكثر فيها هذه الطلبات على عمر وغيره من شعراء مكة ، ونقصد مواسم الحج ، إذ كانت تُحْشَد فيها نساء العرب وفتياتهم ، وكان الذوق العربي العام لا يمنع أن يشيد شاعر بجمال امرأة ، بل لعل في هذه الإشادة ما يعرف بها وبجمالها ، ولذلك كانت تطلبها المرأة العربية ولا تجد فيها غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيها طرافة وإعلاناً عنها وتمهيداً لأن يطلبها الأزواج^(٢) .

وهذا الذوق العام هو الذى أشاع الغزل في المرأة العربية الشريفة . وأخذ عمر ابن أبى ربيعة يستغله ويبعد في استغلاله لا في فتيات مكة ونسائها ، بل في فتيات العرب جميعاً ونسائهم ممن يحججن إلى مكة وتقع عينه عليهن ، وكأنما كانت عينه « عدسة » مكة في هذا العصر ، فلا تمر بها سيدة تستحق أن تصوَّر وأن ترسم في المرأة الفنية المكية إلا وتهبَّ عين عمر وتهبَّ عيون زملائه من الشعراء ، فيسجلون صورتها . ومن هنا كنا نقرأ دائماً في أخباره أشعاراً وقصصاً عن جميلات الحواج . فهذه عائشة بنت طلحة تحج فتعرض لها عين عمر أو عدسة عمر فترسمها^(٣) ، وهذه فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية تحج ، فتلقفها العين أو العدسة^(٤) ، وهذه زوجة شيخ النحو أبى الأسود الدؤلى تحج ، فتأبى العين أو العدسة إلا أن تتبعها^(٥) ، وهذه ليلي بنت الحارث البكرية مع وقارها ترسمها العين أو العدسة^(٦) . وهذه رملة بنت عبد الله الخزاعية تلمحها العين أو العدسة

(١) انظر في ذلك الأغاني ٣٧٦/٢ .

(٤) أغاني ٨٤/١ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٥٣/١ .

(٥) أغاني ١٤٧/١ وما بعدها .

(٣) أغاني ١٩٩/١ وما بعدها .

(٦) أغاني ١٥٦/١ .

فتصورها^(١). وهذا باب يطول تعداد الأسماء والشخصيات فيه ، فقد أصبح شغل الشعراء المكيين وعلى رأسهم عمر ، وأصبحت مواسم الحج مواسم للشعر والفن تُرسم فيه صور العذارى والسيدات الجميلات ، وحتى أميرات بني أمية كن يُرسمن ويُصورن وكن يطلبن ذلك - كما ذكر الرواة - ويتغينه ، فهنا الشعر الجميل الذي يعرف كيف يصور جمال المرأة . وهنا الأداة البديعة التي تعرف كيف تذيع هذا الشعر ، ونقصد أداة الغناء . فهذه الأغاني هي الشعر الذي ينتشر بسرعة على كل لسان ، والذي يملأ به الحجاج حقائبهم وهم عائدون إلى أوطانهم وديارهم . فليس غريباً إذن أن يطلبه النساء ، وأن يتحول عمر ومغنياه ابن سريج والغريص إلى ما يشبه المصورين في صحافتنا الحديثة ، فهم يتخللون الحجاج ، وقد يخرجون لاستقبالهم كي يلتقطوا أخبار الفتيات والنساء الجميلات . وأظننا لا نعجب بعد ذلك إذ نقرأ في أخبار عمر أنه « كان يعتمر في ذى القعدة ويُجِلّ ، ويلبس تلك الحلل والوشى » ويركب النجائب المخضوبة بالحناء ، عليها القطوع والدياج ، ويُسبِلُ لمتّه ، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ، ويتلقى المدينيات إلى مرٍّ ، ويتلقى الشاميات إلى الكبد^(٢) . أو نقرأ : « خرج عمر بن أبي ربيعة ومعه ابن سريج على نجيين ، رحالتاهما ملبستان بالدياج ، وقد خَضَبَا النجيين ولبسا حُلَّتَيْن ، فجعلا يتلقيان الحاج » ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل^(٣) .

وما يزال عمر وابن سريج صاحبه يستعرضان النساء في النهار على هذا النحو حتى إذا أظلم الليل انطلقا إلى كتيب مشرف ، فألقى عمر على صاحبه ما لقفته العين أو العدسة ، وسرعان ما يضع له ابن سريج اللحن ، ثم يغنيه ، فيحبس الحجاج عن مناسكهم ، ويكاد بعضهم يركب بعضاً - كما مرّ بنا - من شدة الزحام ومحاولة القرب من مسرح الغناء .

وأظن في هذا ما يصور كيف كان عمر بن أبي ربيعة يحيا في مكة ، فهو يحيا حياة فنية قوامها الشعر والغناء ، وأمدّه ثراؤه وترفه بكل ما يلزمه في هذه الحياة ، فهو لاء المغنون من حوله أمثال ابن سريج سماعون لشعره يغنون فيه ويلحنونه ،

(٣) أغاني ٢٥٨/١ .

(١) أغاني ٢١٤/١ .

(٢) أغاني ٢٢١/١ .

ويرتفعون في هذا الغناء والتلحين إلى مدى واسع من الإحسان والتجويد . وما يزال مع هؤلاء المغنين يتغنى بفتيات مكة ونسائها حتى إذا دار العام وأتى موسم الحج تحول إلى جميلات الموسم يتبعهن ويصورهن . وكان يعيش كما يريد « مهيباً معظماً لا يقدر عليه سلطان ولا غيره^(١) » . وأكبر الظن أنه كان أموى الهوى ، فقد هجا مصعب بن الزبير حين قتل زوجة المختار الثقفي ، وما قاله في ذلك^(٢) :

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتَلَ حَسَنَاءَ غَادَةً عَطْبُولَ
كَيْتَبُ الْقَتْلِ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جُرُّ الذَّبُولِ

وطبعي ألا يُعْجَبَ عمر بمصعب وأخيه عبد الله ، فقد كان الأخير خاصة مُتَزَمِّتاً ، ولم يكن يُعْجَبَ بعمر ولا يشعره^(٣) ؛ في حين كان يعجب بعمر عبد الملك^(٤) ، وقد استصحبه الوليد معه ، حين حَجَّ ، إلى الطائف وغنَّاه الغريض في أشعاره^(٥) .
ولسنا نعرف تفاصيل واضحة عن حياة عمر الشخصية في أسرته وبيته ، وكل ما ذكره المؤرخون في هذا الجانب لا يتعدى ذكرهم لزواجه من كلثم بنت سعد المخزومية ، وأنها ولدت منه ولدين كان أحدهما يسمى جُؤَاناً وماتت عنده^(٦) .
ويذكرون أيضاً أنه تزوج من جُمَحِيَّة^(٧) ، ولا يذكرون اسمها ، وأكبر الظن أنها زينب بنت موسى الجُمَحِيَّة ، وله فيها غزل كثير^(٨) . وكانت له بنت تسمى أُمَّةً الْوَاحِد^(٩) ، وقد تسمى أمة الحميد أو أمة المجيد^(١٠) .

وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حياة عمر الشخصية ، وهي معلومات لا تكادُ تُبَيِّنُ عن شيء ، إلا أنها على كل حال تدل على أنه لم يتزوج كثيراً . ولسنا ندري هل تزوج الجمحية بعد وفاة كلثم أو في أثناء حياته معها . وأكبر الظن

-
- (١) أغاني ٣٢٧/٦ .
(٢) الديوان ص ٢٤١ وأنظر أغاني ٢٢٩/٩ . ١١٩/١ .
(٣) أغاني ٧٣/١ .
(٤) أغاني ٢٠٤/١ وما بعدها .
(٥) أغاني ٢٢٠/١ وما بعدها .
(٦) أنظر أغاني ٩٣/١ وما بعدها .
(٧) أغاني ٧٠/١ .
(٨) أغاني ١٣٣/١٨ وأنظر زهر
الآداب للحصري ١٢٠/١ والأماي ٦٨/٣ وكذلك
الأغاني ٧/١٥ وما بعدها .
(٩) أغاني ١٦٥/١ .
(١٠) أغاني ١١٢/١ وأنظر ٣٩٥/٢ وكذلك

أن عمر لم يكن قلقاً في حياته الزوجية.

والرواة إنما يمدوننا في الواقع بقصص كثير عن غزليات عمر ، أما حياته وتفاصيلها فقلما عُثِرَ بها ، وحتى موته نجدهم يضطربون فيه جداً فالمشهور أنه عاش سبعين سنة^(١) فإذا كان قد وُلِدَ سنة ٢٣ فإنه يكون قد تُوُفِيَ سنة ٩٣ للهجرة . ومعنى ذلك أنه توفي في عصر الوليد بن عبد الملك وأنه لم يلحق عصر سليمان الذي تولى الخلافة سنة ٩٦ ولا عصر عمر بن عبد العزيز الذي ولى الخلافة سنة ٩٩ . وهنا يبدو خلط الرواة فنحن نرى بعضهم يزعم أن سليمان - وكانت فيه شدة - نقي عمر إلى الطائف^(٢) ، وأكثر من ذلك نرى بعضهم يزعم أن عمر بن عبد العزيز نفاه كما نقي الأحوص شاعر المدينة إلى دَهْلَك^(٣) ، وأبعد من ذلك أن نرى بعضهم يقول إن عمر غزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق^(٤) . وهناك رواية تزعم أنه تعرض لسيدة فتغزل بها وهي تحجب ، فدعت عليه ، فمات^(٥) .

وكل هذه في رأينا فروض أملاها خيال الرواة ، وخاصة من قالوا باحترق عمر حتى يجعلوه شهيداً ، ولعل أهم ما يدل على فساد ما يقال من أن سليمان نفاه إلى الطائف وأن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى دَهْلَك أنه لم يعيش إلى عصرهما ، فقد رَوَى أبو الفرج في حديث بين الثريا والوليد بن عبد الملك عنه أنها قالت : يرحمه الله^(٦) . ونحن نعرف أن الغريص فر إلى اليمن حين تعقب نافع بن علقمة المغنين في عهد سليمان ولم يلبث أن توفي هناك ، ولو أن ابن أبي ربيعة كان حياً لحمل الغريص من نافع . وفي أخبار الغريص قبل فراره إلى اليمن أن الثريا مولاته ماتت ، وأنه أتى كثير بن كثير السهمي ، فطلب إليه أن يصنع فيها أبياتاً لينوح بها على الثريا^(٧) ومعنى ذلك أن الثريا تُوُفِّيَتْ إما في أواخر أيام الوليد أو في أوائل أيام سليمان ، ولو أن ابن أبي ربيعة كان حياً لرنثها ، ولطلب الغريص أبياته التي

(٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩ .

(١) أغاني ٧١/١ .

(٥) أغاني ٢٤٧/١ وما بعدها .

(٢) أغاني ٦٧/٩ .

(٦) أغاني ٢٣٧/١ .

(٣) أغاني ٦٤/٩ وانظر الشعر والشعراء ص ٣٤٩ .

(٧) أغاني ٢٤٦/١ .

ودهلك : جزيرة بالبحر الأحمر .

ينوح بها عليها من عمر لا من كثير السهمى . ومهما يكن فقد توفى عمر عن سن عالية .

٣

غزل عمر

يكتظُّ كتاب الأغاني بالأصوات أو الأدوار التي غُنِّيت في شعر عمر ، والتي اشترك في غنائها كبار المغنين والمغنيات في مكة والمدينة في أثناء العصر الأموى . ويكاد الإنسان يؤمن بأن شعره كله قُصِدَ به إلى الغناء ، فقد كانت تغنيه فيه الجوارى في بيته ، وكان يغنى فيه المغنون والمغنيات في دور اللهو . وكان الحُجَّاج كلما ألما بمكة ملأوا حقائبهم بهذا الشعر وأخباره ، وبماذا يقضون أوقاتهم ولياليهم الطويلة بعد انصرافهم من مناسك الحج سوى أن يسَمروا ويتحدَّثوا ويغنيهم من حين إلى حين مغنٍّ أو مغنيةٌ بشعر عمر وأصحابه المكيين ؟ وما يكاد المغنى ينتهى من غناؤه حتى يبدأ السمر ، ويبدأ الحديث ، ويبدأ القصص عن عمر وأمثاله من أصحاب الأغاني .

ولعل هذا ما جعل القصص يكثر عن عمر ، فمخيلة القصاص لعبت منذ حياة عمر نفسه بأخباره . ومن يرجع إلى ترجمته في كتاب الأغاني يجد كل أغنية يُروى له معها قصة . ومن هنا كثر القصص عن عمر واختلطت صورته على الرواة القدماء أنفسهم كما اختلطت على الباحثين المحدثين ، لسبب بسيط ، وهو أن حياته امتدت أمام الناس لتتسع للتسلية والترفيه عنهم .

وربما كان أهم دليل على ما نزعم أننا إذا حاولنا أن نتبين خطوط أقاليم حبه الذى عاناه ، والذى ذهب يعبر عنها في أغانيه لم نكد نتبين منها شيئاً واضحاً سوى قصة شغفه بالثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس ، وهى - على ما يظهر - إحدى السيدات القلائل اللاتي تقدَّمنَ

لحماية الفن في عصرهم، ولم يكن حينئذ إلا الغناء وهذه الأغاني عند عمر وأمثاله .
ولعلنا بذلك أن نفهم صلتها بالمغنين من جهة وعمر من جهة أخرى . ففي
دارها تخرج الغريض ويحيى قيلَ وَسُمِّيَ من المغنين ، كما مر بنا ، وفي دارها كانت
تستقبل أحياناَ عمر ، وتستمع إلى أحاديثه . وكان لها ذوق أدبي ، فكانت
تصطنع الشعر^(١) . ولم تلبث أن تحول اللقاء بينها وبين عمر ، وهو الآخر
من أشراف قريش ومن أبناء عمها ، إلى ضرب من الرضا والمودة ، فكانت تكثر
من لقائه واستقباله والتحدث إليه حديثاً بريئاً حين تكون في مكة وفي الطائف
حين تصيف فيها^(٢) . وكانت لا تجد في ذلك حرجاً ، يقول عمر^(٣) :

لم ترَ العينُ للثريا شبيهاً بِمَسِيلِ التَّلَاحِ يومَ التقينا
أعملتُ طرفها إلىَّ وقالت حُبَّ بالسائرين زُوراً إلينا
ثم قالت لأختها قد ظلمنا إن رجعناه خائباً واعتدينا

وكانت الثريا في سعة من العيش^(٤) ، وشغف بها عمر ، وله معها أخبار كثيرة يروى
أبو الفرج أطرافاً منها ، فتارة ترضى عنه^(٥) ، وتارة تغضب عليه^(٦) ، وهي في
الحالين تمثل الإدلال والإعجاب بنفسها وبجمالها . وغضبت عليه ذات مرة ،
وامتنعت أن تلقاه ، فتولَّه عمر ، إذ رأى الفتاة الأولى في مكة التي تعجب بفنه ،
والتي تشتهر بدوقها المرهف انصرفت عنه . وإنه ليفكر فيها من جهة وفي فنه من جهة
أخرى . ففراه يقول^(٧) :

مَنْ رَسُولِي إلى الثريا فإني ضقتُ دُرْعاً بهجرها والكتاب
سلبني تَجَاجُةُ المسك عقلي فَسَلُّوها ماذا أحلَّ اغتصابي
وهي مَكُونَةٌ تحيرُ منها في أديم الخدين ماءَ الشباب

(٥) أغاني ١/ ٢٣٢ .

(٦) أغاني ١/ ٢٣٠ .

(٧) أغاني ١/ ٢٢٢ .

(١) أغاني ١/ ٢٣٦ .

(٢) أغاني ١/ ٢١٢ .

(٣) أغاني ١/ ٢٢٨ ونظر الديوان ص ١٠٦ .

(٤) أغاني ١/ ٢١٢ .

أبرزوها مثل المهابة تهادى بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد القطر والحصى والتراب^(١)

ويروى أبو الفرج أن ابن أبي عتيق «سمع هذه الأبيات في المدينة ، فقال : إياي أراد وبى نوه ! لا جرم والله لا أذوق أكلاً حتى أشخص ، فأصلح بينهما . ونهض ، ونهض معه مولاة بلال ، فجاء إلى قوم من بني الدئل بن بكر لم تكن تفارقهم نجائب لم يُكرّونها ، فاكترى منهم راحلتين وأغلى لهم .. ثم ركب إحداهما وركب بلال الأخرى ، فسار سيراً شديداً ، فقال له مولاة : أبقي على نفسك ، فإن ما تريد ليس يفوتك ، فقال له : ويلك (أبادر حبل الود أن يتقضبا) وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا . وقدم مكة غير محرم ، فدق على عمر بابه فخرج إليه ، وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته ، فقال له : اركب أصلح بينك وبين الثريا ، فأنا رسولك الذى سألت عنه ، فركب معه وقدم الطائف . وكان عمر أرضى أم نوفل ، فكانت تطلب له الحيل لإصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبي عتيق للثريا : هذا عمر قد جشني السفر من المدينة إليك ، فجتكت به معترفاً لك بذنب لم يجنه ، معتذراً لك من إساءته إليك ، فدعيني من التعداد والترداد ، فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله^(٢) .»
ورجع ابن أبي عتيق مع صاحبه إلى مكة ، ثم تركه إلى المدينة .

وأظن في هذا الخبر ما يدل على حياة هذه الطبقة المترفة من أبناء قريش وبناتها ، أو من رجالها ونسائها ، فقد تحضر القوم وأصبح هناك الجوارى اللأني يدخلن بين الرجال والنساء من أمثال أم نوفل ، وأصبحت المرأة القرشية ذات شخصية في المجتمع الجديد . ولسنا ندري فم غضبت الثريا ؟ هل غضبت لأن عمر تغزل في قرشيات غيرها ، أو غضبت لأنه ذكر في غزله ما يشينها ؟ أما الرواة فيقولون إنها غضبت عليه لأنه تغزل في رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية حين حجت^(٣) . وأكبر الظن أنه لم يذهب عن الثريا أن مثل هذا الغزل غزل عابر ، ولذلك كنا

(١) بهراً : عجباً .

(٣) أغاني ٢١٤/١ وما بعدها .

(٢) أغاني ٢٢٢/١ وما بعدها .

نميل إلى أنها غضبت عليه لإحدى اثنتين : إما لأنه لا يحتشم في غزله معها ، وإما لأنه بدأ يدور حول فتاة أخرى في مكة لعلها كلّم المخزومية التي اقترن بها ، ففي غزله أن الثريا كانت تود لو يكون لها بعل^(١) :

قد تمنيت أني لك بعلٌ قلت بل ليتني بخدك خلا

ولسنا ندرى لماذا لم يحقق ابن أبي ربيعة للثريا أميتها ، فحياة عمر وحياة الثريا ليست مكشوفة لنا تماماً في ديوانه ، يقول^(٢) :

خبروها بأنني قد تزوّج ت فظلتُ تكاتمُ الغيظَ سِرّاً
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً ليتهُ تزوّجَ عشرّاً
وأشارتُ إلى نساءٍ لديها لا ترى دونهن للسرِّ سِرّاً
ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي إخالُ فيهنَّ قِترّاً
من حديثٍ نمي إلى فظيعٍ خلّتُ في القلب من تلظّيه جِمرّاً

فإذا صح أن هذه الأبيات قالها في الثريا بعد زواجه من كلثم ، فإن عمر يكون حينئذ غير وفيّ لحبه . وفي أخباره أنه كان ملولاً طرفاً . على أنه ربما كانت الثريا هي التي امتنعت عليه ، فإن الرواة يحدّثونا أنها تزوجت من سهيل^(٣) ابن عبد العزيز بن مروان ، وأكبر الظن أنها اختارته على عمر ، ولعله من أجل ذلك تولى أسفاً يقول^(٤) :

أيها المنكحُ الثريّا سُهَيْلاً عمركَ الله كيف يلتقيان
هي شاميّة إذا ما استقلتُ وسُهَيْلاً إذا استقلَّ يمانى

ويستمر الرواة ، فيقصون علينا لوعة عمر بعد زواج الثريا من سهيل وتدلّعه ، وحرقة قلبه وقوّاده . ويروون له فيها هذه الأبيات الطريفة التي كتب بها إليها ، ينفت فيها شوقه^(٥) :

(٤) أغاني ٢٣٤/١

(٥) أغاني ٢٣٥/١

(١) الديوان ص ١٤٠

(٢) الديوان ص ٢٣٤

(٣) أغاني ٢٣٣/١

كَتَبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بَلَدِي كَتَابَ مَوْلَاهُ كَمِدٍ
 كَيْبٌ وَكَيْفُ الْعَيْنِ بَيْنَ بِالْحَسْرَاتِ مَنْفَرِدٍ
 يُورِقُهُ لَهَيْبُ الشَّوْ قِي بَيْنَ السَّحْرِ وَالْكَبِدِ (١)
 فِيمَسْكُ قَلْبِهِ يِيدٍ وَيَمَسَّحُ عَيْنَهُ يِيدٍ

وبهذه الأبيات تنتهى قصة عمر مع الثريا فى كتاب الأغاني وفى ديوانه . وهى القصة التى تتضح خطوطها بين قصصه . أما بعد ذلك فلا نكاد نجد له على السنة الرواة قصة تتكامل .

على أن من يرجع إلى أخبار عمر فى الأغاني يجد اسم سيدة أخرى أكثر من الشعر فيها والتعلق بها ، وهى زينب (٢) بنت موسى الجمحية التى اقترن بها كما مر بنا . وتدل أخبارها فى الأغاني أنها من أهل المدينة ، قابن أبى عتيق هو الذى عرفه بها وأثنى على حسنها وجمالها (٣) وتتردد فى شعره بها أسماء لمواضع بالمدينة مثل الصَّوْرَيْنِ (٤) وهو بالبقيع فى المدينة . ويظهر أن أول لقاء بينهما كان فى مكة ، فإنها خرجت مع أخيها إلى الحج ، فتعرض لها عمر وكفَّه أخوها قدامة أول الأمر (٥) ، ولكن أخته لم تلبث أن تعرضت له ، مدلة بجمالها وما وهبته من إغراء وفتنة ، يقول عمر (٦) :

ما زال طَرْفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزَتْ حَتَّى رَأَيْتُ النَّقْصَانَ فِي بَصَرِي
 أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنَشَوْتُهَا يَمَشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ
 قَالَتْ لَتَرْبِ لَهَا تُحَدِّثُهَا لِنَفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عُمْرِ
 قَوْمِي تَصَدَّقُوا لَهُ لِيَعْرِفُنَا ثُمَّ اغْمِزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتَهُ فَأَنِي ثُمَّ اسْبَطَرْتُ (٧) تَسْعَى عَلَى أَثَرِي
 مِنْ يُسْقَ بَعْدَ الْمَنَامِ رِيْقَتَهَا يُسْقَ بِمَسْكٍ وَبَارِدٍ خَصِرِ (٨)

(٥) أغاني ١/ ٩٨ .

(١) السحر : الرثة .

(٦) أغاني ١/ ١٠٣ .

(٢) أغاني ١/ ٩٣ .

(٧) اسبطر : أسرع .

(٣) أغاني ١/ ٩٥ وانظر الديوان ص ٤٧ - ٤٨ .

(٨) خصر : شديد البرودة .

(٤) أغاني ١/ ١٠٥ وكذلك النعف انظر أغاني

١٨١/١ وهو موضع بالقرب من المدينة .

وانعقدت أواصر المودة بينهما فيما يظهر في أثناء الموسم . فهي من شريفات قريش ونبيلاتهم اللاتي يبرزن للرجال ويتحدثن معهم . وهي جميلة ، يغرى جمالها كل من رآها بالنظم فيها . وقد أعجبت بعمر ، كما أعجبت به من قبل فتاة مكة الثريا . فالتقت به وأكثرت من اللقاء ، وكان المجتمع وما أصابه من تحضر يسبح ذلك . ولا يجد فيه ما يشين الفتاة . وأخذ عمر يستخدم أفاعيه أو بعبارة أخرى جواريه اللاتي كان يرسل بهن إلى من يهواهن ، يقول في بعض غزله بها (١) :

لقد أرسلتُ جاريتي وقلتُ لها خُذِي حَذْرًا
وقولي في ملاطفةٍ لزَيْنَبَ تَوَلَّى عُمَرَا
فهزَّتْ رَأْسَهَا عَجْبًا وقالت مَنْ يَذَا أَمْرَا
أهذا سَحَرَكُ النسوا نَ قد خَبَّرْتَنِي الخبرَا

وفي أخبار الأغاني ما يدل بوضوح على أن أهل زينب لم يعجبوا بغزل عمر في فتاتهم ، فطلبوا إليه من أول الأمر أن لا يتغزل بها . ولعل ذلك ما جعله يكنى عن اسمها كُنًى مختلفة ، فقد كنى عن اسمها بهند ، وتنبه أبو الفرج أو تنبه الرواة لذلك ، فأضافوا إلى أصواته في زينب أصواتاً نَوّه فيها بمن تسمى هنداً (٢) . ومعنى ذلك أنهم لاحظوا أنه يريد بهند في غزله زينب الجمحية . ومن يتتبع الأخبار التي تُقرن بزينب يجدها تقرن بهند ، فعمر يذكر أنه أظّل زينب في يوم ماطر معه بثوب مورد :

وما نلتُ منها مَحْرَمًا غير أنا كلاتنا من الثوب المورّد لابسُ

ونراه يكرر ذكر هذه الحادثة في غزله بهند (٣) . وإذن فهند هي نفسها زينب الجمحية . وقد أكثر من الحديث عنها في ديوانه ، وتردّد اسمها في أصوات المغنين بمكة والمدينة . وربما كان مما يدل أيضاً على أن هنداً هي نفسها زينب أننا نجد جارية تسمى « أسماء » تقرن في الغزل بهما جميعاً ، وكانت جارية لزَيْنَب (٤) ،

(٣) أغاني ١/١٨٣ .

(٤) الديوان ص ١٥٣ .

(١) أغاني ١/٩٣ .

(٢) أغاني ١/٩٩ .

وهي غير أسماء جارية^(١) عمر . ومن الرسل أيضاً بينهما بشرة^(٢) وأزوى^(٣) وسليمى^(٤) . وفي هذا ما يدل على أن الرواة لم يوفقوا حين زعموا أن عمر تغزل فيمن تسمى هنداً^(٥) بنت الحارث المرية ، فهو اسم لفقوه حين وجدوا اسم هند يشيع في شعره ، ولم يجدوا أخباراً تكشفه لهم . ولسنا نشك في أنها هي نفسها التي أرادها عمر بقوله^(٦) :

قال الخليطُ غداً تصدُّعُنا	أو بعده أفلا تُشيعُنا
لِتَشُوقَنا هندٌ وقد علمتْ	علماً بأنَّ البينَ يُفزعُنا
عجباً لموقفنا وموقفها	ويَسْمَعُ تَربُّيها تراجعنا
ومقاهلها سِرٌّ ليلةً معنا	نَعْهَدُ فَإِنَّ البينَ فاجعنا
قلتُ العيونُ كثيرةٌ معكم	وأظنُّ أن السيرَ مانعنا
لا بل نروركُم بأرضكم	فَيُطَاعُ قائلُكم وشافعنا

وهذه القطعة في رأينا قالها حين همت زينب بالمسير من مكة ، أما ما يزعمه الرواة من أنه قالها في فتاة لمحمد بن الأشعث فهو غير صحيح . وأكبر الظن أنه يريد بالعيون التي معها أخاها قدامة الذي مر ذكره . وتبعها نفسه إلى المدينة ، والتقى في الصَّوَرَيْنِ مراراً^(٧).

وليس اسم هند هو الاسم الوحيد الذي اصطنعه لزينب ، وكناها به . فقد كناها على ما يظهر كُنًى مختلفة . ولعل أهم كنية كناها بها بعد هند كنية نَعْم . واسم نعم هو الاسم الثاني بعد هند الذي يدور في ديوانه وشعره . وتنبه أبو الفرج إلى أن نعماً هذه جمحية^(٨) ، ولكنه لم يربط بينها وبين زينب ، وكان ينبغي أن يلتفت إلى ذلك ، فحديثه إلى نعم فيه نفس الصبابة التي نجدها في حديثه إلى هند أو قل إلى زينب . وأيضاً فإن بعض القصص الذي يُروى عنه مع هند يُروى له

(١) أغاني ١٦٥/١ .

(٢) الديوان ص ٨٩ .

(٣) الديوان ص ١٣٠ .

(٤) الديوان ص ٥٥ ومن الرسل أيضاً بينهما

(٥) قريب أوقرية . انظر الديوان ص ١١ = ص ١٠٦ ، (٨) أغاني ٢١٣/٤ .

ص ١٣٢ .

(٥) أغاني ١٥٤/١ وانظر ١٧٥/١ .

(٦) أغاني ٩٠/١ .

(٧) أغاني ١٥٤/١ = ١٧٥/١ وانظر ١٠٥/١ .

مع نَعَمْ^(١). وتنبه أبو الفرج نفسه في موضع آخر من الأغاني إلى أن اسم نعم اسم رمزي^(٢)، وأن عمر قد يسمى صاحبة هذا الاسم باسم ذات الخال^(٣)، وأظننا لم ننس صلة ابن أبي عتيق بحب عمر لزينب، فهو الذى وصفها له. ومن هنا كان ابن أبي عتيق^(٤) يتردد في غزل عمر بالثلاث، أو بالفتاة ذات الأسماء الثلاثة: زينب وهند ونعم، بل ذات الأسماء والكنى الكثيرة، فهي تكنى هنداً ونعماً وذات الخال وتكنى أيضاً أو تسمى جُملاً^(٥)، فهو يذكر مع جمل البلاط وهو من نواحي المدينة، وتكنى أيضاً أو تسمى رامة^(٦). وجاء في بعض الأصوات:

حُبُّكُمْ يَا آلَ نَعَمْ قَاتِلِي ظَهَرَ الْحُبُّ بِحُسْمَى وَيَطْنُ

واستبدل الشطر الأول في بعض الروايات هكذا (إن حبي آل ليلى قاتلي^(٧)). ولعل في هذا ما يكشف عن العلاقة بين نعم وليلى في الديوان، فليلى اسم آخر سميت به نعم أو سميت به زينب. وإذن فلسنا في حاجة إلى هذا القصص الذى يروى عنه وعمن تسمى ليلى بنت الحارث البكرية، فهي مثل صاحبها هند بنت الحارث المرية، إنما اجتلبت لتفسر هذا الاسم ليلي الذى يدور في شعر عمر. ومن يقف على مدى ما صنعه الرواة في أخبار عمر من تلفيق لأسماء فتيات ونساء تغزل فيهن يعرف إلى أى حد تصاب الرواية الأدبية في كتاب الأغاني بالاضطراب. ولعل هذا الاضطراب لا يظهر في أخبار ظهوره في أخبار عمر، فقد كثرت الأصوات التى غُنيت من شعره، وبالعكس هو فى الرمز عن صاحبه زينب فاضطرب الرواة، وأرادوا أن يُثبتوا له فتيات ونساء تغزل فيهن، ولم يجدوا أمامهم سوى التلفيق، وأن يصطنعوا مثل هذه الأقاصيص.

وكانت زينب كالثريا مترفة غاية الترف، فبيتها يكتظ بالجواري، ويكاد

(١) انظر أغاني ٢١٣/٤.

(٢) أغاني ٢٣٩/٩ وما بعدها.

(٣) أغاني ٢٣٩/٩.

(٤) انظر أغاني ٩٥/١ وما بعدها وكذلك ٢٤٢/٩

وهو يذكره تارة باسم بكر وتارة باسم عتيق. انظر أغاني

٢٤٢/٩ والكامل للمبرد (طبع رايت) ص ٣٧٣ وانظر

الديوان ص ١٩.

(٥) الديوان ص ١٠٧.

(٦) انظر أغاني ٢١٩/٨. وقد كنى عمر عن

الثريا كثيراً باسم الرباب. انظر الديوان ص ١٨٠

إذ تذكر مع الثريا في مقطوعة واحدة.

(٧) انظر أغاني ١٥٧/١ وانظر هنا الهامش.

عمر لا يذكر لقاء بينه وبينها دون أن يذكر من كان معها من جواربها الحسان ،
وما تفرق فيه من زينة الحلّى وما يلون حياتها من نعيم ، حتى ليقول^(١) :

لو دبَّ ذرٌّ فوق ضاحي جلدِها لأبانَ من آثارهنَّ حدُورُ

فهى منعمة مترفة مبالغة فى النعم والترف ، حتى إن الذر لو علق بجسمها
لبانت فيها من آثاره كلوم وحدور وجروح . وأظن فى هذا التصوير منتهى النعم
والترف .

ويظهر أن زينب تعلقت بعمر وتعلق بها عمر تعلقاً شديداً لم يكد يُبقي فيه
لأحد دونها بقية من ود أو حب ، حتى ليقول^(٢) :

ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو قفَ منها بالخيف^(٣) إلا شجائى
لم تدعُ للنساء عندى حظاً غير ما قلتُ مازحاً بلسانى
هى أهلُ الصفاء والودِّ منى وإليها الهوى فلا تعذلى
حين قالتُ لأختها ولأخرى من قطين مولدٍ : حدّثانى
كيف لى اليومَ أن أرى عمرَ المرِّ سِلَ سِراً فى القول أن يلقانى ؟
قالتا نبتغى رسولاً إليه ونُمِيتُ الحديث بالكتمان
إن قلبى بعد الذى نلتُ منها كالمعمى عن سائر النسوان

وهذه اللفتة على زينب وأوقاتها ومجلسها نجدها دائماً فى غزلها ، وقد جذبت
خيوط جماها إلى موطنها المدينة ، فذهب إليها واستطاع لقربته منها ، إذ يخاطبها
دائماً بابنة العم ، أن يصل إليها وأن يظفر منها بمجالس مع صواحبا ، واسمعه
يقول^(٤) :

أيها الكاشعُ المعيرُ بالصّر م ترحزُ فما لها الهجرانُ
لا مطاعُ فى آل زينب فارجعُ أو تكلم حتى يملّ اللسانُ
نعمل الليلَ موعداً حين تُمسي ثم يُخفى حديثنا الكتمانُ
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ برُ عن بعض نفسه الإنسانُ

(١) الديوان ص ١٥ وانظر فى حليها أغاني ١/٩٥ . (٣) الخيف : موضع عند منى .

(٤) أغاني ١/١٠٢ .

(٢) أغاني ١/٩٤ .

فعمر لا يخشى الكاشح في آل زينب ، فإنهم لا يأبون على ابن عمهم لقاء فتاتهم ، إذ كانت من شريفات المدينة اللائى من حقهن أن يلقين الرجال وأن يبرزن لهم . ومرَّ أن مجتمع مكة ومجتمع المدينة حظيا بضروب من الحضارة أتاح للمرأة حظوظاً من الحرية ، وأعطاهها حقوقاً في الحياة . ومهما يكن فقد أغرم بصاحبته وتدلّه بها وذهب يروى قصة حبه لها والموضع الذى رآها فيه لأول مرة وهو الخيف ، واستمر يردد ذكره في شعره (١) :

دِينَ هَذَا الْقَلْبُ مِنْ نَعْمٍ بِسَقَامٍ لَيْسَ كَالسَّقَمِ (٢)
إِنَّ نَعْمًا أَقْصَدْتُ رَجُلًا آمَنًا بِالْخَيْفِ إِذْ تَرَمَى (٣)

وليس من ريب في أن السهم تعمق فؤاده حتى الشغاف ، فإن عمر تبع صاحبته طويلاً في شعره وتبعه المغنون يغنون هذا الشعر الذى يُحدثه عمر في زينب تارة باسمها الحقيقي ، وتارة أخرى باسمها المستعار هند أو نَعْم . ومهما يكن فنحن نستطيع الآن أن نفهم أغاني عمر في صورة مقاربة ، فقد دارت حول فتاتين قرشيتين ، أو قل دار معظمها ، وهما الثريا وزينب . وكان شغفه بالثانية أشد عنفاً فإنها استغرقت ، استغرقت قلبه وفؤاده ، وكادت تنسيه من عداها من بنات جنسها ونساء قومها من القرشيات . ووراء هاتين الفتاتين في شعر عمر تأتى صور أخرى لقرشيات وغير قرشيات ، ولكنها صور عابرة التقطتها مخيلة عمر في أثناء الحج . وفي ذلك يقول في بعض شعره (٤) :

وَلَمْ أَرْ كَالْتَجْمِيرِ مَنْظَرَ نَاضِرٍ وَلَا كَلَيْلَى الْحَجِّ أَفْلَتَنَ ذَا هَوًى
فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ مَا يُبَاءُ (٥) بِهِ دَمٌ وَمِنْ غَلَقٍ (٦) رَهْنًا إِذَا لَفَهُ مَنَى
وَمِنْ مَالٍ عَيْنِهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضِ كَالدَّمَى

ويظهر من شعر عمر ونظرائه أنهم كانوا يرصدون الحواج ، وكانوا يفردون

(٤) أغاني ٦٢/٩ .

(٥) يباء به : يقتل به .

(٦) غلق الرهن : لم يستطع الراهن اقتكاكه .

(١) أغاني ٢١٥/٤ .

(٢) دين : جوزى وكوفى

(٣) أقصد السهم : أصاب فقتل

للجماليات منهن صفحات في دواوينهم . وأخذ الشاعر المكي في هذه العصور يشبه تمام الشبه صحفي عصرنا الحديث ، فكما أن هؤلاء يُعَنَوْنَ بأن يمثلوا في صحفهم صور المجتمع وأخباره بنسائه وفتياته ، فكذلك كان شعراء مكة في العصر الأموي وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة ، فقد كانوا يعنون بأن يذيعوا صور نبيلات قريش اللاتي يقدن على مكة وكذلك نبيلات العرب ؛ وأصبح عمر يرى في الحج فرصة هائلة للاستعراض : استعراض الفتيات والنساء ممن اشتهرن بالجمال في بلدانهن أو في أنحاء العالم الإسلامي . وكان يجد في تتبعهن واستعراضهن لذة لا تقدر ، ولعل ذلك ما جعله يقول (١) :

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجةً واعتاماً

وعتب عليه عبد الله بن عمر حين أنشده هذا البيت ، وقال له : أما تتقى الله ؟ فقال له عمر : بأبي أنت وأمي ، إني وضعت ليتاً حيث لا تغني . فعبد الله ابن عمر يعجب منه إذ يدعو أن تكون الأيام كلها حجاً وعمرة ، وهو لا يريد الحج والعمرة من حيث هما ، وإنما يريد ما يحملان إليه من النسوة الجميلات . ومراً في غير هذا الموضع أنه كان يخرج في طريق ذات عرق يتلقى العراقيات ، وفي طريق الكديد يتلقى الشاميات وفي مَرَّ يتلقى المدينيات ، ويعود معهن فيشارك في رمي الجمار والطواف ليطَّلَعَ عليهن . يقول في بعض شعره (٢) :

يقصد الناس للطواف احتساباً وذنوبي مجموعة في الطواف

ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يترك قرشية جميلة تحج إلى مكة دون أن يتغنى بها ، ويصف محاسنها وفتونها .

وهذا كله إنما كان يأتي في شعره عرضاً ، وإن كان عمر على ما يظهر ، قد بالغ في الوقوف عند الحواج وفي استعراضهن بنفس الشكل الذي قد نجده عند بعض الصحفيين حين يعلن عن بعض النساء اللاتي لا يُحِبُّن الإعلان عن أنفسهن .

ووراء فتاتي عمر وحواج قريش وبعض شريفات العرب ، نجد في أغانيه

(٢) عيون الأخبار ٤/ ١٠٧ .

(١) أغاني ٩/ ٦٣ .

غزلاً في جاريته بغوم وأسماء^(١). وأكثر من ذكر الثانية والتشبيب بها واختلطت صورتها على الرواة ، فظنوا أنها سيدة حرة أحياناً^(٢).

وعلى كل حال الصورة الأساسية في شعر عمر هي الغزل بالثريا وزينب ، وقد عبّر عما كانا فيه من ترف ونعيم ، وما تميز به المجتمع حينئذ من حرية تحت تأثير الحضارة الجديدة التي دخلت مكة والمدينة وما صاحبها من الجوارى الأجنبية . وليس من ريب في أن شعر عمر طريف من هذه الناحية إذ يصور تصويراً دقيقاً مبلغ ما أصاب المرأة القرشية في عصره من تحضر ، وما طوى في هذا التحضر من ترف ونعيم . وكان ذوق عمر نفسه ذوقاً مترفاً غاية الترف ، فيه دقة ، وفيه حساسية شديدة ، وفيه أدب وظرف ، واستمع إليه يقول^(٣) :

لَيْتَ حَظِّي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْقَلِيلُ الْمُهْنَا
أَوْ حَدِيثٌ عَلَى خَلَاءٍ يُسَلَّى مَا يُجْنُ الْفَوَادُ مِنْهَا وَمَنَا
كَبُرَتْ رَبِّ نِعْمَةٌ مِنْكَ يَوْمًا أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ الْمَمَاتِ وَمَنَا

فهو يرقّ في أمانيه رقة شديدة هي رقة الرجل المتحضر الذي نشأ في الترف والزينة ، بل الذي غرق فيها ، غرقت عينه وغرقت نفسه .

وارجع إلى هذا الشعر الذي أنشدناه كله لعمر ، فإنك ترى فيه آثار هذا التحضر وهذا النعيم سواء في أحاديث المرأة التي يقصّ أحاديثها ، أو في تصوير نفسيّتها ووصف خواطرها . وعمر نفسه يترأى شاباً مترفاً غاية الترف ؛ فيه إدلال المترفين وفيه تيههم وعجبهم . ولعلّ لنشأته أثراً في ذلك ، فقد كان وحيد أمه ، وكانت غريبة عن مكة ، فكان كلّ شيء في حياتها . وورثاً معاً ثراء عظيماً ، فدلّلته ، ونشأته على الإدلال والإعجاب بالنفس ، وتصادف أنه كان جميلاً . وليس بين أيدينا من الوثائق ما نعرف به إلى أي حد كانت أمه تُعنى بملابسه وعطوره ، ولكن تقدم أنه كان يُعنى ، وهو كبير ، بحلله وزينته وطيبه . وأكبر الظن أنه بدأ ذلك في حدائنه واستمر معه في بقية حياته . وماذا تريد إلى أم مات زوجها ، ولم يبق لها

(٣) أغاني ١/١٤١ .

(١) أغاني ١/١٦٥ .

(٢) أنظر أغاني ١/١٣٤ .

من دنيها إلا هذا الطفل الصغير إنها لا بد تبالغ في زيتها ، وخاصة إذا كانت مثل أم عمر ورثت كثيراً من الذهب والفضة .

وهذه النشأة المترفة عند عمر ، أو قل هذا الذوق المترف هو الذى طبع شعره بطابع الإدلال والإعجاب بالنفس مما جعله فى كثير من جوانبه لا يصور فقط حبه للمرأة وما يلاقى فيه من عذاب وحرمان وما يتعطش إليه من وصل ولقاء ، وإنما يصور أيضاً مشاعرها نحوه ورغبتها الشديدة فى رؤيته ولقائه . ولاحظ القدماء ذلك ، فقالوا إنه يتغزل بنفسه لحسنه وجماله (١) . وفى أخباره أنه أنشد ابن أبى عتيق :

بينما يَنْعَتِنِي أَبْصَرْتَنِي دون قِيدِ المِيلِ يَعْذُو بِي الْأَعْرُ
قالتِ الكبرى أتعرفنَ الفتى قالت الوُسْطى نعم هذا عُمَرُ
قالتِ الصغرى وقد تيمَّما قد عرفناه وهل يَحْفَى القَمَرُ

فقال له ابن أبى عتيق : أنت لم تَنْسُبْ بها وإنما نَسَبْتَ بنفسك ، كان ينبغى أن تقول : قلت لها فقالت لى ، فوضعت خَدَّيْ ، فوطئتُ عليه (٢) والمسألة فى الواقع لم تكن مسألة جمال عمر فحسب ، وإنما كانت مسألة ذوق مترف أفسد الشعور الطبيعى عند عمر ، فجعله يشعر بجماله أمام المرأة ، أو قل بشخصيته ، فإذا هو يجعل نفسه شغل الفتيات الشاغل ، فهن ينعتنه ويصفنه وكأنه ليس فى أذهانهن سواه ، وما يلوح لهن على فرسه من بعيد حتى تسأل كُبْرَاهن عنه ، فتجيب الوُسْطى هذا عمر ، وتكتفى بذلك ، فهو العلم الذى لا تجهله فتاة فى مكة . وأما الصغرى فقد تيمَّما ونفذ حبه إلى قلبها ، فأجابت : قد عرفناه وهل يحفى القمر ، كأنها تلوم أختها على التساؤل ، فهو الفتى الذى شغل فتيات مكة والذى يقول عنهن (٣) :

وَكُنَّ إِذَا أَبْصَرْتَنِي أَوْ سَمِعْتَنِي سَعَيْنَ فَرَقَعْنَ الْكُورَى بِالْمَحَاجِرِ

وهنَّ لا يكتفين بالنظر إليه من الكُورَى أو من وراء الحجاب ، بل يسعين

(٣) الديوان ص ٢١٧ .

(١) خزنة الأدب ٢/ ٤٢٠ .

(٢) أغاني ١/ ١١٨ .

إليه . ويحاولن أن يشعرنه بوجودهن . وهن يستعملن في ذلك ضروب الإغراء المختلفة من ابتسامة أو إشارة ، يقول في بعض غزله^(١) :

أليست بالتي قالت لمولاة لها ظهراً
أشيري بالسَّلام له إذا هونحونا خطراً

فهن اللاتي يلحقنه ، وهن اللاتي يتبعنه ، وهن اللاتي يسلمن عليه من بعيد ، وهن اللاتي يشرن إليه ، أو يغمزنه في أثناء سيره . فعمر في كثير من غزله هو المتبوع لا التابع والمعشوق لا العاشق ، قد تيم النساء وملاهن صباية به وحباً . حتى الثريا وزينب فإنه يصف دائماً إعجابهما به وطلبهما له وأخذهما الموعد منه^(٢) . ومن الطريف في هذا الصدد أن نجده كثيراً يذكر الوشاة والواشين على عادة المحبين ولكن لا ليشكو منهم ، وإنما ليث شكوى صواجه ، فهن اللاتي يتحدثن بالشكوى منهم . يقول في بعض غزله بزینب^(٣) :

ولما التقينا سلمت وتبسمت وقالت كقول المعرض المتجنب
أمن أجل واش كاشع بنميمة مشى بيننا صدقته لم تكذب
قطعت وصال الجبل منا ومن يطع بذى وده قول المحرش يُعيب

فهو لا يطلب الوصل من صواجه ، وإنما هن اللاتي يطلبنه ، ومن ثم هن اللاتي يعلنن الشكوى من الوشاة والواشين ، ويظهرن الألم من سماع محبوبهن لهم وإيمانه بما يقولون . وتكرر هذه الصورة كثيراً في شعر الثريا وزينب .

وعلى هذا النحو تطلبه المرأة دائماً في غزله ؛ فهي عاشقة له تمنى قربه ولقاءه ، وتفتن في ذلك فتوناً من اللهو البريء ، فترسل إليه بالرسل ، يقول في بعض غزله لزینب^(٤) :

إن هنداً قد أرسلت وأخو الشوق مُرسل
أرسلت تستحني وتقدى وتعدل

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

(٤) أغاني ١٨٣/١ .

(١) أغاني ٩٢/١ .

(٢) الديوان ص ٨٠ - ٨١ .

والرسل في ديوانه بينه وبين محبوباته كثيرة كثرة مفرطة ، وهو يصور في ثنايا ذلك كله تعلق النساء به وتساقطهن عليه من كل جانب . ولا ريب في أنه يُرْضَى بذلك ذلك وتبه وغروره ، وهذا الذوق المترف الجديد الذي يجعل الرجل يشعر بنفسه أمام المرأة ، ويحس أنه المعشوق لا العاشق ، حتى يأخذ مواقف المرأة في حبها ، فيطلب ألا تبوح باسمه (١) :

ألم تعلمي ما كنتُ أَلَيْتُ فيكمُ وأقسمتُ لا تَحْكِينِ ذاكرةً باسمي
فهو لا يريد أن يُعرف اسمه ، ولا أن يذيع سره (٢) . وفي أثناء ذلك كله يحكي صباية المرأة به وجهدها في استرضائه (٣) . واستطاع في خلال هذا أن يصور ما يدور بنفس المرأة من خلجات وترهات وأفكار مضطربة مختلطة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وليس من ريب في أن هذا الجانب وما يتصل به من وصف عشق المرأة له أهم شيء يميز غزل عمر وشعره من جميع الغزلين في العربية .

واتخذ عمر لذلك طريقة امتاز بها هي حديث صاحبتة مع جواربها أو صديقاتها ، وفي أثناء هذا الحديث يكشف لنا عن مشاعر صاحبتة إزاءه ، كما يكشف لنا عن أفكار المرأة في مجتمعه وكل ما يميز هذه الأفكار من اختلاط واضطراب . وهذا لا شك يفيض على شعره حيوية ، ففيه قرب من الواقع ، وفيه هذا القصص عن النساء الذي يكشف عن نفسياتهن وما يضطرين فيه من أفكار وما تموج به أحاديثهن من متناقضات .

على أن عمر حين نزع هذا المتزع في غزله فأكسبه هذا الحوار بين النساء الحجازيات في عصره أو قل هذا القصص غير المتكامل ، فليست هناك عقدة ، وليست هناك قصة بالمعنى المألوف ، وإنما هناك حوار وضرب من القصص غير التام ، حين نزع هذا المتزع ، أصبح يشبه القصصيين من بعض الوجوه ، فقلَّ الغموض في غزله ، لأنه كشف لنا عن كثير من الحقائق ، وحاول أن يستخدم تجربته ومعرفته بمجتمعه وبالمراة في عصره ، وكأنما كان يحاول أن يزيل الحجاب عنها وعن نفسها .

(٣) انظر الديوان ص ٣٧ .

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) الديوان ص ٨٥ .

وفى رأينا أن هذه المحاولة لم تكن تامة ، فإنه حاول ذلك من خلال الإعجاب بنفسه وما تَمَيَّز به من دَلَّةٍ وتيه . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية اضطره هذا الاتجاه الجديد فى غزله ، اتجاه القصص ، إلى أن يدخل بنا فى تخيلات كعادة القصاصين ، فهم يخرجوننا من عالمنا إلى عالم مليء بتخيلاتهم . ومن هنا يكون من المبالغة أن نسمى بعض شعره غزلاً مادياً ، فلا مادّية فيه ، إنما فيه القصة وتخيال القصاص . ولعل هذا غاب عن القدماء فقد اضطربوا فى عمر : أعفیف هوأم غیر عفیف^(١) ، ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيراً من شعره كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وكأنه عرف أن عمر إنما يقص ويحاول أن يبرز ، كعادة القصاصين ، العناصر العاطفية فى المجتمع .

وهذه الروح القصصية التى أملت هذه الأغانى لعمر تعاونت مع طبيعة هذا الشعر لا فى قربه من النفوس فحسب ، بل فى قربه أيضاً من الألسنة ، فمن أهم ما يميز هذا الشعر الذى أشدنا كثيراً منه أن لغته مألوفة ، وأكبر الظن أنها كانت من نفس لغة الناس اليومية .

نستطيع إذن أن نقول إن الأغانى التى كانت تُغنى هذا العصر فى المجالس والنادى ظفرت عند عمر بنوعين من التطور يتلاءمان والجمهور الذى يستمعه ، أما النوع الأول فهو هذه الروح القصصية التى تعبر عن مشاعرهم ، وكأن عمر يريد أن يكون وسيطاً بينهم وبين أفكارهم وتخيلاتهم ، وأما النوع الثانى فهو اتخاذ لغة هذا الشعر من لغة حياتهم اليومية . وبذلك أصبحت الأغانى عند عمر تعبر عن محيط المكيين تعبيراً دقيقاً ، محيط مجتمعهم وما فيه من أفكار مضطربة متناقضة ، ومحيط لغتهم فى حياتهم التى تجرى تحت أعينهم .

وأناحت طريقة الرمز التى رأيناها عند عمر فى زينب أن يتوسع فى خياله وفى أقاصيصه . ومن يدرى لعله كان ينسى أحياناً فى أثناء الرمز صاحبه ، فيعمد إلى القصص الخيالى فى نُعم وهند ونحوهما من الرموز الكثيرة فى ديوانه وشعره . والذى نريد أن ننفذ إليه من هذا كله أن عمر توسع فى قصصه ، وأن هذا

(١) أغانى ٧٤/١ وما بعدها وانظر الحيوان

القصص دعاه إلى أن يستخدم اللغة المألوفة ، كما تدعو إلى ذلك طبيعة القصص دائماً ، وكان أكثر المغنين في شعره من الأجانب ، فكان من الطبيعي لهذا كله أن تكون لغته قريبة دانية ، إن لم تكن مماثلة لنفس اللغة اليومية .

وهذه الملاحظة في لغة الأغاني عند عمر تصاف إليها ملاحظة ثانية ولكنها لا تتصل بلغتها ، وإنما تتصل بأوزانها وقوافيها ، فإن من يقرأ ترجمة عمر في كتاب الأغاني ويستعرض الأصوات التي غنى فيها المغنون يلاحظ أن أكثرها من الأصوات الخفيفة السهلة . وفرق بعيد جداً بين ديوان كديوان الفرزدق في هذا العصر وديوان عمر ، فالأول يميل إلى الأوزان الضخمة ، كما يميل أيضاً إلى الإغراب في لغته وتراكيبه ، أما عمر فإنه يطلب الخفيف القريب في اللغة وفي الوزن جميعاً ، وقلما نجده يميل إلى الأوزان الطويلة المعقدة .

وكان أهم المغنين الذين يغنون في شعر عمر ابن سُرَيْج والغريص وكلاهما كما قدّمنا كان يميل إلى الغناء الخفيف ، فطبيعي أن يوفر لهما ذلك الجانب الشاعر الذي يغنيان في شعره . ويمكن لتوضيح ذلك أن يقارن القارئ بين عمر وابن سريج والغريص من جهة وبين الأحوص في المدينة ومغنيه معبد من جهة أخرى ، فقد كان معبد يميل إلى الأوزان الطويلة والصوت الضخم الممتلئ ، وكذلك كانت جميلة مغنية المدينة كما يظهر من استعراض الأصوات التي تغنت فيها ، وكان لذلك أثره في الأحوص ، فإن شعره يميل إلى الطول وقلما يعنى بالأوزان الخفيفة أو المجزوءة . وعلى العكس من ذلك كان عمر يعنى عناية شديدة بالأوزان الخفيفة السهلة

القريبة التي تطير عن الشفاه طيراناً ، والتي تكاد تنحلّ بنفسها غناء خالصاً . ومهما يكن فإن عمر استطاع أن يوفر لأغانيه ضروباً واسعة من التلاؤم بينها وبين حاجة المغنين في عصره ، وهي ضروب وقفت عند الوزن ولم تتعدّه إلى القافية ، فإن التعديل في القوافي تحت تأثير الغناء إنما تقوم به الأندلس على نحو ما هو معروف في الموشحات أما هنا وفي مكة في أثناء العصر الأموي فإن التعديل وقف عند اختيار الأوزان الخفيفة من مثل الهزج والوافر والمتقارب والرمل والسريع والخفيف ، وإيثارها على الأوزان المعقدة الطويلة غالباً إلا أن تُجزأ وتُقصّر وتُقلّ كميتها على نحو ما هو معروف في مجزوء الكامل ومجزوء الرجز . على أن عمر لم يكتف بمجزوءات

البحور الطويلة ، فقد ذهب يجرىء في البحور الخفيفة نفسها . فكان كثيراً ما ينظم في مجزوء الوافر من مثل قوله (١) :

تَبَّعَهُمْ بِطَرْفِ الْعِي — نَ حَتَّى قِيلَ لِي افْتَضَحَا
يُودِعُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَكُلُّهُ بِالْهَوَى جُرْحًا

وكذلك المجزوءات الأخرى من مثل مجزوء الخفيف (٢) ومجزوء الرمل (٣) . وعمر يتميز في هذا الجانب تميزاً واضحاً . وقد جاءه من الملاءمة بين أغانيه وبين الغناء الخفيف عند ابن سريج والغريض .

والحق أن ابن أبي ربيعة نهض بالأغاني في عصره نهضة واسعة سواء من حيث ما أشاع فيها من الروح القصصية ، أو من حيث ملاءمته بين لغتها ولغة جمهور السامعين ، أو من حيث ملاءمته بين أصواتها وألحان المغنين .

ومن أجل ذلك كله يُعَدُّ عمر زعيم الأغاني في العصر الأموي غير مدافع ، فقد أتاح لها ضرورياً من التطور وفنوناً من الرق في المعاني والأفكار ، وفي اللغة والألفاظ ، وفي الأوزان والبحور .

٤

الديوان

ترك عمر ديواناً كبيراً في الشعر العربي يندمج كله في هذه الصورة التي وصفناها لأغانيه . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعره كله أغان قصد بها إلى الغناء قبل أي شيء آخر . وماذا تريد من سيد شريف من أشرف مكة وثرى من أثريائها في العصر الأموي ينظم الشعر ويجيد نظمه ؟ إنه لا شك إنما يقصد به إلى التعبير في حرية عن نفسه وعن مجتمعه ، وقد تعلق بقصة الحب التي شغلت حياته فصوّرها لنا بجميع أطرافها المختلفة .

(١) أغاني ٣١٢/١ وأنظر ٢٣٥/١ = ٣٠٣/١ ، (٢) أغاني ٥٨/١ ، وأنظر ١٧٢/١ = ١٨٣/١

(٣) أغاني ١٧٨/١

١٨٢/١

فعمر ، كما رأيناه ، كان يُعنى بوصف العناصر العاطفية لمجتمعه ، وقد تعلق بطبيعة المرأة يرسمها في الشخصيات التي تعرف عليها ، عن طريق هذا الحوار الذي امتد به في شعره والذي احتفظ به كتاب الأغاني ، كما احتفظ به ديوانه . فلا فارق مطلقاً بين هذا وذاك ، إذ الكل ينبع من معين واحد ويريد له الشاعر غاية واحدة . هي وصف المرأة في عصره وصفاً يطلعنا على جميع مشاعرها ، بل لعله يطلعنا على القوى المحركة للمجتمع كلها ، ونقصد قوى التحضر والحياة الاقتصادية حينئذ . ومن هنا تأتى أهمية ديوان عمر ، فهو يصور لنا قصة القلب الإنساني كما كانت تُنسجُ خيوطها في هذا العصر وأيضاً يصور لنا قصة المجتمع بجميع فصولها ورسومها وكل ما يُطوى فيها من خصائص وسمات . واستعان عمر في ذلك بمخيلته كما رأينا وهذا الحوار المفتوح الذي لا يُغلقُ في ثنايا ديوانه .

وعقلية عمر من هذه الناحية تشبه عقلية القصصيين الذين يقصّون علينا فصول الحياة كما تقع في أخيلتهم ، وهم لا يعزلونها عن الحياة الواقعية بل هم يستمدونها منها ، وكذلك كان عمر يستمد حواراه الذي فتحه في ديوانه من تجاربه وخبراته التي شاهدها في حياته .

ولم يستطع عمر أن ينفذ إلى القصة بمعناها الكامل من عقدة أو حبكة روائية ، لأن فكرة القصة على ما يظهر لم تتكامل في نفسه لسبب بسيط ، وهو أنه كان يريد بهذا الشعر ، الذي يصنعه ، الغناء ، وأن يدور على ألسنة المغنيات والمغنين . ف شعر عمر كله الذي يحتويه ديوانه شعر ألف للغناء ، وحقاً لم يُغنّ كله ، فهناك مقطوعات كثيرة منه لا نجد لها في كتاب الأغاني . على أنه ينبغي أن نحذر هذا الحكم ، لأن كتاب الأغاني إنما يسجل القطع التي لُحنت تلحيناً ممتازاً لابن سُرَيْج والغريص وابن محرز وغيرهم من مغني مكة ، ومُعبد ومالك بن أبي السَّمْح وجميلة من مغني المدينة . أما بعد ذلك فلا بد أن قطعاً كثيرة من شعر عمر غُيّت ولم يصلنا غنائها بين هذه القطع الممتازة التي سجلها الرواة . ونفس الرواة يقولون : إن عمر كانت عنده جارتان تغنيانه في شعره على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع ، وكان ابن سُرَيْج والغريص يلزمانه لزوماً ، ولا يكادان يفارقانه إلا لماماً .

ولهذا كله نظن أن المقطوعات الأخرى في ديوان عمر التي لم يصلنا غناء فيها ، غنّى كثير منها ، ولُحِّنَ ، وخاصة أن عمر كما قدمنا كان ثرياً ثراءً مفرطاً ولم يكن له شغل إلا هذا الشعر . ومَرَّ بنا كيف كان يعطى المغنين في تلحين بعض مقطوعات من شعره ألوف الدراهم . وما أظن أن مثل عمر في ثرائه وغنائه يترك قطعة من شعره دون أن تغنّى وتلحّن وترتفع بها أصوات المغنين والمغنيات في داره وفي دور اللهو بمكة والمدينة .

وأكبر الظن أننا إذا قلنا بعد هذا كله : إن كل ما في ديوان عمر أغان بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى أنه غنّى ، أو على الأقل ألف لكى يغنّى فيه المغنون ، لم نكن مبالغين ولا متجاوزين للواقع في شيء ، فقد كان صاحبه يعيش للشعر والغناء جميعاً ، وكانت حياته تقوم على العناية بالفنين ، أما عنايته بفن الشعر فعناية مباشرة ، وأما عنايته بفن الغناء ، فهي عناية مسبّبة أو معللة بالفن الأول الذى وهبه حياته وأصفاه نفسه .

وديوان عمر من هذه الناحية طريف في حياة الشعر العربي ، فهو أول شاعر يرصد شعره كله للغناء ، كما يرصد حياته كلها للمعيشة في أوساط المغنين ، والائتلاف معهم ائتلافاً تتقطّر نتائجه في فنه . ومن هنا لا يكون غريباً إذا قلنا : إنه شاعر أغان بالمعنى الكامل لهذه الكلمة في تاريخ لغتنا العربية .

ولعل أهم ظاهرة سقطت في شعره وتجلّت فيه تحت تأثير الغناء أنه ليس قصائد بالمعنى المألوف القديم الذى كنا نفهمه للقصيدة ، فليس فيه مقدمات أطلال ، وليس فيه شيء خارج عن غايته ، إنما هو شعر يؤلف في الحب ، وهو يؤلف في مقطوعات قصيرة ، لأنه يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد . وإذا استثنينا القصيدة الأولى في الديوان ، لم نكد نجد بعدها قصيدة طويلة لعمر . وما لعمر وللطول ، وهو لا يريد أن ينشد المنشدون شعره في المحافل والمجامع ، وإنما يريد أن يغنيه المغنون ، وهؤلاء لا يمتدّ نفْسُهم إلى أكثر من خمسة أو ستة أبيات إلا في القليل النادر ، وكان ابن محرز يأبى أن يغنى في أكثر من بيتين .

وإذن فعمر لا يستطيع الإطالة في شعره ، لأن المغنين لا يعطونه الفرصة ، ولأن هذا الشعر نفسه الذى يقدمه إليهم بطبيعته شعر محدود يصف خواطر الحب عند

الرجل أو عند المرأة أو عندهما جميعاً وهي في أصلها محدودة .
ومع ذلك فقد أتاح عمر لهذه المعاني أن تتسع وأن تطول قليلاً بفضل هذه
الروح القصصية التي عممها في ديوانه والتي ذهب يصوّر فيها عواطف المرأة المتحضرة
حين تحبّ ، وما يكون بينها وبين جواربها من أحاديث عن صاحبها تارة ، وعن
صواحب أخرى يحسدها عليه تارة أخرى ، وكذلك ما يكون بينها وبين صديقاتها
من فنون قول .

وعمر طريف في هذه الناحية طرافة بالغة في ديوانه ، فكل من يقرؤه يحس
أنه كان على علم دقيق بطبيعة المرأة وما يعتورها من ضعف في الحب . ومن هنا
يُعجّبُ بعمر كل من يقرأ ديوانه ، إذ يحس كأنه يقرأ لشاعر حديث من عصره ،
فقد استطاع أن ينفذ من شعره إلى رسم صورة حية للمرأة في عصره ، وهي صورة
تتطابق معها في كل عصر وكل زمن .

وعمر في الواقع تُرَفّعُ الحواجز بينه وبيننا لهذا كله ، فقد استطاع أن يضع
تحت أعين الناس صورة تتجدد لهم في كل زمان ومكان ، ونقصد صورة المرأة
ومشاعرها ، أو قل بعبارة أدق صورة الطبيعة البشرية وكل ما فيها من نقص
وضعف .

على أنه ينبغي أن نشير دائماً إلى وجوب الحذر من أقاصيص الرواة ، فقد
شوّهوا لنا عمر وشوّهوا معه المرأة المكية والمرأة الحجازية بصفة عامة فيما قصوه عنه
وعنها قصصاً يتجاوز الواقع في أغلب صوره . وهو قصص أريد به كما قلنا غير
مرة إلى السمر في المجتمعات والنوادي الأدبية . وأتاحت طبيعة شعر عمر وأنه
أغان تغنى في دور اللهو والسمر لحياة عمر وحياة المرأة في عصره كلّ هذا الخلط
والتشويش اللذين نقرؤهما في كتاب الأغاني عن عمر وأخباره مع المرأة في زمنه .

ومهما يكن فعمر في ديوانه كما في الأصوات التي غنيت من شعره متكامل
الشخصية ، أو قل متكامل الأسلوب . ولسنا نعرف شاعراً تنضح جميع خصائصه
في مقطوعاته الماثورة عنه كما تنضح في عمر ، فدائماً تقابلنا السمات نفسها والصفات
نفسها ، ودائماً تقابلنا الشخصية نفسها والأسلوب نفسه .

وعمر من هذه الناحية يصوّر لنا تطوراً حقيقياً أصاب الشعر العربي في عصره

تحت تأثير الحضارة الجديدة « إذ ليس من شك في أن شعره لا يماثل الشعر القديم « شعر القصيد . وهذا شيء طبيعي لأن مكة تحضرت وسيطر أبناؤها على العالم ، أو قل على أطراف كثيرة من العالم ، وشعر كل قرشي بغير قليل من الزهو إزاء هذه السيطرة ، وقد أخذت نفسه تتغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التي صَبَّتْ في بلدته ، وأصبح يتصور الحياة في صورة تغاير صورتها القديمة في عقل أجداده وذهن آبائه . ومن أجل ذلك كله أصبح من المحتم أن يتطور هذا القرشي لا في حياته ، فقد تطورت ، وإنما في فنه وشعره .

ولا ريب في أن عمر ، أو قل ديوان عمر ، يصور هذا التطور تصويراً طريفاً ، فهو يقصُّ علينا حبه « ولكن لا نقرأ هذا القصص حتى نحس أننا بإزاء مجتمع متحضر ، تكاد تُقَطِّع الصلة بينه وبين مجتمعات البدو القديمة ، ففيه للمرأة من الحرية ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة ، كما أن لها من الترف ومن الجوارى اللاتي يخدمنها ما لم تكن تتمتع به المرأة القديمة . وفيه بجانب ذلك دلال المرأة المترفة وغزها ونفسيته بكل ما فيها من اضطراب وتناقض ، وفيه أيضاً ما يصور حياة الشاب المترف ، حياة عمر وما انطبع في نفسه لجماله وراثته من زهو وذل وما تميَّز به من دقة الحس ورهافة الشعور .

فديوان عمر إذن أهم ما يميزه أنه ثمرة حياة متحضرة ، استطاع أن يعبر عن جميع جوانبها في نفسه ، كشاب متحضر ، وفي نفس المرأة المعاصرة له التي أترَف ذوقها وشعورها . ويحس قارئ عمر إحساساً تاماً بأن الأسلوب القديم للشعر قد هُجِر ، أو أصبح مهجوراً لسبب بسيط ، وهو أن الحياة القديمة هُجرت ، فأصبح لا بد أن ينشأ أسلوب جديد يتلاءم والحياة الجديدة ، أو قل الحضارة الجديدة .

وفرق بين شعر يقال في بيوت مكة القديمة وشعر يقال في قصورها الإسلامية الحديثة وما تكتظ به من جوار وإماء وما تملأ به من ألوان حضارات فارسية أو رومية . ومن هنا كنا لا نقرن ديوان عمر إلى ديوان شاعر جاهلي قديم إلا نجد الفرق واضحاً جداً ، وهو فرق الحياة وما أصابها من تبدل وما تم لها من تطور . وهل كان من الممكن أن نجد في الشعر القديم مثل الثريا وزينب صاحبتى عمر ، وكل ما لهما من دلال ، وكل ما لهما من ثراء ؟ وعمر نفسه هل كان من الممكن أن نجده

فى الشعر القديم بهذه الشخصية المتميزة التى تُفردُه عن أسلافه ؟ لقد كانت الحياة القديمة راكدة ، ولذلك كانت الصور الفنية راكدة أيضاً ، فكان فيها هذا التكرار الذى يشعر به كل من يقرأ الشعر الجاهلى ، وكان فيها هذا الجمود الذى يجعل أساليب الشعراء متشابهة .

وقد تبدل العرب فى مكة وتبدلت حياتهم القديمة ، وعاشوا معيشة جديدة ، ونجم بينهم عمر ليعبر تعبيراً كاملاً عن هذا التبدل وهذه المعيشة ، ومن هنا كان أسلوبه يخالف أساليب الشعر القديم ، فهو أسلوب تكامل له تحت تأثير حياة متحضرة جديدة ، فيها ترف بالغ ، وفيها هذا الغناء الذى حوَّله المغنون إلى نظرية كاملة .

لم يعد عمر ينظم شعره بالأسلوب القديم ، ولذلك نفر من القصيدة وهجرها فى نماذجها ، واختار مكانها هذه المقطوعات القصيرة التى تقال لا تُنشَد كما كان الشأن فى الحياة القديمة ، وإنما تقال لتغنى ، ولتسمعها الطبقة المترفة التى نشأت فى مكة وفى أختها المدينة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشعر العربى عند عمر تطور ، فقد أصبح مقطوعات بعد أن كان قصائد ، وأصبح يتخذ من لغة قريية ، لغة مألوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذى نجده عند الشعراء القدماء ، وليس فيها هذا التعقيد فى التراكيب الذى نجده عندهم أيضاً . ومن يبحثون عن اللغة القديمة والتراكيب القديمة أو قل الأساليب القديمة ينبغى ألا يبحثوا عنها فى مكة أو الحجاز ، بل يبحثوا عنها فى البصرة والعراق حيث كان جرير والفرزدق والناس من حولهما يجترّون حياتهم القديمة . أما فى الحجاز وفى مكة ، فقد انصرف الناس عن حياة آبائهم القديمة وغرقوا فى ألوان من الترف والنعم ، ولذلك أصبحت أساليب الشعر القديم لا تلائمهم ، فإما أن يهجروا هذا الشعر كله ، وإما أن يظهر لهم شاعر يعبر لهم عن حياتهم بأسلوب جديد . وكانت الحياة العربية من القوة بحيث لا يمكن أن يُهجَرَ الشعر ، وأيضاً كانت من القوة بحيث لا بد أن يظهر الشاعر الذى يعبر للناس عن حياتهم الجديدة بأسلوب جديد .

وكان عمر بن أبى ربيعة هو الشاعر الذى استطاع أن يهجر أساليب الشعر

القديمة ، ويسوّى للناس مكانها أساليب جديدة تقوم على القرب والدنو منهم ومن لغتهم اليومية ، كما تقوم من طرف آخر على تصوير العناصر العاطفية التي يزخر بها مجتمعهم عن طريق تصوير حبه ومشاعر المرأة المعاصرة له ، وما بثّ في هذا التصوير من حوار ، كأنه استمدّه من قلب كل امرأة تتحدث عن فتاها . وهذا جانب في شعر عمر أعطاه قريباً من النفوس في كل عصر ، وهو من هذه الناحية لا يكاد قارئ يلم به حتى يحس كأن عمر قريب منه ، فهو يدنو من جميع العصور ومن جميع النفوس . ويظهر أن ديوانه لم يصلنا كله ، فطبعة ليبسك ، وهى أهم طبعاته ، نجدها تفرد ملحقاتاً لمقطوعات بلغت نحو المائة لم تكن في الديوان ، وإنما كانت متناثرة في كتب الأدب وعلى رأسها كتاب الأغاني . ومعنى ذلك أن جُزْءاً من الأصوات أو الأدوار التي غُنِّيَتْ من شعره لم يسجّل في ديوانه ، ولاحظ الذين وقفوا على طبع الجزء الأول من كتاب الأغاني - وهو الذى يحتوى ترجمة عمر - في أكثر الأصوات التي غنيت من شعره اختلافاً كثيراً بين رواية الصوت ورواية الديوان (١) ، كما لاحظوا أن ترتيب الأبيات في الصوت أو في الأغنية قد يختلف مع ترتيبها في مقطوعتها من الديوان (٢) . ولاحظوا أيضاً أن أبيات الصوت قد تلتق من مقطوعتين (٣) ، وأن الصوت قد يكون فيه بيت ليس لعمر (٤) ، ومن قبل لاحظ أبو الفرج هذه الملاحظة (٥) . ولعل في هذا الجانب ما يدل على عمل المغنين في شعر عمر ، وكيف أنهم كانوا يستبدلون أحياناً بعض ألفاظه ، وقد يضيفون إلى أبياته بيتاً جديداً ، يترأى لهم أنه يكمل المعنى أو يحدث فيه طرافة . ومهما يكن فإن ديوان عمر بن أبى ربيعة يشفّ عن شخصية صاحبه ، وعن عصره ومجتمعه وكل ما فيه . واستطاع عمر حقاً أن يتميز من شعراء عصره والعصور التالية بهذه الروح القصصية النادرة التي قلما نصادفها في شعراء العربية . ومن الطريف أنه نفذ إليها من خلال هذه الأغاني القصيرة التي كان يتناولها منه ابن سريج والغريص

(١) انظر مثلاً أغاني ٩٤/١ ، ١٠٤/١ ، ١٢٥/١ (٣) انظر أغاني ١٨٧/١ .

(٤) أغاني ٩٥/١ وكذلك أغاني ١٧٠/١ .

(٢) انظر أغاني ١٨٠/١ وكذلك ١٨٣/١ ، ٢٤٢/١ .

(٥) أغاني ٢١٣/٤ .

٢٣٧/١ .

وأمثالهما من المغنين ، أو قل إنَّ قِصَرَ هذه المقطوعات لم يحلَّ بينه وبين ما أراد من تصوير عصره عن طريق هذا الحوار الذى عقده تارة بينه وبين من شَغِفَ بهنَّ ، وتارة بين أنفسهنَّ وبين أخواتهنَّ أو صديقاتهنَّ أو وصيفاتهنَّ وجوارهنَّ .

وما نعرف فى العربية شاعراً استطاع أن يعيش حياته فى تصوير قصة الحب على هذا النحو الذى نجده عند عمر . قد يوجد بعض الشعراء الذين قصروا أنفسهم أو كادوا على تصوير حبههم مثل العباس بن الأحنف ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يتحول بحبه إلى هذه الروح القصصية وما يُطَوَّى فيها من حوار عند عمر .

ونحن نعيد ما قلناه من أن الرواة - كما يمثلهم كتاب الأغاني - أفسدوا هذه الروح عند عمر بما أضافوا إليها من أقاصيص ماجنة ، وكأنهم لم يفهموا عمر ولا فهموا روح عصره . والمسألة لم تكن أكثر من شاعر مجدد استجاب لزرعة الحضارة الجديدة فى عصره ، ونهض بتمثيل أمواجه بل بتمثيل ذرات هذه الأمواج أحياناً ، ونقصد أمواج العواطف والوجدانات . ومثل عمر ذلك من خلال إحساساته وإحساس المرأة المكية والمدنية فى عصره .

وكان عمر لذلك كله موضع إعجاب الناس من حوله ، حتى الفقهاء من مثل ابن عباس كانوا يروون شعره ويتناقلونه ، لأنهم لم يجدوا فيه ما حمَّله القصاصون بعدُ من عبث ومجون ، وإنما وجدوا فيه صورة حياة لعصرهم ومجتمعهم ، قد يكون فيها ظرف ، وقد يكون فيها مبالغة بحكم أن الشاعر ينقلنا إلى عالم يعتمد على القصص والخيال ، ولكن ليس فيها على كل حال ما ينافى العفة الثابتة (١) .

(١) أغاني ١١٩/١ وكذلك ٢٣٧/١ وزهر

الآداب ٢٩٢/١ .

الفصل الخامس

ابن قيس الرقيات

اسم ابن قيس ولقبه وعشيرته

اختلف الرواة في اسم ابن قيس وهل هو عبد الله أو عبيد الله . وقد ذكره الجاحظ^(١) والمبرد^(٢) باسم عبد الله ، وكذلك ذهب مذهبهما المسعودي^(٣) والمرزباني^(٤) والجوهرى والصحاح والفيروزابادى ، في القاموس « مادة رقى » . وفي الخزانة عن خط الشاطبي أن الأصمعي وافق ابن قتيبة على أن اسمه عبد الله^(٥) .

وذكره ابن سلام في كتابه طبقات^(٦) الشعراء - وهو أقدم نص ورد اسمه فيه - باسم عبيد الله ، وترجم له أبو الفرج في الأغاني بهذا الاسم^(٧) . وفي الخزانة: أنه عبيد الله ، ومن الرواة من يقول : الشاعر عبد الله وهو خطأ^(٨) . وأجمعت نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة بدار الكتب المصرية على أن اسمه عبد الله .

وكما اختلف الرواة في اسم الشاعر اختلفوا في علة تلقيبه بالرقيات ، أما ابن سلام فقال : إنه سُمِّيَ بذلك لأن جدّات له توالين يُسمّين رُقِيَّةً^(٩) . وقال ابن قتيبة : إنه لقَّبَ بذلك لأنه كان يُشَبَّب بثلاث نسوة يقال لهن كلهن رقية^(١٠) . وقال أبو عبيدة في كتاب النسب : سُمِّيَ بذلك لأنه كان يشبَّب بامرأتين كل منهما

-
- | | |
|---|--|
| (١) انظر الحيوان ١٥٤/٧ . | (٧) انظر الأغاني ٧٣/٥ . |
| (٢) الكامل للمبرد ص ٣٩٧ . | (٨) الخزانة ٢٦٧/٣ وانظر الولاة والقضاة للكندي ص ٥٢ . |
| (٣) مروج الذهب ٢٥٠/٥ . | (٩) طبقات الشعراء ١٣٧ . |
| (٤) الموشح ص ١٥٠ ، ١٨٦ ، ٢٢١ . | (١٠) الشعر والشعراء (طبع دى جويه) ص ٣٤٤ . |
| (٥) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ١٢٦٦/٣ . | (٦) طبقات الشعراء ص ١٣٧ . |
| (٦) طبقات الشعراء ص ١٣٧ . | وانظر الأغاني ٣٧/٥ . |

تسمى رقية^(١). وفي الخزانة قيل إن قيساً تزوج نسوة كل منهن اسمها رقية^(٢). وفي الصحاح والقاموس إنما أضيف قيس إلى الرقيات لأنه تزوج عدة نسوة وافق أسماؤهن كلهن رقية .

ومن يرجع إلى أخبار الشاعر وشعره يؤمن بأنه أضيف إلى الرقيات لأن أكثر تشبيهه فيمن سُمِّن رقية . ولعل فكرة أن أباه تزوج عدة نسوة يسمين رقية ، وكذلك أن جدات له تتابعن يسمين رقية ، لعل ذلك جاء من أن كلمة الرقيات أضيفت إلى قيس ، فهو يشتهر بين الرواة باسم ابن قيس الرقيات .

وينسب الرواة الشاعر على هذا النحو : عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة (وهو التويعم) بن أهيب^(٣) بن ضباب بن حُجَيْر بن عَبْد بن مَعِص بن عامر بن لُؤي بن غالب^(٤) . فهو قرشي إلا أنه ليس من قريش البطاح ، إنما هو من قريش الظواهر . وإذن فعشيرته ليست من العشائر الثرية التي كان لها شأن عظيم في أمور مكة في أثناء العصر الجاهلي على نحو ما كان لقريش البطاح . ومع ذلك يظهر أنها كانت تشتهر بالبأس والشجاعة . فأبو الفرج يقول : كان يقال لبني مَعِص بن عامر بن لُؤي وبني محارب بن فهر الأَجْرَبان ، وكانا متحالفين ، وإنما قيل لهما الأَجْرَبان من شدة بأسهما ، وعَرَّهما من ناوَأهما كما يَعْرِ الجَرَب^(٥).

وتسمى عشيرة عبيد الله باسم جده الثامن ، فيقال بنو مَعِص ، وقد تنسب إلى جده السابع فيقال بنو عَبْد^(٦) ، وإلى جده الثالث ربيعة الملقب بالتويعم^(٧). ويفتخر عبيد الله بعشيرته في ديوانه كما يفخر بقريشته ، فيقول^(٨) :

نَحْنُ الصَّرِيحُ إِذَا قَرِئَ شُ قَامَ مِنْهَا النَّاسِبُ^(٩)
مِنْ سِرِّهَا وَأَرْوَمُهَا إِذْ لِلأَرْوَمِ مَرَاتِبُ^(١٠)

(٦) الديوان ص ١٨٧ ، ١٩٣ .

(٧) الديوان ص ١٩١ .

(٨) الديوان ص ٢٥ .

(٩) يريد بالصريح أنهم من قريش في الصميم .

(١٠) الأروم : الأصول .

(١) الخزانة ٣/٣٦٦ .

(٢) الخزانة ٣/٢٦٥ .

(٣) في الديوان (طبع فيينا) ص ٦٧ : وهيب .

(٤) أغاني ٥/٧٣ وانظر الديوان ص ٦٧ .

(٥) أغاني ٥/٧٣ .

وكما يذكر عشيرته الأقربين يذكر أبناء عمهم مالك^(١) بن حِسل بن عامر ،
وأيضاً فإنه يذكر بني جابر بن وهب بن ضباب وبني شبل بن عبيد بن منقذ بن عمرو
ابن معيص^(٢) ، وهو شديد الاعتزاز بهم جميعاً .

وأم عبيد الله قتيلة بنت وهب بن عبد الله بن ربيعة من بني ليث بن بكر بن
عبد مناة ، وقد افتخر بأخواله في ديوانه^(٣) كما افتخر بأهله . وكان له أخ يسمى
عبد الله^(٤) ، ولعل ذلك ما جعل الرواة يخلطون في اسمه ؛ وأعقب عبد الله أبناء
مختلفين ، منهم سعد وأسامة وقد قُتلا في موقعة الحرة مع طائفة من عشيرتهما .
ورثى القتلى جميعاً عبيد الله رثاء حاراً^(٥) . وفي أخباره أن أثيلة بنت مسافع زوج
أسامة كان لها منه قيس وعقبة ومحمد ، وقد لجأت بهم بعد موقعة الحرة إلى عبيد
الله^(٦) . ولعل في هذا ما يدل على أن عبد الله كان قد فارق الحياة وإلا لجأت إليه
زوج أسامة ولم تلجأ إلى عبيد الله .

وليس لدينا أخبار واضحة عن أزواج عبيد الله ، وهو يذكر في ديوانه زوجة
كنانية^(٧) ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه الكنانية . وزعم صاحب الخزانة أنه لم
يكن له عقب^(٨) ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد وصية له موجهة إلى شخصين يسميان
شريحاً ومحصناً ، وهي أشبه بأن تكون وصية أب لابنيه ، إذ يقول^(٩) :

أَوْصِي شُرَيْحاً إِنْ هَلَكْتُ وَمَحْصَناً بَعُونِ عَلَى الْجَلِيِّ وَتَرَكِ الْحَارِمِ
وَذَبِّ عَنِ الْجَارِ الْمَلْبَسِ حَبْلَةً بِحَبْلَيْهِمَا وَبِالْحَلِيفِ الْمُقَاسِمِ
وَإِنْ حَارِبَ الْمَوْلَى فَحَارِبْ بِحَرْبِهِ وَإِنْ سَالَمَ الْمَوْلَى عَلَيْكَ فَسَالِمِ

وفي الأغاني أنه كان له بنون ثلاثة وبنات ثلاث وأنه زوج البنين الثلاثة ببنات
أخ له ثلاث ، كما زوج البنات الثلاث من بني أخ له^(١٠) .

(٥) الديوان ص ١٨٤ وما بعدها .

(١) الديوان ص ١٨٧ ، ٢١٣ .

(٦) الديوان ١٩٢ .

(٢) الديوان ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٧) الديوان ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) الديوان ص ٢٤٤ .

(٨) الخزانة ٢٦٥/٣ .

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (المخطوطة

(٩) الديوان ص ٢٤٧ .

التيمنية بدار الكتب المصرية) مجلد ٢٥ الورقة

(١٠) أغاني ٩٣/٥ - ٩٤ .

. ٢٠٨

حياة ابن قيس وأخلاقه وصفاته

نشأ ابن قيس الرقيات في مكة ، ولكن يظهر أنه تركها في مقتبل عمره إلى المدينة ، ومع ذلك فقد ظل يتردد عليها وعلى منزله^(١) فيها . وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن هذه الفترة الأولى من حياته إلا ما يرويه فند المغنى وهو من مغنى المدينة في الصدر الأول^(٢) قال : « حجَّت رُقِيَّة . . . فكننت آتيا وأحدثها فتستظرف حديثي وتضحك مني ، فطافت ليلةً بالبيت ، ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وقد طفت مع عبيد الله بن قيس الرقيات ، فصادف فراغنا فراغها ، ولم أشعر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت إليه ، فنفضته برؤنها^(٣) ، فارتدع ، وقال لى : من هذه ؟ فقلت أولا تعرفها ؟ هذه رقية بنت عبد الواحد ابن أبى سعد ، فعند ذلك قال :

مَنْ عَذِيرِي مَمَّنْ يَصْنُ بِمَبْذُو لِ لَغَيْرِي عَلَى عِنْدِ الطَّوْفِ^(٤)

ولا نجد بعد ذلك في أخبار ابن قيس حادثة تتصل بحياته في مكة . وتركها ، على ما يظهر ، إلى المدينة مع جماعة من أهله ، فإننا نجد هناك أولاد أخيه عبد الله وقد قُتِلَ منهم اثنان في موقعة الحرّة كما أسلفنا . ولعل أكبر دليل على نزوله المدينة أننا لا نجد له أخباراً مع مغنى مكة من مثل ابن مسجج وابن مُحَرَّز وابن سُرَيْج والغريص ، إنما تساق أخباره دائماً مع مغنى المدينة من مثل فند ، وسائب^(٥) خاتر ، وبُدَيْج^(٦) . وأشار بعض شعره إلى دار له فيها ، إذ يقول^(٧) :

شَبَّ بِالْعَالِ مِنْ كَثِيرَةِ نَارُ شَوْقُنَا وَأَيْنَ مَتَا الْمَزَارُ

(٥) أغاني ٨١/٥ .

(٦) أغاني ٢٢٠/٦ .

(٧) الديوان ص ٩٤ .

(١) أغاني ٧٧/٥ .

(٢) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

(٣) أغاني ٩٦/٥ .

(٤) أغاني ٩٦/٥ .

تلك نارُ لها أضاءَ سَنَاهَا لِحَبِّ لَه يَثْرَبَ دَارُ
فهو يشير إلى دار اتخذها لنفسه في المدينة . وفي الأغاني ما يدل على أنه كان
ينزل بها في أثناء حكم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص لها في خلافة معاوية ،
فقد كان معاوية يُعقب بينهما يُوَلِّي هذا سنة وهذا سنة (١) ، وكانت في مروان شدة
وغلظة . فلما ولي المدينة وليَّ مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري شُرطته ،
وأعانه بماتى رجل من أهل أَيْلَة (العقبَة) فضبطها ضبطاً شديداً ، فقال ابن
قيس (٢) :

عَلَّيْ	الْقَوْمَ	يَشْرَبُوا	كَي	يَلْدُوا	وَيَطْرَبُوا
إِنَّمَا	ضَلَّلَ	الْفَوَا	دَ	غَزَالُ	مُرَبَّبُ
فَرَشْتُهُ	عَلَى	النَّامَا	رَقِ	سُعْدَى	وَزِينِبُ
حَالَ	دُونَ	الْهَوَى	وَدُو	نَ سُرَى	اللَّيْلِ مُصْعَبُ
وَسَيَاطُ	عَلَى	أَكْ	فَ	رَجَالُ	تُقَلَّبُ

فديوان ابن قيس يرتبط بحوادث المدينة في أثناء خلافة معاوية ، وقد يكون
في هذه القطعة ما يدل على أن ابن قيس كان يحيا من بعض الوجوه حياة لاهية ،
فهو يتبع المغنين ، وهو يضح من صعوبة مصعب وسيده مروان ، وهو يدعو إلى
الطرب والشراب .

على أن اتصاله بسائب خاثر وبُدَيْح ، وكانا موليين لعبد الله بن جعفر سيد
بنى هاشم . يدل على أنه اتصل بسيدهما . وليست المسألة مسألة استنتاج ، فديوانه
ملء بأشعار في مدح عبد الله . وسنراه يلجأ إليه ويلزم حماه فيما بعد . ونلاحظ هنا
أن طبيعة حياة ابن قيس وشعره ، إذ كان يمدح به سادة قومه ، تدل دلالة قاطعة
على أنه اتصل بعبد الله بن جعفر ، جواد الحجاز ، منذ هذا التاريخ . وزعم بعض
الرواة أنه شبب برقية ابنته (٣) .

غير أن الرواة على عادتهم شَوْشُوا لَنَا فِي أَخْبَارِهِ وجعلوه لا يتصل بعبد الله في

(٣) انظر الورقة الأولى في ديوان ابن قيس

(مخطوطة بدار الكتب) رقم ٨٨ ش .

(١) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

(٢) أغاني ٧٢/٥ - ٧٤ .

هذه الفترة من حياته ، إنما يتصل به فيما بعد على ما سنرى . ويقول أبو الفرج :
كان ابن قيس الرقيات منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر وكان يصله ويقضى عنه
دينه^(١).

وما نخصي بعد خلافة معاوية إلى خلافة يزيد ابنه حتى نجد ابن قيس يترك
المدينة إلى الجزيرة وإلى الرقة خاصة . يقول السكري جامع ديوانه : « خرج الوليد
ابن عقبة بن أبي معيط سنة سبع وثلاثين حتى نزل الرقة فكان بها وكان معه العلاء
ابن عبد بن أهبان بن جابر بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص . وكانت تحته
هند بنت عقبة أخت الوليد في ناس من قومهم ، فيهم عبد الواحد بن أبي سعد بن
قيس بن وهب فأقاموا معه وأقبل عبيد الله بن قيس الرقيات . . . فأقام فيهم حتى
كانت وقعة الحرّة ، فقتل فيها ناس من أهل بيته ، وكان الذي كتب إليه بنعيم
ابن عم له يقال له يزيد بن علي بن عبيد الله بن رخصّة بن عامر بن رواحة بن منقذ
ابن عمرو بن معيص ، فنعى إليه أسامة وسعداً ابني عبد الله بن قيس الرقيات^(٢) .
ويعصى السكري فيقول : « إن أثيلة بنت مسافع بن فضالة الخزاعية امرأة أسامة
حملت أولادها قيساً وعقبة ومحمداً إلى الجزيرة حين قُتل أبوهم وعمهم ، فبقيت بها ،
فأقام عبيد الله بن قيس كذلك . ثم أغار عمير بن الحباب ، على بني عامر بن
لؤي ، وكانوا يحبون بني أمية ، وإنما سمى واديهم « وادي الأحرار » بيزيد بن معاوية ،
وكان نزل بهم في خلافته ، وذلك لأن حرب بن عبد الواحد بن أبي سعد أصاب
رجلاً من بني ذكوان (من سلّم) فقتله ، فألى عمير بن الحباب ألا يدع بوادي
الأحرار رجلاً إلا قتله به . وأغار عمير فأخذ عبيد الله بن قيس أسيراً ، فلما قدمه
ليقتله وثب عليه رجل من بني قنفة من رغل ، فمنعه^(٣) ، وذكر ذلك ابن قيس
في شعره^(٤) . ونحن نعرف أن عمير بن الحباب كان من زعماء القيسية في الموصل
وأنه بايع مروان ابن الحكم بعد وقعة مرج راهط ، ثم خرج عليه بعد قتل إبراهيم
ابن الأشتر لابن زياد وهزيمة جيشه الذي وجهه عبد الملك لحرب المختار الثقفي
والى ابن الزبير على الكوفة ، وكان ذلك في أواخر سنة ٦٦ للهجرة .

(٣) الديوان ص ١٩٢ .

(١) أغاني ٨٢/٥ .

(٤) الديوان ص ١٩٤ وكذلك ص ١٩٧ .

(٢) الديوان ص ١٨٤ .

ولجأ عمر إلى زُفر بقرقيسيا وأخذ يكيد لتغلب واليمينية وأنصار الأمويين^(١)، فكانت من ذلك غارته على عشيرة ابن الرقيات ، ونظن أن ذلك إما كان في أواخر سنة ٦٦ للهجرة أو أوائل سنة ٦٧. ويقول السكري: إن ابن قيس ارتحل بعد ذلك سائراً إلى فلسطين^(٢)، ويظهر أنه لم تكن وجهته فلسطين ، وإنما كانت وجهته الحجاز . فنحن لا نجد في أخباره ما يدل على أنه اتصل حينئذ بعبد الملك ، وقد صارت إليه الخلافة بعد أبيه مروان منذ سنة ٦٥ للهجرة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن ابن قيس حتى هذا التاريخ لم يكن زيرياً ، فقد كان بين عشيرته في الموصل ، وكانوا يحطبون في حبل بني أمية على الرغم من قتل منهم في موقعة الحرة .

وملئ ابن قيس وجهه نحو الحجاز ، ونزل بالمدينة ، ولقي سعيد بن المسيب ، فهش وقال : مرحباً بظفر من أظفار العشيرة ، وكان سعيد مخاصماً للأمويين^(٣)، ولعله هو الذي أملى على ابن قيس اتجاهه الجديد إلى الزيريين . ويقول من حدثوا بهذا اللقاء إنه أنشد سعيداً :

أَتَلَبْتُ فِي تَكْرِيتَ لَا فِي عَشِيرَةٍ شُهُودٍ وَلَا السُّلْطَانُ مِنْكَ قَرِيبُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ لِلْحَزْمِ عِنْدَكَ مَتَلُ وَلِلدِّينِ وَالْإِسْلَامِ مِنْكَ نَصِيبُ

فقال سعيد : لا مقام على ذلك ، فاخرج منها ، قال : قد فعلت ، قال : قد أصبت ، أصاب الله بك^(٤). وصمم ابن قيس ألا يعود إلى تكريت في الموصل ، وأزرد ذلك ووكدته في نفس ابن قيس ما كان من قتل الأمويين وجنودهم لابن أخيه في موقعة الحرة ، فانصرف عنهم إلى آل الزير .

ويظهر أنه لم يذهب إلى مكة ، بل ذهب مباشرة إلى العراق حيث ولي مصعب ابن الزير هناك على البصرة ، وكان بحراً فياضاً من بحور قريش ، فلزمه منذ ولايته هذه ، ورأى حربه مع المختار الثقفي وإلى الكوفة وقضائه عليه ، وذكر ذلك في شعره^(٥).

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير طبع أوروبا (٣) طبري ١١٦٩/٢ .

(٤) ٢٥٣/٤ وما بعدها . (٤) أغاني ٩١/٥ .

(٢) الديوان ص ١٩٩ . (٥) الديوان ص ١٧٥ ، ص ٢٧٣ .

وعلى هذا النحو لا نصل إلى سنة ٦٧ للهجرة حتى يصبح ابن قيس زُبَيْرًا^(١) الهوى . وعزلَ عبد الله بن الزبير أخاه عن العراق سنة ٦٧ بعد أن قتل المختار ، ثم أعاده ثانية^(٢) سنة ٦٨ ، واستمرَّ معه ابن قيس هناك بل أصبح شاعر الزبيرين الأول . وهو في الواقع كان شاعراً لمصعب نفسه قبل أن يكون شاعراً لأخيه ، وقد ذهب يتغنى غناء خالداً بأعماله وحروبه مع المختار ، والخوارج ، والجيوش التي أرسلها عبد الملك ، فباعت بالخبيبة والفشل ، وما زال مع مصعب يغنيه أعماله حتى تحرك عبد الملك إلى حربه . ونحن ننقل ما ذكره بنفسه عما كان من شأنه معه : « قال : خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخصو عبد الملك ابن مروان إليه ، فلما نزل مصعب ابن الزبير بمسكن^(٣) ، ورأى معالم الغدر ممن معه دعاني ودعا بمال ومناطق ، فملأ المناطق من ذلك المال ، وألبسني منها ، وقال لي انطلق حيث شئت فإني مقتول ، فقلت : لا والله ولا أريم^(٤) حتى أرى سبيلك » فأقمت معه حتى قُتل . ثم مضيت إلى الكوفة ، فأول بيت صرت إليه دخلته ، فإذا فيه امرأة لها ابتتان كأنهما ظيبتان ، فرقيت في درجة لها إلى مشربة^(٥) ، فقعدت فيها ، فأمرت لي المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش والماء للوضوء . فأقمت عندها أكثر من حوْل ، تقيم لي ما يصلحني ، وتغدو عليّ في كل صباح . . . وأنا في ذلك أسمع الصباح فيّ والجعل . فلما طال بي المقام ، وفقدت الصباح فيّ وعرضت^(٦) بمكاني غدت عليّ ، فعرّفتها أنني قد غرضت ، وأحببت الشخصو إلى أهلي ، فقالت لي : نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى ، فلما أمسيت وضرب الليل بأرواقه رقيت إليّ ، وقالت إذا شئت ! فنزلت وقد أعدت راحلتين عليهما ما أحتاج اليه ومعهما عبد ، وأعطت العبد نفقة الطريق ، وقالت : العبد والراحتان لك ، فركبت ، وركب العبد معي حتى طرقت أهلي بمكة ، فدققت منزلي ، فقالوا لي : من هذا ؟ فقلت عبيد الله بن قيس الرقيات ، فولولوا وبكوا ، وقالوا ما فارقنا طلبك

(١) أغاني ٧٦/٥ . (٤) لا أريم : لا أبرح .

(٢) ابن الأثير ٢١٩/٤ - ٢٣٨ . (٥) مشربة : غرفة .

(٣) مسكن : موضع قريب من دير الجاثليق (٦) غرض : ضجر .

على نهر دجيل .

إلا في هذا الوقت . فأقمت عندهم حتى أسحرت ، ثم نهضت ومعى العبد ، حتى قدمت المدينة . فجئت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عند المساء . وهو يُعَشِّي أصحابه . فجلست معهم وجعلت أتعاجم ، وأقول يا ريار ابن طيار ، فلما خرج أصحابه كشفت له عن وجهي . فقال : ابن قيس ؟ فقلت : ابن قيس ، جئتكَ عائداً بك ، قال : ويحك ما أجدهم في طلبك وأحرصهم على الظفر بك ! ولكني سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، فهي زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرق شيء عليها ، فكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها ، وكتب إلى أبيها يسأله أن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة ، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم لي حاجة ، فقال : قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات ، فقالت : لا تستثن علي شيئاً ، فنفع^(١) يدها ، فأصاب خدها ، فوضعت يدها على خدها ، فقال لها : يا ابنتي ارفعي يدك . فقد قضيت كل حاجة لك ، وإن كانت ابن قيس الرقيات ، فقالت : إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمنه . فقد كتب إلى أبي يسألني أن أسألك ذلك ، قال : فهو آمن فمُرِّيه يحضر مجلس العشيّة ، فحضر ابن قيس ، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك ، فأخّر الإذن ، ثم أذن للناس ، وأخّر إذن ابن قيس الرقيات ، حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه قال عبد الملك يا أهل الشام أتعرفون هذا ؟ قالوا لا ، فقال : هذا عبيد الله ابن قيس الرقيات الذي يقول :

كيف نؤمّي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام^(٢) العقيلة العذراء

فقالوا يا أمير المؤمنين : اسقنا دم هذا المنافق ! قال الآن وقد أمنتته وصار في منزلي وعلى بساطي ؟ ! قد أخّرت الإذن له لتقتلوه ، فلم تفعلوا . فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه ، فأذن له ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

عاد له من كثيرة الطرب فعينه بالدموع تنسكب

وهو الخلخال .

(١) نفع : ضرب ضربة خفيفة .

(٢) خدام : على نية المضاف إليه أى خدامها

حتى قال فيها :

إن الأغر الذي أبوه أبو الـ عاصي عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك يا ابن قيس : تمدحني بالتاج كأنى من العجم وتقول
في مصعب :

إنما مصعب شهاب من اللا ه تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً . وقال
ابن قيس الرقيات لعبد الله بن جعفر : ما نفعنى أمانى ، تُركتُ حياً كميّ لا آخذ
مع الناس عطاء أبداً ، فقال له عبد الله بن جعفر : كم بلغت من السن ؟ قال
ستين سنة ، قال فعمّر نفسك ؟ قال عشرين سنة من ذى قبل^(١) ، فذلك ثمانون
سنة . قال : كم عطاؤك ؟ قال ألفاً درهم ، فأمر له بأربعين ألف درهم . وقال :
ذلك لك على أن تموت على تعميرك نفسك^(٢) .

وإنما نقلنا ذلك الخبر على طوله مع أنه يشبه أن يكون قصة ، لأنه يتضمن
في ثناياه الحقيقة ، فإن ابن قيس استمر ملازماً لمصعب حتى قُتل ، فلما قتل قرّ
وأهدر عبد الملك دمه ، فكان لا بد له من الاختفاء . وهنا تلعب القصة دورها ،
فقد زعم الرواة أن المرأة التي اختفى عندها هي كثيرة^(٣) التي شُبِّبَ بها كثيراً
في شعره .

وبالغ الرواة ويعطون القصة لونها الذي رأيناه ، فقد أمضى عند كثيرة هذه
سنة تتعقبه شرطة عبد الملك ويتعقبه الصباح به وأن من وجده أو دلّ عليه فله ألف
دينار^(٤) ثم تحفّ الحملة عليه ، ويفقد الصباح فيطلب من المرأة أو من كثيرة
الخروج من دارها ، فتأتيه تحت الليل براحتين وعبد معها ، وتعطيه نفقة
الطريق .

(٣) أغاني ٨٤/٥ .

(١) من ذى قبل : يزيد إلى المستقبل .

(٤) تاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٩ .

(٢) أغاني ٧٦/٥ .

وربما كانت كثيرة هي المفتاح الذى نعرف عن طريقه كل هذه القصة .
فابن خلكان يذكر أن كثيرة هذه تزوجت على^(١) بن عبد الله بن العباس . وفى
الطبرى أنه لما دخل عبد الملك الكوفة بعد مقتل مصعب سأل عن بعض أنصاره
ممن أوغروا الشام عليه وأفسدوا العراق ، فقبل قد أجارهم رؤساء عشائهم ، قال
وهل يجير على أحد؟ وكان عبد الله بن يزيد بن أسد لجأ إلى على بن عبد الله بن
العباس ولجأ إليه أيضاً يحيى بن معيوف الهمداني ، فأتمهما عبد الملك وظهرا^(٢).

ونستطيع أن نصل الآن بين كثيرة وزوجها الذى كان يلجأ إليه من يطلبهم
عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وأن نزن أن ابن قيس إنما لجأ إلى على بن عبد الله
لا إلى كثيرة نفسها كما ظن الرواة ، ولم يستطع على فيما يبدو أن يستصدر له أمراً
بالعفو من عبد الملك ، لأنه سبق إلى إعلان إهدار دمه ، أو لأن ذنب ابن قيس
كان عظيماً . فقد كان يدعو إلى حربه ، وكان يؤلب عليه ، مع مصعب ، بشعره .
وأخفاه على بن عبد الله عنده حتى إذا ضعف طلبه أعانه على الفرار إلى ابن عمه
عبد الله بن جعفر ، فقد كان قريباً من نفس الأمويين وكان محبباً إليهم ، وأصر
إليه عبد الملك . على أن ابن جعفر نفسه لم يستطع أن يطلب له الأمان من عبد الملك
مباشرة ، بل أرسل إلى عبد العزيز بمصر ، واتخذ له وسيطاً بنته عند أم البنين ،
فشفعت فيه على ما جاء فى القصة

ولجؤ ابن قيس إلى عبد الله بن جعفر تضافرت به الروايات^(٣)، وفى شعره
ما يؤكد ، بل ما يشبه من نحو قوله^(٤):

تداركني عبدُ الإله وقد بدتُ لذي الحقد والشَّانِ متى مقاتلي
فأنقذنى من غمرة الموت بعدما رأيتُ حياضَ الموت جَمَّ المناهل

ومعنى ذلك أن استجارة ابن قيس بابن جعفر ثابتة ، ولكن بقيت فى القصة
بقية . فهل شفع له ابن جعفر عند عبد الملك مباشرة ، أو شفع له بواسطة أم البنين؟

(١) وفيات الأعيان (طبع أوربا) ص ٤١٢ . ص ٣٩٨ والخزانة ٢٦٨/٣ .

(٢) الطبرى ٨١٧/٢ وانظر اليعقوبى ٣٢٧/٢ . (٤) أغاني ٨٢/٥ .

(٣) انظر الشعر والشعراء ص ٣٤٤ والكامل للمبرد

أما القصة السابقة فتزعم ذلك ، ولكن هناك قصصاً أخرى نجد ابن جعفر فيها يشفع له مباشرة . فأبو الفرج يروى أن ابن قيس استجار بعبد الله بن جعفر ، وأنه أعطاه في أول لقائه ثمانمائة دينار ، فلما قبضها قال له : أسأل أمير المؤمنين في أمري . قال : نعم ، فإذا دخلت إليه معي ودعا بالطعام ، فكل أكلأ فاحشاً . فركب ابن جعفر ، فدخل معه إلى عبد الملك ، فلما قُدم الطعام جعل يسيء الأكل ، فقال عبد الملك لابن جعفر من هذا ؟ فقال هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقاً إن استبقي ، وإن قُتل كان أكذب الناس ، قال : وكيف ذلك ؟ قال لأنه يقول : ما نَقَمُوا من بني أمية إلا أنهم يَحْلُمُونَ إن عَضِبُوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبه فيما مدحك به ، قال : فهو آمن . ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال ، قال ابن جعفر : ولم وقد وهبته لي ؟ فأحب أن تهب لي عطاء أيضاً ، كما وهبت لي دمه ، وعفوت لي عن ذنبه ، قال قد فعلت ، قال : وتعطيه ما فاتته من العطاء ، قال : قد فعلت وأمرت له بذلك^(١) .

وهذا الخبر وإن انتهى بطلب العفو عند ابن جعفر ، فإن أثر الانتحال فيه يَبِّن ، لأن عبد الملك كان قبل طلب أبيه للخلافة يعيش في المدينة ، وأسلفنا أن ابن قيس كان هناك أيضاً في أثناء خلافة معاوية وحكم أبيه مروان للمدينة ، فيبعد ألا يكون على معرفة به وخاصة أنه شاعر ، وكان شعره يُروى في المدينة حينئذ ، بل كان مروان أبوه نفسه يرويه^(٢) .

ولا يبعد أن يكون ابن جعفر قد طلب الأمان له ، وطلبه أيضاً عبد العزيز ابن مروان عن طريق ابنته أم البنين ، ولكن على كل حال إنما يعترف ابن قيس في شعره بأن ابن جعفر هو الذي أَمَنَهُ على نفسه .

ولسنا ندرى هل عاد ابن قيس مع ابن جعفر إلى المدينة . أو أنه ولى وجهه نحو جهة أخرى ، ففي شعره ما يدل على أنه كان في العراق سنة ٧٣ للهجرة . إذ نراه يهجو من يسمى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ، وكان قد هُزم أمام الخوارج^(٣) ، وفي الوقت نفسه نراه يمدح بِشَرٍّ^(٤) بن مروان ، ويقال - إن صححت الرواية - إنه

(٣) طبرى ٢/٨٢٨ .

(٤) الديوان ص ٢٤٥ .

(١) أغاني ٥/٨١ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

أنشده يوماً قصيدة يقول فيها :

يا بشرُ يا ابنَ الجَعْفَرِيَّةِ ما خَلَقَ الإلهُ يدُكَ للبخلِ

فقال له بشر : احتكم^(١) ، قال : أعطني عشرين ألف درهم ، فقال بشر : قبحك الله ، لك عشرون وعشرون وعشرون وعشرون وعشرون ، فأعطاه مائة ألف درهم^(٢) . ونحن نعرف أن بشراً وافته المنية سريعاً فسرعان ما توفى وخلفه الحجاج سنة ٧٥ للهجرة . وليس في ديوان ابن قيس ولا في أخباره ما يدل على أنه وفد على العراق بعد وفاة بشر ، ولعله لم يذهب مخافة الحجاج على نفسه ، أو لعله لم يذهب لأنه اتصل بعبد العزيز بن مروان وإلى مصر . ومربنا ما يقال من أنه كان أحد شفعائه عند عبد الملك ، ولا نعرف لماذا لم يذهب إليه مباشرة وذهب إلى العراق . ولعله إنما ذهب إلى العراق لأنه ترك هناك بعض أهله . وكان كثير من عشيرته في الموصل .

ونحن نظن أن ابن قيس لم يستمر في العراق حتى وفاة بشر وأنه عاد قبل ذلك . فقد اتخذ على ما يظهر مكة مقاماً^(٣) له ، وكان يرحل منها إلى المدينة لمديح ابن جعفر وأخذ نواله ، كما كان يرحل منها إلى مصر لمديح عبد العزيز وحمل جوائزه وعطاياه . وفي ديوانه قصائد كثيرة في مديح عبد العزيز وابن جعفر . ويروي أبو الفرج أن صلةً جاءت ابن جعفر من لدن عبد الملك وابن قيس غائب ، فأمر عبد الله خازنه ، فحجاً له صلته ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء . فقال ابن قيس^(٤) :

إذا زرتُ عبد الله ، نفسي فداؤه رجعتُ بفضلٍ من نَداهِ ونائلِ
حَبَانِي لما جثته بعطيَّةٍ وجاريةٍ حسناء ذاتِ خلاخلِ

وما زال يأخذ صلوات ابن جعفر حتى توفي سنة ٨٠ للهجرة ، وقيل بل سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين^(٥) . وأكبر الظن أن صلوات عبد العزيز بن مروان

(١) انظر أنساب الأشراف للبلاذري ١٧٥/٥ . (٢) أغاني ٨٢/٥ .

(٣) أسد الغابة ١٣٥/٣ .

(٤) انظر أغاني ٩٣/٥ .

لم تنقطع حتى توفي هو الآخر سنة ٨٥ للهجرة^(١)، فقد لزمه وكاد أن يكون شاعره .

ولا نجد ذكراً لابن قيس الرقيات بعد هذا التاريخ إلا ما يذكره الرواة من أن أم البنين حجت في خلافة زوجها الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) فنظم الشعراء فيها وفي جواريتها . وروى أبو الفرج لابن قيس شعراً قاله حينئذ في أم البنين^(٢) . ومعنى ذلك أن ابن قيس عاش إلى ما بعد وفاة ابن جعفر وابني مروان : عبد العزيز وعبد الملك ، ولكن ليس في ديوانه ما يدل على أنه مدح الوليد . وأكبر الظن أنه لم يعيش حتى آخر عهده بل لم يستمر في خلافته طويلاً ، فإن عمر بن عبد العزيز ولي المدينة سنة ٨٧ للهجرة ، وليس في ديوان ابن قيس مديح له ، ولو لحقه ابن قيس لمدحه كما مدح أباه ولي نعمته ، وكان يتعصب لبيته على بيت عبد الملك تعصباً شديداً . ويروى أن ابن جعفر قال له سنة ٧٣ للهجرة حين طلب له العفو من عبد الملك : عَمَّرَ نفسك ، فعمَّرها ستين ، وإذن فعبد العزيز بن مروان توفي وعمره اثنان وسبعون سنة ، ويغلب على الظن أنه لم يعيش طويلاً بعد ذلك .

ونرى مما قدمنا أن ابن قيس عاش حياة طويلة ، وقد لُوِّنت في أوائلها وفي أثناء مقامه في مكة والمدينة بألوان من اللهو^(٣) ، إذ كان يجري في أثر المغنين والمغنيات ، وكان يتبعهم ، ويعقد الصداقة بينه وبينهم . على أنه سرعان ما اصطدم بالحوادث بعد ذلك ، فانتقل إلى الرقة ، وأسرهُ عُمَيْرُ بن الحباب ، ثم افتك أسره ، وقد أخذ يكثر من بكاء شبابه^(٤) منذ أن جاءته أخبار وقعة الحرّة وموت ابني أخيه : أسامة وسعد فيها ، وتعلو شعره من حين إلى آخر مسحة من الحزن والتفكير في الحياة والموت كقوله^(٥) :

هل ترى من مُخلَّدٍ غير أن الله يبقى وتذهب الأشياء
يأمل الناس في غدٍ رَغَبَ الدهرِ ألا في غدٍ يكون القضاء

(١) طبرى ١١٦٥/٢ وابن الأثير ٤/٤٠٩ . (٤) الديوان ص ٦٨ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠١ .

(٢) أغاني ٢٢٠/٦ . (٥) الديوان ص ١٧٣ .

(٣) أغاني طبع بولاق ١٦/٥٩ .

وطبيعى أن ترتفع هذه النغمة الحزينة فى شعر ابن قيس من وقت إلى آخر ، فقد ألت به حوادث كثيرة ، وأوشك عبد الملك أن يطير به طيرة بطيئاً سقوطها ، ومن قبله أوشك عمير بن الحباب أن يقضى عليه . ومن هنا لا يكون غريباً أن تغمر شعره ظلالٌ حزينة أحياناً .

وقد يكون لهذه التزعة فى طوايا نفسه أثر فى إقباله على الشراب . ومرت بنا قطعة قالها فى أيامه الأولى بالمدينة حين ولها مروان بن الحكم وضبطها مصعب بن عبد الرحمن بن عوف برجال من أئمة تتحرك الشياطين فى أيديهم ويخاف الناس من مغنين وغير مغنين بطشهم . ونراه فى هذه القطعة يدعو إلى الشراب . ويظهر أنه عنى بعد مفارقتها المدينة به ، فعن يونس أنه شغل نفسه بالشراب بتكرير^(١) ، وربما كان يونس مبالغاً . وفى ديوانه^(٢) :

وسُلافٍ مما يعتقُ حِلِّ زاد فى طيبها ابنُ عبدِ كلالٍ

وأكبر الظن أنه يقصد نبذ التمر الذى كانوا يحلونه فى المدينة^(٣) ، ولذلك نعته بأنه حِلّ . ولكن على كل حال هذا بيت عابر فى الديوان ، ومثله بيت القطعة التى أشرنا إليها :

علل القوم يشربوا كى يلذوا ويَطربوا

أما بعد ذلك ، فليس هناك ما يدل على ما زعمه يونس من أنه شغل نفسه بالشراب ، فأكبر الظن أنه إنما صنع ذلك فى فترات متقطعة ، وقد تكون حياة اللهو والبهجة فى المدينة هى التى دفعته أولاً إلى شراب الخمر ، ثم أخذ يشربها بعد وقعة الحرّة فى تكريت وغيرها لينفّس عن نفسه وما أصابها من حزن وحسرة ، غير أن ذلك كان عارضاً فى حياته كما عرض البيتان السابقان فى ديوانه .

وأهم صفة تميز ابن قيس هى صفة الوفاء ، فقد كان وفياً لآله وأصدقائه . أما وفاءه لآله فيتضح فى تأثره الشديد بقتلاهم فى موقعة الحرّة ، وما صاغه من شعر عقب

(٣) أغاني ١٥/١٥ وانظر أغاني طبع دار الكتب

٣٥١/٢ وما بعدها .

(١) أغاني ٨٨/٥ .

(٢) الديوان ص ٢٠٦ .

ذلك . وأما وفاءه لأصدقائه فيتضح في رثائه لمصعب وقد بكاه طويلاً في ديوانه .
وفي الأغاني أنه « كان عد عبد الملك ، فأقبل غلمان له معهم عِساس^(١) خَلَنَجَ ،
فيها لبن البُخْتِ^(٢) » ، فقال عبد الملك يا بن قيس أين هذا من عِساس مصعب
التي تقول فيها :

ملكٌ يُطعم الطعامَ وَيَسْقِي لَبَنَ البُخْتِ في عِساسِ الخَلَنَجِ

فقال : لا أين يا أمير المؤمنين لو طرحت عِساسك هذه في عُسٍّ من عِساس
مصعب لوسعها وتغلغلت في جوفه . فضحك عبد الملك ثم قال قاتلك الله يا ابن
قيس ! فإنك تأبى إلا كرمًا ووفاءً . « وهذه شهادة عظيمة ، من خصم مصعب ،
بوفائه وحرصه البالغ على الوفاء .^(٣) »

٣

غزل ابن قيس وشعره

احتفظ لنا كتاب الأغاني بطائفة من أغاني ابن قيس ، وأكثرها يدور حول
الحب الذي شغلت أفاضيله الناس في هذا العصر ، فقد كان العصر عصر
فراغ وتعطل . لم تعد هناك هذه الحروب المدوية في أطراف العالم الإسلامي ،
وعاد الناس أو عاد كثير منهم إلى مسقط رأسه في مكة والمدينة ، وامتلات حجورهم
بالمال الذي جلبوه من الخارج ، وأخذوا يعيشون على نمط جديد ، فيه فراغ من
جهة ، وفيه ترف ودعة من جهة أخرى ، فظهر الغناء ، ولم يلبث أن ارتفع به المغنون
إلى الأوج أو إلى القمة ، وكاد أن يكون في كل بيت من بيوت أشرف قريش مغن
أو مغنية أو مغنون ومغنيات ، كبيت الثريا في مكة ، وقد تحدثنا عنه مراراً ، وكييت
عبد الله بن جعفر في المدينة ، وكان فيه سائب خاثر وبُدَيْحٍ ونشيط ، وعلى أيديهم
تخرج أكثر المغنين والمغنيات في المدينة .

(١) العِساس : جمع عس وهو القدح . والخَلَنَج (٢) البخت : جمع بختية وهي الناقة الخراسانية .
نوع من الخشب . (٣) أغاني ١٦٧/١٧ .

وكانت الحياة في مكة والمدينة هذا العصر تدفع كل شاعر هناك للاتصال بالمغنين حتى يروج اسمه ، وتشيع شهرته بين النبلاء والأشراف ، الذين لم يكن لهم عمل سوى الاستماع إلى الغناء وآخر ما أحدثه أصحابه من أغنيات .
ولم تقف المسألة عند الرجال فإن المرأة القرشية الشريفة أخذت تُعنى بهذا الجانب وما يتصل به من الشعر على نحو ما كانت السيدة ثُرَيَّا تصنع في مكة ، وفيها يقول ابن قيس الرقيات (١) :

يا سليمان إن تلاقِ الثُرَيَّا تلقَ عيشَ الخلود قبل الهلالِ
حبَّذا الحجُّ والثُرَيَّا ومنْ بالِ خيفَ من أجلها وملقَى الرجالِ
دُرَّةً من عقائل البحر يكرُّ لم تنلها مثاقب اللآلِ

وهل هناك من شاعر يعيش في مكة ، ويستمر له العيش فيها أو يفارقها ، إلا وهو يذكر الثريا صاحبة الغريص ويحيى قَيْلُ وُسْمِيَّة ، وكانت تستقبل في منزلها الشعراء وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة . إنها سيدة مكة ، سيدة شريفاتها اللائي أظهرن ذوقاً بديعاً في العناية بفن الغناء الجديد وأصحابه من المغنين ومن يصنع لهم الأغاني من الشعراء . لهذا كله يكون من الطبيعي أن يذكرها ابن قيس ، فهي الزهرة الغضة الناضرة بمكة ، وهي صاحبة الذوق الفنى السليم في تقدير الشعر والشعراء والغناء والمغنين .

ونحن لا بد أن نلاحظ الأيام التي مرت على الناس وعلى المرأة خاصة في مكة في عصر الفتوح وبعده . فقد هاجر كثير من الشباب إلى الفتوح والبلاد المفتوحة وكثير منهم عاد ومعه غنائم الفتوح من أموال ورقيق وجوارٍ وسرعان ما رأت المرأة القرشية نفسها تخرج من حياتها القديمة الخشنة إلى حياة جديدة مترفة زاخرة بألوان من الحضارات الأجنبية وبصنوف من الجوارى الأجنبية ، فكان من الطبيعي أن تندفع في هذه الحياة وأن تأخذ منها بحظ بل بحظوظ ، فتساهم في المتاع بفن الغناء الجديد ، وتسمى بما لها من مكانة رفيعة في مجتمعها لهذا الفن جواً من استحسانه والعناية البالغة به .

(١) الديوان ص ٢٠٦ وانظر أغاني ٢١٣/١ .

وأعدَّ ذلك لنهضة حقيقية في الغناء وفي الشعر الذى يتخذه هذا الغناء ، وكان ابن قيس ثانياً اثنين ينهضان بهذا الشعر : هو من طرف ، وابن أبى ربيعة من طرف آخر ، غير أن ابن قيس لم تهدأ له الحياة هدوءه والعمر . ومعنى ذلك أن الأسباب لم تُكفَل له ، حتى ينحصر نفسه لهذا الشعر الذى كانت تطلبه مجالس الأشراف والشرىفات في مكة والمدينة ونواذى الغناء فيهما ، ونقص شعر الحب أو كما يسمى شعر التشبيب والغزل ، فقد ألهته أحداث الدنيا عن هذا التخصص ، ولم يكن ثرياً ثراء عمر ، فانقسمت نفسه بين المديح والغزل .

ومع ذلك فشعر ابن قيس في الغزل والتشبيب يحلّق في أجواء الفن العليا من حيث الصفاء وشفافية التعبير ، ومن حيث القيم الغنائية الخالصة ، فقد توفرت له المعيشة في مكة ، هذه البيئة المترفة حيث الثريا ومغنوها ومغنياتها ، وحيث ابن سُرَيْج وابن مِسْجَح وابن محرز . ثم انتقل ابن قيس إلى المدينة ، وانعقدت في أثناء مقامه بها الصداقة بينه وبين فند ثم بينه وبين سائب خاثر وبُدَيْح على ما مرَّ في غير هذا الموضع . وكما صحب هناك المغنين صحب المغنيات وعلى رأسهن سلامة القس التى فتنت قس مكة المشهور عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشمي وفيها وفي أختها رَيا يقول بيتيه اللذين أنشدناهما في ترجمة سلامة بكتاب المدينة :

لقد فتنت رَيا وسلامةُ القسَّ فلم تتركاً للقسَّ عَقْلاً ولا نَفْساً
فتاتان أما منهما فشيبةُ الـ هلالِ وأخرى منهما تشبه الشمساً

وفي الأغاني أنه كان يجلس إليهما يستمع إلى غنائهما في شعره وشعر غيره^(١) . وحياة ابن قيس من هذه الناحية حياة شاعر أغان بالمعنى الكامل ، فهو يلزم المغنين والمغنيات ويستمع إلى ألحانهم وأنغامهم ، ويقف على ما يريدون من تجديد في الشعر تحت تأثير هذه الأنغام والألحان . وفي أثناء ذلك كان يقدم لهم ما يُحدث من طرائف الأغاني ، فيذيعونها على قيثاراتهم .

وكل من يطّلع على الأغاني التى كان يلحنها المغنون والمغنيات في شعره يُعجَبُ

بمقدرته على النظم في هذا الشعر الذى يقطر فيه ابن قيس عواطف الناس من حوله ، وهى عواطف كان يعقبُ بها جو مكة والمدينة ، وكان ابن قيس يجمع لنفسه منها كل ما يستطيع من قطرات نفسية وجبات وجدانية ، ويرسلها فى الناس عن طريق المغنين والمغنيات ، فيضجون بالإعجاب والاستحسان الشديد^(١).

وتنوعت الأسماء التى احتواها شعر ابن قيس ، والتى تغنى بها فى ديوانه ، فنحن نجد هذه الأسماء عنده : أمة الغفار وتكتم وأم مساحق وأثلة وقسيمة وليلي وأسماء (أم بشر) ورِيًّا وسلامة وسعدة وسعدى وسلمى وسليمة ومريم بنت الحواري وعاتكة وسلمة ورقية (نعم ، أم عمرو) وأم الوليد وأم البنين وكثيرة والثريا وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين .

وأكثر هذه الأسماء اجاء فى شعره عابراً ولم يُعن به الرواة ، وهى كما نرى أسماء تختلط فيها الجوارى من مثل ريا وسلامة بالشرقيات من مثل الثريا وأم الوليد بن عبد الملك وأم البنين زوجته وعاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وبنت الحواري ولعلها أخت مصعب بن الزبير فهو يسميه كثيراً ابن الحواري^(٢) ، كما تختلط فيها أسماء قريباته من مثل ليلي وأسماء^(٣) (أم بشر) وأثلة^(٤) بغيرهن من غير قريباته .

والنساء اللاتى تعلق بهن واللاتى قال فيهن ما يمكن أن نسميه غزلاً هن رقية بنت عبد الواحد ابن عمه وأختها سعدة ، وكثيرة ، ثم نساء بنى أمية وعائشة وسكينة زوجتا مصعب بن الزبير .

ولا بد أن نميز بين غزل ابن قيس فى رقية وأختها وغزله فى نساء مصعب وبني أمية ، فهو فى غزله الأول يحكى عاطفة حقيقية ، أما فى غزله الثانى فيحاول أن يرضى السياسة أحياناً وأن يرضى عواطف الناس وعواطف هؤلاء اللاتى تغزل بهن أحياناً أخرى .

وتتقدم النساء اللاتى تغزل بهن جميعاً رقية ابنة عمه عبد الواحد ، وكان لتسمية

وانظر ص ٢١٣ .

(١) أغاني ٩٩/٥ .

(٢) الديوان ص ٢٨٧ وأغاني طبع بولاق ١٦٥/١٧ . (٤) الديوان ص ٢٦٣ وانظر ص ١٩٢ .

(٣) الديوان ص ١٨٨ وانظر ص ٢٣٧ وص ٢٥٣ .

معاصريه له بابن قيس الرقيات أثر بعيد في اختلاط الأمر على الرواة كما تقدم في حديثنا عن تلقيبه ، فقالوا إنهن ثلاث : رقية ابنة عمه ، ورقية ابنة عم لها ، ورقية ثالثة اختلفوا فيها ، فقال قوم : هي أموية ، وقال آخرون : هي ابنة عبد الله ابن جعفر ، ورأى أبو عبيدة أنهن اثنتان لا ثلاث .

وكل هذا يدل على اضطراب الرواة ، وفي رأينا أنها لم تكن إلا رقية واحدة هي ابنة عمه عبد الواحد . ويقول السكري جامع ديوانه - كما مر بنا - إن عبد الله أقبل على الرقة فأقام في جماعة من قومه فيهم عبد الواحد بن أبي سعد ابن عمه وإنما لجَّ عليه « الرقيات » لأنه كان يشب برقية وسلمة ابنتي عبد الواحد (١) ، ومعنى ذلك أن معرفته برقية جاءت بعد نزوله في أهلها بالركة . وفي الأغاني أنه رآها في أثناء حجها مع أهلها كما قدمنا . وربما كان هذا الرأي أوجه من الرأي الأول ، فإننا نجد لابن قيس قطعة في رقية تجرى على الألسنة في المدينة ، ويرويها مروان ابن الحكم في أثناء عزله عن المدينة زمن معاوية (٢) . فمعرفة ابن قيس برقية قديمة . ومن يطلع على ديوان ابن قيس يجده يكثر من حادث رؤيته لصاحبه في الحج ، ولذلك كنا نظن بل نقطع بأنها صحبت أباه في أثناء حج له . وهناك رآها ابن عمها فشغفت قلبه حباً ، وحاول أن يسلو عنها بانتقاله إلى المدينة ، ولكن مرضه بها كان يعاوده ، وكان أقوى في نفسه من أن ينصرف عنه ، فذهب يتغنى بها منذ فارق ركبها مكة (٣) إلى أن لقيها في الرقة .

رقية إذن هي المرأة الأولى في حياة ابن قيس ، وقد ذهب يملأ باسمها جميع أركان مكة والمدينة ونواديهما ، يحاول أن يجد في ذلك ما يخفف من لواعج الحب في نفسه ، بل لعله كان يريد أن يذكرها ، وأن يشعل بها جنبات نفسه وجنبات المدينتين الكبيرتين من حوله . إنها ابنة عمه ، وهي أولى من غيرها بشعره ، إنها لا تقصر عن هؤلاء النبيلات اللاتئيتغنى بهن ابن أبي ربيعة . ويظهر أن ابن عمه عبد الواحد كان يعجب بذلك منه وكان يرضى عنه ، ففتيات بني معيص بن عامر ابن لؤي لسن أقل جمالاً ولا تأثيراً في نفوس الشعراء من فتيات الأمويين وغيرهم من

(١) الديوان ص ١٨٥ .

(٢) الديوان ص ٢٦١ وص ٢٨٩ وهنا يذكر

سلمة أخت رقية .

(٣) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

نبلاء قريش ، فلما تبع ابن قيس هواه في الرقة وجد هناك قلبواً تنتظره وأفئدة
تصبو إليه ، فطاب له المقام هناك ترعاه عين رقية من بعيد وعين أختها سلمة وعيون
قومه وعشيرته .

وتمتاز مقطوعات ابن قيس في رقية بصدق العاطفة وحرارة الوجدان ودقة المشاعر
والإحساسات ورهاقتها رهاقة بالغة ، هي رهاقة المحب الذي يترجم عما في قلبه ويعبر
عما في جوانحه على نحو ما نرى في مثل قوله (١) :

رَقِيَّ بَعِشْكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنِينَا الْمُنَى ثَمَّ امْطَلِينَا
عَدِينَا فِي غَدٍ مَا شِئْتَ إِنَّا نَحِبُّ وَإِنْ مَطَلْتَ الْوَاعِدِينَا
فَأَمَّا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِمَّا نَعِيشُ بِمَا نُوْمَلُّ مِنْكَ حِينَا
أَغْرُكَ أَتْنِي لَا صَبْرَ عِنْدِي عَلَى هَجْرٍ وَأَنْتِ تَصْبِرِينَ

وهو هنا يعلن أنه تبعها إلى الرقة وترك أهله في المدينة أو في مكة ، وأظننا الآن
أدركنا حلاوة صوت ابن قيس في أغانيه التي ينظمها في رقية ، ونراه يعبر عن ذوق
حضري في تدليل محبوبته والتدليل لها والضراعة والتوسل ، فهو يطلب منها نائلاً
قليلاً أن تعده فهذا حسبه ، وسواء بعد ذلك أوفت بوعدها أو لم توف ، فإن ذلك
يكفيه منها هناءة ومسرة ، واستمع إليه يقول فيها (٢) :

حَبَّ ذَاكَ الدَّلَّ (٣) وَالْغُنْجُ وَالَّتِي فِي عَيْنِهَا دَعَجُ
وَالَّتِي إِنْ حَدَّثْتُ كَذَبْتُ وَالَّتِي فِي وَعْدِهَا خَلَجُ (٤)
وَتَرَى فِي الْبَيْتِ صَوْرَتَهَا مِثْلَمَا فِي الْبَيْعَةِ (٥) السُّرْجُ
خَيْرٌ مِنِّي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عَاشِقٍ فِي قُبْلَةٍ حَرَجُ

فإنك تحس في هذا الشعر أن قلب صاحبه يختلج بالفرح ، فهو يعبر في سرور
ونخفة روح عن حبه ، وليس من ريب في أن هذه الأبيات تمثل ذوقاً جديداً هو
ذوق الشباب الحجازي في عصر ابن قيس الذين رَقَّ شعورهم ، وصفا إحساسهم ،

(٤) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات

(٥) البيعة : متعبد النصارى .

(١) أغاني ٩٤/٥ - ٩٦ .

(٢) أغاني ٩٧/٥ .

(٣) الدل : التدليل . الغنج : حسن الدل .

وأصبحوا أرواحاً خالصة . وما أظننا نبعد إذا قلنا إننا هنا أمام ذوق جديد وشعور جديد بالمرأة ، فرجل البادية لم يكن يدقّ شعوره كل هذه الدقة ، ولم يكن له هذه الخفة في غزله ، ولم يكن ينفذ به إلى قلوبنا كل هذا النفوذ الذي نجده عند ابن قيس ، واستمع إليه يقول^(١) :

رَقِيَّةٌ تَيَّمَتْ قَلْبِي فَوَاكِدِي مِنْ الْحَبِّ
وَقَالُوا دَاوَاهُ طِبُّ الْأَبْلِ حَبُّهَا طَبُّ
نَهَانِي إِخْوَتِي عَنْهَا وَمَا لِلْقَلْبِ مِنْ ذَنْبٍ
وَمَا أَقْبَلَ نُصَحَ النَّاصِحِي مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ

فإنك تجد في هذه الأبيات شفافية عن القلب والفؤاد ، فليس هناك شيء يحجب بيننا وبين الشاعر فقد صهره الحب ، وأشعل قلبه ، فعبر عنه هذه التعبيرات الرقيقة .

واستمر ابن قيس متعلقاً برقية يقول الشعر فيها ينفث فيه ما يختلج في قلبه من عواطف وإحساسات حتى اضطرتّه الحوادث إلى مفارقة الرقة على نحو ما قدمنا . وفي ديوانه قطعة في رثاء عبد الواحد^(٢) ، ولسنا ندرى أتوفى قبل مفارقتها الرقة أو بعد ذلك ، إلا إننا نلاحظ أنه انقطع عن ذكر رقية بعد هجرته من ديارها هناك ، أما القطعة التي جاء اسمها فيها وظن السكرى أنه وجهها في مديح عبد الله بن الزبير لقوله أثنائها^(٣) :

وَابْنَ أَسْمَاءَ خَيْرٌ مِنْ مَسْحِ الرُّكْدِ نَ فَعَالاً وَخَيْرَهُمْ بُنْيَانَا

فأظنه وهماً منه ، إذ ابن جعفر ممدوحه ابن أسماء أيضاً ، وقد دعاها بأمة في قطعة أخرى بالديوان^(٤) . وليس من شك في أن صلته بابن جعفر كانت أقدم من صلته بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وشعره في رقية إنما كان قبل اتصاله بهما ، وقد فارقتها وهو يردد في نفسه^(٥) :

(١) أغاني ٩٥/٥ والديوان ص ١٤٠ - ١٤١ . (٤) الديوان ص ٢٤٩ .

(٢) الديوان ص ١٥٩ . (٥) أغاني ٩٤/٥ والديوان ص ٢٨٥ .

(٣) الديوان ص ٢٦٣ .

أَمْسَتْ رُفْيَةَ دُونَهَا الْبُشْرُ فَالرَّقَةُ السُّودَاءُ فَالْغَمَرُ^(١)

وانطلق ابن قيس كما قدمنا إلى فلسطين فالحجاز فالعراق حيث مصعب ، وهناك رأيناه يتغزل أو يشب بزوجه مصعب : عائشة وسكينة غزلاً أو تشبيهاً لا يراد به إلى إعلان حبه لهما ، وإنما يراد به إلى إعلان جمالهما ، وما يمتلك مصعب من دنيا المرأة ، وإنه لأولى بدنيا الرجال أن تزحف وراءه زحفاً ، ومن قوله في عائشة^(٢):

جَنِيَّةٌ بَرَزَتْ لَتَقْتُلَنِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمُسْكِ
عَجَباً لِمَثَلِكِ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمَنْبَرُ الْمَلِكِ

فهو يخطط غزوها بالسياسة ، أو هو غزل أريد به إلى السياسة وبيان حق عائشة وزوجها مصعب في الملك والحكومة .

وعلى هذا النحو كان ابن قيس الرقيات يشب بعائشة أو بسكينة ، ليشهرهما من جهة ، وليثبت حقهما في الملك والحكومة ، وإن لم يصرح بذلك كما صرح في البيتين السابقين^(٣) ، فغرضه على كل حال الدعاية لمصعب ولأهل بيته ، عن طريق الغزل . ولا نسميه غزلاً بل نسميه مديحاً لزوجتيه : عائشة وسكينة ، فالغزل حينما يصبح الغرض منه التعبير عن جمال المرأة والدعاية لها دعاية سياسية أو غير سياسية يخرج من بابه إلى باب المديح ، وفطن القدماء لذلك ، فعبروا كثيراً بقولهم : قال يمدح فلانة ، وهو إنما يشب بها ، وماذا نريد في مديح المرأة ؟ أنريد وصفها بالفروسية والشجاعة ؟ إن هذا إن حدث يعتبر هجاء ، فالمرأة في كل عصر هي نفسها ، ثروتها كلها جمالها ، ولذلك كانت تعجب دائماً بمن يصور هذا الجمال للناس من الشعراء ، ويريههم أو يسمعههم ما امتازت به من حسن وفتنة .

وهذا الغزل الذي يمكن أن نسميه مديحاً في عهده الجديد ، عهد ملازمته لمصعب ، اقترن به غزل آخر يمكن أن نسميه هجاء ، واختص به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عيد الملك وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة

(١) البشر : جبل يمتد من الشام إلى الفرات . (٣) الديوان ص ١٣٠ .

(٢) أغاني (طبع بولاق) ٥٤/١٠ .

الوليد بن عبد الملك ، فزراه يتغزل بالأولى في إحدى قصائده لمصعب غزلاً فيه حرية ، فهو يخاطبها ، وهي تخاطبه ، وإنها لتأسى على ما صارت إليه قريش من أضغان ، تجعلها لا تستطيع لقاءه ، يقول على لسانها (١) :

وقالت لو اننا نستطيع لزاركم طيبان منا عالمان بدائكا
ولكن قومي أحدثوا بعد عهدنا وعهدك أضغانا كلفن بشانكا
فابن قيس يشبب بعانكة هنا كما نرى ليؤذيها ، ويؤذي وقارها ووقار زوجها ، فهو غزل لا يراد به إلى مديح المرأة ، وإنما يراد به إلى هجائها إن صحَّ هذا التعبير . فهو غزل لا تجذ فيه المرأة ما يرضيها ، وإنما تجذ ما يؤلمها ، فهو إلى الهجاء أقرب منه إلى أى شيء آخر ، وحاول أن يبلغ من هذا الهجاء كل ما يريد من إقذاع ولكن لامع عانكة ، وإنما مع أم البنين إذ يتغزل بها في إحدى قصائده لمصعب على هذه الشكلة (٢) :

ألا هزئت بنا قُرشيَّة	هـ	يهترُّ	موكبها
رأت بي شبيَّة في الرأ	س	منى ما	أُعْيِيها
فقالَتْ أَيْنُ قيسٍ ذا	وغيرُ	الشيبِ	يعجبها
رأيتي قد مضى منى	وغيضاتُ	صواحبها	
ومثلك قد هُوتُ بها	تمامُ	الحسن	أُعْيِيها
ها بعلٌ غيورٌ قا	عدُّ	بالباب	يَخْجِبُها
يراني هكذا أمشي	فيوعدها	ويضربها	
ظلمت على نمارقها	أفديها	وأخْلِها	
أحدَّها فتؤمُّنُ لي	فأصدَّقها	وأكذبها	
فدعْ هذا ولكن حا	جَّة	قد كنتُ	أطلبها
إلى أمَّ البنين متى	يقرُّ بها	مقرِّها	
أنتني في المنام فقلتُ	هذا حين	أعقبها	
فلما أن فرحتُ بها	ومال	على	أعذبها

شربتُ بريقها حتى نهلتُ وبْتُ أَشربُها
وبْتُ ضجيعها جذلاً ن تُعجني وأعجبُها
وأضحكُها وأبكيا وألبسُها وأسلبُها
أعالجُها فتصرعني فأرضيها وأغضبُها
فكانتُ ليلةً في النَّوِّ م نَسَمُها ونلعبُها
فأيقظنا منادٍ في صلاة الصُّبح يرقبُها

وواضح في هذه المقدمة الغزلية أن ابن قيس أراد السخرية من أم البنين ، حتى يخفض من تيبها ويطأطي من كبريائها ، وإنه ليتنذرها في غزله ، ويجعلها وكأنها مثل هؤلاء الجوارى اللاتي يُبْعَنَ ، واللاتي تَقَرَّبُ منهن كل الأيدي وإنه ليتنذل معها زوجها فيرميه بالغيرة والغفلة . ثم ما يلبث أن يرسم هذه الصورة المفرطة في الابتذال ، فيتصور أنها جاءت في الحلم ، وأنها لم تمنع منه شيئاً . كل ذلك يريد به ابن قيس إلى الامتهان وإيذاء نفس أم البنين وزوجها الوليد وعمها عبد الملك ، وما نظن إلا أن عبد الملك كان يضطغن على ابن قيس هذه المقدمة الغزلية بأكثر مما كان يضطغن عليه هجاءه له مباشرة ، فتلك صورة ليس فيها هتك للحرمات ، أما صورة أم البنين فصورة بشعة تؤذي النفس العربية الحرة . وهذا ما كان يريده ابن قيس بغزله في الأمويات حين كان يعيش في ظل مصعب ، وحين كانت تزين له نفسه أن مصعباً سينتصر وسيتحول الأمر إليه وإلى أخيه عبد الله لا في الحجاز والعراق فحسب ، بل أيضاً في الشام ومصر .

ولم تلبث آمال ابن قيس أن تحطمت فقتل مصعب وعبد الله وأصبح الأمر كله لعبد الملك ، ولجأ صاحبنا إلى ابن جعفر يشفع له ، فقد كان ذنبه عظيماً ، وقيل إن عبد العزيز بن مروان وابنته أم البنين شفعا له مع ابن جعفر ، فتحول ابن قيس إلى مديح الرجلين وأراد أن يمدح أم البنين فلجأ إلى الغزل والتشبيب بها ، ولكن في صورة جديدة تقف عند تصوير حسنها وما يميزها من فتنة وإغراء ، ويظهر أنها أوتيت من الجمال حظاً بعيداً ، وقد ذهب يغنيها ويملاً باسمها جميع الأرجاء من الحجاز والشام إلى العراق ومصر ، ومن قوله فيها (١) :

أُمُّ الْبَنِينَ سَلَبْتَنِي حِلْمِي وَقَتَلْتَنِي فَتَحَمَلْتَنِي إِثْمِي
وَتَرَكْتَنِي أَدْعُو الطَّيِّبَ وَمَا لَطَيْبِيكُمْ بِالْءَاءِ مِنْ عِلْمِ
بِاللَّهِ يَا أُمُّ الْبَنِينَ أَلَمْ تَخْشَى عَلَيْكَ عَوَاقِبَ الظُّلْمِ
خَافِي إِهْلَاكَ فِي ابْنِ عَمِّكَ قَدْ زَوَّدْتَهُ سُقْمًا عَلَى سُقْمِ
وَتَرَكْتَهُ يَمْشِي وَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ مَعَ الْحَزْمِ

وابن قيس لا يريد حقاً أن يعلن عن توطئه بأم البنين ، أو أم الوليد زوج عبد الملك كما جاء في بعض الروايات^(١) ؛ وإنما يريد أن يعلن عن جمال المرأة ، أو قل بعبارة أدق إنه يريد أن يمدحها ، والمرأة إنما تمدح بجمالها وبفتنة الناس بها ، وكأن ابن قيس يريد أن يبلغ من ذلك كل ما تريده أم البنين . ولعل من الطريف أن نجده يقدم إحدى قصائده لعبد الملك بتشبيهه فيها ، فيقول^(٢) :

أَصْحَوْتُ عَنْ أُمِّ الْبَنِينَ وَذَكَرَهَا وَعَنَائِهَا
وَهَجَرْتُهَا هَجَرَ أَمْرِي لَمْ يَقُلْ صَفَوَ صَفَائِهَا
قَرَشِيَّةٌ كَالشَّمْسِ أَشْهُ رَقَ نَوْرُهَا بِبَهَائِهَا
زَادَتْ عَلَى الْبَيْضِ الْحَسَا نَ بِحُسْنِهَا وَنَقَائِهَا
لَمَّا اسْبَكْرْتُ لِلشَّبَا بَ وَقُتِعَتْ بِرَدَائِهَا^(٣)
لَمْ تَلْتَفِتْ لِلدَّائِهَا وَمَضَتْ عَلَى غُلَوَائِهَا
اسْمَعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِ بِنَ لِمَدْحِي وَثَنَائِهَا
أَنْتَ ابْنُ عَائِشَةَ الَّتِي فَضَلْتَ أَرْوَمَ نَسَائِهَا
وَلَدْتَ أَغْرَ مَبَارِكَا كَالْبَدْرِ وَسَطَ سَمَائِهَا

وعائشة : أم عبد الملك وهي بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية^(٤) فهو يجمع في القصيدة بين مديح أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وعائشة أم عبد الملك . ولعل في هذا ما يرينا كيف أن الخلفاء في هذا العصر لم يكونوا يكرهون أن يشبَّ الشعراء بنسائهم ، لأنَّ الشعراء لم يكونوا يشبِّون في الواقع ، وإنما كانوا

(٣) اسبكرت : اعتدلت واستوت .

(٤) انظر الطبري ١١٧٣/٢

(١) انظر الأغاني ٢٦٠/٦ .

(٢) أغاني طبع بولاق ٤٩/١١ .

يمدحون ، وهل يمكن أن يقبل عبد الملك غزلاً أو تشبيهاً خالصاً من ابن قيس في زوج ابنة إلا أن يفهمه على أنه مديح ، وأن الشاعر قسم القصيدة بين زوج ابنة وأمه . وكان ابن قيس متصلاً أيضاً بعبد العزيز بن مروان بل كان شاعره إن أمكن أن نجعل له شاعراً ، فلا يعقل أن يشبب بابنته وهو يريد التشبيب من حيث هو ، وإنما كان يريد أن يمدحها ، وقد عُرف عبد العزيز بأنه كان يطلب من الشعراء أن يشيدوا باسم أمه ليلي في مدائحهم له ، وذكرها ابن قيس في قصائده التي قدّمها إليه مراراً^(١) .

ولعله شَبَّبَ بكثيرة اعترافاً منه بفضلها وفضل زوجها ، وقد أسلفنا أنها تزوجت على بن عبد الله بن العباس وأنه أجار على عبد الملك بعض الخارجين عليه مع مصعب . فإذا كان ابن قيس قد عاذ بكثيرة فعليه عاذ في الواقع بزوجها ، فاخترني عنده ولم يستطع أن يستصدر له عفواً من لدن عبد الملك ، وأكرمه كثيرة في أثناء ذلك ، فذهب يتغزل بها ، وإن كنا نلاحظ أنه ليس في شعره ما يشير إلى أنه اختفى عندها أو لجأ إليها ، بل كل ما فيه أنها مترفة ونزاه يلقبها بالأميرة^(٢) ويُطَنَّب في وصف عطرها وملابسها^(٣) . ويقول إنها خرزجية^(٤) ، وقد شَبَّبَ بها في القصيدة الأولى التي لقي بها عبد الملك سنة ٧٣ للهجرة إذ يقول^(٥) :

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرَبِ فَعَيْنُهُ بِالدموعِ تَنَسَكِبُ
كَوْفِيَّةٌ نَازِحٌ مَحَلَّتْهَا لَا أُمٌّ دَارُهَا وَلَا صَقَبٌ^(٦)
وَاللهُ مَا إِنْ صَبَّتْ إِلَيَّ وَلَا إِنْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سَبَبُ
إِلَّا الَّذِي أَوْرَثَتْ كَثِيرَةٌ فِي الْإِ قَلْبَ وَلِلْحَبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

وهو هنا يؤكد أنه ليس بينه وبينها صلة إلا الذي أورثته قلبه من هذا الحب الذي لا تحمد نبيئته ، وهو حب من طرف واحد . ويجس كل من يقرأ أغانيه فيها أنه بش في غزله بها حينئذ إلى العراق وإلى ما فاته هناك من نعيم الحياة ، وكأنه

(١) الديوان ص ٨٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ .

(٢) الديوان ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ١١٥ وانظر ص ٩٤ .

(٤) أغاني ٩١/٥ .

(٥) الديوان ص ٦٧ وأغاني ٧٩/٥ .

(٦) أمم : قريب . صقب : ملاصق .

يتخذها رمز دنياه ونعيمها الذى طُرد منه ، ولذلك كان شعره فيها يُطبع بطابع من الحنين والأسف على دنيا زائلة .

وهذا الجانب فى ابن قيس يلفتنا إلى مقدرة رمزية كامنة فيه ، فهو يتخذ من كثيرة رمزاً لأيامه فى العراق ولذلك يكثر من بكائه ودموعه فى غزله بها . وفى ديوانه ما يدل على أن هذا الاتجاه انطوى فى نفسه مبكراً ، فنحن نجد يرمز لرقية باسم نَعْم^(١) تارة واسم أم عمرو^(٢) تارة أخرى ، وقد رُمز لأم البنين باسم سُلَيْمَى^(٣) . ولا ندرى لماذا رمز لها ولا لماذا رمز لرقية إلا أن يكون هذا جانباً فى نفسه ، كان كامناً ، وكان يظهر بين الحين والحين .

ولعل من الطريف فى هذا الصدد أنه حين رضى عنه عبد الملك وقابل إساءته بالصفح وولى وجهه نحو العراق حيث بشر بن مروان ، حين أصابته كل هذه السعادة وجدناه يمدح بشراً فيقدم لمدحه بغزل لمن تسمى سَعْدَى ، وهو يتخذ من اسمها رمزاً لكل ما فى نفسه ، ولكل ما أصاب من تحقيق آماله ، يقول^(٤) :

قد آتانا من آل سَعْدَى رسولٌ حَبَّذا ما يقول لى وأقولُ
من فتاةٍ كأنها قرْنُ شمسٍ ضاق عنها دَمالُجُ^(٥) وحُجُولُ
حَبَّذا ليلتى بِمِرَّةٍ كَلْبٍ غال عنى بها الكَوَانِينُ غَوْلُ

ومِرَّة كلب : قرية كبيرة فى وسط بساتين دمشق ، وواضح أنه يعلن بذلك سروره ، فقد عفا عنه عبد الملك ، وطابت بذلك أيامه ولياليه ، فالدنيا من حوله كلها بشر وسلام ، بل فرح ومسرة ، وهويث كل ما فى نفسه من ذلك فى اسم سعدى صاحبتة التى أرسلت إليه رسوفاً ، فقد دنت منه السعادة ، بل مَسَّتْ قلبه وفؤاده . وهذه هى أول قطعة غنَّى فيها باسم سعدى ، وخليق به أن يغنى بهذا الاسم وقد ابتمست له الدنيا من حوله . وعاد إلى ذكره مرة ثانية ، ولكن بعد أن توفى بشر ولزم عبد العزيز بن مروان وأصبح شاعره الذى يتكلم باسمه . وحدث أن فكر

(١) الديوان ص ١٠٨ .

٩٩/٥ .

(٢) الديوان ص ١٠٨ ، ٢٣٦ .

(٥) الدمالج : جمع دملج وهو حلية تلبس فى

(٣) الديوان ص ٢٤٥ وأغانى (طبع بولاق) ٥٠/١١ . العضد . والحجول : جمع حجل وهو الخلخال .

(١١) الديوان ص ٢٤٥ وأغانى (طبع دار الكتب) .

عبد الملك في تحويل عهد أبيه بالخلافة من بعده إلى أخيه عبد العزيز ، وجعلها لابنه الوليد ، فغضب عبد العزيز وغضب شاعره ابن قيس ، وقال في ذلك شعراً أغضب عبد الملك مما جعله يتهدده . حينئذ نظم ابن قيس قصيدة رمزية يذم فيها الذين يغتابونه عند الناس ويأكلون لحمه ، وبدأها بذكر سعدى ولكنه أضاف إليها ما يعبر تعبيراً رمزياً بديعاً عن كل ما في نفسه إذ يقول (١) :

بَشَّرَ الظُّفَى والغُرَابُ بِسُعْدَى	مرحباً بالذى يقول الغُرَابُ
قال لى إِنْ خَيْرُ سَعْدَى قَرِيبٌ	قد أتى أن يكون منه اقتراب
قلتُ أُنَى تكونُ سَعْدَى قَرِيباً	وعليها الحصون والأبواب
حبذا الرِّثْمُ ذو الوِشاحين والْقَهْ	صُتْرُ الذى لا يناله الأتْرَابُ (٢)
إِنْ فى القصر لو دخلت غزلاً	مُوصِداً مُصَفِّقاً عليه الحِجَابُ
أرسلتُ أَنْ فِدَتِكَ نَفْسِي فاحْذَر	شُرْطَةً ها هنا ، عليك غِضَابُ
أقسموا إِنْ رأوك لا تطعم الما	ء وهم حين يَقْدرون ذِئَابُ
قلتُ قد يغفل الرقيب وتُغْفَى	شُرْطَةً أو يَحِين منها انقلاب
أو عسى الله أَنْ يُؤَيِّىَ أَمِراً	ليس فيه على المحبِّ ارتِقاب
ارجعِ فاقْرئِ السَّلامَ عليها	ثم رُدِّى جوابينا يا رَبَّابُ
حدِّثِها بما لَقِيتُ وقولى	حَقٌّ للعاشق الكريم ثواب
رجلٌ أَنْتِ هُمَ حين يُمَسِّى	خامرتُهُ من أجلك الأَوْصَابُ
لا أَشَمُّ الرِّيحانَ إلا بعينى	كرماً إِنَّمَا تُشَمُّ الكلابُ

ثم استطرد ابن قيس يحقر المغتاب والمنافق ويذمهما ذماً بليغاً ، وهو في ذلك كله يريد أن ينفس عن نفسه . وأظن أن المقدمة الغزلية اتضحت لنا الآن ، فقد حملها ابن قيس كل ما يريد من خوف عبد الملك على نفسه ، ومن بيان أن أبوابه أوصدت دونه ثانية ، فقد عاد ابن قيس يؤسف في أغلال الوجل التى خلعتها من يديه ابن جعفر وأم البنين . وهو هذه المرة مضطرب اضطراباً شديداً فهو لا يدرى من ينقذه من عبد الملك ، وربما كان ابن جعفر قد مات ، وهذا عبد العزيز لا يستطيع الآن أن يدافع عنه . إن الحياة قد أظلمت في وجهه ، وإن الفأل ليبشر بسعدى

(١) الديوان ص ١٦٥ وأغاني طبع بولاق ١٦/٥٧ . (٢) الرثم : الظبي

وأنها سترضى عنه ، ولكن الشؤم يتبعه ويلزمه . ولا نشك في أن ابن قيس وُفق في هذه المقدمة التي تصف حركات نفسه الباطنة توفيقاً بعيداً ، وقد ذهب يرمز في البيت الأخير إلى عفته ، وأنه مهما تغزل برقية أو كثيرة أو أم البنين إنما يعبر عما رأت عيناه ، وعما يتولاه عن طريقهما من دهشة وحيرة . أما بعد ذلك فنفسه طاهرة وروحه طاهرة وجميع أفكاره طاهرة ، وكأنه يريد أن يعبر عن طهر عام في أخلاقه ، فهو لا تدنسه لعبد الملك ولا لغيره أمنية سيئة ولا نية شريرة .

وإن هذه المقدمة الرمزية لتدل دلالة واضحة على تقدم الحياة وتقدم الذوق الفني عند العرب ، فقد كان الشاعر القديم لا يرمز ولا ينطوى على نفسه ، فالحياة صريحة وليس فيها تعقيد ، أما في هذا العصر الأموي فقد تغيرت الحياة تحت تأثير الحضارات التي عرفها العرب ، وأصبحت صلة الفرد بالحاكم معقدة ، لم تعد كالصلة القديمة بين شيخ القبيلة وأفرادها ، بل أصبحت على هيئة جديدة ، هيئة معقدة ، فيها شرطة وفيها عقاب قاس حين يريد الحاكم العقاب .

والحق أن ديوان ابن قيس يعبر عن ذوق جديد لا في هذه الناحية فحسب ، بل كما قدمنا في ناحية التشبيب والغزل أيضاً ، فالأفكار التي يؤلف ابن قيس منها غزلياته أفكار رجل متحضر ، فيها خفة ، وفيها دقة متناهية في الحس ، ودقة بالغة في الشعور .

وأظن الفرق واضحاً جداً بين غزليات ابن قيس السابقة ومطالع القصائد في الجاهلية ، تلك المطالع التي كانوا يقفون فيها عند الأطلال والديار يتحدثون عن التَّوْبِي والأثافي والأوتاد والآرام والظباء وبقر الوحش وهذه الحيوانات التي تجوس خلال الديار ، حتى إذا فرغوا من ذلك انتقلوا إلى وصف إبلهم ورحلاتهم في الصحراء ، وقلما نجد في أثناء ذلك وصفاً معنوياً للمرأة . وقد يذكر ابن قيس الديار ولكن في بيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، ثم يتركها إلى وصف خواطره نحو المرأة والتعبير عما لحببته في نفسه ، في تذلل وتوسل وضراعة ، وهو في أكثر حالاته يعمد إلى ذلك دون مقدمة الأطلال والديار ، فهي لا تأتي إلا قليلاً جداً ، وحينما يكون قد رحل حقاً إلى ممدوحه من الحجاز إلى مصر مثلاً ، ومع ذلك فإنه يتركها تواليسرد لنا أفكاره وخواطره ، ويصف لنا عشقه وحبه .

وهذا هو معنى أن الحياة تغيرت في الحجاز ، فقد أخذ الشعراء يعمدون إلى أساليب جديدة في تعبيرهم ولم يعودوا يتمسكون بالأساليب القديمة ، فالحياة تغيرت تحت أعينهم ، ولم تعد الأساليب القديمة تصلح لهم كل الصلاحية إلا ما يمكن الاحتفاظ به من عناصرها كفكرة رحيل الأحبة وبكاء ديارهم ومنازلهم التي نزلوها كرحيل رقية وأهلها عن مكة . فالفكرة تستمر ويستمر معها بعض الأساليب القديمة التي كانت تعبر عنها ، ولكن بعد أن تُعدّل ، وبعد ألا يكون وصف الأطلال والديار غاية للشاعر ، وإنما تكون غايته التعبير عن دخائل نفسه .

وقد يكون في هذا ضرب من شعور الفرد بنفسه أكثر مما كان الشأن في القديم ، فقد أصبح العربي ، والعربي القرشي بصفة خاصة ، يرى نفسه يملك من بقاع الأرض ما يريد ، ويستخدم من سادة الشعوب المجاورة من يريد ، ويكتظ بينه بالرقيق وبضروب من الحضارة وحظوظ مختلفة من المتعة بالحياة ، فطبعي أن يسود في هذا العصر التعبير عن النفس وخاصة في الحجاز وفي مكة وبين القرشيين . ولعل هذا أحد الأسباب المهمة في شيوع شعر الحب ، فالشاعر يغني نفسه ، ويعبر عنها ، بأسلوب فني جديد .

وهذا التغيير الطارئ في أساليب الفن والشعر في الحجاز عند ابن قيس وأمثاله لا نلاحظه فقط في هجر بعض الأساليب القديمة ، وهجر بعض المعاني التي كانت تعالجها ، وإنما نلاحظه أيضاً في اللغة نفسها ، فلغة ابن قيس ليست هي اللغة القديمة الزاخرة بالغريب التي نعرفها عند ليبد مثلاً ، بل ليست هي اللغة التي نعرفها عند شعراء العراق المعاصرين له من أمثال جرير والفرزدق ، فإن تيار الشعر كان يستمد هناك من الصورة القديمة بشكل أعنف وأقوى مما كان عليه الشأن في الحجاز . وفرق بعيد جداً بين ديوان الفرزدق مثلاً وديوان ابن قيس ، فعند الأول نجد الألفاظ الغريبة تنصبّ علينا انصباباً كما تنصب علينا العبارات الملتوية المعقدة ، بينما عند الثاني لا نجد تنوعاً في التعبير ولا لفظاً مهجوراً ، فالأساليب الفنية أصبحت سهلة مستساغة تحت تأثير ما أصاب النفوس في الحجاز من تغير أساليب الحياة وتعمق ألوان الحضارات التي غرقوا فيها إلى آذانهم .

وليس من ريب في أن للغناء أثراً بعيداً في هذا التطور الذي أصاب لغة الشعر

فى الحجاز ، فإن المغنين كانوا من الأجانب غالباً ، وكان ذوقهم متحضرأً يأبى الأسلوب المعقد المكثظ بالغريب ، فجاراهم الشعراء فى المقطوعات التى ألفوها . ولا بد أن الشعراء أنفسهم كانوا يسعون إلى أن يكون شعرهم شعبياً يشيع فى الناس ، ويدور على ألسنتهم ، ولذلك التمسوا له الأساليب الخفيفة السهلة ، ولم يقفوا بهذه الأساليب عند الغزل بل أشاعوها فى كل ما نظموا من موضوعات . وهل من ريب فى أن مدائح ابن قيس لمصعب وعبد الملك وعبد العزيز وابن جعفر هى من ذوق جديد فى اللغة غير ذوق الفرزدق ومن لفّ لفه ممن كانوا يأتمنون قليلاً أو كثيراً بالشعراء القدماء . واستمع إلى ابن قيس يقول فى عبد الملك (١) :

ما نَقَمُوا من بنى أُمَيَّةٍ إلا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدَنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنْ الْأَغَرَّ الَّذِي أَبَوْهُ أَبُو الْـ حَاصِى عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحَجُبُ
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنْبَرِهِ جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فهذا مديح بلغة سهلة خفيفة وبذوق حضرى جديد ، وليس من ريب فى أن الرواة أخطأوا حين زعموا - كما مرّ بنا - أن عبد الملك لم يعجبه هذا الشعر وأنه قال لابن قيس : تمتدحنى بالتاج كأنى من العجم ، ونسوا أن الحياة العربية تغيرت ، وأنها استعجمت فى بعض جوانبها ، فلا بأس أن يمدح الشاعر الخليفة بالتاج . وهذا التغير الذى نلاحظه عند ابن قيس فى لغة المديح وأساليبه نلاحظه أيضاً فى رثائه ، فهو ليس رثاء ضخماً مطولاً على نحو ما نعرف فى الرثاء القديم ، وإنما هو مقطوعات قصيرة تسيل فيها النفس ويسيل فيها الحزن سيلاناً . واستمع إليه يرثى مصعباً ، فيقول :

إِنْ الرِّزْيَةَ يَوْمَ مَسَ كِنَ وَالْمَصِيبَةَ وَالْفَجِيعَةَ
يَابْنَ الْحَوَارَى الَّذِي لَمْ يَعُدْهُ يَوْمَ الْوَقِيعَةِ
غَدَرْتُ بِهِ مُضَرَّ الْعَرَا قِ وَأَمَكْتُ مِنْهُ رِبِيعَةَ

فَأَصْبَتْ وَتَرَكَ يَا رِيْدُ عُمْ وَكُنْتُ سَامِعَةً مَطِيْعَةً
يَا لَهْفَ لَوْ كَانَتْ لَهُ بِالْدَّيْرِ يَوْمَ الدَّيْرِ شِيعَةً

وواضح أن هذا الرثاء مكتوب بلغة دانية قريبة من مألوف الناس ، وكأنه نُظم ليغنى ، كشعر الحب الذى ينظمه ابن قيس . وغنيت هذه القطعة فعلاً فإنها ألفت فى الواقع لا لتتشد وإنما ليغنى فيها المغنون ، وليصنعوا فيها الألحان والأنغام . فشعر ابن قيس كله شعر يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، ومن هنا تأتى جملة الخلافات التى بينه وبين أصحاب الشعر التقليدى ، فهو يؤلف أغانى فى الحب وفى المديح وفى الرثاء ، واشتهرت له هذه الأغنية التى قالها فى رثاء أهله بعد موقعة الحرة وهى تجرى على هذا النمط^(١) :

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَرَكَ غَيْبَهُ	وَرَأَى الْغَوَاىِ شَيْبَ لِمَتِيَّةٍ
وَهَجَرَنِي وَهَجَرْتَنِي وَقَدْ	غَنَيْتُ كَرَائِمَهَا يَطْفُنَ بِيَّ
إِذْ لِمَتْنِي سَوْدَاءُ لَيْسَ بِهَا	وَصَحَّ وَلَمْ أَفْجَعْ بِإِخْوَتِيَّةٍ
الْحَامِلِينَ لَوَاءَ قَوْمِهِمْ	وَالذَّائِدِينَ وَرَاءَ عَوْرَتِيَّةٍ
إِنَّ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ	أَوْجَعْنِي وَفَرَعَنَ مَرْوِيَّةَ ^(٢)
وَجَبَّيْنِي جَبَّ السَّنَامِ ^(٣) فَلَمْ	يَتْرُكْ رِيْشًا فِي مَنَاكِبِيَّةٍ
وَأَتَى كِتَابٌ مِنْ يَزِيدَ ^(٤) وَقَدْ	شَدَّ الْحَزَامَ بِسَرْجِ بَغْلَتِيهِ
يَنْعَى بَنِي عَبْدِ إِخْوَتِهِمْ	حَلَّ الْهَلَائِكُ عَلَى أَقَارِبِيهِ
وَنَعَى أَسَامَةَ لِي وَإِخْوَتِهِ	فَظَلَّتْ مُسْتَكَاً مَسَامِعِيهِ
كَيْفَ الرِّقَادُ وَكَلِمَا هَجَعَتْ	عَيْنِي أَلَمَ خِيَالُ إِخْوَتِيهِ
تَبْكِي لَمْ أَسْمَاءُ مُغَوْلَةً	وَتَقُولُ لَيْلَى وَارْزِيَّتِيهِ
تَاللَّهِ أَبْرَحُ فِي مَقْدَمَةِ	أَهْدَى الْجِيُوشِ عَلَى شِكْتِيهِ ^(٥)
حَتَّى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ	وَأَسْوَاقَ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيهِ

معيص وهو الذى نعى إلى الشاعر قتل ابني أخيه

ومن معهم من بنى عبد .

(٥) الشكة : السلاح .

(١) الديوان ص ١٨٦ .

(٢) قرع مروته : أصابه بشر .

(٣) السنام : واحد أسنمة الأبل .

(٤) هو يزيد بن علي بن عبد الله من بني عمرو بن

وليس من ريب في أن هذه قطعة رائعة وأنها تدل على ذوق جديد في الرثاء ، فقد استطاع الشاعر أن يذيب نفسه وكل ما فيها من حسرة وتلهف على أقاربه في هذه الأبيات الطريفة التي هي أقرب إلى أن تكون أنشودة حزينة أو نوحاً وندباً منها إلى أي شيء آخر ، فهي قطعة قيلت لينوح بها بنو عبد ، أو بنو معيص أو بنو عامر ابن لؤى ، قتلاهم ، وليرسلوا فيها كل ما يريدون من تهديدات وزفرات .

وموسيقى القطعة متكاملة لكي تتيح لها كل ما يمكن من نواح بها وندب ، فقد اختار ابن قيس وزن الكامل الذي تكثر حركاته لكي يبطئ النائح بالكلمات وحروفها كما يريد ، وختمها بالهاء الساكنة ليوقف الصوت عندها ويأخذ النائح الفرصة لإخراج آهاته ، فيعلو بالصوت ثم ينخفض به عند القافية ، وقد انسابت حركة الياء ، وختمت بالهاء ، ليتم له كل ما يريد من انطلاق بالصوت وانخفاض به شأن النائحين الناديين . ويقول الرواة إنه أنشد هذه القطعة عبد الملك ، فقال له (١) : « أحسنت لولا ما خنثت به شعرك ، أو لولا أنك خنثت في قوافيه ، فقال ابن قيس : والله ما عدوت قول الله عز وجل : (ما أغنى عنى ماله . هلك عنى سلطانيته) . ونحن نشك أن يصدر ذلك من عبد الملك ، وكان قارئاً للقرآن الكريم محدثاً قبل اعتلائه عرش الخلافة ، وأكبر الظن أن الرواة نسبوا ذلك إليه . وعلى كل فالقطعة تعدُّ شذوذاً في الرثاء على ذوق الرواة ، وقد يكون عبد الملك أحس هذا الإحساس لأنه لم يتعود أن يستمع إلى هذه الموسيقى وهذه القافية في الرثاء .

وليس في القطعة تخنث كما زعم الرواة ، وإنما فيها هذا التكامل الموسيقي لتؤدي غرضها ، وأظنها تدل أبلغ الدلالة على هذا الذوق الجديد في صنع الشعر ، وهل من الممكن أن يصل شاعر إلى هذا التعبير الشفاف عن حزنه دون أن يدعم ذوقه بأسباب حضارية ؟ إن الحياة المتحضرة الجديدة التي أبدلت ذوق الناس في الحجاز ، وجعلتهم أرق شعوراً وأدق إحساساً هي التي هيأت للتبديل والتغيير في ذوق الفنانين وبالتالي في أساليبهم .

وكان للغناء أثر عميق في ذلك كله ، فالشعراء أخذوا يتأثرون بألحان المغنين وأنغامهم ، وأخذوا يحاولون أن يكملوا لأشعارهم كل ما يمكن من قيم صوتية . ومن

المعروف أن المغنى يهمس أو يجهر فى بعض الحروف وبعض الحركات ، أو بعبارة أخرى يطيل أو يحذف فى بعض الحروف وبعض الحركات . وكان الشعراء يلاحظون ذلك ، ومن غير شك كان ابن قيس وأمثاله من أصحاب الأغاني يحاولون أن يقيسوا شعرهم على أسس النظرية الجديدة للغناء التى سبق أن وصفناها وألحانها من ثقل أول أو ثان وخفيف رمل أو هزج ونحو ذلك ، وكان الشعراء على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات . وقدما أن ابن قيس كان صديقاً لفنّد وسائب خاثر وبُدَيْح وسلامة . ومعنى ذلك أنه كان على اتصال دائم بالمغنين والمغنيات وما يطلبونه من الشعر .

وليست المسألة مسألة إثبات نظرى ، فهذا ديوان ابن قيس أماننا نستطيع إذا رجعنا إلى ما فيه من أوزان ثم قابلنا بين أوزانه وأوزان أصحاب الشعر التقليدى أن نلاحظ الأوزان الخفيفة فى شعره ، فهو يكثر من المديد والكمال والوافر والمتقارب والرمل والهزج ، وإن استعمل الأوزان المعقدة مثل الطويل أحسنا كأن الوزن يتغير تحت تأثير ذوقه واختياره للألفاظه . ونراه بجانب ذلك يكثر من مجزوءات الأوزان كمجزوء الكامل ومجزوء الوافر . وكل ذلك إنما تمّ عنده وعند نظرائه من أصحاب الأغاني تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة وما يطلبه المغنون . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى ما أنشدناه من شعره ليرى التجزئة فى الأوزان ، بل ليرجع إلى ما لم يُجزئ فيه ليرى آية ما نقول من أن الشعر عند ابن قيس تأثر بالغناء الجديد ، فكثير من القطع يكاد ينحلّ إلى أصوات خالصة .

والحق أن شعر ابن قيس قبل ليغنى ، ولم يُقلّ لينشد ، ومن هنا يأتى الخلاف الشديد فى موسيقاه وموسيقى الشعر التقليدى ، فالفرزدق وجريز ونظراؤهما لم يكونوا يفكرون فى الغناء ، ولذلك كانوا يصنعون مطولات ، أما ابن قيس وأضرابه ، فكانوا يفكرون فى الغناء قبل كل شيء ، ولذلك كانوا يصنعون مقطوعات ، أو كما يسميها أبو الفرج نفسه أغاني ، فهم يصنعون قطعاً لتغنى ، وهم يرتبطون بحياة الغناء الجديدة وذوق المغنين وما يريدون من ألحان وأنغام . وهذا هو معنى أن شعر ابن قيس أغان بينما شعر جريز والفرزدق وأمثالهما شعر تقليدى . ولعل هذا هو السر فى أننا لا نجد عند ابن قيس ولا عند ابن أبى ربيعة عناية بالصور الشعرية ، فالأخيلة قليلة

والاحتفال لعمل الصور في الشعر قليل ، وقد تأتى بعض الصور في شعرهم ولكنها قليلة ونادرة ، فهم مشغولون عنها بالاهتمام بالموسيقى ، فهي كل همهم وكل شغلهم ، وكل عنايتهم مقصورة عليها قصراً .

على كل حال الصورُ نادرةٌ عند ابن قيس ، ولكن الموسيقى والقيم الصوتية متوفرة ، وهو يرتفع في هذا الجانب ويخلق فيه إلى الغاية التي يمكن أن تنشأ من مثله ، فقد تحقق للشعر عنده كل ما يمكن من صفاء في موسيقاه ونقاء في ألفاظه ، وكأنما وُضعت اللغة بين يديه ليختار منها ما يريد من كلمات داخلية في الأبيات وقواف خارجية ، يختم بها هذه الكلمات ، ولعل ذلك ما جعل حماداً الراوية يقول : « إن أردت أن تقول الشعر فارو شعر ابن قيس الرُّقِيَّات فإنه أرق الناس حواشي شعر^(١) » . فهو شعر يمجج بالخفة والركة حتى في الموضوعات الكثيرة المحزنة ، وهو شعر يكتمل له الصوت المفرح حين يكون صاحبه فرحاً مسروراً ، ويكتمل له الصوت المحزن حين يكون مكتئباً محزوناً .

٤.

الديوان

تنطبق الصورة العامة التي صورنا بها أغاني ابن قيس على ديوانه انطباقاً تاماً ، فهو كله يخضع لفكرة صنع الشعر من أجل الغناء لا من أجل الإنشاد . وأول ما يلاحظ من ذلك أنه مقطوعات ، وقد توجد فيه القصيدة من أجل المديح ولكنها لا تطول ، ولا يحتفل صاحبها بمقدمات المديح الطويلة . هي في الواقع أنشودة تكتب وأغنية تنظم .

وهذه الأغاني التي يتضمنها ديوان ابن قيس ، تطبعها كلها طوابع أسلوب واحد ، فالمرونة والقرب من لغة الناس وقلوبهم والشفافية الشديدة التي تشف عن الحركات النفسية للشاعر كل ذلك يتجلى في صفحات الديوان ، لا فارق بين

(١) شرح شواهد المغنى للسيوطي طبعة الخانجي ص ٤٧ وتاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .

صفحة وصفحة ، ولا بين مقطوعة وقصيدة .

ولعل هذا أهم خلاف يفرق بين دواوين أصحاب الأغاني ودواوين أصحاب الشعر التقليدى ، فالأولون فرديون أكثر من الثانين ، يشعرون بذاتهم وشخصياتهم أكثر مما يشعر زملاؤهم ، وهذا هو الذى يجعل شعرهم قريباً من نفوسنا ، فهم يخاطبوننا مباشرة دون أساليب ملتوية تُحشد من القديم ، فهم الشاعر ليس حشد الأساليب القديمة ، وإنما هم حشد نفسه وحشد وقائع الحياة من حوله ، وهو لذلك لا يتخذ الأسلوب القديم ، فهو لا ينهض بما يعبر عنه ، وإنما يتخذ أسلوبه فى اللغة من الحياة اليومية ، ومن الوقائع النفسية لمعاصريه ، فهو يؤمن بنفسه وبعصره وبمجتمعه وبالحياة التى تجرى تحت عينه . ومن أجل ذلك يتصل بهذا كله ويحاول التعبير عنه ، فيضطر اضطراراً إلى استخدام أسلوب جديد ، ليس هو الأسلوب القديم . قد يستمد منه كما هو الشأن عند ابن قيس ولكنه لا يطنى عليه ، فمثلاً قد يذكر الأطلال والديار ، ولكن فى بيت أو أبيات قليلة جداً . وليس هذا كل ما يدخله من تعديل فهو يضيف إليه خواطر حبه وتوله بمحبوبته ، ثم هو لا يذهب بعيداً فى الغريب على عادة القدماء ، فالقديم قد يأتى فى شعره ، ولكن بعد أن يحور ويعدل ويُطَبَّع بطابع جديد .

وأكثر منظومات ابن قيس والجمهور من شعره لا يكاد يستمد من القديم . فهو مقطوعات تقال فى الحب ، تحكى عواطفه وعواطف الناس من حوله فى أبيات قليلة قلما تجاوزت عدد أصابع اليدين . وكل من يقرأ هذه الأبيات يحس الفرق الواضح جداً بين أسلوبها والأسلوب القديم . ولم لا ؟ لقد تغيرت الحياة العربية تحت تأثير حضارات جديدة جلبتها الفتوح العربية إلى الحجاز ، وأصبح من الضرورى أن يحطم الفنان الأسلوب القديم ، أو على الأقل يحطم إطاره فى بعض جوانبه ، ليعبر عن الحياة الجديدة .

ومن غير شك نهض ابن قيس نهوضاً حسناً بصنع هذا الأسلوب الذى يترأى فى المقطوعات السابقة التى أنشدناها من شعره ، وكانت لديه مقدرة رائعة فى ذلك ، فلم يبدل فقط فى أسلوب الغزل والتشبيب ، بل بدّل أيضاً فى أسلوب المديح ، وظهر التبدل أوضح فى أسلوب الرثاء ، إذ جعله على نحو ما قدمنا غناء خالصاً ،

فغنى فيه المغنيات والمغنون .

وليس هذا كل ما نجده عند ابن قيس في ديوانه من جديد ، فنحن نجد جديداً آخر ، ولكن هذه المرة لا نلاحظه في صورة الشعر ، وإنما نلاحظه في جوهره ، فمن أهم ما يميز شعره في ديوانه رقة حسّ بالغة ، وهى رقة تعبر عن كل ما أصاب القوم في شعورهم وأذواقهم تحت تأثير الحضارة الجديدة ، رقة نشاهدها عند الرجال المهذبين في الأمة حين تتحضر فترى جماعة يدق إحساسهم دقة بالغة : ولعل من أهم ما يصور هذا الجانب في ديوان ابن قيس أننا لا نجد فيه هجاء إلا قطعة واحدة قيلت في عبد العزيز بن عبد الله بن خالد الذى فشل في حرب الخوارج وفرّ مهزوماً أمامهم وترك لهم زوجته ، وهى قطعة لا تُعدّ هجاء بالمعنى الكامل ، بل هى أقرب إلى أن تكون عتاباً له ، فإنه لم يحارب مع جيشه بل تركه ولا أمير عليه ونسى عرسه فسابها الخوارج ، فقال ابن قيس^(١) :

عبدَ العزيز فضحتَ جيشك كلهم وتركهم صرعى بكل سيل
من بين ذى عطشٍ يجود بنفسه وملحّب بين الرجال قتيل^(٢)
وتركتَ جيشك لا أميرَ عليهمُ فارجعُ بعارٍ في الحياة طويل
ونسيتَ عرسك إذ تُقاد سبيّة تُبكي العيون برنةً وعويل

فابن قيس لا يهجو حقاً ، وإنما يعتب . وافرّق بعيد بين هذا العتاب وبين أهاجى جرير والفرزدق المعروفة التى تقوم على القدح والإقذاع فى الهجاء إقذاعاً يؤلم الذوق المتحضر فى أكثر الأحيان . ولم تصح نسبة قطع فى الهجاء لابن قيس سوى هذه القطعة . وهذا لا شك غريب على ذوق من يقرءون الدواوين العربية إذ يجدون دائماً باباً فيها للهجاء ، أما عند ابن قيس فهذا الباب أوصد أمام القارئ ، بل أوصد أمام نفسية الشاعر بسبب هذه الرقة فى الشعور التى وصفناها ، وهى رقة تمنع الرجل المهذب من أن يخوض فى أعراض الناس أو يذكرهم أو يصفهم بما يسوءهم .

ديوان ابن قيس إذن ديوان شخص متحضر أثرت الحياة الحضارية الجديدة التى عاشها فى ذوقه وفى حسه وفى فنه . ومن هنا كان قارئه يشعر بأنه صاحب أسلوب

(٢) ملحّب : ممزق بالسيف .

(١) الديوان ص ٢٩٣ وانظر الطبرى ٨٢٨/٢

وابن الأثير ٢٧٩/٤ .

جديد ، وأنه يعبر عن حياة جديدة صُهرَ فيها صهراً وذاب فيها ذوباناً . وقليل هم الذين يستجيبون للحياة الجديدة على نحو ما يستجيب ابن قيس للحياة في عصره . وكأنما هو قيثارة وهبتها الطبيعة للحجاز حين تحضر ، لنسمع فيها كل التغيرات التي أصابته تحت تأثير الحضارة من جهة ، وتحت تأثير الغناء والتعبير عن عواطف الناس من جهة أخرى .

وشعرُ ابن قيس من هذه الناحية ينسجم انسجاماً تاماً مع عصره ، ولعل هذا هو أهم سبب يتيح له هذه الرشاقة التي تميز أسلوبه والتي تجعلنا نُسحر به كلما قرأنا فيه ، فهو أسلوب تام من جهة الألفاظ وانتخابها ومن جهة العواطف والتعبير عنها تعبيراً حاراً حينما تطلب الحرارة ، وهادئاً حينما يطلب الهدوء . وكل ذلك يعلوه تموج رشيق ، كما تعلوه هذه الجدة في الحس وهذه الرهافة في الشعور التي تميز ابن قيس في كل ما ينظم وكل ما يقول .

ولقد مرت به أوقات كان فيها متحزباً لمصعب وأخيه عبد الله ضد عبد الملك وأسرته ، ومع ذلك فقلما نجد عنده الكلمة النابية ، بل إننا نجده دائماً محزوناً أسفاً على ما أصاب قريشاً من تفرق كلمة أبنائها، وإنه ليذيع ذلك في قصائده التي يمدح بها مصعباً ، يقول في بعض مدحه^(١) :

فَقُطِعَ أَرْحَامٌ وَفُضَّتْ جَمَاعَةٌ وَعَادَتْ رَوَايا الحِلْمَ بَعْدَ رَكَاثِكَ^(٢)

وفي جميع جوانب مدحه لمصعب نجده يأسى على هذا النحو لما صار إليه أمر قريش من تقاطع وتنابد وانقسام كلمة ، واستمع إليه يقول في بعض مدائحه له^(٣) :

حَبَدَا العَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرَّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُدٍّ كَقُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قُرَيْشٍ يَبْدِ اللَّهُ عُمُرَهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لَحْيٌ بَقَاءُ

ركبك وهو الضعيف .

(١) الديوان ص ٢٢٨ .

(٢) روايا الحلم : الحلماء . ركائك : جمع . (٣) الديوان ص ١٧٢ .

لو نَعَقَى وترك الناس كانوا غَمَ الذئب غاب عنها الرعاء^(١)
 فابن قيس يؤذيه اختلاف قريش إيداء الشخص المهدب رقيق الحس . وهذا
 جانب يتردد في مدائح مصعب مما يدل على أنه يصدر عن شعور صادق . وقد يُظَنُّ
 أن هذا يدل على بعد نظره وأنه يوطئ لنفسه حين يتحول الأمر إلى الأمويين إن تحول ،
 ولكن هذا في الواقع تعليل سطحي لا يتفق ونفسية ابن قيس ، إنما التعليل الصحيح
 هو رقة حسه حين رأى قريشاً تنقسم هذه الانقسامات ، فيقتل الحسين ،
 ويقتل عثمان وعلى والزبير وطلحة من قبل ، ويقتل عبد الملك ومصعب أخيراً ،
 وتذهب أثناء ذلك في ذمة الله ضحايا الحرة ، لقد كان ذلك يؤذيه في ضميره كما
 يؤذى القرشي في عصره رقيق الشعور . وبلغ من رقة شعوره أن أشاد بعثمان في أثناء
 مدحه لمصعب بعد الأبيات السابقة فقال^(٢) :

الذي أُشْرِبَتْ قريشُ له الحبَّ عليه مما يحبُّ رداءً
 ولعل هذه الرقة هي التي جعلته يني لمصعب بعد موته على نحو ما أسلفنا ،
 فقد كان من رهاقة الشعور ودقة الحس بحيث لا يستطيع أن ينكر ماضيه ولا أن
 يكون كنوداً لمن أحسنوا إليه .

الوفاء إذن عند ابن قيس خيط من الخيوط التي تتصل برهاقة الشعور ورقة
 الحس ودقته عند الرجل المتحضر المهدب . وهناك خيط ثان يتضح في شعره لمصعب
 وعبد العزيز بن مروان ، فكل من يقرأ الديوان يلاحظ أن ابن قيس لزم مصعباً
 دون أخيه عبد الله الخليفة ، كما لزم عبد العزيز أيضاً دون أخيه عبد الملك . وكان
 لذلك أثره في شعره ، فبعد الله بن الزبير لا يكاد يظهر إلا في قصيدتين سبق أن
 وضعنا زيف القول بأنهما في مدحه ، فأحدهما في مدح عبد الملك والثانية
 في مدح ابن جعفر . أما عبد الملك فقد مدحه في الديوان مراراً لأنه عفا عنه
 وأكرمه^(٣) .

والخيط الذي نشير إليه هو خيط المبالغة في الشعور فإن عطايا مصعب
 وعبد العزيز تأسره ، فترى اندفاعاً شديداً في مدحهما ، حتى ليخيل إلى الإنسان

(١) الرعاء : الرعاة . ونعق : نذهب . (٣) الديوان ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ١٧٩ .

أنه كان يعطى مصعباً صفات الخليفة ، فهو الخليفة الحقيقي فى حسّه ، يقول فى بعض مدحه^(١):

على بيعة الإسلام بايعنَ مُصْعَباً كَراديسَ من خَيْلٍ وَجَمْعاً مباركاً

وكانه كان يؤمن بأن امصعباً خليفة أخيه عبد الله وأن بيعته بالخلافة تتضمن بيعة أخيه ، وذهب يبالغ فى مدحه وكأنه يعتبر نفسه داعية له . وهذا الجانب نجده فى مدائحه لعبد العزيز وكان وليّ عهد فعلاً لأخيه عبد الملك ، فلما فكر عبد الملك فى خلعه وتولية ابنه الوليد مكانه رأيناه يثور معه وفاءً له وعرفاناً بجميله ، فيقول^(٢):

لِتَهْنِهُ مِصرُ والعِراقُ وما بالشامِ مِنْ بَرٍّ وَمِنْ ذَهَبِ
يَخْلُفُكَ البَيْضُ مِنْ بَنِيكَ كَمَا يَخْلُفُ عَوْدُ النُّضَارِ فِي شَعْبِ^(٣)
نَحْنُ عَلَى بَيْعَةِ الرُّسُولِ وما أُعْطِيَ مِنْ عُجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِ

وما من ريب فى أن هذا اندفاع وتهور جلبتهما رقة حسّ ابن قيس ورهافة شعوره ، فكان إذا أخلص بالغ فى إخلاصه وباع نفسه لصديقه .

على كل حال ابن قيس فى ديوانه مثال للرجل المتحضر الراقى الذى لا تخدشه العيوب الخلقية ، وهو فى شعره مثال لشاعر الأغانى المتحضر الذى لا تخدش شعره عيوب فنية . وأظن أننا لا نبالغ بعد كل ما قدمناه إذا قلنا إن ابن قيس ماهر فى الضرب على قيثارة الأغانى الجديدة ، وإنه استطاع أن يستخرج منها أصواتاً رائعة تدل على إحسانه فى فنه وإتقانه لفهمه ، أصواتاً نجد فيها صورة عصره وما اضطرب فيه من أحداث ، بل صورة نفسه وما اضطرم فيها من وقائع سياسية وعاطفية . وقد لا نبالغ أيضاً إذا قلنا إنه شدّ إلى القيثارة المعاصرة وترّاً جديداً ، فكل من يقرؤه يستطيع أن يميز شعره وأن يميز أسلوبه بما يجرى فوق سطحه وفى داخله من أمواج نفسية تشفّ عنه اشفاقاً ، وكأن شعره مرآة صافية لعصره ولنفسه ، ولما تأثرت به هذه النفس من ألوان حضارة وأصباغ حياة .

ابن قيس إذن صاحب أسلوب واضح فى تاريخ الأغانى عند العرب ، وهو

(٢) الديوان ص ٨٢ - ٨٤ وأنظر الأغانى ١٦/٥٧

(٣) يخلف : يثبت عوداً بعد عود .

(١) الديوان ص ٢٣٠ وأنظر الأغانى (طبع)

بولاقي ١٦/٥٧ .

أسلوب يميزه من نظرائه ، وقد استطاع أن يعمم هذا الأسلوب في موضوعات الشعر التقليدي ، وكأنه مُخلق ليكون شاعراً ، وكأن روحه كانت تحوى قبساً لا يمس شيئاً إلا تحول إلى غناء . وطبعاً إنما تمَّ هذا كله تحت تأثير حياة جديدة شُفعت بنظرية للغناء كما شُفعت بألوان حضارية مختلفة . وانطلق ابن قيس يعبر عن ذلك في أساليب جديدة ، وهي أساليب حية ، كانت تستمد من مألوف الناس في لغتهم وعواطفهم ، كما كانت تستمد من التهذيب الهائل الذى حصل لفن الغناء نفسه ، وأيضاً فإنها كانت تستمد من الذوق المتحضر الجديد . وكل ذلك نهض به ابن قيس ، واستطاع أن يوقِّعه على قيثاره الشعر العربى ، بل استطاع أن يشد أوتار هذه القيثارة شداً جديداً ، بل كاد أن يضيف إلى أوتارها وترّاً ، حتى تصبح أكثر بساطة وأكثر ألفة للناس وقرباً من نفوسهم وأكثر صدقا وصراحة في التعبير عن عواطفهم .

خاتمة

١

خلاصة

حاولت في الصحف السابقة أن أرسم الخطوط المختلفة للأغاني في المدينة في أثناء العصر الأموي ، ولاحظت أن المدينة قبل هذا العصر اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم داراً لهجرته ، واتخذها الخلفاء من بعده مقراً لعاصمة الإمبراطورية العربية . وصبت فيها حينئذ كنوز الأرض ، كما صب فيها الموالى من فرس وروم وشآمين ومصريين . وهياً ذلك كله لحضارة جديدة فيها ، أخذ زخرفها يتماثل منذ عصر عثمان .

وما يلبث عصر الخلفاء الراشدين أن يذهب وإذا بالمدينة تدخل في حياة جديدة من جميع النواحي السياسية والاجتماعية والحضارية . أما من حيث الناحية السياسية فقد فقدت زعامتها على العالم الإسلامي وأصبحت ولاية تابعة لدمشق . وكانت تقف طوال العصر الأموي في صفوف المعارضة لبني أمية ، ومن أجل ذلك كان الأمويون ينصرفون عن أهلها فلا يستخدمونهم في وظائف الدولة الكبرى إلا في القليل النادر .

هذا من حيث الناحية السياسية ، أما من حيث الناحية الاجتماعية وكذلك الحضارية فإن المدينة أدخلت إلى حياة مترفة ، وقد تكونت فيها طبقة من الشبان الفارغين العاطلين ، وذهبت هذه الطبقة العاطلة تملأ أوقاتها باللهو ، وساعدها على ذلك ما كانت فيه من ثراء ، ورثته عن آبائها الذين فتحوا الأمم الأجنبية ، وأيضاً فإن الأمويين أغدقوا عطايهم عليهم هناك ، حتى يصرفوهم عن التفكير في الدولة والحكم . شباب عاطل ، وثراء وحضارة ، وترف ورفيق لا يكاد يحصى . كل هذا عرفته المدينة في العصر الأموي ، وقد وصفت ذلك كله ، ومضيت منه آيين كيف أن أهلها تعلقوا بضرب من الملاهى ، كان له أثره الواسع في أدبهم وشعرهم ، وأقصد الغناء

وما صحبه من موسيقى ، فإن أهل المدينة شَغِفُوا به شَغَفًا شَدِيدًا لم يسلم منه شاب ولا شيخ ولا لاه ولا عابد .

ونَهَضَ الموالى من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة واسعة ، بحيث أصبح فناً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إذ نَكَوَّتْ نظريته نهائياً ، وعُرِفَتْ له مصطلحاته وتقاليده ، التى نَقَرُّوها فى كتاب الأغانى : وأُخْرِجَت المدينة حينئذ كثرة وافرة من المغنيات والمغنين الذين خلد اسمهم على مر الزمن ، مثل طُوَيْس ، وسائب خاثر ، ومَعْبُد ، وعَزَّة المَيْلَاء ، وجميلة ، وسَلَامَة ، وغيرهم كثير .

واقترنت هذه النهضة لفن الغناء بنهضة كبيرة للأغانى التى كانت تُغْنَى وتُصَحَّبُ بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية ، وكانت تدور فى أغلبها على الحب وبيان مشاعره وقد عُثِنَت بدرس هذه الأغانى فى المدينة درساً مفصلاً ، ولاحظت أنها كانت فى أكثر جوانبها غزلاً صريحاً ، وخاصة أن الشعراء هناك كانوا يُعَنِّونَ بالغزل فى الإماء من المغنيات ، فكانوا يصرِّحون بكل ما يجول فى أنفسهم ، لا يكادون يتحرَّجون من شىء .

كان غزل المدينة صريحاً فى أكثره ، ولكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله فى هذه الوجهة ، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عبَّاد المدينة وفقهائها ، من مثل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحد فقهاء المدينة السبعة ، وقد وقفت وقفة قصيرة عند غزله ، وصورت كيف كان غزلاً عفيفاً فيه مثالية ، وفيه طهر وتسام عن المتع الجسدية .

ولاحظت أن هذه الأغانى فى المدينة كانت تفترق من النسب فى العصر الجاهلى مفارق واسعة . وأقصد هذا النسب الذى كان يوضع بين يدى القصائد ، والذى كان يتحدث عن الأطلال والدَّمن ، والذى كان لا يَتَّخِذُ غاية ، إنما كان يتخذ وسيلة إلى غرض الشاعر من قصيدته ، فهو أشبه ما يكون بمقدمة موسيقية يسوقها الشاعر أمام غايته . أما فى هذا العصر فقد أصبح هو الغاية ، إذ لا يضعه الشاعر بين يدى قصيدته إنما يضعه قصيدة مستقلة قائمة بنفسها ، ولم تكن هذه القصيدة تؤلَّف من عشرات الأبيات ، بل قد تؤلف من أبيات قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد إلا فى النادر ، أما الكثرة فهى أصوات أو قل كما نقول الآن

أدوار تؤلّف من أجل الغناء . وكان المغنون والمغنيات لا يغنون في أبيات كثيرة ، فقد يغنون في البيتين أو في الثلاثة ، ومهما أطالوا فلن يزيدوا في غنائهم عن عشرة أبيات ، بل كان منهم من لا يغني إلا في البيتين . من أجل ذلك كله لم يكن من الضروري للأغاني أن تكون طويلة ، بل لقد كان أكثرها قصيراً

كانت هذه الأغاني في الواقع مقطوعات وأدواراً ، ولم تكن قصائد بالمعنى القديم للقصائد . وليس هذا كل ما يلاحظ عليها فإنها أيضاً كانت تتخذ من اللغة المألوفة للناس ، ومن هنا كانت أكثر من الشعر التقليدي بضربيه المديح والهجاء قريباً منهم ، فهي من محيطهم ، محيط لغتهم ، ومحيط حياتهم ، وما فيها من شعر الحب والغزل .

وكان طبعياً لهذه الأغاني أن تتأثر بالغناء والموسيقى التي كانت ترافقها لسبب بسيط ، وهو أن المغنين أدخلوا نغما وألحاناً أجنبية كثيرة ، وأحدثوا نظرية عربية جديدة للغناء ، مما جعل شعراء الأغاني يحوِّرون ويحزِّنون في شعرهم وأوزانه تحت تأثير هذه النظرية . وقد عرضت لذلك كله في أغاني المدينة ولاحظت أن موجتها كانت حادة حدة عنيفة في هذا العصر ، وأنها أخذت تطرد كل ما تلقاه من موجات الشعر التقليدي ، لا في الحجاز ، بل في الشام والعراق أيضاً .

ولما تمّ لي تصوير ذلك وقفت عند الأحوص أكبر شعراء الأغاني في المدينة لهذا العصر ، فتحدثت عن حياته أولاً ، ثم انتقلت إلى غزله ، فكشفت عن خصائصه فيه ، وما كان من حريته وتشبيهه الصريح في الإماء وتعلقه بهن ، ثم تركت غزله إلى مدائحه وأهاجيه ، فتحدثت عن لغة هذه المدائح والأهاجي وموسيقاها ، وما كان من أثر الغناء فيها . ولم ألبث أن خرجت إلى بيان منزلته بين شعراء عصره . وقد ذهبت أدعو إلى اتخاذ مقاييس جديدة غير مقاييس القدماء في الحكم على الشعراء في العصر الأموي حتى نستبين حقيقة فن الشعر حينئذ ، ونعرف على أهم الشعراء الذين تطورا به في معانيه وألفاظه وموضوعاته وأوزانه . ومن أجل ذلك رفضت حكم ابن سلام في طبقاته ، إذ قدّم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الأغاني ، وقد جعل الأحوص وأكثر الغزليين في الطبقة السادسة من طبقات

الإسلاميين ، وهم الذين نسميهم الأمويين .

والحق أن أصحاب الأغاني في هذا العصر هم الخلقون أن يوضعوا في الطبقات الأولى من الشعر الأموي الإسلامي . وليس من شك في أن الأخص يوضع في المرتبة الأولى من هذه الطبقات فهو شاعر الأغاني بالمدينة في هذا العصر غير مدافع .

ولما أنهت الحديث عن المدينة وأغانيها وشاعرها الأخص أخذت في رسم صورة صحيحة صادقة لمجتمع مكة في العصر الأموي وما ازدهر فيه من أغاني تغنت بها الأجيال المعاصرة والتالية . وذهبت أبحت أصول الحياة في هذا المجتمع وجذورهما منذ العصر الجاهلي ، حتى تتبين لي هذه الحياة من جميع وجوها ، وحتى تكون الخطوط والألوان التي أصنع منها الصورة غير ملتبسة ولا مكتسبة بإيهام أو غموض .

ولاحظت أن الترف الذي أصيبت به مكة في العصر الأموي لم يكن شيئاً حادثاً ، فقد كان بها في الجاهلية حياة تجارية خصبة ملأت حجور كثير من القرشيين بالمال والثراء المفرط . على أن الإسلام لم تلبث أضواؤه أن ظهرت في الأفق وأخذت تعم الجزيرة العربية وسرعان ما حمل المسلمون مشاعلها يريدون أن يضيئوا بها العالم ، فكانت الفتوح الإسلامية ، وكانت مغنم لا تحصى من أموال ورقيق وجوار . وصب ذلك كله في مكة ، وصبت معه الحضارات الأجنبية وما لونها في بيئاتها الأصلية من ترف .

وكان من آثار هذا الترف والتحضر أن نما الغناء ، وأن أخذ بعض المغنين يحاول أن يخضعه لرسوم وتقاليد ، فكانت النظرية الغنائية المبثوثة في كتاب الأغاني ، حين نجد أبا الفرج يعلق على الصوت بقوله مثلاً : ثقیل أول أو ثقیل ثان أو خفيف رمل ونحو ذلك مما عرضنا له في موضعه . وما زال المغنون في مكة والمدينة يصعدون على مراقى هذه السلام الموسيقية ، كل يحاول أن يصل إلى مراقى الغناء العليا ، حتى حققوا لأنفسهم كثيراً من التفوق والنبوغ .

وقد تغيرت الحياة في مكة ، إذ كان الفرد يشعر بنفسه شعوراً تاماً ، فقد أصبحت الدنيا ملكاً له ولقريش ، وأصبح البيت القرشي يعج بالرفيق الأجنبي ، ولم تعد

في مكة تجارة إلا ما قد يكون في أثناء الحج ، أما التجارة القديمة التي عرفناها في الجاهلية ، فقد قضى عليها الإسلام حين استولى على العراق والشام ، فانفتح أمام توابل الهند وصادراتها طريق الموصل ، ولم تعد هناك حاجة إلى الطريق المعقد ، طريق مكة القديم .

ومع ذلك فمكة عرفت في العصر الأموي ثراء لم يعهده أهلها في القديم ، وهو ثراء جاءها من الفتوح الإسلامية ومغانمها وأسلابها ، ثم من هذا العطاء المنظم الذي فُرض لأهلها منذ عمر بن الخطاب . ومن هنا تكونت في مكة طبقة من الشباب العاطل الذي لا يعمل في تجارة ، فقد أغناه آباؤه الذين اشتركوا في الفتوح الإسلامية ، وأغناه العطاء المنظم الذي يرد من دمشق .

وعلى هذا النحو تكون في مكة جيل الشباب العاطل الفارغ الذي لا بد له من ملهاة أو تسلية يمضي فيها أوقاته . واستطاع الرقيق الأجنبي أن يرضى رغبته عن طريق هذا الغناء الذي وصفناه وما استحدث فيه من ألحان وإيقاعات وأنغام .

واندفع الشباب في إعجابهم بهذا الفن وأصحابه واندفعت معهم المرأة القرشية ، وأخذت تلمع حينئذ أسماء بعض الفتيات والسيدات ككل المجتمعات المتحضرة الراقية ، فأصبح هناك الرجل الذي يأخذ بيد هؤلاء المغنين ، كما أصبحت هناك المرأة التي تأخذ بيدهم أيضاً .

ترف وغناء عرفهما مجتمع مكة في العصر الأموي ، وفي أثناء ذلك اعتداد بالنفس وشعور بالغ بها ، فأى شعر يسود في هذا المجتمع ؟ أيسود الشعر التقليدي الذي يمجّد الآخرين على نحو ما نعرف في المديح ؟ طبعاً لا يمكن أن يسود مثل هذا الشعر الذي يُعنى بالآخرين ، وكذلك لا يمكن أن يسود قرينه من شعر الهجاء والنقائض الذي نجده عند جرير والفرزدق ، فقد كان القوم مترفين ، ولم تكن في نفوسهم كل هذه الحزازات الجاهلية التي كانت في نفوس أهل العراق من القبائل العربية .

ولم تُعرف مكة في الجاهلية بشيء من هذه الحزازات ، بل لقد كان أهلها يعملون على موتها إبان ظهورها ، ولعل مرجع ذلك أنهم كانوا يعيشون معيشة فيها

شيء من التحضر ، ولذلك كانت أكثر أشعارهم التي رُوِيَتْ لهم في السيرة أشعاراً فردية تعبر عن شعور القرشي إزاء حادثة من الحوادث . ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا مُعَدِّين منذ العصر الجاهلي للأغاني وشعر الحب بأكثر مما أُعِدُّوا للشعر التقليدي .

فلما كان الإسلام وجدنا أبا دهل الجُمَحِي ينظم شعراً لا يكاد يختلف في شيء عن شعر عمر بن أبي ربيعة ، وعاش أبو دهل أشواطاً من الزمن في العصر الأموي . كل شيء كان يُعَدُّ إذن لنمو الأغاني وشعر الحب في مكة ، فهناك أصول قديمة أُعِدَّتْ له ، وقد أُعدت له أيضاً هذه الحياة المترفة التي عاشها القرشيون في العصر الأموي وأُعدَّ له أيضاً شعور الفرد بنفسه وإحساسه بها إحساساً قوياً في هذه الحياة . وكان مما أُعدَّ له أيضاً أن المرأة القرشية ساهمت في العناية بفن الغناء الذي يقوم عليه . وكان للمغنين أنفسهم أكبر الأثر في نمو هذه الأغاني وتطورها ، فإنهم طلبوها . وطلبتهم النوادي والمجالس . فكان لا بد أن يوجد الشعراء الذي ينهضون بحاجة المغنين وحاجة الناس من حولهم ؛ وحاجاتهم أنفسهم في إرضاء المغنين من جهة والتعبير عن إحساساتهم من جهة أخرى ؛ ثم حاجة المرأة القرشية وإرضائها من حيث الثناء على ما أُوتيت من جمال وحسن .

كان كل شيء في مكة يدفع إلى نمو الأغاني ، وأن يحسنها الشعراء إلى أقصى حدود الإحسان وأن يطوِّروها مع فن الغناء الجديد إلى أقصى حدود التطور ، ولعلنا حينئذ أسماء كثيرين عرضنا بالتفصيل لاثنتين منهم وهما : ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات . وكان يشتهر بجانبهما الحارث بن خالد المخزومي والعرجي ، غير أن ما رُوِيَ لهما من أغانٍ محدود جداً ، وكل أغاني الحارث تقريباً في عائشة بنت طلحة ، تارة يتغزل بها مباشرة ، وتارة يتغزل بها عن طريق جاريتها بُسْرَة تعريضاً^(١) ، وليس في هذا الشعر جديد بالقياس إلى الموجتين الحادتين الكبيرتين : موجة ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات . وكذلك الشأن في العرجي حفيد عثمان بن عفان ، فقد أضاع الرواة أغانيه إلا مقطوعات نظمها في أم محمد بن هشام المخزومي وإلى مكة لابن

(١) أغاني ٣/٣١٧ وما بعدها وكذلك ٣/٣٢٩ ، ٣٣٥ .

أخته هشام بن عبد الملك ، وأخرى في زوجة محمد بن هشام^(١) ، وهي جميعها يراد بها الهجاء لا الغزل الصادق . وقد اشتهر له قوله في جِداء أم محمد بن هشام^(٢) :
 أَمَاطَتْ كِسَاءَ الْخَزْزِ عَنْ حُرٍّ وَجْهَهَا وَأَذْنَتْ عَلَى الْخَدَّيْنِ بُرْدًا مُهْلَهْلًا
 مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلَنَّ الْبَرَى الْمَغْفَلَا
 وَيُجْمَعَ الرِّوَاةُ عَلَى أَنَّ الْعَرَجِيَّ خَلَفَ عَمْرَ فِي مَكَّةَ وَأَنَّهُ كَانَ يَحْتَذِي عَلَى
 مِثَالِهِ^(٣) . ولكنهم لم يحتفظوا لنا بما يصور ذلك من شعر العرجي وغزلياته .

أما ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات فقد خلد لكل منهما على مر الزمن ديوانٌ كبير يصوره ويصور مجتمعه خير تصوير ، واستطاع ابن أبي ربيعة أن ينهض حقاً بالأغاني ، فديوانه كله تُسجّت خيوطه من قصة القلب الإنساني ، وهي معروضة في قصص بدیع . وعمر من هذا الجانب يتقدم جميع الشعراء في العربية فلا نعرف قبله ولا بعده من نحا بغزله كله نحو القصص ، وملأ ديوانه بعوالم من واقعه وخياله جميعاً ، فقد اتحد في ديوانه الواقعُ والخيال ، واستطاع بمواهبه الفنية أن يؤلف منهما مادة فنية بديعة .

على أن الغاية من هذه الأشعار والأقاصيص وأنها أريد بها إلى الغناء جعلت عمر لا يطيل فيها ، فهو ليس من أصحاب القصائد المطولة ، وإنما هو من أصحاب المقطوعات التي تغنى ، ولذلك قلما تجد عنده قصيدة بالمعنى الكامل . وحاول عمر في أثناء هذه الغاية الغنائية أن يحقق لموسيقى شعره ضرباً من التلاؤم بينها وبين الغناء ، وكأنها كانت تُصنَع من نفس الألحان والأنغام التي يُصنَع منها الغناء ، وكان من آثار ذلك أن كثرت التجزئة والتعديل في شعره ، وأن خفت لغته خفة شديدة .

وكأنما كان عند عمر هدف واضح أن يحقق لمعاني غزله ضرباً من التطور عن طريق هذه الخيوط القصصية التي نسجه فيها ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً أن يلمس قلوب الناس وأفئدتهم بما يقطر في شعره من عواطفهم ، وهي عواطف قوم تحضروا ، وأصبح لهم ذوق جديد يتلاءم وكل متحضرين من بعدهم . ولعل

(١) أغاني ١/٣٨٥ ، ٤٠٤-٤٠٨ . (٢) أغاني ١/٣٨٥ .

(٣) أغاني ١/٤٠٤ .

ذلك ما جعله يختار اللغة الخفيفة السهلة اللينة التي تجرى على كل لسان . وليس ذلك ما صنعه عمر فحسب ، فإنه أيضاً استطاع أن يلائم أوسع ملاءمة بين شعره وبين ألحان المغنين وإيقاعاتهم حتى لكأنه كان ينظم شعره على الآلات الوترية نفسها التي يضربون عليها .

وكان يعاصره ابن قيس الرقيات ولم يهب نفسه كلها للأغاني وشعر الحب ، فقد خرج من مكة واضطرب في الحوادث السياسية التي نشبت بين مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله من جهة وعبد الملك بن مروان من جهة أخرى . ومع ذلك فهو يعد شاعراً موسيقياً من طراز ممتاز ، لا من حيث أغانيه فحسب بل أيضاً من حيث ما نظمه من مدائح ومراث ، إذ استطاع أن يحول كل ما نظمه من شعر تقليدي إلى أغان . وهنا تظهر مهارة ابن قيس فإن الطاقة الموسيقية في شعره كانت قوية إلى أقصى حد . وطبعي أن نجد عند ابن قيس شيئاً من الأساليب التقليدية بحكم اهتمامه بالشعر التقليدي ولكنها نادرة جداً ، فقد جعل نصب عينيه أن يترك هذه الأساليب وأن يضع مكانها الأساليب الموسيقية التي تتلاءم وعصره . ومن هنا قلنا إن شعره كله موسيقى بالمعنى التام ، فهو شعر كُتِبَ ليغنى فيه المغنون لا لينشده المنشدون .

وتميز ابن قيس بذوق حضري مترف حساس بالغ الحساسية ، فلم يهجُ أحداً ، ولم يحاول أن يؤذي شخصاً ، وكان في غزله بل في شعره كله رشيماً منمى ما يكون من رشاقة ، وهي رشاقة مردها إلى هذا الذوق المترف الذي عرف كيف يصهر الشعر في ألحان المغنين ، وكأنما كانت لديه حاسة سادسة يستقرئ بها في دقة الألفاظ بل المعاني التي تدل عليها الألفاظ ، أو هما جميعاً .

والحق أن أصحاب الأغاني في مكة وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات استطاعوا أن يحققوا الشعرهم كل ما يمكن من نهوض ورق به ، وإن أسماءهم ما تزال تظن في سمع اللغة العربية ، بل في سمع الموسيقى العربية ، فهم الذين نهضوا بهذه الموسيقى حقاً من حيث المطابقة بينها وبين أوزانهم ، فقد عاصروها في بدء نشأتها حينما تحولت إلى النظرية المعروفة في كتاب الأغاني ، واستطاعوا أن يقدموا للمغنين والمغنيات كل ما احتاجوه لفهم الجديد ، وأن يشقوا لأنفسهم في أثناء ذلك أساليب فنية بارعة ، تعبر عما أصاب الحياة عندهم من تطورات تحت تأثير الحضارات الجديدة .

تعليق وتعقيب

تحدثنا عن صحف الأغاني في المدينة ومكة وما ارتبط بها في العصر الأموي من هو وترف وغناء . وليس معنى ذلك أن المدينة ومكة لم يكن بهما في ذلك العصر سوى هذه الصحف ، فقد كانت هناك صحف أخرى بأيدى كرام بررة كانت كل خطوطها وألوانها زهداً وورعاً وتقوى وعبادة .

كانت المدينة ومكة إذن دارين للزهد والعبادة ، كما كانتا دارين للغناء وما يدمج فيه . ومن يتصفح طبقات ابن سعد يجد كثرة غامرة من العباد والנסاك عاشوا فيهما في أثناء العصر . وكان على راس هؤلاء النساك والعباد عبد الله بن عمر المتوفى سنة ٧٣ للهجرة ، وكان يرفض الحياة المترفة ويتخذ لنفسه حياة زاهدة ، وصوّر ذلك ابن سعد في طبقاته تصويراً طريفاً ، فذكر عنه أنه كان يترك الحمام بعده من رقيق العيش ، وقال إنه لم يكن يلبس الخز ، ولا كان يشرب في أقذاح مفضضة ولا من قوارير وإنما كان يشرب في أقذاح من عيدان ، ولم يتوضأ في الصفر (النحاس) ، وإنما كان يتوضأ في أقذاح الخشب ، ولم يكن يستخدم الطيب ، وكان يكسر الترد . وروى ابن سعد أنه أعجب يوماً تجارية عنده فأعتقها ، وزوجها مولى له ، كما روى أنه كان مرتحلاً ، فسمع صوت زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه ، وعدل براحلته عن الطريق^(١) .

ولم يكن ابن عمر وحده هو الذي يتخذ لنفسه حياة خشنة زاهدة ، بل كان هناك كثيرون يحيون حياته مثل أبي هريرة ، وكان يقول ما وجع أحبُّ إلى من الحمى لأنها تعطى كل مفصل قسطه من الوجع ، وإن الله يعطى كل مفصل قسطه من الأجر^(٢) . ومروان بن الحكم وهو يبنى داره فقال : ابن شديداً وأمل بعيداً ،

(١) أنظر ترجمة عبد الله بن عمر في طبقات . وما بعدها .

ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٥ (٢) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثاني ص ٦١ .

وعش قليلاً ، وكلَّ خَصْماً ، والموعِدُ اللهُ^(١) . ويجانب أُنَى هريرة وابن عمر نجد كثيرين من الصحابة والتابعين يختارون لأنفسهم هذه الحياة الزاهدة . ولم يكن الزهد أغرب ما في حياة هذه الجماعة ، بل كان النسك والعبادة والخوف من الله وخشية لقائه . روى الرواة عن أبي هريرة أنه بكى في مرض موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ولكني أبكي لبعدي سقرى وقلة زادي ، أصبحت في صعود مهبط على جنة ونار ، فلا أدري إلى أيهما يُسَلَّكُ بي^(٢) . ووراء أبي هريرة وجدت جماعة من البكائين الذين سيكون ليل نهار^(٣) . كما وجدت جماعة عاهدت الله أن تصوم الدهر مثل عبد الله بن حنظلة الذي كان يبيت في المسجد ، وما كان يزيد على شربة من سويق يَفْطَرُ عليها إلى مثلها من الغد يُؤْتَى بها في المسجد ، وكان يصوم الدهر ، وما رُئِيَ رافعاً رأسه إلى السماء إحتباً^(٤) .

وكما كان هناك جماعة من الصَّوَّامِينَ أمثال ابن حنظلة كان هناك جماعة عاهدوا الله ألا يشهد الليل عليهم بنوم أبداً ، فهم يصلون ، وهم يكثرُونَ من الصلاة ، حتى ليصل بعضهم ألف ركعة ، على نحو ما كان يصنع علي بن الحسين ، وقد حج خمساً وعشرين حِجَّةً^(٥) راجلاً . وكان من هؤلاء المصلين الكثيرين من يلقب بالراهب لكثرة صلاته وعبادته^(٦) . وكان منهم من يسجد فيطيل في سجوده حتى إن العصفير لتسقط على ظهره تحسبه حائطاً ، واشتهر بذلك محمد^(٧) بن طلحة بن عبيد الله .

وينحيل إلى الإنسان أن هؤلاء العباد خرجوا عن دنياهم وعن كل ما يتصل بها حتى لقد يرث الشخص منهم ميراثاً ، فيفرقه في الناس ؛ كما صنع ابن عمر ؛ وكما صنع عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فقد باع أرضاً ورثها بثمانين ألفاً ؛ وأنفقها في سبيل الله ، فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذُخْراً ، قال : أنا أجعل هذا المال ذُخْراً لي عند الله ؛ وأجعل الله ذُخْراً لولدي^(٨) .

-
- (١) البيان والتبيين ١٧٢/٣ والخضم : الأكل بجميع القم . (٥) ابن عبد ربه ٣٦٩/١ .
 (٢) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثاني ص ٦٢ . (٦) ابن سعد ١٥٣/٥ .
 (٣) البيان والتبيين ١٥١/٣ وما بعدها . (٧) الحيوان للجاحظ طبع الحلبي ٢٣٨/٥ .
 (٤) ابن سعد ٤٨/٥ . (٨) البيان والتبيين ١٤٦/٣ .

وفي كتب الأدب والتاريخ قصص كثير يروى عن عباد المدينة ومكة ونسأكهما ، فمن ذلك أن سالم بن عبد الله بن عمر دخل مع هشام بن عبد الملك البيت فقال له هشام : سألني حاجتك فقال له : أكره أن أسأل في بيت الله غير الله^(١) . ومن ذلك ما يروى عن الزهري من أنه قارف ذنباً فاستوحش من الناس وهام على وجهه ، فقال زيد بن علي بن الحسين له : يا زهري لَقْنُوطُك من رحمة الله التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْ ذَنْبِكَ ، فقال الزهري : (الله أعلم حيث يجعل رسالته !) ورجع إلى أهله وماله وأصحابه^(٢)

ولم يقف نسك هذه الجماعة عند نفسها ، فقد تجردت منهم طائفة لوعظ الناس ، وكان على رأسها القصاص الذين يقصّون في المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بدأ القصص في المدينة تميم الداري في عهد عمر^(٣) ، واستمر من بعده ، واشتهرت جماعة به في العصر الأموي مثل عبيد بن عمير . وكان يجلس إليه عبد الله بن عمر فكانت عيناه تهرقان بالدموع^(٤) . ومن مشاهير القصاص مسلم بن جندب ، وهو من قراء المدينة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من سره أن يقرأ القرآن غصاً فليقرأه على مسلم بن جندب^(٥) .

ولعل أهم واعظ عرفته المدينة ومكة في العصر الأموي هو أبو حازم الأعرج وكان يقول : « نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت^(٦) » . وليس هذا كل ما يلاحظ في المدينتين المقدستين ، فقد يكون الشخص عابداً ناسكاً ويقدر الغناء ويقدر النسيب والغزل على نحو ما مرّ بنا عند أبي السائب المخزومي ، وتقدم أنه كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة ، ومع ذلك كان يُشغَفُ بالغزل والغناء شغفاً شديداً ، وكأنهم لم يجدوا في الغناء والغزل من حيث هما إثماً ، ولا ما يشبه الإثم . وهما في الواقع لا يكونان إثماً إلا إذا اقترنا بما يخرجهما إلى ذلك . روى المبرد أن مدنياً كان يصلي منذ طلعت الشمس إلى أن قارب النهار أن ينتصف

(٥) طبقات القراء لابن الجزري طبع برجشتراسر

٢٩٧/٢ .

(٦) البيان والتبيين ١٦٤/٣ وفي مواضع متفرقة

وابن عبد ربه ٣٦٩/١ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ١٢٧/٣ .

(٢) المصدر نفسه ١٦٨/٣ .

(٣) الإصابة لابن حجر (طبع مطبعة السعادة)

١٩١/١ .

(٤) ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٩ .

ومن ورائه رجل يتغنى وهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجل من الشُّرَط قد قبض على المغنى ، فقال : « أترفع عقيرتك بالغناء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فأخذه فانقتل المدنى من صلاته ، فلم يزل يطلب إليه فيه حتى استنقذه ، ثم أقبل عليه فقال : « أتدرى لم شفعت فيك ؟ » فقال : « لا والله ولكن إخالك رحمتنى » قال : « إذن فلا رحمنى الله » ، قال : « فأحسبك عرفت قرابة بيننا » قال : « إذن فقطعها الله » ، قال : « فليدِّ تقدمت منى إليك » ، قال : « لا والله ولا عرفتك قبلها » ، قال : « فخبِّرنى » ، قال : « لأننى سمعتك غنيت آنفاً ، فأقمت واوات معبد ، أما والله لو أسأت التأدية لكنت أحدَ الأعوان عليك ^(١) » .

ولم يكتف عباد المدينة ومكة بهذه المشاركة البعيدة على استحسان الغناء وأصواته ، بل لقد كان منهم من شارك في شعر النسيب والغزل كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود وعبد الرحمن بن أبي عمار الجُشمي ، ولعل في هذا كله ما يتيح لنا أن نزعج أن المدينة ومكة كانتا حقاً في العصر الأموي ، تجمعان أروع صور الزهد والورع مع صور الغناء والغزل .

فهرس

صفحة	
٦ - ٥	مقدمة
١٤١ - ٧	الكتاب الأول - في المدينة
٣٨ - ٩	الفصل الأول : المدينة
٩	(١) موقع المدينة
١١	(٢) المدينة في العصر الجاهلي
١٣	(٣) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين
١٩	(٤) في العصر الأموي
٢٤	(٥) ثراء وحضارة
٣٢	(٦) ترف
٣٦	(٧) بعض فنون اللهو
٦٩ - ٣٩	الفصل الثاني : الغناء في المدينة
٣٩	(١) الغناء في المدينة قديم
٤١	(٢) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين
٤٦	(٣) المدينة أهم مراكز الغناء في العصر الأموي
٥١	(٤) الغناء يصبح فناً له مصطلحاته وتقاليده
	(٥) أشهر المغنين : طويس ، سائب خاثر ، معبد بن عائشة ، يونس الكاتب ، مالك الطائي ، عطرذ
٥٧	(٦) أشهر المغنيات : عزة الميلاء ، جميلة ، سلامة القس ، سلامة الزرقاء
٦٤	
٨٨ - ٧٠	الفصل الثالث : الشعر والأغاني في المدينة
٧٠	(١) الشعر في المدينة
٧٥	(٢) الشعر والأغاني

صفحة	
٧٩	(٣) خصائص في مضمون الغزل وأغانيه . . .
٨٤	(١) خصائص موسيقية
٨٩ - ١١٣	الفصل الرابع : اتساع موجة الغزل وأغانيه . . .
٨٩	(١) الغزل وأغانيه بين المدينة ومكة . . .
٩٤	(٢) شغف أهل المدينة بالغزل وأغانيه . . .
٩٩	(٣) بعض الفقهاء ينظمون في الغزل العفيف . . .
١٠٤	(٤) أغاني الغزل تصبح شعراً شعبياً عاماً . . .
١٠٨	(٥) تفوق الغزل وأغانيه على الشعر التقليدي . . .
١١٤ - ١٤١	الفصل الخامس : الأحوص
١١٤	(١) نسب الأحوص وحياته وصفاته
١٢٤	(٢) غزل الأحوص
١٣٤	(٣) مدائح الأحوص وأهاجيه
١٣٨	(٤) منزلة الأحوص بين شعراء عصره
١٤٣ - ٣١٦	الكتاب الثاني : في مكة
١٤٥ - ١٧٧	الفصل الأول : مكة
١٤٥	(١) موقع مكة
١٤٧	(٢) مكة في العصر الجاهلي
١٥٥	(٣) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين
١٦٢	(٤) في العصر الأموي
١٦٧	(٥) ثراء وحضارة
١٧٣	(٦) ترف وبعض فنون اللهو
١٧٨ - ٢٠٧	الفصل الثاني : الغناء في مكة
١٧٨	(١) في العصر الجاهلي
١٨١	(٢) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين
١٨٣	(٣) في العصر الأموي

صفحة

١٨٨	(٤) الغناء المتقن
	(٥) أشهر المغنين : ابن مسجح ، ابن محرز ، ابن
١٩٥	سريج ، الغريض ، الأبحر ، الهذلي
٢٣٨ - ٢٠٨	الفصل الثالث : الشعر والأغاني في مكة
٢٠٨	(١) الشعر في مكة
٢١٤	(٢) الشعر والأغاني
٢٢٠	(٣) خصائص في الغزل وأغانيه
٢٢٧	(٤) شغف المكين بأغاني الغزل
٢٣١	(٥) أغاني الغزل على كل لسان
٢٧٤ - ٢٣٩	الفصل الرابع : عمر بن أبي ربيعة
٢٣٩	(١) نسب عمر وعشيرته وأهله
٢٤١	(٢) حياة عمر وأخلاقه وصفاته
٢٥٠	(٣) غزل عمر
٢٦٧	(٤) الديوان
٣١٦ - ٢٧٥	الفصل الخامس : ابن قيس الرقيات
٢٧٥	(١) اسم ابن قيس ولقبه وعشيرته
٢٧٨	(٢) حياة ابن قيس وأخلاقه وصفاته
٢٩٠	(٣) غزل ابن قيس وشعره
٣١٠	(٤) الديوان
٣٢٨ - ٣١٧	خاتمة
٣١٧	(١) خلاصة
٣٢٥	(٢) تعليق وتعقيب

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في الدراسات القرآنية

- * سورة الرحمن وسور: قصار: عرض ودراسة
الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات
- * البحث الأدبي : طبيعته ، مناهجه ،
أصوله ، مصادره
الطبعة الأولى ٢٧٨ صفحة

في تاريخ الأدب العربي

- * العصر الجاهلي
الطبعة السابعة ٤٣٦ صفحة
- * العصر الإسلامي
الطبعة السابعة ٤٦١ صفحة
- * العصر العباسي الأول
الطبعة الخامسة ٥٧٦ صفحة
- * العصر العباسي الثاني
الطبعة الثانية ٦٥٧ صفحة
- * في الدراسات البلاغية واللغوية
البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة الثانية ٣٨٠ صفحة
- * المدارس النحوية
الطبعة الثانية ٣٧٦ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

- * الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الثامنة ٥٢٤ صفحة
- * الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة السابعة ٤٠٠ صفحة
- * التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة الخامسة ٣٤٠ صفحة
- * دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الخامسة ٢٩٢ صفحة
- * شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة السادسة ٢٨٦ صفحة
- * الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحات
- * البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الثانية ٢٣٢ صفحة
- * الرثاء
الطبعة الثانية ١٠٨ صفحات
- * المقامة
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
- * النقد
الطبعة الثانية ١١٢ صفحة
- * الترجمة الشخصية
الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الثانية ١٢٨ صفحة • كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
الطبعة الأولى ٧٨٨ صفحة

في التراث المحقق

• المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الثانية ٤٦٨ صفحة
الجزء الثاني - الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة
في سلسلة اقرأ • العقاد
• البطولة في الشعر العربي

رقم الإيداع	١٩٧٦/٢٧٤٨
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٦-٢٠٣-٦

١ / ٧٥ / ٢٥٢

مطابع دارالمعارف بمصر
١٩٧٦

